أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي

أبو عمرو بن العلاء

تأليف

الدكتور عبد الصبور شاهين

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي

أبو عمرو بن العلاء

تأليف

الدكتور عبد الصبور شاهين

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى بمكتبة الخانجى

رقم الإيداع ٧٩٨٢/١٩٨٧ م

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ت : ٨٢٧٨٥١

الإهداء

إلى والديّ في برزخهما

بعدما غرسا فيّ حياتهما

غمرهما الله بالرحمة والرضوان

"كما ربّياني صغيرًا"

عبد الصبور

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ولاء لذاته ، وإقرارا بنعمته ، والصلاة والسلام على نبيه محمد المبعوث بلسان العرب ، ودعوة الحق ، وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد ، فهذه دراسة عن (أثر القراءات فى الأصوات والنحو العربى) من خلال قراءة من القراءات السبع ، هى قراءة أبى عمرو بن العلاء ، والدراسة تقوم على أصلين :

أما أولهما فهو : « أبو عمرو بن العلاء » ، وأبو عمرو ذو شخصية متنوعة الجوانب ، غنية بالمقومات ، فهو - إلى جانب كونه قارئا - لغوى ، ونحوى ، وكل من هذه الجوانب يحتاج إلى دراسة مستقلة ، وليت ذلك يكفى ، بل يحتاج إلى دراسات عديدة تكشف عن جوانب هذه الشخصية الفذة ، التى تعد معلما من معالم تاريخنا الثقافى والعقلى .

وعلى الرغم من شهرة أبى عمرو وعمق أثره فى دنيا اللغة والنحو والقراءة ، فإن أحدا لم يهتم بدراسة تاريخه ، أو بتحليل سيرته ، وأكثر ما كتب عنه بضع صفحات فى كتب الطبقات ، تحتوى طرفا من نوادره فحسب ، دون أن تعرض لمذهبه فى النحو أو فى اللغة بدرس أو بيان ، مع أن معاجم اللغة على كثرتها وتباينها لا يخلو كثير من موادها من ذكر رواية عن أبى عمرو ، أو وجه انفرد به دون غيره ، حتى لكأن اللغة كانت تتدفق من لدنه تدفقا ، ومع أنه أبو المدرسة البصرية فى النحو واللغة ، تتلمذ على آرائه أقطابها جميعا مباشرة أو بواسطة تلاميذه ، ومع أن رجالا آخرين أقل منه شأنا ، وأضعف أثرا فى محيط اللغة أو النحو أو القراءة قد ظفروا بدراسات علمية ، عَرَّفَتْ بهم وبآثارهم فى الميدان الذى انفردوا فيه ، فكيف بأبى عمرو وهو إمام جامع فى الفنون الثلاثة !!! ..

على أنه قد ورد فى الأخبار أن هناك من اهتم به من القدماء ، وهو أبو بكر

الصولى الشطرنجى (المتوفى سنة ٣٣٥ هـ) ، فقد وضع كتابا أسماه « أخبار أبى عمرو ابن العلاء [١] » ، ولكن الكتاب ضاع ، فلم يعثر له على أثر فى مكتبات المخطوطات فى العالم ، إذ لم يذكره المستشرق « بروكلمان » فى تاريخه ، ضمن مؤلفات أبى بكر الصولى . ومن المحتمل أن كتابا كهذا كان يحتوى أخبار أبى عمرو ونوادره المتناثرة فى كتب الطبقات ، ومن المحتمل أيضا أنه كان يحتوى تصنيفا شاملا لكل ماروواه أبو عمرو أو نسب إليه من أخبار لغوية ، ونصوص قديمة ، جلها ، فيما نظن ، متناثر فى بطون المعاجم . وسوى ذلك لم يكتب أحد عن أبى عمرو ، ولم يعن به الدارسون ، لا فى القديم ولا فى الحديث . مع أن تاريخه يعنى تاريخ العقلية العربية إبان تفتحها فى بكور العصر الإسلامى الأول ، وهو يلقى ضوءا سابغا على أحداث تلك المرحلة من تاريخنا اللغوى والثقافى ، حين انطلقت العبقرية العربية من أكنانها ، تضع أسس العلم العربى فى مجالى الدين والدنيا معا ، هنالك كان أبو عمرو فى الرادة الأولين من رجال هذه الأمة الخالدة ، يتحفظ مع الرواة نصوص مايجرى على ألسنة الأعراب ، ويتفهم مع القرأة ماروى عن النبى ﷺ من حروف القرآن ووجوهه ، ويناقش مع النحاة طباع العربية وقوانينها ، وما يجوز فيها ومالا يجوز ، كل ذلك قائم فى منحاه على سنة الفصاحة حيث كانت ، يلتمسها فى نهج قريش ، أو فى لسان تميم ، أى ذلك كان شائعا كثيرا فى لسان العرب ، وما خالف ذلك فهو عنده لغات . ولسوف يجد المتتبع لهذه الدراسة أن أبا عمرو لم يخرج عن هذا السمت فى الجانب الذى قمنا بدراسته ، سواء فى ذلك مايتصل منه بالقراءة ، أو باللغة ، أو بالنحو .

من أجل هذا كان لابد أن نحاول التعريف بشخصية أبى عمرو فى حدود ماوصل إلينا من روايات ، وبحيث نختار من بين المتناقض منها مايغلب على الظن أنه أقرب إلى الصواب ، تاركين جانبا مالا نثق به منها . وبحسبنا أن نجد من بين هذه الروايات مايدفع عن أبى عمرو توهم الخطأ ، ويرفعه إلى مرتبة المعصومين منه ، حدث

---

(١) كشف الظنون ١/ ٦٠ .

عبد الواحد اللغوى « قال » : ولم يوجد على أبى عمرو خطأ فى شىء من اللغة إلا فى حرف قصر عن معرفته علم من خطأه فيه وروايته ، وهو : أخبرنا جعفر بن محمد قال : أخبرونا عن أبى حاتم وغيره عن الأصمعى عن يونس قال : قيل لأبى عمرو بن العلاء ما الثُّفْر .. ؟ فقال : الاست ، فقيل له : إنه القُبُل ، فقال : ما أقرب مابينهما . فذهب قوم من أهل اللغة إلى أن هذا غلط من أبى عمرو ، وليس كما ظنوا ، ثم أورد عبد الواحد شواهد استدل بها على صحة قول أبى عمرو[١] .

فهذا خبر ينفى عن أبى عمرو احتمال أن يكون أخطأ مرة فى شىء من اللغة ، مهما قيل بحمله على المبالغة فى الإطراء . فإذا وضعناه بإزاء مارواه الزُّبَيْدى حيث قال « حدث أبو عبيدة عن أبى عمرو قال : كنا عند بلال بن أبى بردة فخرج الفرزدق يتخلع ، فسمعنى أنشد بيت التغلبى :

نعاطى الملوكَ القسطَ ماقصدوا لنا   وليس علينا قتْلهم بمحرمِ

فقال الفرزدق : أأُرْشِدُكَ أم أَدَعُكَ .. ؟ فقلت : أرشدنى ، قال : ماقصدوا بنا »

= تملكتنا الحيرة بين أن نسلم بعصمة إنسان عن الخطأ فيما (يجوز) الخطأ فى مثله ، وبين أن نعترف له بحقه فى أن يخطىء ويصيب ، مادام ذلك لا يمس مقدسا من قراءات القرآن ، أو أحاديث الرسول . وكل مايطلب ممن لايدرى أن يقول : لا أدرى ، ثم يطلب المعرفة التى تعينه على تصحيح أخطائه ، وكذلك كان أبو عمرو [٢] .

وأما ثانيهما فهو : « قراءة أبى عمرو بن العلاء » ، وهى ثالثة القراءات السبعة فى تصنيف ابن مجاهد ، وهى القراءات التى أجمع الأئمة من هذه الأمة على تلقيها بالقبول ، من حيث كانت متواترة عن النبى ﷺ . ولسوف يزداد هذا الجانب وضوحا خلال عرضنا لتاريخ أبى عمرو . وقراءة أبى عمرو هى إحدى القراءات التى قدر لها أن تشيع فى العالم الإسلامى ، فقد ذكر ابن الجزرى فى معرض تفصيل روايات

---

(١) مراتب النحويين ١٩ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين / ٣٣ .

الرواة للقراءات المختلفة « أن قراءة أبى عمرو بن العلاء هى التى يقرأ بها أهل الشام ومصر » ولعل ذلك كان خلال القرون التى سبقت عهد ابن الجزرى (أوائل القرن التاسع الهجرى) إلى أن جاء من القراء من يحمل قراءة عاصم بن أبى النجود القارىء الكوفى من رواية حفص القارىء المشهور فنشرها بمصر ، وأقبل الناس عليها ، وهنا انحسرت قراءة أبى عمرو عن ديار مصر إلى السودان ، حيث مازال الناس هنالك يقرءونها ، من رواية أبى عمر الدورى . وقد وجدنا فى زيارتنا للسودان أن هناك صراعا بين ثلاث قراءات هى : قراءة ورش عن نافع ، التى يقرأ بها أهل غرب السودان ودنقلة من شمال السودان فقط ، حيث يتداول الناس هنالك مصحفا مطبوعا بهذه القراءة ، وبين قراءة أبى عمرو من رواية الدورى ، وهى منتشرة فى سائر بلاد السودان وقراه [١] ، يتلقاها الصبية فى (الخلاوى) ، نظير (الكتاتيب) بمصر ، ولا يجد القائمون على هذه القراءة مصحفا مطبوعا ، وإنما الموجود مصاحف مخطوطة اطلعنا على بعضها بوساطة المعهد الدينى بأم درمان ، وبين قراءة حفص التى تنتشر بوساطة المصاحف الكثيرة المتداولة ، وبوساطة الإذاعة ، والحفاظ الذين تلقوا عن قراء مصر . والمهم أن القائمين بقراءة أبى عمرو هناك كانوا يَشْكُونَ من عدم وجود مصحف مطبوع بالقراءة التى يلتزمونها ، حتى لقد دب التحريف إلى حروف القراءة ، بسبب الاعتماد على التلقين وحده [٢] . ولاشك أن هذا الصراع كان يمكن أن ينتهى بانتصار قراءة حفص لولا ماترامى إلينا أخيرا من أن بعض الهيئات ذات النفوذ الدينى بالسودان قامت بطبع مصحف على قراءة أبى عمرو ، الأمر الذى يؤذن باستمرار التزام الكثيرين من السودانيين لها ، وبتقويم ألسنتهم فى أدائها .

ويعنى ذلك أن قراءة أبى عمرو تنتشر على مستوى شعبى ، بعكس أغلب القراءات الصحيحة التى أصبحت الآن مجرد روايات أشبه بالوثائق التاريخية ، يؤديها العارفون بالقراءات أحيانا .

---

(١) مجلة معهد أم درمان ـــ تصدرها مشيخة السودان العلمية ـــ العدد الرابع ديسمبر ١٩٦٠ م.

(٢) كتبت فى ذلك مقالاً نشر فى مجلة (السودان) الرسمية ـــ العدد الرابع عشر ـــ مارس سنة ١٩٦١ م .

فإذا علمنا أن قراءات القرآن هى الوثيقة التاريخية التى نطمئن إليها فى فقه اللغة الفصحى من جميع نواحيها ، الوثيقة التى تنتقل إلينا بالصورة والصوت معا ، يتوارثها القراء جيلا عن جيل ، أدركنا أهمية دراستها بطريقة علمية ، إذ إن هذه القراءات على اختلاف رواياتها سجل دقيق لما كان يجرى فى كلام العرب من تصرفات صوتية ولغوية ، ولا فرق فى ذلك بين قراءة من السبعة أو من غيرها مما سمى (بالشواذ) ، فهذه الشواذ لم توصف بالشذوذ لضعف روايتها ، ولا لأنها تحتوى ظواهر لهجية غير شائعة فى اللسان الفصيح ، فمثل هذه القراءات مهجور ، لايحرص عليه أحد ، وإنما سمى الشاذ شاذا لأنه خارج عن سبعة ابن مجاهد ، « إلا أنه مع خروجه عنها نازع بالثقة إلى قرائه ، محفوف بالرواية من أمامه وورائه ، ولعله أو كثيرا منه مساوٍ فى الفصاحة للمجتمع عليه[١] » ، وسيأتى دفاع ابن جنى كاملا عن هذا المسمى شاذا . أما نحن هنا فنلفت النظر إلى أمر جوهرى هو : أن قراءات القرآن على اختلافها لم يرد فيها مايتصل بالظواهر اللهجية الهابطة ، كالعنعنة والكشكشة والفحفحة والعجعجة والاستنطاء ، فقد آل أغلب ذلك إلى الانقراض ، بل اشتملت على الظواهر الراقية التى تتناسب وفصاحة اللسان العربى ، وقداسة القرآن العربى ، وذلك كالإمالة والإدغام والهمز والإسكان وغيرها من الظواهر التى سنعرض لها بالدراسة فيما يلى من البحث[٢] ، فهذه ظواهر فصحى امتصتها لهجة قريش أو بعضها من تقاليد اللهجات المجاورة ، التى كانت تنازعها السيطرة على لسان العرب ، وبخاصة لهجة تميم ، ونرى نحن أن من خلفها تكمن الصورة الحقيقية التى كان عليها النطق الفصيح للغتنا العربية .

وقد اقتصر بحثنا على قراءة أبى عمرو ، ومعنى ذلك أننا لم نهتم بشىء لايتصل بروايات القراءة وظواهرها اللغوية ، أى أننا لم نتعرض لأبى عمرو اللغوى ، ولا لأبى

---

(١) مقدمة مخطوط المحتسب لابن جنى ص ٣ .

(٢) لم يفرق الدكتور على عبد الواحد وافى بين هذين النوعين من الظواهر ، ونحن على خلافه (فقه اللغة ص ٩٥ الطبعة الثانية).

عمرو النحوى ، فإذا ورد فى قراءته مايشير إلى قضية صوتيه أو لغوية أو نحوية عالجناه من سائر وجوهه ، فى ذاته ، وفى علاقاته ، وتخذنا له أسنادا من كل مايصادفنا من القراءات المماثلة له ، حتى نزيد فى تجسيد الظاهرة التى ندرسها ، فتزيد وجهة نظرنا وضوحا .

وقد كان مفتاح البحث أن ندرس (الأصوات) فى قراءة أبى عمرو ، فاقتضى منطق البحث أن ندرس أصوات الفصحى فى ذاتها ، وتراث القدماء فى ذلك ابتداء من سيبويه ، ثم نعقب ذلك بدراسة المحدثين للأصوات ، وكل هذا داخل فى منهج الدراسات الأصواتية (الفونتيك) ، حتى إذا جئنا إلى ظاهرة الإدغام فى القراءة كانت دراستنا لأصواتها فى إطار تنظيمى (فونولوجى) كشف لنا عن صورة توزيع الفونيمات العربية وأشكالها . وقد كانت وسيلتنا إلى هذه الدراسة الاستماع إلى أداء شيوخ القراءة ، وفى سبيل ذلك قمنا بتسجيل الأمثلة التى تعد فى نظرنا وسيلة لتحليل أصوات القراءة والتى تحتويها ظاهرة الإدغام ، وكان ذلك على شريطين ، أحدهما سجل بالقاهرة ، وسجل الآخر بمدينة أم درمان ، وكلاهما لقارىء مجيد متقن مشهود له بالضبط من شيوخه المشهورين . والمهم أن طريقة الأداء كانت واحدة لدى الرجلين ، بحيث لم نسجل فى هذا الصدد فرقا يذكر .

وقد اتصل بمبحث تغير الأصوات فى « الإدغام » مبحث آخر هو تغيرها فى « الإبدال » اللغوى ، من حيث كانت العلاقة فى نظرنا وثيقة بين كلتا الظاهرتين ، إذ هما يحدثان فى ظروف متشابهة ؛ أى بشروط واحدة على ماسيأتى ، فكان من تتمة المبحث الصوتى عدم إغفال هذا الجانب الهام ، حتى تكتمل حلقته كما رأيناها .

★ ★ ★

وقد أثارت قراءة أبى عمرو مشكلة خطيرة ، كانت وما زالت مثار جدل كبير بين المشتغلين بالدراسات اللغوية ، تلكم هى : « مشكلة الإعراب » ، وبعبارة أدق : « مشكلة التحريك والإسكان » . وهى مشكلة قديمة تعرض لها علماء كثيرون ، قدامى ومحدثون ، وكان أول من تعرض لها فيما نعلم « الخليل بن

أحمد »حيث ذكر سيبويه : « وزعم الخليل أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد ، وهن يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به [١] » ، أى أن الحركات فى نظر الخليل وسيلة إلى تحقيق الأصوات فى أواخر الكلمات ، ولعل فى ذكر سيبويه لرأى الخليل هذا مايشعر بأنه كان من رأيه ، وسيأتى تفصيل موقفه من الحركات والسكون فى الفصلين الثانى والثالث من الباب الرابع . ويترتب على ماقاله الخليل أن الحركات ليست لها قيمة دلالية ، وإنما هى مساعدات صوتية لتحقيق أواخر الكلمات ، وهذا بعكس ماذهب إليه المبرد والزجاجى من أن حركات الإعراب تبين عن معانى الفاعلية والمفعولية والإضافة ، ليتسع للمتكلمين باللغة مايريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة . وقد تصدى لهذا الرأى أبو على الفارسى وتبعه تلميذه ابن جنى ،فانتصرا لمذهب الخليل وسيبويه ، وأجازا حذف حركة الإعراب على ماهو مفصل فى موضعه .

ومن بين من تصدى لعلاج هذه المشكلة من المحدثين الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه « فقه اللغة » ، وقد قرر أن : « أقوى الأدلة على ثبوت مذهب الإعراب تواتر القرآن الكريم ووصوله إلينا معرب الكلمات .... وأن فى رسم المصحف العثمانى نفسه مع تجرده من الإعجام والشكل لدليلا على فساد هذا المذهب يقصد (عدم الإعراب) ، وذلك أن المصحف العثمانى يرمز إلى كثير من علامات الإعراب بالحروف (المؤمنون – المؤمنين) وعلامة إعراب المنصوب المنون (رسولا – شهيدا – حسيبا – بصيرا) وهلم جرا[٢] .

وذهب أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس إلى أن حركات الإعراب لم تكن ملتزمة فى لسان العرب إلا حين كانت ضرورة وصل الكلام تقضى بوجودها[٣] .

على أن بحثنا هذا قد عالج المشكلة على أساس جديد ، يستمد مادته من آراء سيبويه والفارسى وابن جنى . فنحن نرى أن علامات الإعراب طائفتان : حروف

---

(١) الكتاب حـ ٢ ص ٣١٥ .

(٢) فقه اللغة ص ١٦٠ .

(٣) سوف يأتى تفصيل ذلك فى الفصل الخاص بإسكان لام الكلمة .

وحركات ، وأن العلامات الحروف قد اكتسبت وجودا ثابتا فى لسان العرب ، حتى كادت تكون أجزاء من بنية كلماتها ، من حيث دلالتها على العدد وغيره ، أما العلامات الحركات فلم تبلغ هذا القدر من الثبوت فى مواقعها ، بل اعتراها عارض الحذف أو الإثبات تبعا للموقع ، وبحسب اختلاف اللهجات . وخير مثال على ذلك حالة الوقف ، فقد وجدنا قريشا تحذف الحركة حين تكون ضمة أو كسرة ، وتقف على المنصوب المنون بالألف ، فى حين تقف قبائل أخرى على المنصوب بالسكون أيضا .

وقد وجدنا حين درسنا هذه الظاهرة ـــ أعنى ظاهرة الإسكان – فى قراءة أبى عمرو بخاصة ، وفى القراءات الأخرى ونصوص اللغة بعامة ، أن حذف الحركات الإعرابية إنما يحدث فى اللسان العربى على أساس مقطعى ، أى أن التقسيم المقطعى هو الذى يتحكم فى ظاهرة الإعراب ، سواء اقترن ذلك بضرورة صوتية كحالة الإدغام ، أم لم يقترن كما فى أمثلة القراءات المروية بالإسكان ، وهى كثيرة ، ومن أمثلتها فى قراءة أبى عمرو : « إنَّ اللهَ يَأْمُرْكُمْ » ، « فَتُوبُوا إلى بَارِئْكُمْ » . وقد كان هذا الحذف شائعا على ألسنة الفصحاء من العرب ، حتى لقد قُرِىء القرآن به فى جملة قراءات مروية ، فى مقدمتها قراءة أبى عمرو ، وهى من القراءات المتواترة التى تنميها الرواية إلى رسول الله ﷺ ، وفى هذا أقطع الدليل على أن الإسكان قسيم للتحريك ، لا فى لهجات الخطاب فحسب ، ولكن فى اللغة الأدبية الملتزمة أيضا . أى أن من الجائز أن يحذف المتكلم الحركة عند الضرورة المقطعية ، كما أن من الجائز أن يثبتها ، وكلا الأمرين كان جاريا فى لسان الفصحاء .

أما متى ينبغى إثبات الحركة الصحيحة قولا واحدا ، ففى حالة الوصل التى تقتضى تحريك آخر الكلمة السابقة توصلا إلى النطق بساكن فى أول الكلمة التالية ، كما فى : (خرجَ الطالب) وإن كان بحثنا قد سجل أمثلة أسقطت فيها الحركة فى هذه الحالة أيضا ، وفى لسان قريش(١) .

---

(١) الفصل الرابع من الرسالة/ الباب الرابع (قضية الساكنين بين القراء والنحاة) .

وبدهى أننا فى هذا الرأى لانتعرض لنوع الحركة التى ينبغى أن تلحق آخر الكلمة ، فذلك أمر تتكفل بتحديده قواعد النحو .

ليس فى هذا الذى نقول تعارض مع ماجاء فى الرسم العثمانى من الإشارة إلى المنصوب فى الوقف بالألف فى مثل : (حسيبا — بصيرا) ؛ ذلك أن هذا كان تقليد قريش فى الوقف ، ونحن نتكلم عن الحركة فى حالة الوصل لا الوقف ، ثم إن عدم إشارة المصحف العثمانى للحركة حين تكون ضمة أو كسرة دليل أيضا على أنها لم تكن ملتزمة التزاما دقيقا إلا فى وصل الكلام .

ونحن نكرر مرة أخرى أن حذف الحركة الإعرابية على الوجه الذى فصله البحث كان سنة من سنن اللغة الفصحى ، لا كما ذهب إليه بعض المحدثين من أن هذا كان من صفات اللهجات دون الفصحى ، حرصا على تأكيد ماقيل من أن العربية الأدبية قد التزمت الاعراب التزاما دقيقا ، وبخاصة بعد نزول القرآن [1] . فان رأينا لايجرد اللغة من خاصتها الاعرابية ، ولكنه يؤكد جواز حذف بعض علامات الإعراب خضوعا للضرورة المقطعية ، التى لامراء فى أنها ذات علاقة بنظام الحركات فى اللغة .

وربما كان ماتوصل إليه البحث فى هذا الصدد خير دليل على أنه لايفصل بين ألسنتنا وألسنة الفصحاء حجاز كبير ، فإذا التزم المتكلمون بالعربية الآن حذف الحركة الإعرابية فى جميع مواقعها تقريبا فليس هذا خروجا على سنن الفصحى إلا فى أنه ملتزم ، على أن ثبوت انتمائه إلى هذه الفصحى مما يقرب الشقة بين عاميتنا وبينها .

أما الذى يفصل بين اللسانين فعلا فهو ماحدث من تطور فى الأصوات والمفردات والتراكيب ، ومهمة التقريب بينهما فى هذا الباب تقتضى صرف الجهد إلى تثقيف ألسنة أبنائنا فى المدارس والمعاهد ، ووسائل الإعلام الأخرى ، بتعليمهم نطق

---

(١) « فى تاريخ المشكلة اللغوية » للدكتور إبراهيم السامرائى — بحث مستخرج من المجلد السابع من مجلة المجمع العلمى العراقى ص ١١ .

الصوت الصحيح ، واللفظ الفصيح ، والتركيب العربي السهل ، ولسوف تحل حينئذ مشكلة الإعراب بصورةٍ ما ، تبعا لارتقاء المستوى اللغوى لدى جمهور المثقفين . ولاشك أن بلوغ الجماهير هذا المستوى اللغوى من أقوى العوامل على تحقيق وحدة الشعب العربى ، حيث تزول الحواجز اللهجية التى مازالت تعمل عملها فى تفريق مشارب الأمة وأهوائها .

يقول المستشرق « مورينو » : « لقد تعلمت العربية فى ايطاليا ، ثم أقمت زمنا فى ليبيا ، وفى مصر والسودان ، وفى العراق ، فواجهتنى مشقة اختلاف اللهجات وصعوبة التفاهم بها ، إذا قلت لعربى فى بنغازى : أعطنى شرابا ، ثم قلتها لعربى فى طرابلس ، أعطانى أحدهما مشروبا ، وأعطانى الآخر جوربا !! وكانت الفصحى هى ملاذى فى تلك المواقف الصعبة . فالمشكلة فى رأيى لاتعالج بالقضاء على الفصحى المشتركة التى هى وسيلة التفاهم بين أقطار العربية ، وانما تعالج بمحاولة التمكين لهذه اللغة المشتركة ، بالتخفيف من فروق اللهجات . وليس العلاج مستعصيا لو أخذتم التلاميذ منذ الصغر فى كل المدارس العربية بأن يتكلموا بفصحى مبسطة(١) » . ونضيف إلى هذا أن تلك اللغة المشتركة ينبغى أن يكتب بها حوار المسرحيات والروايات ، مادام أجيز لها التخفف من التزام الحركة ، إلا لضرورة الوصل ، وطبقا لنظام خاص .

* * *

أما المنهج الذى رسمته لهذه الدراسة فيحتوى إجمالا هذه المقدمة وأربعة أبواب وخاتمة :

١ – الباب الأول – وقد درست فيه شخصية أبى عمرو فى ذاتها ، وفى علاقاتها .

٢ – والباب الثانى – وقد خصصته لعرض أحكام أبى عمرو فى اختياره لقراءته .

---

(١) من مقال للدكتورة بنت الشاطىء ـــ جريدة الأهرام فى ١٩٦١/١١/٢٤ م .

٣ – والباب الثالث – وقد درست فيه أصوات القراءة ، وما يتصل بها من ظواهر لغوية .

٤ – والباب الرابع – وقد تعرضت فيه للمشكلات التى أثارتها القراءة من الوجهتين اللهجية والنحوية .

ثم لخصت فى الخاتمة أهم ماتوصلت إليه من نتائج صوتية ونحوية .

وإنى لأقرر فى ختام هذه المقدمة أن نتائج بحثى هذا ليست سوى خطوة فى الطريق الصحيحة ، وأن بيننا وبين النتائج الحاسمة أشواطا بعيدة ، نرجو أن ننجز بعضا منها فى المستقبل . وأسجل هنا عرفانى لأستاذى (المغفور له) الدكتور إبراهيم أنيس على ما أمدنى به من مراجع وتوجيهات كان لها أبعد الأثر فى إنجاز مهمتى ، فكثيرا ما دلنى على وجهة الحق ، كما جنبنى مزالق كثيرة ، رحمه الله وجزاه عن العلم والمتعلمين جزاء العلماء .

ولئن كان هذا البحث قد أنجز فى حياته ، فقد كتب الله ألا ينشر إلا بعد وفاته ، راجيا أن يكون ذلك رضا له فى برزخه .

والحمد لله وحده ، ولا حول ولا قوة إلا به ، ولا فضل إلا من عنده ،،

★ ★ ★

الباب الأول

أبو عمرو بن العلاء

الفصل الأول

(حياة أبى عمرو بن العلاء)

اسمه

لم يكن اختلاف حول اسم عالم من علمائنا كما كان حول اسم « أبى عمرو ابن العلاء » ، حتى لقد أطلق عليه بعض المراجع[1] واحدا وعشرين اسما ، هى على الترتيب :

(١) اسمه أبو عمرو	(٢) زَبَّان	(٣) جَبْر
(٤) جُنَيْد	(٥) جَزْء	(٦) حَمَّاد
(٧) حُمَيْد	(٨) خَيْر	(٩) رَبَّان (براء مهملة)
(١٠) عُتَيْبَةُ	(١١) عُثْمَان	(١٢) عُرْيَان
(١٣) عُقْبَة	(١٤) عَمَّار	(١٥) عَيَّار
(١٦) عُيَيْنَةَ	(١٧) فَائِد	(١٨) قُبَيْصَة
(١٩) مَحْبُوب	(٢٠) مُحَمَّد	(٢١) يَحْيَى .

وقد رجح السيوطى فى كتابه الذى أورد فيه هذه الأقوال تسمية (زَبَّان) ، فقال : « هو الأصح » ، وهو الاسم الذى نجده مختارا فى أغلب المراجع التى تكلمت عن أبى عمرو ، فقد قال ابن النديم[2] حين تحدث عنه : « أبو عمرو بن العلاء

---

(١) بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ــ للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١٦ هـ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٦ هـ ص ٣٦٧ .

(٢) الفهرست ص ٤٨ .

واسمه ربان بن العلاء بن عمار بن عبد الله بن الحسن بن الحارث بن جلهم بن خزاعى ابن مازن بن مالك بن عمرو المازنى ، من الأعلام فى القرآن ، وعنه أخذ يونس وغيره من مشايخ البصريين فى الطبقة الرابعة منهم » .

وذهب صاحب (مراتب النحويين)(١) نفس المذهب حين قال : « أبو عمرو ابن العلاء بن عمار بن العريان ، وله أخ يقال له « أبو سفيان » زعم النسابون أن اسميهما كنيتاهما» ، ثم قال : «واختلفوا فى اسم أبى عمرو فقالوا : زَبَّان .. وقالوا : رَبَّان » ، وقد أخذ بهذه التسمية أيضا المستشرق رجيس بلاشير **Regis Blachère** فى مقدمته(٢) التى كتبها لترجمته للقرآن حين قال : (أبو عمرو « زبان » بن العلاء من أسرة عربية .. الخ) .. ومصدره فى هذا الاختيار ماذهب إليه المستشرق « بروكلمان » نقلا عن (غاية النهاية فى طبقات القراء) لابن الجزرى ، وابن الجزرى الذى يعد صاحب الكلمة الفاصلة فى الموضوع قال مانصه(٣) : « أبو عمرو بن العلاء – زبان ابن العلاء بن عمار بن العريان الخ ... السيد أبو عمرو التميمى المازنى البصرى أحد القراء السبعة ». ثم قال : «وقد اختلف فى اسمه على أكثر من عشرين قولا ، لاريب أن بعضها تصحيف من بعض ». وأكثر الناس من الحفاظ وغيرهم على أنه (زَبَّان) كما ذكرنا ، وقال الذهبى(٤) : والذى لا شك فيه أنه « زَبَّان » بالزاى ..

وقد أغرب ابن الباذش (٥) فى حكايته « ربان » بالراء والموحدة ، وأغرب من

---

(١) تصنيف أبى الطيب عبد الواحد بن على اللغوى الحلبى المتوفى سنة ٣٥١ تحقيق (محمد أبى الفضل إبراهيم) .

(٢) Introduction au Coran ص ١١٩ .

(٣) غاية النهاية ص ٢٨٨ ـــ جزء أول ـــ تحقيق ج برجشتراسر ـــ طبعة مكتبة الخانجى .

(٤) الذهبى : محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبى ـــ حافظ مؤرخ ـــ تركانى الأصل ـــ من أهل ميافارقين ، مولده ووفاته فى دمشق (٦٧٣ ـــ ٧٤٨) ... وله مؤلفات كثيرة فى التاريخ من أهمها : « دول الإسلام » و « المشتبه فى الأسماء والأنساب والكنى والألقاب » و « العباب فى التاريخ » و « تاريخ الإسلام الكبير ـــ ٣٦ مجلدا » و « تذكرة الحفاظ » ... الخ (الأعلام جـ ٦ ص ٢٢٢ ـــ دائرة المعارف التاسع ص ٤٣١ ومابعدها).

(٥) ابن الباذش : أحمد بن على بن أحمد بن خلف الانصارى الغرناطى ، أبو جعفر المعروف بابن الباذش ، عالم بالقراءات . له « الإقناع » فى القراءات .... قال السيوطى : لم يؤلف مثاله (الأعلام جـ ١ ص ١٦٧)

ذلك ماحكاه أبو العلاء[١] عن بعضهم « رَيّان » بالراء وآخر الحروف ، انتهى كلام ابن الجزرى .. ومنه يتضح أن اسم أبى عمرو لدى أكثر الناس من الحفاظ هو « زَبَّان » ، وهو أيضا الموجود فى « معجم الأدباء » [٢] حيث عنون له بتسمية « زَبَّان ابن العلاء » ثم ذكر نسبه ، واستدل لترجيح اختياره بما روى أن الفرزدق جاء معتذرا إلى أبى عمرو من أجل هجو بلغه عنه ، فقال له أبو عمرو :

هَجَوْتَ زَبَّانَ ثُمَّ جِئْتَ مُعْتَذِراً ... من هَجْوِ زَبَّانَ لَمْ تهْجُو وَلَمْ تَدَعِ[٣]

بيد أن هذه الرواية معارضة برواية أخرى ذكرت فى بغية الوعاة[٤] حين قال : وكان نقش خاتمه :

وإنَّ امرأً دنْياه أَكْبَرُ هَمِّهِ ... لمستمسكٌ منها بحبلِ غُرُورِ

قيل : وليس له من الشعر إلا : ــ

وَأنْكرتْنِى وما كان الذى نَكِرَتْ ... من الحوادث إلا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

فكيف يقال : ليس له من الشعر إلا هذا ، على حين ينسب ذاك البيت إليه ، كما ينسب إليه شىء من قبيله ؟ فهذه الروايات المتعارضة تضعنا فى موقف قلق لا نجرؤ فيه إلا على القول بالاحتمال ؛ دون الجزم برأى قاطع .

وقد ذهب الحافظ ابن حجر العسقلانى بعد أن ذكر الخلاف حول اسمه إلى القول بأن اسمه هو « العريان » .. قال « وهو الأكثر عند العلماء . وهو الصحيح عندى ... وَزَبَّانُ أَثْبَتُها بعد العريان [٥] .. فقد انفرد ابن حجر هكذا

---

(١) أبو العلاء : هو الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن محمد بن سهل ــ أبو العلاء الهمذانى العطار شيخ همذان وامام العراقيين ، ومؤلف كتاب «الغاية فى القراءات العشر » وأحد حفاظ العصر .. ثقة دين خير كبير القدر ، وله مصنفات كثيرة فى الوقف والابتداء ، وأفرد قراءات الأئمة .. كل مفردة فى مجلد ، وألف كتاب الانتصار فى معرفة قراء المدن والامصار .. ثم قال عنه ابن الجزرى « وعندى أنه فى المشارقة كأبى عمرو الدانى فى المغاربة » توفى عام ٥٦٩ هـ .

(٢) معجم الأدباء جـ ١١ ص ١٥٦ .

(٣) معجم الأدباء جـ ١١ ص ١٥٨ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) تهذيب التهذيب جـ ١٢ ص ١٧٨ ومابعدها .. لأبى الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ .

بإضافة أخرى ولكنه لم يغفل أن يقرر أن « زَبَّانَ » هو أثبتُ أسمائِه بعد العريان ... ولسنا ندرى شريكا لابن حجر فى رأيه هذا .

هذا عرض موجز لجانب من المشكلة ، أما الجانب الآخر فهو مذهب جمهور من العلماء يرون أن « أبا عمرو » اسمه « أبو عمرو » ، وليس له اسم غير هذه الكنية ، ولعل هذا المذهب واضح فى النص المنقول فى صدر هذا الحديث عن السيوطى فى « بغية الوعاة » حيث جعل أول الأقوال أن يكون « اسمه أبو عمرو » .. وهو أيضا مذهب الزُّبَيْدِى قال : « اسمه كنيته ، وفى بعض الروايات اسمه زبان بن العلاء (١) ويذهب ابن خلكان إلى ترجيح هذا الرأى حين يقول بعد ذكر نسبه : « والصحيح أن اسمه كنيته وقيل : اسمه « زبان » وقيل غير ذلك وليس بصحيح (٢) » ومما يؤيد هذا الرأى ما رواه ابن قتيبة قال : (قال أبو محمد : خبرنى غير واحد عن الأصمعى أن أبا عمرو بن العلاء وأبا سفيان بن العلاء أسماؤهما كناهما ..)(٣) . ورواية أخرى عن الأصمعى وردت فى مخطوطة يظن أنها (التبصرة فى القراءات(٤) السبعة) تأليف مكى ابن أبى طالب القيسى ، قال الراوى : « قال الأصمعى : قلت لأبى عمرو : ما اسمك ؟ قال : أبو عمرو » .. ، وهذه الرواية نفسها واردة فى (مراتب النحويين) عن طريق الرياشى . وهى إن صحت تنقض لنا ماذهب إليه السيوطى فى « بغية الوعاة » حيث قال : « وسبب الاختلاف فى اسمه أنه كان لجلالته لايسأل عنه » ، فها هو ذا الأصمعى يقرر أنه سأله عن اسمه ، وأنه أخبره بأنه « أبو عمرو » . على أن مما يلقى ضوءا على هذا الرأى ملاحظة اسم أخى أبى عمرو وهو « أبو سفيان » وقد ورد فى ترجمته : (أبو سفيان بن العلاء) : « هو أخو أبى عمرو — واسمه كنيته ، وكان يأخذ

---

(١) طبقات النحويين واللغويين لأبى بكر بن محمد بن الحسن الزُّبَيْدى المتوفى عام ٣٧٩ هـ الطبعة الأولى ص ٢٨ .. تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم (نشر سامى الخانجى) .

(٢) وفيات الاعيان حـ ١ ص ٣٨٦ .

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ١٩٩ تحقيق السيد أحمد صقر .

(٤) مخطوطة رقم ١٧٣ قراءات ـــ دار الكتب .

عن النحويين وأصحاب الغريب والرواة ، توفى سنة خمس وستين ومائة[١] » .

وأمر كهذا يدفعنا إلى الظن بأن اسمه كنيته ، فلعل التسمية بالكنية كانت سنة لأبيهما « العلاء » وإن كان لهما أخ ثالث اسمه « معاذ [٢] » . ومما يؤيد هذا الرأى ماذهب إليه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، قال عن أبى عمرو وأخيه أبى سفيان « وكلاهما كناهما أسماؤهما ، وكذلك أبو عمرو بن العلاء بن لبيد ، وأبو سفيان بن العلاء بن لبيد التغلبى خليفة عيسى بن شبيب المازنى على شرط البصرة[٣] » .

وواضح أن الجاحظ فى قوله هذا منتصر لرواية الأصمعى السابقة ، إذ أنه يروى عنه أخبار أبى عمرو وغيرها مباشرة .

ولكن إجالة النظر فى الوفيات قد أعثرتنى على نظير لهذه الحالة ، بصدد الحديث عن أحد الفقهاء قال : « أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشى المخزومى أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وكنيته اسمه » .

ولعل مطالعة كتب الطبقات تكشف لنا عن شيوع هذا التقليد فى إحلال الكنية محل الاسم . وهناك من يتوسط فى الأمر فيرى أن كنيته غلبت على اسمه فاشتهر بها ، وكذلك الشأن فى اسم أخيه ، وإن كنت لم أجد حوله خلافا . ومن القائلين بهذا التعليل ابن قتيبة قال : « وربما كان للرجل الاسم والكنية فغلبت الكنية على الاسم فلا يعرف إلا بها ، كأبى سفيان (صخر بن حرب) ، وأبى طالب (عبد مناف) ، وأبى ذر (جندب بن السكن أو برير بن جنادة) ، وأبى هريرة (عبد الله أو عبد الرحمن أو عبد عمرو) ، ولذلك كانوا يكتبون : على بن أبو طالب ، ومعاوية بن أبو سفيان ، لأن الكنية بكمالها صارت اسما[٤] » .

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ص ٣٥

(٢) المرجع السابق .

(٣) البيان والتبيين جـ / ١ ص ٣٢١ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون (نشر مكتبة الخانجى) .

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٩٩

فليس إذن غريبا أن يقال : إن أبا عمرو اسمه كنيته ، وان كان ذلك لا يمنع أن يكون له اسم مهمل . وقد وجدنا ذلك تقليدا جرى عليه المجتمع العربى منذ العصر الجاهلى ، كان الناس يفضلون أن ينادوا بالكنية ، وكان ظل الكنية يطمس وجود الاسم تماما ، فأبوبكر الصديق كان اسمه « عبد الله » ، ومع ذلك فقل من الناس من كان يناديه باسمه ، وكذلك سائر من أطلقت عليهم الكنى .

بيد أن سنة التحقيق تقتضى أن يذكر كل مايتصل بتحديد شخص المترجم ، ومن ذلك اسمه وكنيته ، واسم أبى عمرو الحقيقى « زَبَّان » كما درجت عليه معظم الروايات ، لا « العريان » على رأى ابن حجر ، واسمه الشائع هو كنيته ، التى اختار هو أن يجيب بها الأصمعى فى الرواية السابقة ، والفرزدق كما سيجىء .

ولعل هذا هو الذى انتهى إليه رأى أحد المؤرخين العرب المحدثين ، وهو (خير الدين الزركلى [١]) ، حيث قال : (زبان بن عمار التميمى المازنى البصرى ، أبو عمرو ، يلقب أبوه بالعلاء) [٢] . وهو ماذهبت إليه دائرة المعارف الإسلامية [٣] .

* * *

---

(١) الأعلام ــ الجزء الثالث ــ الطبعة الثانية ص ٧٢ .

(٢) أغلب المراجع على أن أباه (العلاء) ، (وعمار) هو جده ، خلاف ماقى هذا النص .

(٣) المجلد الأول ص ٣٨٤ .

نسب أبي عمرو بن العلاء

(سلسلة أجداد أبي عمرو)

	الوفيات	الفهرست	تيسير الداني	معجم الأدباء	غاية النهاية
١	أبو عمرو	أبو عمرو	أبو عمرو	أبو عمرو	أبو عمرو (زبان)
٢	العلاء	العلاء	العلاء	العلاء	العلاء
٣	عمار	عمار	عمار	عمار	عمار
٤	عبد الله	عبدا لله	عبد الله	العريان	العريان
٥	الحصين	الحسن	الحصين	عبد الله	عبد الله
٦	الحارث	الحارث	الحارث	الحصين	الحسين
٧	جلهم	جلهم	جُلْهُم	الحارث	الحارث
٨	خزاعى	خزاعى	خزاعى	جَلْهَمَة	جَلْهَمَة
٩	مازن	مازن	مازن	حُجْر	حجر
١٠	مالك	مالك	مالك	خزاعى	خزاعى
١١	عمرو	عمرو	عمرو	مازن	مازن
١٢	تميم		تميم	مالك	مالك
١٣				عمرو	عمرو
١٤				تميم	تميم
١٥				مر	مر
١٦				أُدّ	أد
١٧				طَابِخَة	طابخة
١٨				إلياس	إلياس
١٩				مضر	مضر
٢٠				مَعَدّ	معد
٢١				عدنان	عدنان

إذا استعرضنا الروايات التى وردت فى نسبه لم نجد بينها اختلافا ذا بال ، فالمراجع[١] كلها لاتختلف فى اسم أبيه أو جده الأول – ويجعل ابن الجزرى وياقوت جده الثانى (العريان) ، على حين ذهب غيره إلى أنه (عبد الله) ، وهو جده الثالث لدى ابن الجزرى ، أما الجد التالى فقد اختلف فيه على ثلاثة أقوال : الحصين[٢] . أو الحسن [٣] أو الحسين ، والظاهر فى رأيى هو الأول الذى أخذ به ابن خلكان ، ويمكن أن يكون الحسين تصحيفا إسلاميا لاسم جاهلى . و(الحصين بن الحارث بن جُلْهُم أو جَلْهَمَة) وهنا يتفق ابن خلكان مع ابن الجزرى ومع الدانى وياقوت فى إثبات أن جُلْهُم ابن حُجْر ، فى حين لايرد له ذكر فى الفهرست ، ونرجح أنه سقط من الرواية .

وتقف سلسلة نسبه لديه حتى الجد التاسع (عمرو) طبقا لروايته ، فى حين يذكر ابن خلكان جده العاشر (تميم) موافقا فى ذلك الدانى ، ويمضى الإمام ابن الجزرى وياقوت فيصلان بالنسب إلى أن يلتقى مع النبى ﷺ فى إلياس بن مضر بن معد بن عدنان ، وعدنان على هذا هو الجد التاسع عشر لأبى عمرو ، وإن كانت الملاحظة البسيطة تدفعنا إلى الشك فى أن السلسلة على هذه الصورة كاملة ، وأن هناك – إن صح هذا النسب – أسماء أخرى لأجداد أبى عمرو فقدت فى الروايات .

ذلك أن (عدنان) هو الجد العشرون[٤] للنبى ﷺ ، وغير معقول بداهة أن يكون الجد العشرون للنبى هو التاسع عشر لأبى عمرو وهو من علماء الطبقة الرابعة أو الثالثة على أعلى تقدير [٥] . لذلك فنحن نأخذ برواية ابن الجزرى وياقوت على

---

(١) جعلت هنا المرجع الوفيات لابن خلكان ، والفهرست لابن النديم ، وتيسير الدانى ، وغاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموى على ماسبق .

(٢) ابن خلكان والدانى .

(٣) ابن النديم .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٥٥ .

(٥) قد تمتد الأعمار فى سلسلة مالاتمتد فى السلسلة الأخرى ، فأولاد موسى بن محمد بن على بن عبد الله ابن العباس ، منهم جعفر بن الفضل بن العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس اجتمع فى عصر واحد هو وعبد الصمد بن على بن العباس ، أخى جد جد جده .

أنهاأكمل الروايات الناقصة فى نسب أبى عمرو ، لاعلى أنها الرواية الكاملة ، وهو على هذه الرواية (أبو عمرو زبان بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحسين بن الحارث بن جلهمة بن حجر بن خزاعى بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم بن مربن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر بن معد بن عدنان » .

بقيت ملاحظة تتصل بما ذهب إليه العلامة الزركلى من أن أباه كان يلقب « بالعلاء » وأن اسمه « عمار » وجمهور المؤرخين على نقيض ذلك .

الاختلاف فى جنسيته

كما حدث خلاف فى اسم أبى عمرو حدث حول أصله : أعربى هو أم أعجمى ، ولعل من دواعى هذا الخلاف ما رواه الدانى قال [١] : « حدثنا ابن مجاهد قال : حدثنا أصحابنا عن أبى بكر بن خلاد عن وكيع بن الجراح قال : قرأت على قبر أبى عمرو بن العلاء بالكوفة : (هذا قبر أبى عمرو بن العلاء مولى بنى حنيفة) وقيل إنه (مولى بنى العنبر)[٢] أو هو من فارس من موضع يقال له كارزون »

ويظهر أن الشك فى عروبة أبى عمرو كان منتشرا ، حتى ليروى صاحب الأغانى غمزة لبشار بن برد الشاعر العباسى فى هذا المعنى ، قال مخاطبا أحد أبناء أبى عمرو :

أُرفُقْ بعمرو إذا حركتَ نِسبتَه   فإنـــه عربىٌّ من قواريـــــــر

ويعلق صاحب الأغانى على ذلك بقوله : « وكان أبو عمرو بن العلاء يُغْمَزُ فى نسبه[٣] » ونحن لا يسعنا إزاء هذا (الغمز) الذى أشار إليه صاحب الأغانى إلا أن نغمز بدورنا هؤلاء الذين أشاعوا هذه المقالة عن أبى عمرو ، ونرميهم بسوء القصد ، ونكاد نجزم بأنهم من الشعوبية الذين كانوا يقصدون دائما إلى حرمان العرب من كل فضل ، فما نبغ من العرب نابغة إلا زعموه من قومهم ، أو شككوا فى نسبه العربى ،

---

(١) مفردات القراء السبعة للامام أبى عمرو الدانى ـــ مخطوط بمكتبة الشيخ عامر السيد عثمان .

(٢) غاية النهاية لابن الجزرى .

(٣) الأغانى جـ ٣ ص ١٨٩ ، ص ١٩٠ طبعة دار الكتب .

توهينا من شأنه ، وحطا من قدره ونترك المجال فى الرد عليهم للفرزدق ــ ذلك الشاعر العربى الكبير الذى يقول فى أبى عمرو :

مازلتُ أَفْتَحُ أبواباً وأُغْلِقُهَا حتى أتيتُ أبا عمرِو بْنَ عمارِ
حتى رأيتُ فَتًى ضَخْماً دِسِيعَتُه من المريرة حُرًّا وابْنَ أَحْرَارِ
يَنْمِيه من مازنٍ فى فَرْعِ نَبْعَتِهَا جَدٌّ كريمٌ ، وعُودٌ غَيْرُ خَوَّارِ[١]

وقد قال الفرزدق هذا أيام كانت الأنساب معلومة بتفاصيلها ، ومثله لا يجهل سادة مازن وأئمتها الذين تعتز بهم ، وهو وأبو عمرو تجمعهما أرومة واحدة ، يعتزان بالانتساب إليها .

ومازن الذى ذكره الفرزدق هو جد أبى عمرو ــ قاض جاهلى ، كان من حكام الموسم فى عكاظ ، وهو أيضا جد قطرى بن الفجاءة ، وعباد بن علقمة والنضر بن شميل[٢] ، لذا فأغلب المؤرخين على أنه عربى ، فما يذكر إلا ويصحب اسمه تلك الصفات (التميمى ، المازنى) ، ويساعد على ترجيح هذا الاحتمال انتماؤه إلى أجداد يلتقى فيهم مع النبى ﷺ وقد أدرك المستشرق بلاشيرBlachère هذا الرجحان فقرر أولا أنه (من أسرة عربية) ، ثم قال : (وقيل فارسية)[٣] .

ثم إن أخبار أبى عمرو التى تصور علمه واقتداره فى فنون القراءة والنحو واللغة ، واعتداده بطبعه فيها جميعا تنبئنا بأنه يمت إلى أرومة عربية ، وبخاصة فى هذه الطبقة المتقدمة بين أجيال المسلمين ، وهى طبقة بين الثالثة والرابعة على اختلاف الروايات .

تاريخ ميلاده ووفاته ومكانهما

لا خلاف فى أن أبا عمرو ولد بمكة ، أجمعت على ذلك كتب التراجم جميعا[٤] ، وأما تاريخ ولادته فقد حدث حوله خلاف ورد ذكره فى (الوفيات) فقيل :

---

(١) كنز المعانى مخطوط ص ٥٨ لابراهيم بن عمرو الجعبرى وهو بمكتبة الشيخ عامر عثمان .
(٢) الاعلام جـ ٩ الطبعة الثانية .
(٣) ص ١١٩ Introduction au Coran .
(٤) راجع الوفيات وغاية النهاية (ترجمة أبى عمرو بن العلاء) .

ولد سنة (٧٠) أو (٦٨) أو (٦٥) للهجرة . والارجح الذى عليه أغلب الروايات أنه ولد سنة سبعين ، وخاصة إذا ذكرت رواية الوفيات أنه عاش أربعا وثمانين سنة ، ثم نرى أن أغلب الروايات قد حددت سنة وفاته بعام (١٥٤) للهجرة ، ويؤيد هذا ماروى [١] من أن أبا عمرو قال لابنه حين حضرته الوفاة وقد رآه يبكى : « مايبكيك وقد أتت عَلَىَّ أربعٌ وثمانون سنة » والمدة بين (٧٠) و (١٥٤) هى فعلا أربع وثمانون سنة . على حين أننا لو استعرضنا سائر الروايات التى ذكرت عن وفاته أنها كانت عام (١٤٨) ، (١٥٥) ، (١٥٧) ، (١٥٩) ، ثم حسبنا المدة بين كل منها وبين الروايات الأخرى حول سنة ميلاده لنقصت أو زادت على أربع وثمانين ، اللهم فيما عدا احتمال أن يكون ميلاده سنة ٦٥ ووفاته سنة ١٥٩ فإن المدة تكون أربعة وثمانين عاما أيضا .

بيد أن هناك حادثة تتعارض مع صحة هذا الاحتمال ، وهى أن أبا عمرو قد طورد مع أبيه فى عصر الحجاج ، وتذكر الرواية أن أبا عمرو بلغه موت الحجاج فى هذه الرحلة فعاد مع أبيه للبصرة ، ويذكر أبو عمرو أن سنه آنذاك كانت بضعا وعشرين ، فإذا علمنا أن الحجاج مات عام (٩٥) من الهجرة فإن معنى ذلك أن تكون سن أبى عمرو إبان موت الحجاج ثلاثين عاما لابضعا وعشرين ، وفى هذا من الخطأ الظاهر مافيه . وقد أخذ بهذا الرأى (بلاشير) حيث ذكر أنه ولد (حوالى عام ـــ ٧٠/٦٨٩) ومات حوالى عام (١٥٤/ ٧٧) ، كما أخذ به مستشرق آخر هو (يوهان فك) فى كتابه « العربية »[٢] . ولعلهما نقلا عن دائرة المعارف الإسلامية التى تعد فى هذا الباب مرجع كثير من المستشرقين [٣] ، وإن كان كثير منهم أيضا يعتمد على المراجع الأُصيلة .

واستخدام لفظة (حوالى) فيه أثارة من التحفظ العلمى الواجب فى مثل هذه المواضع المبهمة .

---

(١) دائرة معارف البستانى جـ ٢ ص ٢٨ .

(٢) كتاب (العربية ـــ دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب) تأليف يوهان فك ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب . نشر مكتبة الخانجى .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية المجلد الأول ص ٣٨٤ .

أما موضع وفاته فالراجح الذى يدل عليه أغلب الراويات التاريخية أنها كانت بالكوفة[١] . وقيل : إنه مات بطريق الشام[٢] ، وتذكر هذه الرواية أن أبا عمرو كان قد خرج إلى الشام يجتدى عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن العباس ، وقد كان واليا على الشام من قِبَل أبى جعفر المنصور ، فمات فى الطريق .

وأنا أشك فى صحة هذه الرواية ، فإن رجلا كأبى عمرو له علمه وزهده ، واعتداده ومهابته ، وهو بعد فى هذه السن الكبيرة لايجوز فى منطق العقل أو الواقع أن يتوجه إلى وال من ولاة أبى جعفر ، وقد كان أبو عمرو آنذاك قمة العلم العربى ، يسعى إليه العلماء والولاة والرؤساء ، فليس هو بالذى يسافر هذه السفرة البعيدة كيما يجتدى أحد ولاة أبى جعفر المنصور ، وقد كان عصر أبى جعفر هو العصر الذهبى الذى ارتفعت فيه أقدار هؤلاء الأئمة ، لما كان عليه أبو جعفر من حب للعلماء وتقريب لأئمتهم .. ثم إن هناك رواية أخرى تنقض هذه الرواية وهى ماذكره الزُّبَيْدِى قال : « وكان أبو عمرو قد زار محمد بن سليمان بن على الهاشمى والى الكوفة سنة أربع وخمسين ومائة[٣] » ، ونحن أميل إلى تصديق هذه الرواية ، لأنها تتفق وتاريخ وفاته الذى رجحناه، ولأنها أيضا تتفق ومكان وفاته بالكوفة ، وغير معقول أن رجلا فى سن أبى عمرو يقوم بتلك الرحلة الشاقة إلى الكوفة ، وسنه إذ ذاك أربع وثمانون سنة ، يمكنه أن يواصل الرحلة فى نفس السنة إلى الشام ، بل المرجح أنه بقى بالكوفة حتى اختاره الله إلى جواره ، ودفن بها ، روى عن وكيع بن الجراح قال : (قرأت على قبر أبى عمر بن العلاء بالكوفة : هذا قبر أبى عمرو بن العلاء ، مولى بنى حنيفة)[٤] .

وتروى فى رثاء أبى عمرو أبيات نسبت إلى ابن المقفع ، ويروى ابن خلكان أنها لابنه (محمد) لأن ابن المقفع مات قبل أبى عمرو ، والأبيات هى :

رزِئْنَا أبـا عمـرو ولا حَىَّ مِثْلُـه   فَلَلّه رَبّ الحادثـاتِ بَمَـنْ وَقَـعْ

---

(١) الوفيات ومفردات الدانى وغاية النهاية والأعلام للزركلى .

(٢) طبقات النحويين ص ٣٤ ومراتب النحويين ص ١٣ ومابعدها .

(٣) طبقات النحويين ص ٣١ .

(٤) مفردات الدانى . مخطوط . وقد علق الدانى على هذه الرواية بقوله : (وإنما قيل هذا لأن أمه كانت من بنى حنيفة ، وأما أبو أبى عمرو فمن العرب ، من بنى تميم)

فَإنْ تَكُ قد فَارقْتَنَــا وَتَرَكْتَنَــا ذَوِى خَلَّةٍ مافى انْسِدَادٍ لها طَمَعْ
فقد جَرَّ نَفْعاً فَقْدُنَا لَكَ أنَّنـا أَمِنَّا على كُلِّ الرزايا من الْجَزَعْ

نشأة أبى عمرو العلمية

لم تذكر أغلبية كتب الطبقات التى تحدثت عن أبى عمرو بن العلاء شيئا من تاريخ أبيه ، ولم تشر إلى مهنته أو ظروف معيشته ، اللهم إلا ما يستفاد منه أنه كان من معارضى الحجاج بن يوسف الثقفى ، وأنه قد طورد من الحجاج حوالى عام (٩٥) للهجرة ، فهرب إلى صحراء اليمن ، حيث علم بموت الحجاج فانصرف إلى البصرة ، ولكن الحافظ ابن حجر قرر فى ترجمة أبى عمرو أنه « روى الحديث عن أبيه وأنس والحسن البصرى .. الخ ...[١] » ومعنى هذا أن أباه كان من المحدثين الحفاظ ، الذين تؤخذ عنهم رواية الحديث فى هذا العصر المتقدم ـــ عصر التابعين ، فأبوه على هذا كان من التابعين ، مع الأعلام كالحسن البصرى وابن سيرين ونافع مولى ابن عُمرَ ، وبديل بن ميسرة وأبى صالح السمان ، وعطاء بن رباح ، وفرقد السبخى ، ومجاهد وأبى رجاء العطاردى [٢] وجميع هؤلاء ممن تلقى عنهم أبو عمرو ، وروى عنهم الحديث والقراءة . وقد روى أبو عمرو عن أبيه عن على بن أبى طالب بعض الأخبار [٣] . وإن ذلك ليعد فى رأينا ذا تأثير عميق فى تكوين شخصية أبى عمرو ، من حيث كان مدليا إلى العلم بنسب وثيق ، وأصالة عريقة ، إذ لاشك أنه قد نال قسطا وافرا من اهتمام الأئمة من التابعين وتابعيهم ممن يعرفون فضل أبيه ، ولاشك أن هذا الأب العالم هو الذى دفع ولده إلى حب القراءة والرواية فى سن الطفولة ، يحدوه إلى ذلك إيمان بالله وثقة فى فضيلة العلم والعلماء ، وهو الذى دفع اثنين من أبنائه (أبا سفيان ومعاذاً) إلى أن يكونا مثله فى رواية الحديث ، ويقرر ابن حجر فى هذا الشأن أن « أخاه أبا سفيان له حديث واحد ، ومعاذا لست أحفظ له إلا حديثين ، وعمر لا حديث له » [٤] ولكنا

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ١٢ ص ١٧٨ ومابعدها .
(٢) المرجع السابق .
(٣) حلية الأولياء ١ / ٨١ .
(٤) تهذيب التهذيب جـ ١٢ ص ١٧٨ ومابعدها .

على الرغم من هذا كله نقرر أن مايعنينا هنا هو أن نتتبع آثار أبى عمرو لنلقى ضوءاً كاشفا على حياته ، فقد يساعدنا هذا على فهم الجانب الذى ندرسه فى هذه الدراسة .

بدأ أبو عمرو حياته بمكة حيث ولد سنة ٧٠ للهجرة ، ونشأ هنالك كما ينشأ الصبيان يقرءون القرآن ويحفظونه ، ويختلفون إلى شيوخ القراءة المعروفين ، الذين اختاروا جوار أم القرى ، إلا أن أبا عمرو فى هذه المرحلة المبكرة من عمره قد امتاز عن غيره من لداته بالسعى إلى العلم ، حدث الأصمعى قال : (قال أبو عمرو: أخذت فى طلب العلم قبل أَنْ أُخْتَنَ[(١)]) ، وذلك يوحى بأن بدايته كانت مبكرة ، على حين كان غيره من الصبية يلعبون فى أزقة مكة ودروبها .

وقد عاصرت طفولة أبى عمرو فترة مضطربة بالأحداث فى الحجاز والشام والعراق ، وكانت مكة نفسها موطن ثورة الزبيريين إبان حكم عبد الملك بن مروان[(٢)] ، ففى السنة التى ولد فيها أبو عمرو (٧٠ هـ) شخص مصعب بن الزبير إلى مكة وحج بالناس فى هذه السنة عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين .

فى هذا الجو المضطرب بدأ أبو عمرو فى طلب العلم ، وقد كان على قدر وافر من الذكاء صرفه إلى الجد فى تحصيله ، وليس من الممكن أن نتصور له فى هذه السن المبكرة رحلات إلى الكوفة أو البصرة أو سواهما من مراكز الثقافة العلمية آنذاك ، بل نرجح أنه ظل مابين مكة والمدينة مدة لاتقل عن العشرين عاما تلقى خلالها عن الأئمة القراء من التابعين وغيرهم ، إلى أن رحل نهائيا إلى البصرة على ماسيأتى .

كانت مكة والمدينة فى ذلك الحين حافلتين بالأئمة من التابعين وغيرهم ، وكانت مكة بخاصة بمثابة الجامعة التى يتخرج فيها أساتذة القراءة واللغة ، لينتشروا بعد ذلك فى مراكز العالم الإسلامى العلمية . ولم تكن هناك مدينة تعدلها فى هذه الميزة ، فقد كانت البصرة آنذاك خِلْواً إلا من بعض الرجال القراء والمشتغلين بالنحو ، ممن

(١) طبقات النحويين واللغويين ص ٣١ .
(٢) الكامل لابن الأثير ص ٢ جـ ٤ طبعة الدمشقى .

أخذوا على أبى الأسود الدُّؤلى ، وهم قلة قليلة معدودة فى كتب الطبقات . ولم تنهض بالبصرة مدرسة علمية ذات أهمية إلا مع الجيل الذى تصدر فيه أبو عمرو بن العلاء .

لذلك فنحن نرجح أن أبا عمرو بقى بمكة يتلقى عن شيوخها ، وينهل عن أئمتها فى القراءة ، وعلوم اللغة ، وكانت له إلى جانب ذلك رحلات إلى المدينة ، أو أخرى قليلة إلى البصرة حيث يظن أن أباه كان يصحبه إليها فى رحلات لطلب الحديث ، ليأخذ عمن بها من الشيوخ والعلماء . كنصر بن عاصم الليثى (ت قبل ١٠٠ هـ) ويحيى بن يعمر (ت ١٢٩ هـ) والحسن البصرى (ت ١١٠ هـ) وعبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى (ت ١٢٩ هـ) .

والذى نستطيع أن نؤكده فى هذا المقام هو أن أبا عمرو فى صدر شبابه لم يكن يقيم فى مكان واحد ، بل كان لايكاد يستقر به المقام فى بلد ، يأخذ عن شيوخه وقَرأَتِهِ حتى ينتقل إلى بلد آخر طَلَباً للرواية ، وسعيا وراء المعرفة ، فهو وان كانت مكة مركز إقامته ، فإنه كان دائم الترحال إلى المدينة ، وإلى البصرة ، وإلى الكوفة أيضا .

وإنما يدفعنا إلى القول بأن مكة كانت دار إقامته وإقامة أسرته ما ورد فى كتب الأخبار من أن أباه أو هو نفسه ـــ على رواية ـــ كان على خصومة مع الحجاج بن يوسف الثقفى ، ومعلومٌ أن الحجاج لم يكن يبقى على خصم له مهما عظم شأنه ، فسواء كان أبو عمرو أم أبوه على هذه الخصومة فإن من غير المعقول أن يهنأ لهما العيش بها ، والحجاج والٍ عليها . حكى أبو عمرو قال : طلب الحجاج بن يوسف الثقفى أبى فخرج منه هاربا إلى اليمن ، فإنا لنسير بصحراء اليمن إذ لَحِقَنَا لَاحِقٌ ينشد :

لَاتَضِيقَنَّ بالأمور فَقَدْ تُكْشَفُ غَمَّاؤُها بغَيْرِ احْتِيَالِ
رُبَّمَا تَكْرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الأمر لَهُ فَرْجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ[1]

فقال أبى : ما الخبرُ ؟ قال : مات الحجاج ، قال أبو عمرو : فَأَنَا بقوله :

---

(١) نسب صاحب اللسان هذه الأبيات لأمية بن أبى الصلت (جـ ٢ ص ٣٤١ طبعة بيروت) .

« فَرْجَةٌ » أشدُّ سروراً منى بَمْوتِ الحجاج . قال : فقال أبى : اصْرِفْ رِكَابَنَا إلى البصرة . قال أبو عبيدة : قلت لأبى عمرو : كم سِنُّكَ يومئذ ؟ قال : (كنتُ قد خَنَقْتُ بِضْعاً وعشرين سنة)[١] .

والذى نستقيه من هذه الرواية أن أبا عمرو وأباه العلاء قد رحلا إلى البصرة فى ذلك التاريخ (أى حوالى ٩٤ أو ٩٥ هـ) ، فلما شعر الحجاج بوجودهما أخافهما فهربا من وجهه ، وكان ذلك موافقا لتاريخ وفاة الحجاج فى رمضان أو شوال سنة ٩٥ هـ[٢] .

بيد أن الذى نذهب إليه هو أن أبا عمرو لم يكن مشتغلا بالسياسة أو بخصومة أصحابها وبخاصة الحجاج ، فإن تاريخه يُنْبِئُنَا أنه كان مشغولا بالعلم أكثر من اهتمامه بشئون السياسة التى استغرقت هَمَّ أَبِيه ، وأمثال أبيه ، كسعيد بن جبير وغيره من معارضى ظلم الحجاج .، وحَسْبُنَا أنه يقرر فى هذه الرواية أنه بِقَوْلِ العربىِّ : (لَهُ فَرْجَةٌ) أشدُّ سرورا منه بموت الحجاج ، لأن أمر الحجاج لم يكن يعنيه بقدر ماكان يعنيه أمرُ اللغة ، وتصحيح مفرداتها ، وضبط رواياتها ، ونرجح إذن أن أباه هو الذى كان مشغولا بخصومة الحجاج ، وبخاصة إذا ذكرنا أن مكة كانت لاتزال تذكر للحجاج مااقترفه من تدمير الكعبة ، ورميها بالمنجنيق إبان ثورة عبد الله بن الزبير عام (٧٣ هـ) ، وكانت لا تزال تعيش المأساة ذاتها على يد خالد بن عبد الله القسرى الذى ولاه الحجاج أمرها لمطاردة خصوم الخلافة الأموية حوالى عام (٩٣ هـ)[٣] ، حين وجد الحجاج أنها أصبحت ملجأ للعراقيين الخارجين عن طاعة الخلافة ، حيث كان عمر ابن عبد العزيز والى الحجاز آنذاك يَفْسَحُ لهم فى أسباب العيش[٤] . فإذا ما فر أناس من وجه البغى الحجاجى فى مكة المتمثل فى خالد القسرى ، لم يكن من الطبيعى أن يسمح لهم الحجاج نفسه بالقرار فى البصرة التى حرمها على كل من لا يدين للخلافة

---

(١) وفيات الأعيان (ترجمة أبى عمرو بن العلاء) وطبقات القراء جـ ١ ص ٢٩١ .

(٢) الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ١٣٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٩ .

(٤) الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ١٢٩

بالولاء ، وكان الحجاج قد فرغ من تصفية البصرة من هؤلاء المعارضين بعد وقعة دير الجماجم عام (٨٣ هـ) ، وقد ذكرت بعض المراجع رواية يؤخذ منها أن أبا عمرو كان هو المقصود بالمطاردة ، وهذه الرواية : (قال الفرزدق : لما توارى أبو عمرو من الحجاج مازلت أَتَوَصَّلُ حتى لقيتُه فقلت :

مَازِلْتُ أُغْلِقُ أبواباً وأَفْتَحهُا ... حتى لقيتُ أبا عمرو بنَ عمارِ

حتى رأيتُ فتًى ضَخْماً دَسيعَتُه ... من الْمَرِيرةِ حُرًّا وابْنَ أَحْرارِ

ينميه من مازن فى فرع نبعتها ... جد كريم وعـود غير خوار

وسألته عن اسمه ، فقال : أبو عمرو : فلم أراجعه لهيبته)[١] .

وعلى الرغم من أن هذه الرواية تفيدنا فى توقيت لقاء الفرزدق بأبى عمرو إلا أنها لاتنافى ماذهب إليه من أن أبا عمرو لم يكن المقصود بالمطاردة ، وأن أباه كان هو المقصود بها ، فليس فى أخبار أبى عمرو مايدل على اشتغاله بالسياسة ، أو بالمنازعات السياسية ، بل كان مُكِبًّا على المعرفة إِكْبَاباً جعله جديرا بهذه الأبيات الخالدة من شاعر العربية الفرزدق ، مع أنه لَمَّا يبلغ الخامسة والعشرين ، ولعل ماأوهم بعض الرواة بأنه المقصود بمطاردة الحجاج أنه كان أشهر من أبيه ، فلحقت سيرة هذه الخصومة بذيله جَرَّاءَ الشهرة ، ولا يمنع هذا أن يكون أبو عمرو من أشد الماقتين للحجاج ، مُطَارِدِ أبيه .

ونعود إلى الحديث عن شباب أبى عمرو ، لنقول : إن الفترة التى عاشها حتى حادثة هربه مع أبيه حوالى عام (٩٥ هـ)، أى حتى سن الخامسة والعشرين ، كانت ولا شك كافية ليستوعب علم شيوخه بمكة ، وعدتهم ثمانية ، كما أنه رحل خلالها إلى المدينة ليعرض قراءته على أئمتها ، ويفيد من أخبار رواتها ، وكان بالمدينة من القراء فى ذاك العهد أربعة من كبارهم .

هؤلاء الأساتذة الاثنا عشر ، جميعهم من القراء الذين تجردوا للقراءة[٢] ،

---

(١) (كنز المعانى) مخطوط ص ٥٨ .

(٢) ستأتى تراجمهم .

واتخذوها ضربا من ضروب العبادة والتفقه فى الدين ، فأخذ عنهم أبو عمرو محصولهم من العلم ، ومسلكهم فى التعبد ، ولعله كان فى هذه الفترة يحاول الاستزادة من العلم بأيام العرب ولغاتهم المختلفة ، حين كانت تتاح له فرصة التجوال فى نواحى الجزيرة بحثا عن المعرفة ، كما أنه قد أتيح له أن يعرض قراءته خلالها على بعض شيوخ البصرة ، وبخاصة نصر بن عاصم الليثى (المتوفى ٩٠هـ) على إحدى الروايات[١] ، وقيل سنة (١٠٠هـ) على الأكثر . وعلى غيره من أئمة البصرة المتقدمين .

ولا شك أن أبا عمرو قد لَمَسَ خلال تلقيه على أئمة البصرة اهتمامهم بالنحو ومشكلاته فأخذ عنهم هذا الاهتمام ، وإن لم تكن مدرسة البصرة فى النحو قد نشأت بعدُ بالمعنى المعروف . وفى هذه المجموعة التى تلقى عنها بمكة والمدينة جماعة من التابعين الذين أخذوا مباشرة عن أصحاب رسول الله ﷺ ، منهم : سعيد بن جبير ، وعكرمة بن خالد ، وعبد الله بن كثير ، ويزيد بن رومان ، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع ، وشيبة بن نصاح . حتى إذا نزل أبو عمرو بالبصرة عام (٩٥هـ) بدأ اتصاله الدائم بمدرستها . وإذا كان شيوخ مكة والمدينة قد أخذوا قراءاتهم عن قراء مثلهم مخلَصين للقراءة عن أصحاب النبى ، أو عن هؤلاء الصحابة مباشرة ، فإن قراء البصرة قد أخذوا عن أئمة جمعوا بين القراءة والنحو ، ومزجوا بين مشكلاتهما ، ومنهم : أبو الأسود الدؤلى[٢] عن على بن أبى طالب عن النبى ﷺ ، وأبو الأسود على ماتذكر المراجع هو أول من فكر فى مشكلة النحو والإعراب ، وعنه أخذ قراء البصرة ونحاتها الذين قفوا على أثره ، فأكملوا رسالته ، ولم يكن من بينهم قارئ إلا وهو ذو اهتمام بالنحو ومشكلاته .

ونجد أبا عمرو يتصل خلال رحلاته فى طلب العلم بشيخ الإقراء فى الكوفة عاصم بن أبى النجود (المتوفى ١٢٠ هـ) ، ولكن تأثره به لم يكن كبيرا على ماسيأتى . وليس يعنى انتقاله للبصرة نهائيا فى التاريخ الذى اخترناه أنه قد انقطعت صلاته بمكة

---

(١) طبقات القراء ج ٢ ص ٣٣٦ .

(٢) طبقاء القراء جـ ٢ ص ٢٨١ والنشر جـ ١ ص ١٣٣ وطبقات النحويين واللغويين ص ١٣ .

والمدينة ، فإن الروايات تؤكد أنه كان يتردد عليهما فيما بعد . فقد ذكر الجعبرى: « أن أبا عمرو لما قدم المدينة أهرع إليه الناس ، وكانوا لا يَعُدُّونَ مَنْ لَمْ يَقْرَأْ عليه قارئًا[١] » ، وكان كثير الحج إلى بيت الله ، ويروى أخوه معاذ بن العلاء أنه كان إذا لم يحج اسْتَبْضَعَهُ الحروف[٢] يسأل عنها الشعراء وأصحاب اللغة .

والملاحظ أن أبا عمرو هو الوحيد بين جميع القراء تقريبا الذى بلغ شيوخه هذا العدد الوافر المتنوع مابين مدنى ومكى ، وبصرى وكوفى ، ومابين قارىء لايعرف سوى رواية القراءة عن مصادرها الموثقة ، وقارىء يلتمس للقراءة وجها فى اللغة أو فى النحو ، فإذا أضفنا عدد هؤلاء الأئمة من النحاة والقراء إلى من تلقى عنهم علم العربية كابن أبى عقرب[٣] ، وإلى من روى عنهم الحديث ممن سبق ذكرهم[٤] — بلغت عدتهم جمهورا كبيرا ، وهم جمهور من الأئمة كان كل واحد منهم منشىء مدرسة ، ومعلم أمة ، فإذا أخذ أبو عمرو عن هذه الجمهرة الكبيرة فمعنى ذلك أنه قد أوتى حظا لم يُؤْتَهُ أحدٌ ممن سبقه أو عاصره . وقد كان الواحد منهم إذا أخذ عن شيخين رآه الناس إماما ؛ هذا عاصم بن بهدلة بن أبى النجود شيخ الإقراء فى الكوفة ، وأحد القراء السبعة ، والذى قيل فى وصفه : « إنه جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد »[٥] ، يقول فيما يرويه عنه أبو بكر بن عياش تلميذه : « قال لى عاصم : ما أقرأنى أحد حرفا إلا أبو عبد الرحمن السلمى ، وكنت أرجع من عنده فأعرض على زر » (يقصد زر بن حبيش)[٦] ، ولم يأخذ عبد الله الحضرمى القراءة إلا عن شيخين اثنين ، هما يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم ، ومع ذلك فهو أحد

---

(١) مخطوط كنز المعانى ص ٥٨ .

(٢) الأغانى جـ ٣ ص ٣١٢ ومراتب النحويين ص ١٥ ومعنى استبضعه : حَمَّله إياها ضمن مايحمل من بضاعة ومتاع .

(٣) طبقات النحويين ص ٣٠ .

(٤) ص ٣١ من هذا الكتاب .

(٥) طبقات القراء جـ ١ ص ٣٤٧ .

(٦) أحد أعلام القراءة واللغة بالكوفة عرض على ابن مسعود وغيره ، وعرض عليه عاصم والأعمش وغيرهما (توفى ٨٢ هـ) .

العشرة ، ولذا فنحن نرى أن ماقاله ابن الجزرى من أنه ليس فى القراء السبعة من هم أكثر شيوخا منه صحيح ، بل ونرى أنه ليس فى القراء السبعة أو غيرهم من رجال اللغة والنحو أيضا من هو أكثر شيوخا منه .

هذه تفاصيل معلومة عن حياة أبى عمرو فى صدر شبابه العلمى ، عرضناها بإيجاز ، أما مصادره غير المعلومة فأكثر من أن تحصى ، وبحسبنا أن نذكر هنا ما ورد فى (وفيات الأعيان) : « كانت كتبه التى كَتَبَ عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تَقَرَّأَ ، أى : تَنَسَّكَ ، و أَخْرَجَهَا كُلَّها (أو أحرقها)[١] ، فلما رجع إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية ، قال الأصمعى : « جلست إلى أبى عمرو بن العلاء عَشْرَ حجَجٍ فلم أسمعه يحتج ببيت إسلامى »[٢] .

ولو لم يكن من أبى عمرو أنه أحرق كُتُبَهُ جميعا لا ستطعنا أن نَفُوزَ بمرجع ثَبتٍ فى كل ما روى عنه ومن روى عنهم ، ومع ذلك إن ما احتوته كتب اللغة ، وبخاصة « لسان العرب » يعد ذخيرة كبرى ، إذ إن فى كثير من موادِّه استشهاداً بقول لأبى عمرو ، أو رواية عنه ، أو نسبة لهجة قال بها .

وأبو عمرو كان ممن يرون عدم جواز الاستشهاد بالشعر الإسلامى ، فالأصمعى يجلس إليه عشر حجج لايسمعه يحتج ببيت إسلامى ، وتقرر الرواية التى أوردناها أن عامة أخباره كانت عن أعراب أدركوا الجاهلية ، ويروى عنه أنه قال مرة : (لقد كَثُرَ هذا الْمُحْدَثُ وحَسُنَ حتى لقد هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ فِتْيَانَنا بروايته) يعنى شعر جرير والفرزدق[٣] وأشباههما .

ويذكر الجاحظ ما يشبه هذا حين قال : « وزعم أبو عمرو بن العلاء أن الشعر فُتِحَ بامرىء القيس وخُتِمَ بذى الرمة » [٤] ، وهذا يدل على أنه لم يكن يعتمد من

---

(١) كذا فى معجم الأدباء وطبقات القراء والبيان والتبيين جـ ١ ص ٣٢١ .

(٢) البيان والتبيين نفس الصفحة .

(٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٢١ .

(٤) المرجع السابق جـ ٤ ص ٨٤ .

الشعر إلا ما وافق هذه الفترة . ولذا كان ينظر إلى فصاحة الاسلاميين بعامة بشيء من الارتياب والتحفظ ، ومما ذكر الجاحظ : « وزعم أصحابنا البصريون عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : لم أر قَرَوِيَّيْنِ أفصحَ من الحسن والحجاج » ، وكان ـــ زعموا ـــ لايُبَرِّئُهُمَا من اللحن »(١) .

ويذكر فى مكان آخر : « روى أبو الحسن أن الحجاج كان يقرأ : (إِنَّا من المجرمون منتقمون) ، وغلط الحسن فى حرفين من القرآن مثل قوله : (ص والقرآنُ) ، والحرف الآخر : (وما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُون)(٢) » . فها هو ذا أبو عمرو يسجل على الأئمة من فصحاء العرب لحنا ماكان ينبغى لمثلهم أن يقع فيه ، وقد كانت نظرته هذه المتوجسة تتابع الشعراء المحدثين من أمثال جرير والفرزدق .

على أن فيما ذكرته الرواية من أن عامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية نظراً ، لأنه إذا كان أبو عمرو ولد سنة ٧٠ هـ ، فمن الصعوبة بمكان أن نسلم بأنه صَاحَبَ أعرابَ الجاهلية ، ولعل الصواب أن أخباره كانت عن أعرابٍ أدركوا أعرابَ الجاهلية ، وإلى هذا الرأى ذهب الرافعى حيث قال . (إن فى الخبر تصحيفا من النساخ)(٣) .

هذه مكانة رجل كان فحول الشعراء فى صدر الإسلام يتهيبون مقالته ، ويعرفون له قدره ، حتى قال فيه الفرزدق ما قال .

وقد كان الفرزدق يجيئه فيعرض عليه شعره (٤) مع الفارق الكبير بينهما فى السن ، فقدمات الفرزدق (سنة ١١٠ هـ) ، فى السنة التى مات فيها جرير أيضا ، وكانت سن أبى عمرو آنذاك نحوا من الأربعين ، على حين كانت سن الفرزدق قد جاوزت التسعين(٥) ، فإذا سلمنا بالمناسبة التى قيلت فيها هذه الأبيات ، ولا حظنا أن سنه

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ١٦٣ .

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

(٣) تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٢٩٧ .

(٤) شرح ديوان الفرزدق جـ ١ ص ٣٨٢ ـــ تحقيق عبد الله الصاوى ـــ طبعة المكتبة التجارية . وقد استشهد سيبويه بهذا البيت فى موضعين من كتابه (جـ ٢ ص ١٤٨ و جـ ٢ ص ٢٣٧).

(٥) الأعلام جـ ٩ ص ٩٧ والكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٢٠٥ .

كانت إذ ذاك نحوا من خمسة وعشرين عاما ، وسن الفرزدق خمسة وسبعون ـــ أدركنا أن أبا عمرو قد حظى فى سن مبكرة بقدر وافر من العلم بالعربية وفنونها ، وضعه حَكَمًا بين من يسبقونه بنصف قرن من الزمان .

يقول أبو عبيدة : « فإذا كان الفرزدق وهو راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم يقول فيه مثل هذا القول ، فهو الذى لا يُشَكُّ فى خطابته وبلاغته[1] » .

وقد كانت لأبى عمرو أحكام على شعراء الجاهلية أنفسهم ، يقدم منهم أناسا ويؤخر آخرين ، فكان النابغة أشعر شعراء الجاهلية عنده على الإطلاق ، حدث الأصمعى قال : « سمعت أبا عمرو يقول : كان أوس بن حجر فحل الشعراء ، فلما نشأ النابغة طأطأ منه » [2] .

وتروى كتب الأدب حكما آخر من أحكام أبى عمرو عن الأصمعى أيضا قال : سمعت أبا عمرو يقول : «ما كان ينبغى للنابغة إلا أن يكون زهير أجيرا له[3] » فهوفى الخبر الأول يفاضل بين شاعرين من طبقتين مختلفتين ، وهو فى الثانى يفاضل بين شاعرين من طبقة واحدة ، فكلاهما كان صدرا فى الشعر الجاهلى . وليس من اليسير أن ننسب لأبى عمرو فى موقفه مع النابغة شبهة التعصب له ، فإن أوس بن حجر تميمى من قبيلة أبى عمرو ، ومع ذلك لم تدفعه عصبية القبيلة إلى التحيز لشاعر على حساب الحقيقة ، حتى ولو كان شاعر قومه تميم .

وقد كان أبو عمرو مع جلالة قدره ، وغزارة علمه ، يرى أن المرء ينبغى أن يعد نفسه طالب علم مادام حيا ، قال ابن مناذر : « سألت أبا عمرو : حَتَّى مَتَى يَحْسُنُ بالمرءِ أن يتعلم .. ؟ .. قال : ما دامت الحياةُ تَحْسُن [4] بِهِ » .

---

(١) البيان والتبين جـ ٣٢١ وطبقات النحويين ص ٢٨ .

(٢) الأغانى جـ ١١ ص ٧٠ طبعة دار الكتب . وقد كان أوس شاعر تميم فى الجاهلية .

(٣) الأغانى ج ١١ ص ٧ .

(٤) وفيات الأعيان (ترجمة أبى عمرو) .

ولقى الأصمعى يوما فسأله : إلى أين ياأصمعىُّ ؟ قال : إلى صديق ، فقال أبو عمرو : « إن كان لفائدةٍ ، أو لمائدةٍ ، أو لعائدةٍ ، وإلا فلا »(١) . فهذه صورة رجل جادّ يقدر الوقت حق قدره ، ويرى ألا يُنْفَقَ فى العبث والضياع ، وبمثل هذا العزم قطع أبو عمرو شوطا كبيرا فى زمن قصير ، حتى وجدناه وهو فى بداية الحلقة الرابعة من عمره يتصدر مجالس العلم ، وينافس فى ذلك أساتذته الذين أخذ عنهم ، فقد كان يقرىء الناس القرآن فى مسجد البصرة ، والحسن ابن أبى الحسن حاضر ، وقال هو عن نفسه فيما يرويه الأصمعى : « كنت رأسا والحسنُ حيٌّ »(٢) ، وفى هذه الفترة من حياة أبى عمرو شهدت البصرة روحا جديدة ينفخها فى طلاب العلم ، تلاميذ مدرسته ، فيجتمعون عليه ، وينصتون إليه ، فكأنهم لم يشهدوا له من قبلُ مثيلا ، فى قراءته ، ولغته ، وعلمه ، ومر الحسن البصرى إمام البصرة بأبى عمرو وحلقتُه متوافرة ، والناس عكوف فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو عمرو ، فقال الحسن : « لا إله إلا الله ،كادتِ العلماءُ أن تكون أَرْبَاباً ، كلُّ عِزٍّ لم يُوَكَّدْ بعلمٍ فإلى ذُلٍّ يَؤُولُ(٣) » .

وقال الخليل : « كان عبد الله (يعنى ابن أبى إسحاق) : يُقَدَّمُ على أبى عمرٍو فى النحوِ ، وأبو عمرو يُقَدَّمُ عليه فى اللغةِ(٤) » ، وابنُ أبى إسحاقٍ هو أحد شيوخِه البصريين على ما أسلفنا . ولعل خير الأدلة على أن أبا عمرو كان صاحب مدرسة مستقل الرأى ، نافذ البصيرة فى معالجة مسائل اللغة والنحو : أن نعقد مقارنة بينه وبين أستاذه الحضرمى ، فقد كان ابن أبى إسحاق الحضرمى من النحاة المتشددين فى المقاييس النحوية ، ودعم نفوذها على ألسنة الناطقين باللغة ، حتى لقد دفعه تشدده إلى أن يخطىء شعراء العرب آنذاك ، وفى مقدمتهم الفرزدق ، ومما يروى فى هذا الصدد : تلك الواقعة المحفوظة التى حدثت بين الرجلين حين قال الفرزدق :

---

(١) نزهة الألبا ص ٣١ .

(٢) مفردات الدانى وهامش طبقات النحويين (نقلا عن شذرات الذهب جـ ١ ص ١٣٦) .

(٣) طبقات القراء جـ ١ ص ٢٩١ .

(٤) مراتب النحويين (ترجمة أبى عمرو) .

وعَضُّ زمانٍ يابْنَ مَرْوانَ لم يَدَعْ من المال الا مسحتاً أو مجلفُ

فقال ابن أبى اسحاق : علام رفعت « مجلفُ » ؟ فرد الفرزدق : « على ما يسوؤك وينوؤك ، علينا أن نقول ، وعليكم أن تتأولوا » . ثم قال :

فلو كان عبدُ الله مولًى هَجَوْتُه ولكن عبدَ الله مولَى مواليَا

فخطأه عبد الله (يعنى ابن أبى اسحاق) فى قوله « مَوْلَى مَوَاليا ، إذ كان الواجب أن يقول : « مولَى موالٍ »[1] . إلى غير ذلك من مواقف المناظرة بينه وبين الشعراء .

أما أبو عمرو . فعلى الرغم من أنه « كان تلميذاً للحضرمى ، فقد كان أعرف من أستاذه بطبيعة اللغة ، إذ كان أعظم رواة البصرة علما بأشعار القبائل وأنسابهم ، وكان من أصحاب القراءات ، فخالف أستاذه وزميله الحضرمى فى بعض أصول المذهب البصرى ، فكان أبو عمرو يقيس على الأكثر الأشيع فى كلام العرب ، وأما ما خالف الأكثر الأشيع فلا يهدره ، ولا يُخَطِّىءُ قائلَه ، ولكن يعتبره لغةً خاصة ، كما يَعُدُّه عربيا فصيحا ، وبهذا خفف أبو عمرو من حدة تجريدالقياس التى اتصف بها منهج الحضرمى بإهداره كلام المخالفين للقياس من العرب ، والقول بخطئهم »[2] . ولعل هذا الموقف المنصف المعتدل من أبى عمرو هو السر فى سلامة علاقته بالشعراء فى عصره ، ووقوفه من فحولهم موقف الأستاذ من تلاميذه — على صغر سنه — وعلو أقدامهم ، وسمو أقدارهم فى قول الشعر . وهو الذى يفسر لنا أيضا مدح الفرزدق له ، وهجاءه لشيخه الحضرمى .

وعودة إلى سيرة أبى عمرو اللغوى لنضيف خطًّا آخر من الخطوط التى تحدد ملامح شخصيته ، وتكشف عن مقوماتها ، فقد رأينا قبلُ كيف كان أمر اللغة يشغله عن عظائم الأمور ، حين شغله تصحيح اللفظ بكلمة « فَرْجَة » عن الاهتمام

---

(١) من أسرار اللغة ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٢) من مقال للأستاذ مصطفى السقا عن « نشأة الخلاف فى النحويين البصريين والكوفيين » بمجلة مجمع اللغة العربية جـ ١٠ ص ٩٦ ».

بموت الحجاج ، وقد كان آنذاك أعدى أعدائه ، وكثيرا ماتذكر الروايات تعرضه للأعراب ، يسألهم عن صحة لفظة ، أو عن أصل اشتقاق يجهله ، فقد روى « أن أبا عمرو سئل عن اشتقاق الخيل ، فلم يعرف . فمر اعرابىٌّ مُحْرِمٍ فأراد السائل سؤال الأعرابى . فقال له أبو عمرو : دعنى فأنا ألطف بسؤا له وأعرف ، فسأله : فقال الأعرابى : « اشتقاق الاسم من فعل الْمُسَمَّى » ، فلم يعرف مَنْ حَضَر ما أراد الأعرابى ، فسألوا أبا عمرو فقال : « ذهب إلى الخيلاء التى فى الخيل والعُجْبِ ، ألا تراها تمشى العِرَضْنَةَ خُيَلاءَ وتكبرا »[1] ولعل هذا النحو من النهج اللغوى كان سنة لأبى عمرو ، فقد ذكر أبو عبيدة عن أبى عمرو بن العلاء قال : « لما رأت العرب كثرة القرى والنخل والشجر قالوا : مارأينا سوادًا أكثر ، والسوادُ الشخصُ ، فلذلك سُمِّىَ السوادُ سوادًا[2]» .

وقد كان من خلق أبى عمرو إذا سئل عن أمر لا يعرفه أن يصرح بجهله إياه ، ولا يحاول أن يلتمس له حلا ، وكثيرا ما تطامن أمام من هم دونه فى العلم ليأخذ عنهم مايعرفونه ، ثم نجده يحكى هذا الذى حدث ، كأنما يُشْهِدُ جلساءَه على نقصان معرفته ، فقد حدث أبو عبيدة عن أبى عمرو قال : « كنا عند بلال بن أبى بردة فخرج الفرزدق يتخلع ، فسمعنى أنشد بيت التغلبى :

نُعَاطِى الملوكَ الْقِسْطَ ماقَصدُوا لنا ولـيس علينـا قتلُهـم بِمُحَـرَّمِ

فقال الفرزدق : أأُرْشِدُكَ أم أَدَعُكَ ؟ فقلت : أرشدنى . قال : ماقصدوا بنا ».

هذا على الرغم من أنه كان ذا رأى « سبق أن أشرنا إليه » فى شعر الفرزدق وجرير وغيرهما من المعاصرين له .

---

(١) طبقات النحويين ص ٢٩ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٢٠ تحقيق عبد الله الطباع وأخيه عمر الطباع ـــ ط دار النشر للجامعيين .

ومن الروايات مايشهد بعمق نظر أبى عمرو ، ودقة إحساسه بمعنى الشعر العربى ، قال الأصمعى : سألت الخليل بن أحمد النحوى عن قول الراجز :

حتى تَحَاجَزْنَ عن الذُّوَّادِ تَحَاجُزَ الرِّى ولم تَكَادِى (١)

لِمَ قَاَل : (تَكَادِى) ، ولم يَقُلْ : (ولم تَكَدْ ؟) ، قال : فَطَحَنَ يوما أجمع . قال : وسألت أبا عمرو وكأنما كان على طرف لسانه ، فقال : « وَلَمْ تَكَادِى أَيَّتُهَا الإِبِلُ (٢) » .

ومر أبو عمرو يوما بعمرو بن عبيد وهو يتكلم فى الوعد والوعيد ويثبته . فقال له أبو عمرو : « وَيْلَكَ ياعمرو !! إِنَّكَ أَلْكَنُ الْفَهْمِ ، ألم تسمع إلى قول القائل (عامر ابن الطفيل) (٣) : —

وَإِنِّى وإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لَمُخْلِفُ إيعَادى وَمُنْجِزُ مَوْعِدِى

إنما أراد أن الله تبارك وتعالى قد وَعَدَ وَأَوْعَدَ ، وهو قادر على أن يَعْفُو عَمَّنْ أَوْعَدَهُ ، وقَادِرٌ أَنْ يُنْجِزَ لِمَنْ وَعَدَهُ (٤) » .

فأبو عمرو فى نظر الرواة كالأصمعىّ ويونس وأبى عبيد عالم واسع الحيلة ، حاضر البديهة ، ذكى الفؤاد ، وبقى هكذا حتى حين كبرت سِنُّه ، يقول الأصمعى « لَمْ أَرَ مَسَانٌ (٥) قَطُّ أَذْكَرَ من أبى عمرو بن العلاء ، وسلمة بن عياش ، وأبى هلال الراسبى ، وأبى الأشهب العطاردى (٦) » .

وقال يونس : « لو كان أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله فى كل شىء لكان ينبغى أن

---

(١) طبقات النحويين ص ٣٣ .
(٢) طبقات النحويين ص ٣٤ .
(٣) اللسان جـ ٣ مادة وعد .
(٤) طبقات النحويين ص ٣٢ .
(٥) مَسَانّ جمع مُسِنّ أى كبير السن .
(٦) المرجع السابق ص ٣٣ .

يؤخذ بقول أبى عمرو بن العلاء كله فى العربية ، ولكن ليس من أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك ، إلا النبى ﷺ[١] » .

وبقى من الحديث عن علم أبى عمرو نقطة مهمة ، هى أن أبا عمرو كان يتلقى كل مايصدر عن العرب ويسلم به[٢] ، ويعده من العربية التى ينبغى الحفاظ عليها ، فالعربى عنده سيد لغته ،ومصدرها الصحيح الوحيد ، ولكنه كان يفرق بين أمرين فيما يرويه ، أمر يأخذ به ويستشهد ، ويتخذ منه قاعدة يقول بها وينشرها بين تلاميذه ، وهو ما اجتمع لديه منه محصول وفير ، وشواهد غنية ، أما ما نَدَّعَنِ الكثير فقد كان يعتبره لهجة ليست على نهج الفصحى ، وإن سَلَّمَ بأنها من العربية ، «حدث ابن أبى سعد قال : قال ابن نوفل : سمعت أبى يقول لأبى عمرو بن العلاء : أخبرنى عما وصفت مما سميته عربية ، أيدخل فيها كلام العرب كله ؟ فقال : لا ، فقلت : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ... ؟ .. قال : أعمل على الأكثر ، وأسمى ماخالفنى لغات[٣] » .

وكان أبو عمرو على علمه بالعربية وأخبار العرب يرى أن هذا الذى بين أيدى الرواة ليس الا قطرة من بحر ، حتى لقد قال لتلاميذه يوما فيما رواه يونس بن حبيب البصرى : « ماانتهى إليكم مما قالت العربُ إلا أَقَلُّه ، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعرٌ كثير »[٤] . هذا العلم الوافر المحيط بفنون العربية ورواياتها كان مقترنا عند أبى عمرو بلون من البساطة وعدم التكلف فى الحديث ، والنزوع إلى تخفيف القيود اللغوية ما وجد السبيل إلى ذلك ، ولذا يحدث الأصمعى فيقول : « كنت إذا سمعت أبا عمرو ابن العلاء يتكلم ظننت أنه لا يحسنُ شيئاً ولا يلحنُ ، يتكلم كلاماً سهلا »[٥] ،

---

(١) نزهة الألبا ص ٣٠ لابن الأنبارى .
(٢) طبقات النحويين ص ٢٨ .
(٣) طبقات النحويين ص ٣٤ .
(٤) نزهة الألبا ص ٣٣ .
(٥) طبقات النحويين ص ٣١ .

وقليل ، بل نادر ، بين العلماء باللغة من إذا سمعته لم تجد فى كلامه أثرا من التقعر ، وتجشم الصعب فى اللفظ والمعنى ، وأقل من هؤلاء من لا تجد فى حديثه شيئا يميزه عن بقية الناس ، وأبو عمرو كان من هؤلاء الذين يتكلمون كلاما سهلا ولا يلحنون ، فكلامه هو السهل الممتنع ، ولسوف نجد فى دراستنا لقراءاته وبخاصةٍ « الإدغام » أن أبا عمرو إنما اختار القراءة به ، من حيث هو نزعة إلى التخفيف والسهولة . ولقد حدث ابن مجاهد قال : « كان أبو عمرو سهل القراءة حسنَ الاختيار غيرَ متكلِف ، يؤثِرُ التخفيفَ مَا وَجَدَ السبيلَ إليه »(١) .

ولعلَّ أحدا من القراء جميعا لا يشبهه فى هذه الميزة ، اللهم ما خلا الكسائى ، فقد اتصف بالصفة ذاتها ، حدث الهروى قال : حدثنا أبو عبد الرحمن المقرىء قال : « كان الكسائىُّ فصيحَ اللسان لا يُفْطَنُ لكمالِه ، ولا يُخَيِّلُ إليك أَنه يُعْرِبُ ، وهو يُعْرِب(٢) ».

هذا الطبع السهل كان ينعكس لدى أبى عمرو فى نظرته إلى الحياة من حوله ، وربما كان هو السبب فى أنه تنسك فأحرق كتبه كلها ، وقد كانت مل ء بيت إلى قريب من السقف . وكان رضى الله عنه ورعا زاهدا ، حدث الأصمعى عنه قال : « بينما أنا ذات يوم ، وأحسبه قال : فى ضيعتى ، سمعت قائلا يقول :

وانَّ امْـرَأً دنيـاه أكبـرُ همِّـه لَمُسْتَمْسِكٌ منها بحبـلِ غُرورِ

قال : فكتبت هذا البيت على فص خاتمى ، فكان نقشه هذا(٣) » . وكان يرى أن العربية والإيمان متلازمان ، وأن الجهل بالعربية من أوسع الأبواب إلى الزندقة والإلحاد ، روى الأصمعى عن الخليل بن أحمد عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : « أكثرُ مَنْ تَزَنْدَقَ بالعراقِ لجهلِهم بالعربيةِ(٤) » . فإذا قيس إيمان الناس بمدى علمهم

---

(١) مفردات الدانى .

(٢) طبقات النحويين ص ١٤١ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٢ .

(٤) نزهة الألبا ص ٣٠ وما بعدها .

بالعربية فإن أبا عمرو من أعمق الناس يقينا ، وأرسخهم عقيدة ، ولاريب أن روح الإيمان قد طبعت حياة أبى عمرو فى جميع مراحل حياته ، وانعكست على سائر أقواله ورواياته حتى قيل : (كان أهل العربية ، على عهد أبى عمرو ، كلهم أصحاب أهواء إلا أربعة ، فإنهم كانوا أصحاب سنة ، أبو عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب البصرى ، والأصمعى)[١] . وكان أبو عمرو زاهدا فى الحياة ، والزهد فى الدنيا يدعو إلى التفريط فى أعراضها ، وعدم الحرص على شىء فيها ، وهو من ثم يؤدى إلى الكرم ، وقد كان صاحبنا كريما ، حدث الأصمعى قال : « كان أبو عمرو ابن العلاء بوسع لى ، وربما حلف ألا يخبرنى بحرف حتى آكل » ، ومن دلائل زهده ماروى الأصمعى أنه كان له من غلته كل يوم فلسان ، فلس يشترى به كوزا ، وفلس يشترى به ريحانا ، فيشم الريحان يومه ، ويشرب فى الكوز يومه ، فإذا أمسى تصدق بالكوز ، وأمر الجارية أن تجفف الريحان وتدقه فى الأشنان » [٢] .

ومما ذكره أبو عمرو الدانى من فضائله ماحدث به معمر بن مينا قال : قال أبو عمرو : أنا ردت هذا البيت فى أول قصيدة الأعشى وأستغفر الله منه :

وأنكرتْنى وماكان الذى نكِـرَتْ … من الحوادثِ إلا الشَّيْبَ والصَّلعا [٣]

وهذه أيضا هى المرة الوحدة ـــ فيما يقال ـــ التى حاول فيها أبو عمرو أن يقول شعرا[٤] .

وقد علق ابن جنى على هذه الرواية بقوله : (أفلا ترى إلى هذا البدر الطالع الباهر ، والبحر الزاخر ، الذى هو أبو العلماء وكهفهم ، وبدء الرواة وسيفهم ، كيف تخلُّصه من تبعات هذا العلم وتحرُّجُهُ ، وتَراجُعه فيه إلى الله وتحَوُّبُه ، حتى إنه لما زاد

(١) نزهة الألبا ص ٣٤ .
(٢) طبقات النحويين ص ٢٩ .
(٣) مفردات الدانى .
(٤) بغية الوعاة (ترجمة أبى عمرو) .

فيه ــ على سعته وانبثاقه ، وترامیه وانتشاره ــ بيتا واحدا وفقه الله للاعتراف به ، وجعل ذلك عنوانا على توفيق ذويه وأهليه)[١] .

هذا ... وأبو عمرو فى صورته ــ رجل مهيب الطلعة ، شديد الاعتزاز بنفسه يدلنا على ذلك وصف الفرزدق له فى البيت الذى رويناه من قبل :

حتى رأيت فتى ضخما دسيعته من المريرة حرا وابن أحرار[٢]

ثم قوله : إنه لم يستطع أن يراجعه لهيبته ، فإذا ضممنا هذه الصورة إلى ما سبق أن عرفناه من تواضعه وورعه ، اكتملت لدينا صورة أحد عظماء العلم العربى ، فأبو عمرو هو تلك القمة الشامخة فى تاريخ النهضة العلمية فى مستهلها ، وعلى يديه تخرجت تلك المدرسة الكبرى فى اللغة والقراءة والنحو ، مدرسة البصرة ، بل لقد كان حجة أيضا للكوفيين فى صراعهم أمام البصريين ، على ماسنذكر فيما بعد .

وأما صفته كروايةٍ فهو الإمام الصدوق الحجة ، قال عنه ابن الجزرى : « كان أعلم الناس بالقرآن والعربية مع الصدق والثقة والزهد[٣] » ، وقد وثقه يحيى بن معين وغيره ، وقال الذهبى : (قليل الرواية للحديث ، وهو صدوق حجة فى القراءات)[٤] وقال الحافظ ابن حجر « وذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال هو أكبر إخوته ، وله خمسون حديثا ، وقال الدورى عن ابن معين : ثقة »[٥] .

وحدث أحمد بن موسى بإسناده قال : سمعت أبا عمرو يقول : ما قرأت حرفا من القرآن إلا بسماع وإجماع من الفقهاء ، ولا قلت برأى ــ إلا حرفا واحدا فوجدت الناس قد سبقوا إليه : (وأمْلِيَ لَهُمْ)[٦] يعنى بذلك أنه اختار دون رواية أن يقرأ قوله

---

(١) الخصائص جـ ٣ ص ٣١٠ .

(٢) الدسيعة : العطية ، يقال فلان ضخم الدسيعة ، والمريرة : عزة النفس [اللسان مادة دسع ومادة مرر] .

(٣) طبقات القراء جـ ١ ص ٢٩٠ .

(٤) بغية الوعاة (ترجمة أبى عمرو) .

(٥) تهذيب التهذيب جـ ١٢ ص ١٧٨ وما بعدها .

(٦) مفردات الدانى ــ مخطوط .

تعالى : « الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ، وأُمْلِيَ لَهُمْ » على بناء الفعل للمجهول ، وهو ما يعد انحرافا عن السنة المتبعة فى رواية القراءة ، ولعل دافعه إلى أن يقرأ هذا الحرف من عند نفسه أنه على هذه الصورة قد ناسب تذوقه للآية إلى جانب موافقته للرسم . ومع ذلك وجد الناس حين قرأه عليهم قد سبقوا إليه رواية . ولذا يحدث أبو عمرو فيمايرويه يحيى بن المبارك اليزيدى قال : « سمع سعيد بن جبير قراءتى فقال : الزم قراءتك هذه » .(١) ووصفه ابن مجاهد وصفا جامعا حين قال : « كان أبو عمرو مقدما فى عصره . عالما بالقراءة ووجوهها . قدوة فى العلم باللغة ، وإمام الناس فى العربية . وكان مع علمه باللغة وفقهه فى العربية متمسكا بالآثار . لايكاد يخالف ما جاء عن الأئمة قبله ، متواضعا فى علمه ، قرأ على أهل الحجاز ، وسلك فى القراءة طريقتهم ، ولم تزل العلماء فى زمانه تعرف له بقدمه ، وتقر له بفضله ، وتأتم فى القراءة بمذهبه(٢) » . وما أصدق قول مكى بن سوادة فيه :ـــ

الجامعُ العلمَ ننساه ويَحْفَظُـــهُ والصادقُ القول إنْ أَنْدَادُه كذبوا(٣)

وأخيرا ، لعل ما رويناه عن ورع أبى عمرو وتقواه وتواضعه فى سبيل المعرفة يجعلنا نتخذ موقف التحفظ مما رواه الأصمعى من أنه « سمع أبا عمرو يقول : (ما رأيت أحداً قَطُّ أَعْلَمَ منى) قال الأصمعى : ولم يقله إن شاء الله بَغْياً ولا تطاولا »(٤) ونحن نقول إنَّ من كان فى مقام أبى عمرو من النُّسُكِ والورع والعلم يَبْعُدُ أن يقول هذه المقالة تطاولا أو تفاخرا ، بل ولا من باب تقرير الواقع ، كما ظن الأصمعى . رحم الله أبا عمرو ، وأثابه بقدر ما أفاد العلماءُ والمتأدبون من تراثِه الخالدِ ، وإنه لثواب جزيل .

أبناء أبى عمرو

ولعل من المفيد بعد أن سردنا سيرته أن نتساءل : هل كان لأبى عمرو أولاد ؟ ...

---

(١) مفردات الدانى ـــ مخطوط .

(٢) المرجع السابق .

(٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٤١ .

(٤) طبقات القراء جـ ١ ص ٢٩٠ .

لقد جهدت فى تتبع هذه المسألة فى مظانها ، فلم أجد شيئا ذا بال فى هذا الصدد ، اللهم إلا ما ذكره ابن الجزرى فى ختام حديثه عنه قال : قال أبو عمرو الأسدى : لما أتى نَعِيُّ أبى عمرو أتيت أولاده فعزيتهم عنه ، فإنى لعندهم إذ أقبل يونس ابن حبيب فقال : « نعزيكم وأنفسنا بمن لانرى شبها له آخر الزمان ، والله لو قسم علم أبى عمرو وزهده على مائة إنسان لكانوا كلهم علماء زهادا ، والله لو رآه رسول الله ﷺ لسره ماهو عليه » . فالنص يوحى بأنه قد كان له أكثر من ولد ، بل أكثر من اثنين ، ولكننى لم أجد تفصيلا لهذه العبارة المجملة إلا ما ورد فى كتاب الحيوان للجاحظ ونصه : « ومدح الممزق ـــ أبو عبادة ابن الممزق ، بشر ابن أبى عمرو ـــ وليس هو بشر بن أبى عمرو بن العلاء ، فقال : (وأنشد أبياتا خمسة)[1] . وعلى الرغم من سلبية هذا النص فإن فيه دليلا على أنه كان له ولد يسمى (بشرا) ، وليس هو المقصود بمدح الممزق . وقد ورد فى رواية الأصمعى « أن ابنته كانت تحضر مجلسه »[2] . كما سبقت إشارة إلى أحد أبنائه فى لقاء مع بشار ، وقد كنا نتمنى أن تذكر كتب الطبقات تفاصيل كثيرة عن حياة أبى عمرو وأسرته ، ولكن يظهر أن اشتغال مؤلفيها بالحديث عن شخصه وعلمه قد غطى لديهم على أخبار أسرته ، فمضى هذا الجانب دون تحقيق من الرواة ، على خلاف ماحدث من اهتمامهم بذكر إخوته ، ربما لأنهم كانوا أنبه من أبنائه شأنا ، وأوثقهم صلة بمجالات العلم والعلماء . على أن ابن خالويه ذكر فى كتابه عن شواذ القرآن رواية لبشر بن أبى عمرو عن أبيه[3] ، وهو مايدل على اتصال أبنائه بالعلم ، شأن غيرهم من نَوَابِهِ الشباب . وذكر ابن هشام فى سيرته رواية عن ابن أبى عمرو بن العلاء[4] .

* * *

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ ٥ ص ٥٥ طبعة المغربى التونسى .

(٢) طبقات النحويين ص ٣٢ .

(٣) مختصر فى شواذ القرآن من كتاب البديع ص ٤٣ المطبعة الرحمانية ١٩٣٤ نشر برجشتراسر .

(٤) سيرة النبى جـ ٢٢٥/٢ — تحقيق محمد محيى الدين .

الفصل الثاني

القارئ أبو عمرو بن العلاء

مكانته بين القراء

عرض أبو عمرو قراءته بمكة على طائفة من الأئمة بلغت عدتهم ثمانية ، هم :

(١) عبد الله بن كثير بن عمرو بن عبد الله بن زاذان بن فيروزان بن هرمز — مولى مكى — تابعى . (توفى عام ١٢٠ هـ) .

(٢) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكى (توفى عام ١٠٣ هـ) .

(٣) عكرمة بن خالد بن العاص ، أبو خالد المخزومى المكى — تابعى (توفى عام ١١٥ هـ) .

(٤) عطاء بن أبى رباح بن أسلم ، أبو محمد القرشى المكى — مولى (توفى عام ١١٥ هـ) .

(٥) عكرمة أبو عبد الله المفسر ، مولى ابن عباس (توفى عام ١٠٧ هـ) .

(٦) محمد بن عبد الرحمن بن محيصن السهمى — مولى مكى (توفى عام ١٢٣ هـ) .

(٧) حميد بن قيس الأعرج ، أبو صفوان المكى . (توفى عام ١٣٠ هـ) .

(٨) سعيد بن جبير بن هشام الأسدى ، تابعى ، مولى (توفى عام ٩٤ هـ)

هؤلاء الأئمة كانوا جميعا بمكة حين عرض عليهم أبو عمرو ، بل أغلب الظن أنهم لم يبرحوها حتى قبضوا . إلا أن فى تلقيه عن سعيد بن جبير بمكة ملاحظات نثبتها هنا تحقيقا للأمر ، فإن ابن الجزرى حين أسند القراءة فى كتابه (النشر) [١] لم يذكر سعيد بن جبير ضمن من عرض عليهم أبو عمرو قراءته ، ولعله سها عن ذكره فى هذا الموضع ، لأنه ذكره فى الطبقات ، سواء فى ترجمة أبى عمرو أو فى ترجمة سعيد بن جبير .

وقد حاولت أن أحدد الفترة التى تلقى أبو عمرو خلالها عن سعيد ،

---

(١) النشر ١ ص ١٣٣ .

لاسيما إذا علمنا أنه كان فقيه الكوفة ومفتيها ، وكان أهل الكوفة إذا جاءوا إلى عبد الله ابن عباس يستفتونه أحالهم إلى سعيد ، فقد روى ابن سعد فى طبقاته : « أخبرنا أحمد ابن عبد الله بن يونس قال : حدثنا يعقوب القمى عن جعفر ابن أبى المغيرة قال : كان ابن عباس بعدما عمى إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه قال : تسألونى وفيكم ابن أم دهماء ؟ قال يعقوب : يعنى سعيد بن جبير »(١) .

وقد كُفَّ بصر ابن عباس فى أواخر حياته ، وكانت وفاته (عام ٦٨ هـ)(٢) . وهذا يدلنا على أن ابن جبير كان مقيما بالكوفة ، فهل التقى أبو عمرو به بالكوفة وقرأ عليه .. ؟

لعل من المفيد للإجابة عن هذا السؤال أن نتتبع حياة ابن جبير فى إيجاز ، فقد نصل إلى إجابة واضحة فيه ، « فقد كان فى أول أمره كاتبا لعبد الله بن عتبة بن مسعود ، ثم كتب لأبى بردة الأشعرى ، ودخل أصبهان ، وأقام بها مدة ، ثم رحل إلى العراق ، وسكن قرية سنبلان ، وكان لايحدث بأصبهان ، وحدث بالكوفة ، فسئل عن ذلك فقال : أَنْشُرْ بَزَّكَ حيثُ يُعْرَف »(٣) .

وتعتبر حياة ابن جبير فى الكوفة هى الفترة المستقرة فى حياته ، فقد جدت أحداث بعد ذلك بالعراق ، كان أبرزها أنه كان مع عبد الرحمن بن الأشعث فى خروجه على عبد الملك بن مروان (حوالى سنة ٨٠ هـ) ، ودامت المعركة بين ابن الأشعث والحجاج سنتين أو ثلاثا ، حتى كانت وقعة (دير الجماجم) بينهما فى (شعبان سنة ٨٣ هـ)(٤) ، فقتل ابن الأشعث(٥) ، وانهزم أصحابه وهرب سعيد بن جبير إلى أصبهان ، فأقام بها ، مدة ولما طورد هرب إلى أذربيجان ، وطال عليه القيام بها

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٧٥ طبعة بيروت .

(٢) طبقات القراء جـ ١ ص ٤٢٦ .

(٣) دائرة معارف البستانى جـ ٩ ص ٦١٩ .

(٤) المرجع السابق جـ ١١ ص ٥٦١ .

(٥) فى دائرة المعارف عبارة أحسبها خطأ ، ونصها : (فلما قتل عبد الملك وانهزم أصحابه) والصواب فيما أرى : عبد الرحمن .

فاغتمّ فخرج إلى مكة ، وبقى مدة مستخفيا ، يقول ابن الأثير « كان سعيد بن جبير بمكة هو وجماعة من أمثاله يستخفون فلا يخبرون أحدا بأسمائهم »(١) .

فلما ولى خالد بن عبد الله القسرى مكة من قبل الحجاج (عام ٩٣ هـ) قبض على سعيد وأرسله إلى الحجاج حيث قتله عام (٩٤ هـ)(٢) ، وبذلك تكون المدة التى قضاها ابن جبير بمكة هى المدة التى كان فيها هاربا من بغى الحجاج ، وهى فترة لم تكن مطلقا لتقل عن خمس سنوات ، حتى كان اعتقاله على يد خالد القسرى .

والذى نراه أن أبا عمرو قد تمكن من عرض قراءته عليه خلال تلك الفترة العصيبة ، وليس يحول بيننا وبين افتراض مثل هذا ماذكره ابن الأثير من أن الهاربين من ظلم الحجاج لم يكونوا يخبرون أحدا بأسمائهم ، لأن من العسير على هارب أن يعيش فى مدينة كمكة مستخفيا ، دون أن يعاونه على الاستخفاء من يثق به من تلاميذه ومريديه ، فلو افترضنا جدلا أن أبا عمرو لقى سعيدا بالكوفة فى سن العاشرة (سنة ٨٠ هـ) وهو أبعد احتمال فى المسألة ، فما كان له أن يخفى عليه حين يفد إلى مكة هاربا ، هذا إلى أن سعيدا لم يكن غريبا عن مكة ، بل كانت له إليها رحلات كثيرة ، يؤيد ذلك ما رواه ابن سعد فى طبقاته : « عن سعيد بن جبير قال : لما أصاب ابنَ عُمَرَ الخبلُ الذى أصابه بمكة فَرُمِىَ حتى أصابَ الأرض ، فخاف أن يمنعه الألم ، فقال : يا ابن أم الدهماء اقْضِ بى المناسك(٣) » فسعيد هنا فى موسم الحج يلتقى بابن عمر فى أواخر حياته ، ورحلة كهذه قد تستغرق شهورا طويلة تقتضيه الإقامة بمكة مجاورا ، ومتلقيا عن الصحابة علمهم وقراءتهم ، ولكن من غير المعقول أن يكون أبو عمرو قد تلقى عن ابن جبير فى مثل هذه الفترة ، لأنه كان آنذاك ابن ثلاث سنوات أو أقل ، فقد مات ابن عمر (عام ٧٤ هـ)(٤) . ثم إن هناك حقيقة مقررة هى أن ابن

---

(١) الكامل جـ ٤ ص ١٣٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الطبقات الكبرى جـ ٤ ص ١٨٥ .

(٤) الطبقات الكبرى جـ ٤ ص ١٨٨ .

جبير منذ الفترة التى كان فيها أبو عمرو غلاما فى العاشرة – لم يذق طعم القرار ، بل كان فى مطاردة دائمة ، إلى أن استقر به المقام بمكة فى رحلته الأخيرة ، التى انتهت بموته .

فلم يبق إلا الاحتمال الذى رأيناه ، وهو أن يكون أبو عمرو قد عرض عليه خلال فترة وجوده بمكة من حوالى عام (٨٩) إلى عام (٩٤ هـ) ، حين غادر أبو عمرو مع أبيه مكة فى رحلة إلى البصرة ثم إلى خارجها هربا إلى اليمن ، ووقع ابن جبير بعدها فى يد خالد القسرى .

وبذلك يكون سعيد بن جبير من الأئمة الذين تلقى عنهم أبو عمرو فن القراءة بمكة لا بالكوفة ، كما تذكر الروايات [١] . وان كان سعيد من أئمتها المعدودين .

فهؤلاء هم أئمة القراءة بمكة .

أما قراء المدينة الذين أخذ عنهم أبو عمرو قراءتهم فهم :

(١) يزيد بن رومان أبو روح المدنى ، مولى الزبير ، تابعى (توفى عام ١٢٠ هـ) .

(٢) أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومى المدنى القارىء ، تابعى (توفى عام ١٣٠هـ) .

(٣) شيبة بن نصاح بن سرجس بن يعقوب المدنى ، مولى أم سلمة ، تابعى (توفى عام ١٣٠ هـ) .

(٤) رفيع بن مهران أبو العالية الرياحى ، تابعى (توفى عام ٩٦ هـ) .

ونظرة إلى تاريخ وفاة أبى العالية تؤكد لنا أن أبا عمرو كان قد رحل إلى المدينة فى طلب القراءة قبل أن يستقر به المقام بالبصرة ابتداء من أواخر عام (٩٥ هـ) .

وإذا أحصينا قراء البصرة الذين أخذ عنهم وجدناهم :ـــ

(١) يحيى بن يعمر النحوى البصرى (توفى عام ١٢٩ هـ) .

(٢) نصر بن عاصم الليثى (توفى عام ٩٠ هـ) أوقبل (عام ١٠٠ هـ) .

---

(١) طبقات القراء جـ ١ ص ٣٠٥ .

(٣) عبد الله بن إسحاق الحضرمى النحوى البصرى (توفى عام ١٢٩ هـ) .

(٤) الحسن ابن أبى الحسن البصرى . (توفى عام ١١٠ هـ) .

يضاف إلى هؤلاء شيخ أغفل ابن الجزرى ذكره فى النشر ، وإن كان ذكره فى الطبقات هو : —

(٥) الوليد بن بشار ، أبو بشار البصرى ، أحد شيوخ البصرة (لم تعرف سنة وفاته) .

حدث الأصمعى قال : (كان أبو عمرو يقرأ عليه ، فلما أسن كان يقرأ على أبى عمرو ، وقد روى عن أبى عمرة الإدغام والحروف) (١) . والظاهر أنه لم يكن ذا شأن يذكر ، فلذا أهمله ابن الجزرى ، كما أهمله أبو عمرو الدانى فى حديثه عن إسناد قراءة أبى عمرو فى مفرداته (٢) .

ويأتى من الكوفة شيخ واحد (روى عنه أبو عمرو حروفا من القرآن) (٣) هو :

(١) عاصم بن بهدلة بن أبى النجود — شيخ الإقراء بالكوفة (توفى عام ١٢٠ هـ) ويبدو من رواية ابن الجزرى هذه أن أبا عمرو لم يتأثر كثيرا فى اختياره بقراءة عاصم ، بل روى عنه حروفا من القرآن قليلة ، لأنه فيما يبدو قد عرض على عاصم متأخرا ، أى بعد أن استقر على طريقته فى اختيار حروف قراءته .

فإذا نحن تتبعنا مصادر هؤلاء الأئمة الثانية عشر الذين ثبت أخذه عنهم ، وجعلنا إحصاءنا فى طبقة الصحابة وحدهم وجدنا أن أبا عمرو قد انتهت إليه قراءة عدد كبير من الصحابة عن رسول الله ﷺ ، وسنحاول أن نعرض هنا فى إيجاز سند كل منهم لتتضح لنا هذه الحقيقة .

★ فأبو جعفر يزيد بن القعقاع قرأ على مولاه عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة ،

---

(١) طبقات القراء جـ ١ ص ٢٨٩ وجـ ٢ ص ٣٥٩ .

(٢) مفردات الدانى — مخطوط .

(٣) طبقات القراء جـ ١ ص ٣٤٨ .

الذى أخذ عن أبى بن كعب[١] ، وقرأ على عبد الله بن عباس وأبى هريرة[٢] .

★ ويزيد بن رومان قرأ على عبد الله بن عياش[٣] (بسنده السابق) .

★ ويحيى بن يعمر قرأ على أبى الأسود[٤] الذى أخذ عن عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب[٥] .

★ ومجاهد بن جبر قرأ على عبد الله السائب[٦] على عمر بن الخطاب ، وعلى عبد الله.بن عباس[٧] .

★ ومحمد بن عبد الرحمن بن مُحَيْصِنٍ قرأ على مجاهد (بسنده السابق) ، وقرأ على درباس الذى أخذ عن ابن عباس ، وقرأ على سعيد بن جبير الذى أخذ عن ابن عباس أيضا[٨] .

★ وسعيد بن جبير (سبق سنده) .

★ ونصر بن عاصم قرأ على أبى الأسود[٩] (بسنده السابق) .

★ وعاصم بن أبى النجود قرأ على زر بن حبيش الذى أخذ عن ابن مسعود وعثمان وعلى [١٠] ، وقرأ على أبى عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمى الضرير ، الذى أخذ عن ابن مسعود وعثمان وأُبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت[١١] ، وقرأ على أبى عمرو سعد بن إلياس الشيبانى الذى أخذ عن ابن مسعود[١٢] .

---

(١) طبقات القراء جـ ١ ص ٤٣٩ .
(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٨٢ .
(٣) طبقات القراء جـ ٢ ص ٣٨١ .
(٤) السابق .
(٥) السابق جـ ١ ص ٣٤٦ .
(٦) السابق ص ٤٢٠ .
(٧) السابق جـ ٢ ص ٤١ .
(٨) السابق جـ ١ ص ٣٠٥ وجـ ٢ ص ١٦٧ .
(٩) السابق جـ ٢ ص ٣٣٦ .
(١٠) السابق جـ ١ ص ٢٩٤ .
(١١) السابق جـ ١ ص ١٥٥ .
(١٢) السابق .

★ وعكرمة مولى ابن عباس قرأ على ابن عباس ، وأبى هريرة ، وعبد الله بن عمر[١] .

★ وعكرمة بن خالد قرأ على ابن عباس وابن عمر[٢] .

★ وعطاء بن أبى رباح قرأ على أبى هريرة[٣] .

★ وعبد الله ابن أبى إسحاق الحضرمى قرأ على يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم[٤] . (بسندهما السابق) .

★ ورفيع بن مهران أبو العالية الرياحى قرأ على أبى بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس ، وعمر بن الخطاب[٥] .

★ وحميد بن قيس الأعرج قرأ على مجاهد بن جبر[٦] . (بسنده السابق) .

★ وعبد الله بن كثير قرأ على عبد الله السائب . وعلى مجاهد ودرباس[٧] . (بسندهما السابق) .

★ وشيبه بن نصاح قرأ على عبد الله بن عياش[٨] . (بسنده السابق) .

★ والحسن البصرى قرأ على حطان بن عبد الله الرقاشى عن أبى موسى الأشعرى ، وقرأ على أبى العالية[٩] . (بسنده السابق) .

★ والوليد بن بشار قرأ على الحسن البصرى[١٠] . (بسنده السابق) .

---

(١) السابق جـ ١ ص ٥١٥ .
(٢) السابق .
(٣) السابق جـ ١ ص ٥١٣ .
(٤) السابق جـ ١ ص ٤١٠ .
(٥) السابق جـ ١ ص ٢٨٤ .
(٦) السابق جـ ١ ص ٢٦٥ .
(٧) السابق جـ ١ ص ٤٤٣ .
(٨) السابق جـ ١ ص ٣٣٠ و ٤٤٠ .
(٩) السابق جـ ١ ص ٢٣٥ .
(١٠) السابق جـ ١ ص ٢٨٩ وجـ ٢ ص ٣٥٩ .

ولم نذكر ابن أبى عقرب لأنه لم يكن قارئا ، بل كان عالما بالعربية ، أخذ عنه أبو عمرو علم اللغة والنحو .

ومن هذا الإحصاء يظهر لنا أن عدد الصحابة الذين استقى أبو عمرو قراءتهم عن شيوخه بلغ أحد عشر ، هم أقطاب القراءة والمشتغلون بها بعد النبى ﷺ ، وهم :ـــ عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وأبى بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن السائب . وهذا العدد فيما نرى يعد قياسيا بالنسبة إلى ما بلغه أى قارىء من القراء العشرة ، بل لم يبلغه أحد ممن أخذ عنهم أبو عمرو ، ولعل هذا الإحصاء يرينا أن أبا عمرو كان بمثابة المصّب الذى انتهت عنده مدارس القراءة جميعا ، فسكبت فى قلبه وعقله كل ماروى عن النبى ﷺ من علم القرآن .

فإذا أضفنا إلى ذلك عروبته الأصيلة ، وأرومته العريقة فى تميم ، دون غيره من القراء تقريبا ـــ باستثناء ابن عامر ـــ أدركنا السر فى أنه كان يختار قراءته ، ولا يتبع فيها طريقة إمام معين من شيوخه الكثيرين ، لقد كان يقف على أرض صلبة من العلم بالقرآن ، والإحاطة بكل ما جازت قراءته به من الوجوه . فأخذ يختار من كل طريق أحسنه ، ومن هنا امتازت قراءته باختيارات لم تشركها فيها قراءة أخرى من القراءات العشر .

والجانب الآخر الذى نرى أنه يلقى ضوءا كاشفا على أبى عمرو هو أن نأخذ فكرة واضحة عن مكانته بين القراء العشرة ، فربما بان لنا امتيازه عليهم من مجرد عرض أسمائهم وأنسابهم :

(١) نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم المدنى ـــ مولى جعونة بن شعوب الليثى ، ويكنى أبارويم ، من أصفهان ـــ (توفى عام ١٥٧ هـ)[١] .

---

(١) النشر جـ ١ ص ٩٩ وطبقات القراء جـ ٢ ص ٣٣٠ .

(٢) أبو معبد عبد الله بن كثير المكى ـــ مولى عمرو بن علقمة ـــ مولى (توفى عام ١٢٠ هـ)[١] .

(٣) أبو عمرو بن العلاء البصرى المازنى ـــ من تميم . (توفى عام ١٥٤ هـ)[٢] .

(٤) عبد الله بن عامر الدمشقى التابعى ـــ بن يزيد بن تميم بن ربيعة بن عامر ابن عبد الله بن عمران اليحصبى (توفى عام ١١٨ هـ)[٣] .

(٥) عاصم بن بهدلة بن أبى النجود الكوفى ـــ مولى (توفى عام ١٢٧ هـ)[٤] .

(٦) حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الزيات الكوفى ، ويكنى أبا عمارة ، مولى (توفى عام ١٥٦ هـ)[٥] .

(٧) أبو الحسن على بن حمزة النحوى الكسائى الكوفى المخزومى ـــ مولى (توفى عام ١٩٠ هـ)[٦] .

(٨) أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومى المدنى ـــ مولى (توفى عام ١٣٠ هـ)[٧]

(٩) يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبى اسحاق ، أبو محمد الحضرمى البصرى ـــ مولى (توفى عام ٢٠٥)[٨] .

(١٠) خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب بن هشيم بن ثعلب بن داود بن مقسم بن غالب أبو محمد الأسدى البغدادى (توفى عام ٢٢٩)[٩] .

---

(١) السابقان جـ ١ ص ١٠٩ وجـ ١ ص ٤٤٣ .
(٢) السابقان جـ ١ ص ١٢٣ وجـ ١ ص ٢٨٨ .
(٣) السابقان جـ ١ ص ١٣٥ وجـ ١ ص ٤٢٣ .
(٤) السابقان جـ ١ ص ١٤٦ وجـ ١ ص ٢٦١ .
(٥) السابقان جـ ١ ص ١٥٨ وجـ ١ ص ٢٦١ .
(٦) السابقان جـ ١ ص ١٩٩ وجـ ١ ص ٥٣٥ .
(٧) السابقان جـ ١ ص ١٧٤ وجـ ٢ ص ٣٨٢ .
(٨) السابقان جـ ١ ص ١٨٠ وجـ ٢ ص ٣٨٦ .
(٩) السابقان جـ ١ ص ١٨٨ وجـ ١ ص ٢٧٢ .

ومن هذا العرض يمكن أن نستخرج ملاحظات هامة هى :ـــ

(١) أن سبعة على الأقل من هؤلاء القراء العشرة هم من الموالى ، وواحد مسكوت عن تحديد جنسه ، وهو (خلف بن هشام) ، وليس بينهم من هو عربى الأصل قطعا سوى أبى عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن عامر الْيَحْصُبِىّ .

(٢) أن من بينهم سبعة اشتهروا بالقراءة فحسب ، دون أن يخوضوا فى حديث النحو أو اللغة ، وهم : نافع ، وابن كثير ،وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، وأبو جعفر ، وخلف ، واشتغل يعقوب والكسائى بالنحو إلى جانب القراءة ، والأول نحوى بصرى فى الطبقة الخامسة [١] . وقد اشتغل باللغة أيضا [٢]، والثانى نحو كوفى فى الطبقة الثانية [٣] . وأما أبو عمرو فهو القارىء النحوى اللغوى ، قارىء فى الطبقة الثالثة [٤]. ونحوى فى العلبقة الرابعة بين نحاة البصرة [٥]، ولغوى فى الطبقة الثانية بين لغويى البصرة [٦]،وهكذا ينفرد إمامنا بين القراء العشرة الكبار بالنبوغ فى فنون العربية الثلاثة (النحو واللغة والقراءة) . وإن أشبهه قليلا تلميذه يعقوب .

وأبو عمرو لايسبقه فى الوجود الزمنى من القراء سوى ابن عامر وابن كثير وأبى جعفر وعاصم ، كما لايسبقه من النحاة سوى أبى الأسود الدؤلى ، وعبد الرحمن بن هرمز (فى الطبقة الأولى) [٧] ، ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر ، وعنبسة الفيل ، وميمون الأقرن (فى الطبقة الثانية) ، ثم يأتى ابن أبى عقرب وعبد الله بن أبى إسحاق (فى الطبقة الثالثة) [٨] ، ويليهم أبو عمرو .

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ص ٥١ .
(٢) بغية الوعاة ص ٤١٨ .
(٣) المرجع السابق ص ١٣٨ .
(٤) التبصرة ـــ مخطوط ١٧٣ دار الكتب .
(٥) طبقات النحويين واللغويين ص ٢٨ .
(٦) المرجع السابق ص ١٧٦ .
(٧) المرجع السابق ص ١٩ .
(٨) المرجع السابق ص ٢٧ .

وهو بين اللغويين البصريين لا يسبقه سوى ثلاثة هم : المنتجع الأعرابى ، وأبو مهدية الأعرابى ، وأبو مالك الأعرابى (فى الطبقة الأولى)[١] ، يليهم أبو عمرو فى (الطبقة الثانية)[٢] .

والمهم أن أبا عمرو قد أفاد من كثرة أساتذته ، وتعدد المدارس التى نهل منها ، مابين مكية ومدنية ، وبصرية وكوفية ، وما بين نحوية ولغوية وقرائية فائدة كبرى ، حيث كان مسموع الكلمة ، نافذ الفتوى بينها جميعا ، فكان مقامه بين القراء أسمى من غيره ، لأنه جمع إلى فقه القراءة فقه النحو ورواية اللغة ، كما كانت مكانته بين اللغويين أسنى من مكانة غيره ، لأنهم يرونه إمام القراءة ، والقرآن هو حصن العربية الشامخ ، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى النحاة .

ولسوف نجد أن النحاة ـــ البصريين على الأخص ـــ رغم ولعهم بالمقاييس وضبط القواعد ، والحكم بالشذوذ على ما خرج عنها من روايات اللغة ـــ هؤلاء النحاة يضعون أبا عمرو فيمن لا تُرَدُّ روايتهم ، ولا تناقش كلمتهم ، بل كانوا ، وفى مقدمتهم سيبويه ، يدورون حول ماروى عنه مستشهدين تارة ، ومفسرين تارة أخرى . ولقد درج سيبويه فى كتابه على اعتبار قول أبى عمرو حجة غير مردودة ، على حين يردّ مايردُ حول هذا القول من تفسيرات قال بها آخرون .

وحسبنا أن نعلم أن تلاميذ أبى عمرو النابهين يعدون طبقة فى القراء والنحاة ورواة اللغة ، وقد عد منهم ابن الجزرى ستة وثلاثين رجلا هم :ـــ

(١) محمد بن الحسن بن أبى سارة .
(٢) يونس بن حبيب .
(٣) يحيى بن المبارك اليزيدى .
(٤) يعلى بن عبيد .

---

(١) السابق ص ١٧٥ .
(٢) السابق ص ١٧٦ .

(٥) هارون بن موسى الأعور .
(٦) نعيم بن ميسرة .
(٧) نعيم بن يحيى السعيدى .
(٨) معاذ بن معاذ .
(٩) مسعود بن صالح .
(١٠) معاذ بن مسلم النحوى .
(١١) محبوب بن الحسن .
(١٢) محمد بن الحسن أبو جعفر الرؤاسى .
(١٣) على بن نصر الجهضمى .
(١٤) عصمة بن عروة الفقيمى .
(١٥) عيسى بن عمر الهمذانى .
(١٦) عبيد بن عقيل .
(١٧) عدى بن الفضل بن عامر الأزدى .
(١٨) عبد الوهاب بن عطاء الخفاف .
(١٩) عبد الوارث بن سعيد .
(٢٠) عبد الملك بن قريب الأصمعى .
(٢١) عبد الله داود الخريبى .
(٢٢) عبد الله بن المبارك .
(٢٣) العباس بن الفضل .
(٢٤) عبد الرحيم بن موسى .
(٢٥) شجاع ابن أبى نصر البلخى .
(٢٦) أبو زيد سعيد بن أوس .
(٢٧) سلام بن سليمان الطويل .
(٢٨) سهل بن يوسف .
(٢٩) خارجة بن مصعب .
(٣٠) خالد بن جبلة اليشكرى .

(٣١) داود بن يزيد الأودى .
(٣٢) حسين بن على الجعفى .
(٣٣) أحمد بن موسى اللؤلئى .
(٣٤) اسحاق بن يوسف بن يعقوب الأنبارى .
(٣٥) أحمد بن محمد بن عبد الله الليثى .
(٣٦) سيبويه[١] .

وإن كان فى اعتباره سيبويه بين تلاميذ أبى عمرو بعض إغراب ، لأن سيبويه ولد عام (١٤٨ هـ)[٢] تبعا لبعض الروايات ، أى قبل وفاة أبى عمرو بست سنوات على الأكثر ، وسيبويه فى هذه السن لايعقل أن يكون قرأ عليه ، ولا أن يكون قد روى عنه الحروف . وهذا الذى نأخذ به من أن سيبويه لم يأخذ عن أبى عمرو مباشرة هو أحد أدلتنا على أنه أخطأ التفسير فى معارضته القراء الذين رووا عن أبى عمرو قراءة الإسكان ، روايةً مباشرة ، على ما سنفصله فى الباب الرابع .

وفى هذا الحصر السريع لجمع من تلاميذ أبى عمرو إشارة بليغة إلى أثره فى تكوين مدارس القراءة والنحو واللغة التى نشأت بعده ، ويكفى أن نعلم أن يعقوب بن إسحاق أحد القراء العشرة من تلامذته ، أو من تلامذة مدرسته ، وسنزيد هذا الأمر وضوحا فيما بعد . بيد أن من بين من عددنا من تلاميذه واحدا يكاد يكون أنبغهم ، ونحب أن نقدم هنا ترجمة له ، لأهميتها فى إلقاء كثير من الضوء على القراءة ، ذلكم هو أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدى ، وهو الذى روى القراءة عنه الراويان المشهوران : أبو شعيب صالح السوسى ، وأبو عمر حفص الدورى ، ولسوف نترجم لهما أيضا هنا لأهمية ذلك فى مناقشة اختلاف الروايات فى الإدغام الكبير ـــ على ماسيأتى .

---

(١) طبقات القراء جـ ١ ص ٢٨٩ . ولم يذكر ابن الجزرى الخليل بن أحمد ، وهو من الآخذين عنه قطعا انظر (سيبويه ـــ إمام النحاة . للأستاذ على النجدى / ٨٧) .

(٢) طبقات النحويين واللغويين ص ٦٦ ، ويقال : إنه ولد عام (١٤٠ هـ) ، وقيل غير ذلك انظر مقدمة (الكتاب) تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

اليزيدى

هو يحيى بن المبارك بن المغيرة أبو محمد العدوى البصرى ، المعروف باليزيدى ، المقرىء ، مولى بنى عدى بن مناة ، وليس منهم ، وعرف باليزيدى لأنه كان منقطعا إلى يزيد بن منصور الحميرى ، خال ولد المهدى ، يؤدب ولده ، فنسب إليه[١] .. واتصل بالرشيد فوكل إليه مهمة تأديب ولده المأمون ، ودامت صلتهما حتى خرج المأمون إلى خراسان فخرج معه ، وتوفى بها سنة اثنتين ومائتين ، قيل عن أربع وسبعين سنة[٢] .. وقيل عن قريب من المائة [٣] .

واليزيدى كما قال الزُّبَيْدِى « من غلمان أبى عمرو بن العلاء فى النحو والغريب والقراءة »[٤] ، ومعنى ذلك أن صحبته له قد طالت إلى حد أنه قد روى عنه أن « ابن أبى العتاهبة كتب عنه قريبا من ألف جلد عن أبى عمرو بن العلاء خاصة ، ويكون ذلك نحو عشرة آلاف ورقة ، لأن تقدير الجلد عشر ورقات »[٥] وكانت بينه وبين أبى عمرو إلى جانب علاقة التلمذة جيرة فى المسكن .. فقد كان يُعَلِّمُ بحذاء منزل أبى عمرو[٦] .. ولم يقتصر اليزيدى فى تلقيه اللغة وفنونها على الأخذ عن أبى عمرو ، فلقد أخذ أيضا علم العربية وأخبار الناس عن أبى عمرو بن إسحاق المغربى ، وعن الخليل ابن أحمد الفراهيدى ، ومن كان معهم فى زمانهم ، إلا أن اعتماده كان على أبى عمرو ، وكان أبو عمرو يدنيه ويقربه إليه لذكائه[٧] . أما من حيث القراءة فقد ذكر ابن الجزرى أنه « أخذ القراءة عرضا عن أبى عمرو ، وهو الذى خلفه بالقيام بها » ، ثم ذكر أنه

---

(١) تاريخ بغداد ــ للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى جـ ١٤ ص ١٤٧ وطبقات النحويين واللغويين ص ٦٠ وبغية الوعاة ص ٤١٤ .

(٢) بغية الوعاة ص ١٤ وطبقات القراء جـ ٢ ص ٣٧٧ .

(٣) طبقات القراء جـ ٢ ص ٣٧٧ .

(٤) طبقات النحويين واللغويين ص ٦٠ ومابعدها .

(٥) تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٤٧ .

(٦) المرجع السابق .

(٧) المرجع السابق .

أخذ أيضا عن حمزة[١] ، بيد أن ابن مجاهد قال : « وإنما عولنا على اليزيدى ، وإن كان سائر أصحاب أبى عمرو أَجَلَّ منه ، لأجل أنه انتصب للرواية عنه ، وتجرد لها ، ولم يشتغل بغيرها وهو أضبطهم[٢] .. » وهذا الكلام من ابن مجاهد يدل على أن اليزيدى كان متفرغا تمام التفرغ للأخذ عن أبى عمرو ، دون الاشتغال بغيره ، وأنه إن كان أخذ عن حمزة ، فإن ذلك لا يعدو مجرد الإلمام بقواعد حروفه ، دون التعويل عليها فى القراءة أو الرواية ، واليزيدى مُجْمَعٌ على أنه ثقة ضابط عادل ، قال ابن المنادى : « أكثرت السؤال عن اليزيدى ومحله من الصدق ومنزلته من الثقة من شيوخنا ، بعضهم أهل عربية ، وبعضهم أهل قرآن وحديث ، فقالوا : ثقة صدوق ، لا يُدْفَعُ عن سماع ، ولا يُرْغَبُ عنه فى شيء ، غيرَ ما يتوهم عليه من الميل إلى المعتزلة[٣] » .

ويكاد اليزيدى بما عرف عنه من علم بالقراءة واللغة والنحو أن يكون صورة لشيخه أبى عمرو ، الذى جمع فى صدره العلم بالفنون الثلاثة ، حتى صار فيها جميعا إمام الناس ، ويبدو أن هذه كانت الصورة المثلى لمن يريد أن يتصدر فى مجالس العلم ، فقد كان النحو لازما للدفاع عن أوجه القراءات كما كانت اللغة لازمة للغرض ذاته .

وقد روى القراءة عن اليزيدى جمع كبير من بينهم أولاده الخمسة محمد ، وعبد الله ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، وابن ابنه أحمد بن محمد .. ومنهم أيضا الراويان الشهيران : أبو عمر الدورى ، وأبو شعيب السوسى ، ومنهم : محمد بن سعدان ، وأحمد بن جبير ، ومحمد بن شجاع[٤] .. بيد أن أهم تلامذته قاطبة : الدورى والسوسى ، وإليهما تسند جميع روايات القراءة عن اليزيدى .

وقد خالف اليزيدى أبا عمرو فى حروفٍ يسيرة اختارها وقرأ بها ، وهى مذكورة فى ترجمته فى (طبقات القراء ...) . أما راوياه الكبيران فهما : —

---

(١) طبقات القراء جـ ٢ ص ٣٧٥ .

(٢) طبقات القراء جـ ٢ ص ٣٧٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٧٦ .

(٤) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٧٥ ، ٣٧٦

أ ــ أبو عُمَرَ الدوريُّ

هو حفص بن عمر بن عبد العزيز بن صهبان بن عدى بن صهبان ، يقال : صهبيب ، أبو عمر الدورى الأزدى البغدادى النحوى الدورى الضرير(١) : « والدور » التى ينسب إليها لفظه تطلق على مواضع سبعة بأرض العراق ، من نواحى بغداد(٢) ..، ومحلة أبى عمر واحدة من بينها « فى الجانب الشرقى »(٣) .

وقد رحل الدورى فى طلب القراءات ، وقرأ بسائر الحروف السبعة وبالشواذ ، وسمع من ذلك شيئا كثيرا ، ولكنه اشتهر برواية قراءة الكسائى ، ومال إليها ، فكان يقرىء الناس بقراءته(٤) . وذكر هذه الرواية أيضا ابن حجر فى طبقاته(٥) .. وقرأ حرف أبى عمرو على يحيى بن المبارك اليزيدى(٦) . وصار من رواته الكبار . ومعنى هذا أنه لم يكن متفرغا لقراءة أبى عمرو شأن شيخه اليزيدى ، وربما كان هذا هو السر فى شهرته وفى اهتمام كتب الطبقات جميعها بسيرته ، وهو فى الوقت ذاته يدعونا إلى عدم التمسك بروايته أحيانا حيث نؤثر عليها رواية السوسى (وستأتى ترجمته) . والدورى فى روايته محل خلاف بين العلماء ، فابن الجزرى يقول : « إنه ثقة ضابط كبير »(٧) ولعل ذلك ينطبق على روايته للقراءة ، ولكنا إذا فحصنا درجته فى رواية الحديث وجدنا أنه يوصف تارة بالثقة ، فقد عده ابن حبان فى الثقات(٨) ..

---

(١) طبقات القراء جـ ١ ص ٢٥٥ . وتهذيب التهذيب جـ ٢ ص ٤٠٨ .

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموى جـ ٤ ص ٩٧ .

(٣) طبقات القراء جـ ١ ص ٢٥٥ .

(٤) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٢٠٣ .

(٥) تهذيب التهذيب جـ ٢ ص ٤٠٨ .

(٦) طبقات القراء جـ ١ ص ٢٥٥ .

(٧) المرجع السابق .

(٨) تهذيب التهذيب ــ السابق .

وقال أبو حاتم : صدوق ، وقال أبو داود رأيت أحمد (يعنى أحمد بن حنبل) يكتب عنه ، وأخرى يوصف بالضعف ، قال الدار قطنى : ضعيف[(١)] بيد أن الحكم العام عليه أنه كما قال ابن سعد : « كان عالما بالقرآن وتفسيره[(٢)] » .

ولا شك أننا إذا وضعنا فى اعتبارنا كثرة ما اهتم به من القراءات ، وما تصدى له من الروايات ، ثم اختلاف الأحكام التى أصدرها المحدِّثون بشأنه ، دعانا كل هذا إلى التحفظ بشأن رواياته التى يختلف فيها مع السوسى وسائر رواة قراءة أبى عمرو ، وبخاصة تلك الروايات التى ينفرد بها ، دون بقية الرواة ، وستأتى لذلك أمثلة . هذا وقد عاش الدورى دهرا طويلا ، فقد قال الذهبى : مات عن بضع وتسعين سنة ، وكانت وفاته فى شوال (سنة ٢٤٦ هـ) على أصح القولين [(٣)] .

ب – أبو شعيب السوسى

هو صالح بن زياد بن عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم بن الجارود بن مسرح الرستبى ، أبو شعيب السوسى الرق ، المقرىء ، (والسوسى نسبة إلى السوس ـــ مدينة بخوزستان) . سكن الرقة[(٤)] . وهى مدينة مشهورة على الفرات[(٥)] . ويبدو أن شخصية السوسى لم تكن ذات شأن كبير فى نظر معظم من كتبوا فى الطبقات .

ولكن فيما كتبه ابن حجر وابن الجزرى مقنعا . وإن كان هذا الأخير قد خصه بقليل من العناية ، بعكس ترجمته للدورى ، وقد قرر أنه ضابط محرر ثقة ، وقرر أيضا أنه أخذ القراءة عرضا وسماعا عن أبى محمد اليزيدى ، وهو من أجل أصحابه ، [(٦)] وأكد أنه لم يقرأ على غيره . فهو فى هذه الناحية يمتاز ـــ فى رأينا ـــ على أبى عمر الدورى ، لأنه قد أفرغ نفسه إفراغا لضبط حروف أبى عمرو وروايتها .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .
(٣) طبقات القراء جـ ١ ص ٢٥٧ وتاريخ بغداد جـ ٢ ص ٤٠٨ .
(٤) تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ٣٩٢ .
(٥) معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٧٢ .
(٦) طبقات القراء جـ ١ ص ٣٣٣ .

أما ابن حجر فبعد أن ذكر من روى عنهم ومن رووا عنه قال : قال أبو حاتم : صدوق ، وقال النسائى : ثقة ، وذكره فى الثقات . وضَعَّفَهُ مسلم بن قاسم الأندلسى بلا مستند ، وقال ابن أبى عاصم فى بعض تصانيفه : حدثنا صالح بن زياد وكان خيارا . وفى الصيام من شعب « البيهقى » عن مطين قال : « صالح بن زياد السوسى » بالرقة ، وهو أفضل من رأيته [١] .

فها نحن أولا نرى أن « ابن حجر » حين ذكر حكم مسلم بن قاسم عليه بالضعف عقب عليه بما يبطله ، فذكر أنه « بلا مستند » ، ومعنى ذلك أن السوسى « مجمع على وثاقة روايته سواء فى القراءات أم فى الحديث » .

فإذا أضفنا إلى ذلك تفرغه التام لقراءة أبى عمرو دعانا ذلك إلى الاطمئنان إلى روايته عن « اليزيدى » ، والأخذ بها ، مالم يكن هنالك مايطعن روايته من الروايات الأخرى . وتوفى السوسى بالرقة سنة (٣٦١ هـ) ودفن بها ، وله من العمر نحو من السبعين[٢] .

* * *

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ٣٩٢ .

(٢) طبقات القراء ـــ السابق .

الفصل الثالث

أبو عمرو بين قومه وروايته

قوم أبي عمرو : قلنا من قبل : إن أبا عمرو من تميم ، ونريد فى هذا الفصل أن نقدم تعريفا بهذه القبيلة ، وبلهجتها ، تلك التى كان لها فيما نرى أثر عميق فى ثقافة أبى عمرو واتجاهه فى قراءته . فتميم لم تكن قبيلة صغيرة قليلة الشأن فى الجاهلية ، وإنما هى كما قال ابن حزم : (قاعدة من أكبر قواعد العرب)(١) ، وهى تعد فى مقابل قيس وربيعة ، وهى الممثلة لمجموعة مضر فى بعض الأحيان . وقد كانت تميم فى القرن السادس الميلادى قبيلة بارزة ظاهرة ، بطونها منتشرة فى العربية الشرقية ، وفى نجد ، وفى العراق ، وفى أنحاء مختلفة من جزيرة العرب مجاورة لقبائل معروفة مثل أسد وغطفان وبنى عبد القيس وتغلب ، متصلة بها .

وقد كانت لتميم صلات متينة بملوك الحيرة ، وكان من عادتهم جعل الردافة فى بطن من بطونهم ، وهم بطن بنى يربوع ، وكان منهم من يعبد الأصنام ، وكان صنمهم (شمس) تعبده بنوأدّ كلها ، وتميم وعدى وعكل وثور . وعبدت طائفة منهم النجوم ، وكان بعض منهم على النصرانية ، وبعض على المجوسية ، وقد أخرجت هذه القبيلة عددا من الشعراء فى الجاهلية والإسلام .

وقد أدى تعدد بطون تميم وانتشارها إلى نشوب حروب بينها ، وإلى تكتلها كتلا ، وتكوين أحلاف بينها ، كالحلف الذى كان بين بنى يربوع وبنى نهشل . وحسب تميم أن كان منها : أكثم بن صيفى ، وهو من أحكم العرب فى الجاهلية من بنى شريف ، وحنظلة بن ربيعة ، ابن أخى أكثم ، وقد كتب الوحى للنبى ﷺ ، وأوس بن حجر الشاعر الجاهلى المعروف ، وكان شاعر مضر حتى أسقطه زهير . وإلى تميم فى الإسلام ينتسب الشاعران جرير والفرزدق ، ويستطيع الباحث أن يعد من بطون تميم المعروفة مايربى على الثلاثين . فهذا هو مدى انتشار تميم وكثرة عديدها .

أما عن فصاحتها فقد كانت تقرن بقريش فى هذه الصفة ، رغم اتصاف لهجتها ببعض الظواهر الخاصة كالعنعنة ، بل لقد استعارت منها لهجة قريش خاصة

---

(١) جمهرة أنساب العرب — لابن حزم ص ١٩٦ .

(تحقيق الهمز)(١) وقد كان أهل الحجاز يسهلونه ، كما استعارت منها خاصة الإدغام ، حتى صارت من أعم الظواهر المطردة على ألسنة الفصحاء — على ماسيأتى .. بل حسب تميم فخرا أن تكون إحدى بطونها فى الفصاحة عدلاً لمربى رسول الله ﷺ ، التى نزل القرآن بلغتها ، فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : (نزل القرآن على سبعة أحرف) ، أو قال بسبع لغات ، ومنها خمس بلغة العجز من هوزان ، وهم الذين يقال لهم « عليا هوازن » وهى خمس قبائل أو أربع ، منها « سعد ابن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف » ، وقال أبو عبيد : « وأحسب أفصح هؤلاء بنى سعد بن بكر » لقول رسول الله ﷺ : « أنا أفصح العرب ميد أنى من قريش ، وأنى نشأت فى بنى سعد بن بكر » وكان مسترضعا فيهم ، وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء : (أفصح العرب عليا هوزان وسفلى تميم)(٢) .

وقد كانت قريش وتميم متجاورتين ، تبادلتا التأثير عن طريق اقتباس بعض الخصائص اللغوية التى أشرنا إليها ، يقول أبو نصر الفارابى فى أول كتابه المسمى « الألفاظ والحروف » : « كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعا ، وأُبْيَنَها إبانة عما فى النفس ، والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد . فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ماأخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب ، وفى الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »(٣) .

فهذه هى تميم التى ينتسب إليها أبو عمرو ، والتى كانت لهجتها تتصف ببعض الخصائص التى ظهرت فى قراءته ، والتى سنقيم فيما بعد الدليل على أنها مختارة من لسان تميم .

أما الآن فنحاول أن نعرض صورة عامة لما أثر من خصائص هذه اللهجة ، لنرى هذه الخصائص فيما بعد فى لغة أبى عمرو وقراءته ، وبعبارة أصح : فى طريقة اختياره ، وبخاصة فيما يتصل بظاهرة (الإدغام) التى هى موضوع اهتمامنا فى هذه الدراسة .

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٢٨٥ — وفى اللهجات العربية ص ٦٥ .

(٢) الصاحبى ص ٢٨ .

(٣) القراءات واللهجات ص ٢٩ .

ومن المعلوم فيما يتصل بالظواهر اللهجية أنها على نوعين :

(١) ظواهر نشأت نشأة لهجية ، ولكنها بفعل التطور اللغوى تحولت إلى ظواهر عامة تؤثر فى اللغة المشتركة ، لأنها فى مستوى لا ينال من فصاحة هذه اللغة ، بل قد يساعد على نموها وتطورها .

(٢) ظواهر نشأت نشأة لهجية ، وظلت كذلك فى حدود اللهجة ، لأنها دون مستوى الفصاحة المطلوب فى اللغة المشتركة .

وخلال هذه الحركة من تبادل التأثير والتأثر بين اللغة المشتركة واللهجات المحلية يحدث أن تهجر الأولى تلقائيا ظواهر خاصة بها فى مقابل امتصاصها لبعض الظواهر التى تكون فى وضع أنسب وأحسن .

ومن المسلم أيضا أن اللغة المشتركة ماهى إلا لهجة أظهرتها الظروف على اللهجات المجاورة ، ولها من النفوذ مايسهل معه أن تبتلع هذه اللهجات فى وقت وجيز ، لأن للهجة التى اتخذت أساسا من السلطان مايفرضها على اللهجات الأخرى ، وأغلب الظن أنها تفقد على وجه العموم مافيها من صفات موغلة فى الخصوصية[١] .

وقد كان هذا ما حدث تماما بالنسبة للهجة تميم ، ولهجة قريش التى نزل بها القرآن ، فقد كان لتميم بعض التقاليد والخصائص اللغوية التى أثرت فى الفصحى ، وأصبحت بفعل التطور جزءا من خصائص هذه اللغة المشتركة ، وبخاصة فى مستواها الأدبى ، وحين زحفت هذه الظواهر اللهجية على اللغة المشتركة وجدناها تفقد طابعها المحلى ، بل إنها لتوشك أن تتخذ صبغة جديدة ، ونسبة جديدة ، بحيث يكاد الباحث لا يجد من الدلائل مايشير إلى الصلة بين الظاهرة ومصدرها .

فظاهرة تحقيق الهمز كانت كما هو ثابت ــ خاصة من خصائص تميم ، حيث لم تكن قريش تهمز كلماتها [٢]، وإنما كانت تسهلها ، وحين شعر الحجازيون بميزة هذا التحقيق وأثره على رقى اللغة وفصاحتها استعاروه من تميم ، فامتصته لهجتهم .

---

(١) اللغة ــ تأليف جوزيف فندريس ــ تعريب الاستاذين عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص ص ٣٣٦.

(٢) فى اللهجات العربية ص ٦٥ .

وكان هذا أيضا هو ماحدث لظاهرة (الإدغام) ، فهو فى أصله ظاهرة لهجية ، اختصت بها قبائل وسط الجزيرة العربية وشرقيها[١] ، وهم تميم وما جاورها ، ولكنها ظاهرة راقية تهدف إلى التخفف من بعض القيود النطقية ، بتحقيق الانسجام بين الأصوات المتقاربة ، وإن ترتب على تحقيق هذا الانسجام بعض الإخلال بقواعد ضبط أواخر الكلمات .

وقد وجد أهل الحجاز فى هذه الطريقة من النطق سبيلا إلى الترق بلغتهم السائدة ، فنزعوا إلى استخدامها ، وبلغ من جريها على ألسنتهم أن أصبحت الظاهرة عامة تكاد تسود جميع العرب ، حتى لقد قال أبو عمرو : (الإدْغام كلام العرب الذى يجرى على ألسنتها ، ولا يحسنون غيره)[٢] .

وحتى وجدنا ابن فارس يذكر أن الإدغام « مما اختصت به لغة العرب »[٣] .

فإذا نحن استعرضنا الشواهد التى يسوقها القراء والنحاة للتدليل على حدوث الإدغام وجدنا بعضها منسوبا لشعراء من تميم ، وبعضها الآخر لشعراء من غيرهم ممن يمتازون عنهم بخصائص لهجية أخرى ، ولا ينحون نحوهم فى الكلام .

يقول عدى بن زيد العبادى :

وتَذَكَّرْ رَبُّ الخَوَرْنَقِ إذْ أَشْـ ـرَف يوما ولِلْهُـدَى تَفْـكير

ويروى (وَتَبَيَّنْ) ، وعدىٌّ هذا جاهلىٌّ تميمىٌّ ، كان يسكن الحيرة ومراكز الريف[٤] ، وظاهرة الإدغام واردةٌ فى شعره على كلتا الروايتين .

وقال أيضا :

مَن رَّأيتَ المنـونَ عَزَّيْـنَ أَمْ مَنْ ذا عليـه من أن يضام خَفِيـرُ[٥]

---

(١) فى اللهجات العربية ص ٦٠ ومابعدها .

(٢) النشر جـ ١ ص ٢٧٥ .

(٣) الصاحبى ص ١٥ .

(٤) النشر جـ ١ ص ٢٧٥ وشعراء النصرانية جـ ٤ ص ٤٤٣ ـــ نشر الآدباء اليسوعيين ، وطبقات فحول الشعراء ـــ شرح الاستاذ محمود شاكر ، والأعلام جـ ٥ .

(٥) الخصائص جـ ١ ص ٩٤ .

بإدغام نون (من) فى راء (رأيت) .

ومثله شاعر آخر هو طريف بن تميم العنبرى ، يقول :

تَقُولُ إِذا استَهْلَكْتُ مالاً لِلَذَّةٍ ... فُكَيْهَةُ : هَشَّيْءٌ بِكَفَّيْكَ لائِقُ[١]

يريد (هَلْ شَيءٌ) فأدغم ، وطريفٌ هذا جاهليٌّ من فرسانِ بنى تميم[٢] ، ومعنى البيت : أنه إذا أنفق ماله فى ملذاته قالت له فُكَيْهَةُ : هل بقى فى كفيك شىء لم تُجْهِزْ عليه ، كالمعاتبةِ له على السَّرَفِ[٣] . وقال عَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدَةَ :ـــ

وَفى كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ ... فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوب[٤]

روى سيبويه هذا البيت (قَدْ خَبطٌ) ، قال : (وأَعْرَبُ اللغتين وأجودُهما ألا تَقْلِبَها طاءً ، لأَن هذه التاء علامةُ الإضمار)[٥] . وعلقمةُ بن عبدة هذا ، هو من نسل النعمان بن قيس بن تميم ، وهو جاهلى تميمى .

فهذه أمثلة منسوبة إلى شعراء من تميم ، وقد وردت فيها شواهدُ على حدوث الإدغام ، فإذا ما انتقلنا إلى أمثلة أخرى وجدناها لشعراء من غير تميم ، وأحد هؤلاء هو « مزاحم بن الحارث العقيلى » ، يقول : ـــ

فَدَعْ ذَا وَلَكِنْ هَتُّعِينُ مُتَيَّماً ... عَلَى ضَوْءِ برق آخر الليل ناصب

يريد (هَلْ تُعِينُ) فأدغم ، ومزاحم بن الحارث العقيلى من بنى عقيل بن كعب من بنى عامر بن صعصعة ، وهم قبيلة تنتهى فى نسبها إلى هوازن ، وهوازن من قيس عيلان ، وقيس عيلان من مضر.[٦] .

وشاعر آخر هو تميم بن أبى بن مقبل يقول :ـــ

فَكأنما اغْتَبَقتصَّبيرَ غَمامةٍ ... بِعَراً تصفِّقُهُ الرياحُ زُلَالَا

---

(١) سيبويه جـ ٢ ص ٢١٧ . واللائق : المستقر المحتبس .

(٢) الاعلام جـ ٣ .

(٣) اللسان جـ ١٠ ص ٣٣٤ و ٥٠٥ .

(٤) المفضليات جـ ٢ ص ١٩٦ ـــ تحقيق الاستاذين أحمد شاكر وهارون .

(٥) الكتاب جـ ٢ ص ٤٢٣ .

(٦) الأعلام جـ ١ ، والوسيط فى الأدب العربى ، والناصب : المتعب ، وهى رواية الكتاب ٤١٧/٢ .

وصف امرأة بطيب ماء الفم وبرده ورقته ، فجعلها كالمغتبقة ماءَ غمامةٍ ، فى أرضٍ بارزة للرياح ، والاغتباق : شرب العشى ، وخصه بالذكر لأن الأفواه تتغير بالليل لغلبة النوم ، والصبير ما تراكب من السحاب ، والعرا ــ بالقصر ــ الفِنَاء ، وبالمد : المكان العارى من الشجر ، وهو المراد مع القصر للضرورة ، والزُّلال : العذب[1] .

والشاهد فى (اغتبقت صبير) حيث أدغم التاء فى الصاد ، وتميم هذا من بنى العجلان ، وبنو العجلان بطن من بطون بنى كعب ، وبنو كعب إحدى بطون هوازن .. الخ .. ، وهو شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام[2] .

هذا عن الأبيات المنسوبة لقائليها ، وهناك أبيات غير منسوبة ، ولم أجد فيما لدى من المراجع مايحقق نسبتها ، منها قول الشاعر :

عَشِيةْ تَمَنَّى أن تكـون حمامـةً   بمكـة يؤويك السِّتَــارُ المحرم[3]

بإدغام تاء (عشية) فى تاء الفعل بعدها .

وقول الآخر :

عافت الشربَ فى الشتاء فقلنا   بَرِّديــهِ تُصَادِفيــه سَخِينَــا

يريد : (بَلْ رِدِيه) فأدغم[4]

وقال سيبويه : « وَسَمِعْنَا من يوثق بِعَربِيَّتِهِ قال :

ثار فَضَجَّضَجَّةً ركائبه »

يريد (فَضَجَّتْ ضَجَّة) فأدغم التاء فى الضاد[5] .

وقد عثرت من شواهد الادغام فى النثر على حديث روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (أَيُّمَا رَجُلٍ من المسلمين سَبَبْتُه أو لَعَنْتُه أَوْ جَلَدْتُه) . هكذا

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٤١٩ .

(٢) الاعلام جـ ٢ ، والكتاب جـ ٢ ص ٤١٩ ، والعرب وأطوارهم ص ٥٣ ، والبيان والتبيين ــ هامش جـ ٤ ص ٣٧ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

(٣) النشر جـ ١ ص ٢٧٥ .

(٤) اللسان جـ ٣ ص ٨٢ طبعة بيروت .

(٥) الكتاب جـ ٢ ص ٤٢٠ .

بإدغام التام فى الدال ، قال فى اللسان : (وهى لغة) [١] .

هذا الذى عرضناه متنوع المثال ، متوزع النسبة قد يدفعنا إلى أن نتساءل : ولماذا ننسب الإدغام لتميم دون غيرها من قبائل شبه الجزيرة العربية .. ؟ والواقع أن الشواهد التى عرضناها لاتعين على هذه النسبة ، وإنما هى دالة على انتشار الظاهرة انتشارا واسعا بين شعراء كثيرين من قبائل وبطون مختلفة ، دون أن تحصرها فى قبيلة معينة ، اللهم إلا إذا راعينا أن هؤلاء الشعراء ينتهون إلى مضر ، وتميم إحدى قبائل المجموعة المضرية ، وإن كان يحول بيننا وبين القول بهذا التعميم أن التقسيم اللهجى لقبائل العرب قد اعتدَّ تميما قسما برأسه ، دون أن يرعى أنها متفرعة من مضر ، وإنما يدفعنا إلى أن نكون مع القائلين بنسبة الإدغام لتميم دون غيرها من بطون مضر جملة حقائق نستخرجها من استعراض ما روى لنا من الظواهر اللهجية منسوبا إليها ، ومعدودا من خصائص لهجتها ، ومن ذلك :ـــ

★ تميم تقول (عَبَشَّمْس) بفتح الباء فى عبد شمس [٢] .

★ «الودّ : الوَتِدُ بلغة تميم[٣] » .

★ « من يوم الجمْعة » بسكون الميم لغة تميم ، قرأ بها أبو عمرو والأعمش وزيد ابن على ، وقرأ الجمهور بالضم[٤] .

★ « المَنَا » الكيل أو الميزان الذى يوزن به ، مقصور يكتب بالألف ، والمكيال الذى يكيلون به السمن . وغيره ، وبنو تميم يقولون : مَنّ ومنان وأمنان[٥] .

★ بنو تميم يقولون فى « فَخِذ فَخْذ ، وفى كَبِد كَبْد ، وفى عَضُد عَضْد ، وفى الرَّجُل رَجْل وفى كَرُم الرجل كَرْم ، وفى عَلِم عَلْم [٦] » .

---

(١) اللسان جـ ٣ ص ١٢٥ .

(٢) المزهر جـ ٢ ص ٢٨٠ .

(٣) اللسان جـ ٣ ص ٤٥٥ .

(٤) القراءات واللهجات ص ١١٩ ـــ ١٢٠ .

(٥) اللسان جـ ١٥ ص ٢٩٧ .

(٦) الكتاب جـ ٢ ص ٢٥٧ .

★ قلب الهمزة عينا فى بعض كلام بنى تميم هو مايسمى لديهم « بالعنعنة » « سمعت عَنّ فلانا قال كذا » يريدون : (أنّ)(١) .

★ تُجْعَلُ الياء جيما فى النسب عند تميم يقولون (غُلامجّ) أى غلامى(٢) .

★ الأثاثى لغة تميم فى الأثافى(٣) .

★ مما قالت العرب قول بنى تميم : « مَحُم » يريدون : مَعَهُم ، وَمحَاؤلاء يريدون : مع هؤلاء(٤) .

★ إذا سكن آخر الفعل المضعف فإن أهل الحجاز يذهبون إلى الفك ، وذلك فى مثل : ارْدُدْ ، وإن تُضَارِرْ أُضَارِرْ ، وإنْ تَسْتَعْدِدْ أَسْتَعْدِدْ ، ويقولون : أردد الرجل . فأما بنو تميم فيدغمون المجزوم كما أدغموا إذا كان الحرفان متحركين فيقولون : رُدَّ وَفِرَّ وعَضَّ ، وفى القراءات « ومن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ » الفك لغة الحجاز ، والشد والإدغام لغة تميم(٥) .

★ الكسر والتشديد فى لفظة « الهدِىّ — نظير » الهدْى ، لغة قريش(٦) .

★ عُنْفُوان : فُعْلُوَان من العنف ، ضد الرفق ، قال الأزهرى : ويجوز أن يكون الأصل فيه : أنفوان من ائتنفت الشىء واستأنفته : إذا اقتبلته فأقبل ، إذا ابتدأته ، فقلبت الهمزة عينا فقيل : عنفوان ، قال : وسمعت بعض تميم يقول : اعتنفت الأمر بمعنى ائتنفته ، واعتنفنا المراعى ، أى : رعينا أنفها(٧) .

★ قال يعقوب : تميم وأسد يقولون : قُشِطَتْ بالقاف ، وقيس تقول : كُشِطَتْ ، وقال فى قراءة ابن مسعود : « وإذا السماء قُشِطَتْ » بالقاف والمعنى

---

(١) الصاحبى ص ٢٤ .
(٢) الصاحبى ص ٢٥ .
(٣) المزهر جـ ١ ص ٢٧٥ .
(٤) الكتاب جـ ٢ ص ٤١٣ .
(٥) الكتاب جـ ٢ ص ١٥٨ ، والقراءات واللهجات ص ١١٤ .
(٦) القراءات واللهجات ص ١١٩ .
(٧) اللسان جـ ٩ ص ٢٥٨ .

واحد ، مثل : القِسْط والكِسْط ، والقافور والكافور[١] .

★ يقال للجمل (بَعير) .... وبنو تميم يقولون « بِعير » بكسر الباء ، وشِعير[٢] .

★ لغة تميم (شِهيد) بكسر الشين ، يكسرون « فَعيلا » فى كل شيء كان ثانيه أحد حروف الحلق[٣] .

★ عامة قيس وتميم وأسد يقولون : (مِخِضَتْ) بكسر الميم يفعلون ذلك فى كل حرف كان قبل أحد حروف الحلق فى (فَعَلْت وفَعِيل) ، يقولون : بِعير وزِئير وشِهيق ، ونِهِلَتِ الإِبِلُ ، وسِخِرْتُ منه[٤] .

★ مما اشتهرت به لهجة تميم قراءة الحسن البصرى « الحمدِ لله » وقد روى النحاس المتوفى (٣٣٨ هـ) وهو نحوى بصرى ، أن هذه القراءة على هذا النحو خاصة بلهجة تميم[٥] .

هذه الروايات ، وأمثالها كثير ـــ تدل دلالةً قاطعة على أن لهجة تميم قد اتسمت ببعض الخصائص التى تعد من باب الإدغام . أو هى ذات صلة بالإدغام ، فرواية عَبَشمّس ومَحُّم وودّ ومَنّ والهدِىّ ، واختيار الإدغام فى كل ماتماثلت عينه ولامه – يدل على ميل أفراد هذه القبيلة إلى الاقتصاد فى المجهود العضلى أثناء النطق ببعض الأصوات المتماثلة أو المتقاربة . فهو ميلٌ إلى إحداث الانسجام بين الأصوات الساكنة خلال النطق . ورواية العنعنة وإبدال الكاف قافا وغيرهما تؤيد مايمكن أن نصف به تميما من اختصاص لهجتها بخاصة إبدال الأصوات بعضها من بعض ، ورواية الإسكان التى شاعت فى لهجة تميم تؤيد أيضا أن تكون هى القبيلة التى اختصت لهجتها بالإدغام . إذ يشمل فى أغلب أحواله حذف الحركة من الصوت المدغم ، كما

---

(١) اللسان جـ ٧ ص ٣٧٩ .
(٢) اللسان جـ ٤ ص ٧١ .
(٣) اللسان جـ ٣ ص ٢٤٠ .
(٤) اللسان جـ ٧ ص ٢٢٨ .
(٥) العربية ـــ دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب ـــ نقلا عن نزهة الألبا ص ٣٦٤ .

سيتضح ذلك عند الكلام عن (ظاهرة الإسكان) . ورواية الكسر فى بعض صيغ الأسماء والأفعال ، ورواية الإتباع ــ يدلان على ميل تميم إلى إحداث الانسجام بين أصوات الحركات ، وهو قرين الانسجام بين الأصوات الساكنة الذى يحدث فى حالة الإدغام . ونحن لم نحاول أن نورد كل ما ذكر فى كتب اللغة والأدب من الروايات منسوبا لتميم ، بل اكتفينا بأن أوردنا بعض الروايات المفردة للتدليل على وجهة النظر التى نميل إليها فى هذا البحث من نسبة الإدغام لتلك القبيلة ، بمعنى أنه كان شائعا فى لهجتها قبل أن يشيع فى اللغة العامة ، وبذلك يكون اختلاف نسبة الأبيات السابقة دليلا على فشو الظاهرة فى نطاق اللغة العامة ، بعد أن كان محصورا فى لسان تميم . ومما يدعم وجهة النظر هذه ما ورد فى كتاب سيبويه خلال حديثه عن الإدغام ، حين يقول : « ومما يدلك على أن الإدغام فيما ذكرت لك أحسنُ أنه لا تتوالى فى تأليف الشعر خمسةُ أحرفٍ متحركةٍ وذلك نحو قولك : جَعَلَ لَكَ . وفَعَلَ لَبِيدٌ ، والبيان (الإظهار) فى كل هذا عربى جيد حجازى[1] ».

وكثيرا ماذكر سيبويه فى باب الإدغامماينسب به البيان إلى أهل الحجاز ، فيكون المفهوم منه أن نقيض البيان ، وهو الإدغام ، منسوب لتميم ، وستأتى أمثلة لذلك كثيرة .

وقد استطاع أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس أن يخرج بهذه النتيجة ذاتها فى ضوء استعراضه لبعض الظواهر المروية عن تميم ، والتى ظهر فيها ميل القبيلة ــ كما قلت ــ إلى الإبدال والإدغام أكثر من القبائل الأخرى ، كما أنه ، وقد قسم البيئة العربية إلى قبائل وسط الجزيرة وشرقيها ومن بينهم تميم ، وقبائل غربى الجزيرة ومن بينهم أهل الحجاز ــ اعتبر « أن الإدغام أو تأثر الأصوات المتجاروة بعضها ببعض ظاهرة صوتية تحدث كثيرا فى البيئات البدوية حيث السرعةُ فى نطق الكلمات ، ومزجها بعضها ببعض ، فلا يُعْطَى الحرفُ حقَّه الصوتى من تحقيق أو تجويد فى النطق به[2] » .

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٧ .

(٢) فى اللهجات العربية ص ٦١ الطبعة الثانية .

والبيئات البدوية هنا هى بيئة وسط الجزيرة وشرقيها ، وهى التى لم تتأثر بحضارة ، ولم يغلبها نظام ، بل دأبت على الرحلة إلى أنحاء الأرض بحثا عن المعاش ، وطلبا للمرعى ، وهى القبائل التى هاجرت فى صدر الإسلام (عقب الفتح) إلى العراق حيث استوطنت الكوفة والبصرة .

فملاحظة أستاذنا قد رسمت حدود الظاهرة منتشرة فى موطنها القبلى ، بحيث أتاح لها هذا الانتشار أن تسود بقية البيئات العربية لتصبح ظاهرة لغوية عامة ، تمثل إحدى علامات الفصحى وخصائصها . ولعل مما نستأنس به فى هذا الصدد ماذكره الرافعى رحمه الله حين قال : « قد تتبعنا نسبة هذه اللغات وتقصينا فى ذلك حتى ظفرنا بها ، لأن هذا من أكبر ما نعنى به كما بينا فى موضعه من الجزء الأول من تاريخ آداب العرب ، فتخفيف الهمز لغة قريش وأهل الحجاز ، والتحقيق لغة من عداهم .. إلى أن قال : والإظهار لغة أهل الحجاز ، والإدغام لغة تميم[1] » .

* * *

الآن ، وقد انتهينا من نسبة ظاهرة الإدغام فى اللغة إلى تميم ، نعرض للحديث عن إدغام أبى عمرو فى رواية القرآن ، ونتساءل : هل كان الإدغام فى قراءته أخذا بتقليد لهجة معينة فى قراءة القرآن ؟ ..

لسنا من هذا الرأى ، فأبو عمرو كان من أعلم الناس بما يجوز فى قراءة القرآن وما لايجوز ، وكان على علم كامل بقيمة هذه الظاهرة وجريانها على ألسن العرب ، لا فرق فى ذلك بين قرشى وغير قرشى ، وإن انتسبت فى الأصل إلى لهجة خاصة . وأغلب الظن أن الإدغام لو كان ظاهرة محلية قليلة الخطر والشأن لما جرؤ أبو عمرو على القراءة به .

ليس هذا الرأى بمتعارض فى رأينا مع القراءة برخصة السبعة الأحرف ، فمن

---

(١) تاريخ آداب العرب جـ ٢ هامش ص ٥٠ .

المعلوم أن من الظواهر اللهجية الخاصة مالم يُقْرَأْ بِهِ قُرْآن ، ولا أجيزت قراءته به قراءة عامة(١) . ومن ذلك العنعنة التميمية ، والكشكشة الأسدية ، والكسكسة الربعية ، والعجرفية القيسية ، إلى غير ذلك . وإنما قرىء القرآن بالأحرف التى وسعتها اللغة الفصحى فهضمتها ، حتى أصبحت قدرا مشتركا بينها وبين غيرها من اللهجات ، وقرىء أحيانا بالأحرف اللهجية التى لاتتنافى وصورة الفصاحة اللائقة بنصه المقدس ، لأن الأخرى إذا أجيزت يوشك أن تهبط به إلى مستوى دون الفصيح ، يقول ابن فارس : « وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ـــ إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ماتخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التى طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب ، ألا ترى أنك لاتجد فى كلامهم عنعنة تميم ، ولا عجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة ، ولا الكسر الذى تسمعه من أسد وقيس مثل : تِعلمون ونِعلم ، ومثل شِعير وبِعير »(٢) ، فإذا كانت لغة قريش كما يقرر ابن فارس قد ترفعت عن هذه الظواهر ، لأنها تنال من فصاحتها ، فمن باب أولى يتسامى عنها نص القرآن ، وهو أسمى قمم الفصاحة العربية . ولئن كان يحيى بن وثاب التابعى قد قرأ (نِستعين) بكسر النون(٣) . فإن قراءته هذه لم تشع ، وهى ليست من الصحة التى عليها القراءات المشهورة .

وابن فارس فى نصه السابق يقسم الظواهر اللهجية قسمين : ما أقرته اللغة السائدة العامة ، وهو متساوق مع فصاحتها ، وما لم تقره فظل حبيسا فى نطاقه اللهجى إلى أن انقرض من اللغة ، أو سقط فى حظيرة اللغات الشعبية فى أنحاء الأوطان العربية ، وبذلك يكون مقياس الفصيح فى اللغة « كثرة الاستعمال فى ألسنة العرب »(٤) . وبهذا المقياس يمكن أن نعتبر الإدغام ظاهرة فصحى قبستها اللغة

---

(١) فى اللهجات العربية ص ١٨ ، ص ٤٩ .

(٢) الصاحبى ص ٢٣ .

(٣) النشر جـ ١ ص ٤٧ .

(٤) القواعد النحوية للاستاذ عبد الحميد حسن ص ٧١ .

المشتركة عن لهجة تميم خلال قرون من التطور اللغوى التاريخى لجزيرة العرب .

وهنا يعن لنا سؤال هو : ما السر إذن فى أن أبا عمرو قد اشتهر به دون غيره من القراء ؟ والجواب : أنه لا بد من الرجوع إلى ما قلناه من قبل عن أساتذة أبى عمرو وتنوع مدارسهم ، وكيف أن منهم رجالا من مختلف البلاد والمستويات العلمية .

فأبو عمرو إلى جانب كونه تميميا ، نشأ فى مكة وتلقى علمه وقراءته عن جمهور من القراء والعلماء المحققين من مختلف المشارب والنزعات ، ومن هؤلاء الأساتذة من التزم قراءة التحقيق ، ومنهم من روى عنه الإدغام ، وعلى كل فإن من أصحاب الإدغام غير أبى عمرو (الحسن البصرى وابن محيصن)[1] ، وهما اللذان أخذ عنهما أبو عمرو رواية الإدغام ، وقد صح أنهما قرآ به ، فأما الحسن البصرى فقد قرأ على حطان بن عبد الله الرقاشى ، وقرأ حطان على أبى موسى الأشعرى كما قرأ الحسن على أبى العالية الرياحى ، وقرأ أبو العالية على أبى وزيد وعمر .

وأما ابن محيصن فقد قرأ على مجاهد ودرباس وسعيد بن جبير ، وقرأ مجاهد على عبد الله بن السائب ، وقرأ عبد الله على أبى وعمر ، كما قرأ على عبد الله بن عباس ، وقرأ درباس على ابن عباس ، وقرأ ابن جبير على ابن عباس وابن مسعود[2] .

ويلاحظ أن ابن محيصن كان من قراء مكة ، فقد أخذ عنه أبو عمرو قراءة الإدغام إذن بمكة ، كما يلاحظ أن الحسن البصرى من قراء البصرة ، وقد تتلمذ عليه أبو عمرو هناك .

ويستفاد من هذا أن قراءة الإدغام لم تكن مقتصرة على مدرسة البصرة التى كان من أعلامها أبو عمرو ، وإنما كانت روايته منتشرة فى مراكز القراءة : مكة والمدينة حيث (أبو العالية شيخ أبى الحسن) ، وفى البصرة والكوفة جميعا ، ولكنها كانت أكثر شيوعا فى البصرة منها فى غيرها .

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٧٥ .

(٢) النشر جـ ١ ص ٦ .

وبمعرفة سند قراءة كل من الحسن وابن محيصن المتصل برسول الله ﷺ نستطيع أن نقول : إن هؤلاء الصحابة هم الذين نقلوا قراءة الإدغام عن رسول الله ، وقد ثبت فعلا أنهم قرءوا ببعض وجوه القراءة بصفة عامة ، « فقد ذكر الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام فى أول كتابه فى القراءات من نقل عنهم شىء من وجوه القراءة من الصحابة وغيرهم ، فذكر من الصحابة أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليا ، وطلحة ، وسعدا ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالما وأبا هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس ، وعمرو ابن العاص ، وابنه عبد الله ، ومعاوية ، وابن الزبير ، وعبد الله بن السائب ، وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ، وهؤلاء كلهم من المهاجرين ، وذكر من الأنصار أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وأبا الدرواء ، وزيد بن ثابت ، وأبا زيد ، ومجمع بن جارية ، وأنس بن مالك ، رضى الله عنهم أجمعين »(١) .

والملاحظ أن أبا موسى الأشعرى لم يذكر ضمن هؤلاء الصحابة ، فلعله كان من الذين التزموا قراءة التحقيق القرشية .

وليس بمستغرب أن يقرأ صحابى كعمر بن الخطاب فيمثل فى قراءته بعض ظواهر اللهجات ، رغم أنه قرشى ، فلقد شهد بنفسه ماذا كان يقصد الرسول باختلاف الأحرف التى نزل بها القرآن ، حين جرت بينه وبين هشام بن حكيم تلك المقالة التى رواها البخارى عن عمر نفسه قال : « سمعت هشامَ بن حكيمٍ يقرأ سورة الفرقانِ فى حياة رسول لله ﷺ فاستمعتُ لقراءتِه فإذا هو يقرأ على حروفٍ كثيرة لم يُقْرِئْنِيها رسولُ الله ﷺ ، فكدتُ أُسَاوِرُه فى الصلاةِ ، فَتَصَبَّرْتُ حتى سَلَّمَ ، فَلَبَّبْته رداءه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ .. ؟ قال : أقرأنيها رسول لله ﷺ ، فقلت : كذبت ، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقتُ به أَقُودُه إلى رسول لله ﷺ ، فقلت : إنِّى سمعتُ هذا يقرأُ سورةَ الفرقان على حروفٍ لم تُقْرِئْنيها ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أُنزِلَتْ ، ثم قال :

---

(١) القراءات واللهجات ص ١١٦ .

اقرأ ياعمر ، فقرأت القراءة التى أقرأنى . فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ[١] » .

ولعل هذا الحديث يلقى ضوءا على جواز أن يقرأ القرشى بغير لهجته مما يتعلمه من خصائص اللهجات الأخرى ، فعمر بن الخطاب وهشام بن حكيم قرشيان من لغة واحدة وقبيلة واحدة[٢] ومع ذلك اختلفت قراءاتهما ، والأمر على هذا لايخلو من احتمالين : فإما أن يكون هشام قد تربى فى غير قومه (قريش) فتعلم لغتهم ، وتكلم بها ، وهو كثير فيهم ، ووافق ذلك ماتعلمه من حروف القرآن عن النبى ، وإما أن يكون الاختلاف قائما على أساس التلقين عن النبى ﷺ فيكون قد أقرأ عمر بوجه ، وأقرأ هشاما بوجه آخر ، والقراءة ـــ كما يقولون ـــ سنة متبعة .

هذه الحادثة التى جرت بين عمر وهشام جرت أيضا لكثير من الصحابة من أمثال أبى بن كعب وعمرو بن العاص وابن مسعود وغيرهم [٣] .

إلا أنه يبدو أن ابن مسعود كان أكثر الصحابة خروجا على المصحف الإمام ، والذى يراجع كتاب المصاحف للسجستانى يلمس هذه الحقيقة ، فقد شغلت روايات اختلافه من الصفحات تسع عشرة ، من (٥٤ ـــ ٧٣) ، ومن السور تسعا وأربعين ، فى حين لاتعدو مخالفة أى صحابى آخر للمصحف الإمام بضع آيات على أكثر تقدير .

ويمكن إرجاع مواضع مخالفته إلى نوعين :

الأول : (وهو الغالب) والاختلاف فيه أسلوبى ـــ يتصل بالنظم ـــ ولا علاقة له بلهجة ، صوتيا أو لغويا ، ومن أمثلته :ـــ

★ أنه قرأ قوله تعالى « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ » (س ٢ آ ١٩٧) :« وتزودوا وخيرُ الزادِ التقوى » .

---

(١) فى اللهجات العربية ص ٤٣ .

(٢) النشر جـ ١ ص ٢٤ . وارجع إلى كتابنا (تاريخ القرآن) – الطبعة الثانية .

(٣) فى اللهجات العربية ص ٤٤ .

★ وقرأ قوله تعالى « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لله » (س ٢ آ ١٩٦)

« وَأَقِيمُوا الحج والعمرة للبيت » .

★ وقرأ قوله تعالى « وَالْعَصْرِ ، إِنَّ الإِنسانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلاَّ الذِّين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » (س ١٠٣) :

« والعصر ، إن الانسان لفى خسر ، وإنه فيه إلى آخر الدهر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالصبر » .

والسر فى اختلاف هذه القراءات تتكفل ببيانه الكتب التى بحثت موضوع جمع القرآن وتدوينه ، أو موضوع الناسخ والمنسوخ فى القرآن .[١]

الثانى : والاختلاف فيه صوتى يمكن إرجاعه إلى الاختلاف فى اللهجة ومن أمثلته :

★ أنه قرأ قوله تعالى « مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا » (س٢ آ ٦١) :

« من بقلها وقثائها وثومها وعدسها وبصلها » .

قال فى اللسان : « والثوم لغة فى الفوم وهى الحنطة » [٢] .

★ وقرأ قوله تعالى « لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ » (س ٢ آ ١٣٣) :

« لمن أراد أن يكمل الرَّضاعة » . والكلمة « الرِّضاعة » تروى بالفتح والكسر .

★ وقرأ قوله تعالى « فَلاَرَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَاجِدَالَ فِى الْحَجِّ » (س ٢ آ ١٩٧) .

« فلا رفوثٌ ولا فسوقٌ ولا جدالٌ فى الحج » .

★ وقرأ قوله تعالى « الْحَيُّ الْقَيُّومُ » (س ٣ آ ١) : « الحى القيام » قال فى اللسان : « وقرأ عمر : « الحى القيام وهو لغة »[٣] .

---

(١) درسنا هذه القضية فى كتابنا (تاريخ القرآن) بمافيه مقنع .

(٢) اللسان جـ ٢ ص ٨٢ .

(٣) اللسان جـ ١٢ ص ٥٠٤ .

★ وقرأ قوله تعالى : « قَالَ اللهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ » (س ٥ آ ١١٥) :
« قال الله سأُنْزِلُها عليكم » .

★ وقرأ قوله تعالى : « قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » (س ١٣ آ ١٦) :
« قل أفتخِتُّم من دونه أولياء » .

ويلاحظ على روايات السجستانى التى أوردنا نماذج منها ملاحظتان :

أولا : أنها لم تذكر ما روى أن ابن مسعود كان يقرأ قوله تعالى : «حتى حين» : « عتى حين » على ما سيأتى ، الأمر الذى يقطع بأن قراءته كانت تحتوى على أمثلة لهجية مشابهة ، غير ما روى السجستانى .

وثانيا : أن المثال الأخير من قراءته دليل نصى على أنه كان يدغم بعض الحروف .

وقد كانت مبالغة ابن مسعود فى التزام رواياته والاعتزاز بقراءته ، مدعاةً إلى أن ينكر عمر رضى الله عنه مسلكه ، فكتب إليه حين علم أنه يقرىء الناس « عَتَّى حِين » :

« إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل ، فأقرىء الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل »[١] . وقد كان اتجاه ابن مسعود سائدا فى الكوفة ، وإليه تنتهى قراءة (عاصم وحمزة والكسائى وخلف والأعمش)[٢] ، وحمزة والكسائى والأعمش من رواة الإدغام غير أبى عمرو .

إلى هنا والجواب عن السؤال السابق لم يتحدد : لماذا اشتهر أبو عمرو بالإدغام فنسب إليه دون غيره من القراء ؟ .. ونقول : إن أبا عمرو بحكم قراءته على كثير من الأئمة قد جمع إليه رواياتهم جميعا ، ومن بينها روايات الإدغام ،وقد كان إلى

---

(١) القراءات واللهجات ص ٨ .

(٢) طبقات القراء جـ ١ ص ٤٥٩ وقد تعرضت قراءة ابن مسعود لحرب أعلنها على قرائها الحجاج ، فقد كان يقول : لا أجد أحدا يقرأ على قراءة ابن أم عبد — يعنى ابن مسعود — إلا ضربت عنقه ، ولأحكنها من المصحف ولويضلع خنزير « ابن الأثير جـ ٤ ص ١٣٣ .

جانب ذلك يستشعر الاعتزاز بقومه ، وبخاصة حين انتقل إلى البصرة مركز الحركة العلمية آنذاك ، وحيث الصراع القبلى على أشده ، فكان من الطبيعى أن يكون اختياره لقراءته من بين ذلك الحشد الهائل من الروايات والقراءات الذى تَحَصَّلَ لديه متأثرا ــ دون قصد ــ بلهجة قومه « تميم » ، تلك اللهجة التى لم تفقد صلتها بالإدغام رغم شيوعه على ألسنة العرب جميعا وقد قال : « إن الإدغام كلام العرب الذى يجرى على ألسنتها ولا يحسنون غيره » دعما لاتجاهه ، إلى جانب كونه تقريرا لواقع لغوى لامراء فيه ، فأبو عمرو فى اختياره لقراءته كان خاضعا لاعتبارين :

(١) التزام الصدق فى الرواية عن النبى ﷺ أولا وقبل كل شىء ، وذلك أساس اختياره .

(٢) الصراع العلمى بين القبائل التى دخلت فى الإسلام ، وقد ألقى هذا الاعتبار ظله على انفراده بالإدغام بهذه الصورة الشاملة ، ولم يكن هذا الانفراد انتصارا خالصا للهجة معينة ، بقدر ماكان استخداما لظاهرة لغوية راقية ، فى تلاوة أرق نص لغوى ، وإن انتسبت الظاهرة فى الأصل إلى مصدر لهجى .

ويتضح هذان الاعتباران فى حديثه للأصمعى حين قال له : « لو تَهَيَّأَ لى أن أُفْرِغَ مافى صدرى فى صدرِك لفعلتُ ، لقد حفظتُ فى علمِ القرآنِ أشياءَ لو كُتِبَتْ ماقَدَرَ الأعمشُ على حَمْلِهَا ، ولولا أن ليس لى أن أقرأ إلا بما قُرِئَ لقرأتُ كذا وكذا كذا وكذا ، وذكر حروفا[1] » .

ومعلوم أن الأعمش كوفى من الموالى معاصر لأبى عمرو ، ولعل من الحروف التى ذكرها أبو عمرو للأصمعى ماينقاس فيه الإدغام طبقا لقوانين الأصوات العربية ، ومع ذلك لم يدغمه لأن الرواية لم ترد به ، كما سيتضح ذلك أثناء حديثنا عن « رواية الإدغام فى قراءة أبى عمرو » .

فهذا هو السر فى اشتهار أبى عمرو برواية الإدغام وزيادته فيه ، فأما طريقه فى هذه الرواية فنفصله فيما يلى من الحديث .

---

(١) طبقات القراء جـ ١ ص ٢٩١ .

« رواية الإدغام بين أبى عمرو وغيره من القراء »

قال ابن الجزرى : « فأما رواته (الإدغام الكبير) فالمشهور به والمنسوب إليه والمختص به من الأئمة العشرة هو أبو عمرو بن العلاء ، وليس بمنفرد به ، بل قد ورد أيضا عن الحسن البصرى ، وابن محيصن ، والأعمش ، وطلحة بن مُصَرِّف ، وعيسى ابن عمر ، ومسلمة بن عبد الله الفهرى ، ومسلمة بن محارب السدوسى ، ويعقوب الحضرمى ، وغيرهم »[(١)] .

ومن الممكن أن نقسم رواة الإدغام الذين ذكرهم ابن الجزرى فى هذا النص بالإضافة إلى غيرهم من القراء تقسيما زمنيا إلى ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى : القراء الذين سبقوا أبا عمرو فى رواية الإدغام فتلقى عنهم ، ولم يذكر من هذه الطائفة غير ثلاثة هم : الحسن البصرى (١١٠ هـ) ومحمد بن عبد الرحمن بن محيصن (١٢٣ هـ) ومحارب بن دثار السدوسى [(٢)] الكوفى القاضى الذى عرض على أبيه ، وعرض أبوه على عمر بن الخطاب .

الطائفة الثانية : القراء الذين عاصروا أبا عمرو ، وهم طائفة كثيرة منهم سليمان الأعمش (١٤٨ هـ) وطلحة بن مصرف (١١٢ هـ) وقد أخذ عن الأعمش ، كما أخذ عن شيخيه إبراهيم النخعى ، ويحيى بن وثاب ، وعيسى بن عمر ، (١٤٩) . ومنهم مسلمة بن عبد الله الفهرى البصرى ـــ قال فيه ابن الجزرى : « لا أعلم عَلَى مَنْ قرأ ؟ ، وقال محمد بن سلام : كان مسلمة بن عبد الله مع ابن أبى إسحاق وأبى عمرو ابن العلاء ، وقال ابن مجاهد : « كان من العلماء بالعربية ، وكان يقرأ بالإدغام الكبير لأبى عمرو ، وروى حروفا لم يدغمها أبو عمرو »[(٣)] ، ومنهم مسلمة بن محارب بن دثار السدوسى وقد عرض على أبيه .

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٧٥ .
(٢) طبقات القراء جـ ٢ ص ٤٢ .
(٣) طبقات القراء جـ ٢ ص ٢٩٨ .

الطائفة الثالثة : وهم القراء الذين كانوا بعد أبى عمرو ، ومنهم : سلام الطويل ، تلميذ أبى عمرو ، ويعقوب الحضرمى الذى قرأ — فى رواية — على أبى عمرو ، وفى أخرى على بعض تلامذته من أمثال : سلام الطويل[١] (١٧١ هـ) وعصمة بن عروة الفقيمى[٢] ، كما عرض على مسلمة بن محارب ، وعلى تلميذه شهاب ابن شرنفة وغيرهم .

وأمام هذه الطوائف الثلاث ليس لنا من ملاحظة سوى أن الطائفتين الأوليين هما أجدر بأن ينسب إليهما الإدغام ، إذا ما أريد أن ينسب لغير أبى عمرو ، أما الطائفة الثالثة فليس رجالها سوى تلامذة لأبى عمرو أو لمن عاصروه أو أخذوا عنه ، وحسبنا أن ننسب رواية الإدغام لأساتذتهم ، وإن كان لهم فضل فهو فى تجميع الروايات ، والاختيار من بينها ، كما فعل يعقوب .

كذلك نلاحظ أن ابن الجزرى حين تحدث عن إسناد قراءة مسلمة بن محارب ابن دثار السدوسى قال : (عرض على أبيه) ، وقال عن أبيه محارب : (عرض على أبيه عن عمر بن الخطاب) ثم قال : (وروى عن جابر وابن عمر) ، وقد دعانا هذا إلى أن نلاحظ أن مسلمة لم يعرض على غير أبيه من الشيوخ ، وأن أباه لم يعرض على غير أبيه عن عمر بن الخطاب ، فقد انحصر سند قراءتهما بالإدغام فى عمر بن الخطاب ، وإن قيل : إن محاربا قد روى عن جابر وابن عمر ، فالرواية شيء والعرض شيء آخر ، ومعنى ذلك أن عمر بن الخطاب كان أحد المصادر التى روت قراءة الإدغام عن رسول الله ﷺ ، وأخذت عنه هذه القراءة .

والعجيب أن هؤلاء الذين روى عنهم الإدغام جميعا قد اتصلوا فى أخذ قراءتهم بعمر بن الخطاب ، فالحسن البصرى أخذ عن أبى العالية ، وقرأ أبو العالية على عمر . وابن محيصن أخذ عن مجاهد ، وقرأ مجاهد على عبد الله السائب ، وقرأ عبد الله على

---

(١) طبقات القراء جـ ١ ص ٣٠٩ .

(٢) طبقات القراء جـ ١ ص ٥١٢ .

عمر ، وسليمان الأعمش قرأ على علقمة بن قيس وسمع علقمة من عمر ، كما قرأ على مجاهد ، ومجاهد متصل بعمر . وطلحة بن مصرف أخذ عن الأعمش المتصل بعمر ، وعيسى بن عمر تلميذ الحسن البصرى ، ومسلمة بن عبد الله الفهرى كان مع أبى عمرو ، فلا شك أن مصادرهما تكاد تكون واحدة ، وإن غمض ذلك على ابن الجزرى ، وسلام الطويل تلميذ لأبى عمرو ، وقد نقل حروفه إلى يعقوب الحضرمى ، فإذا ما التفتنا إلى أبى عمرو فسنجده متصلا بقراءة عمر بن الخطاب من طرق عدة ، من طريق الحسن البصرى عن أبى العالية ، وشيبة بن نصاح الذى سمع من عمر بن الخطاب ، ويزيد بن رومان عن عبد الله بن عياش المخزومى ، وأبى العالية ، ومجاهد بن جبر عن عبد الله بن السائب ، وحميد بن قيس الأعرج عن مجاهد ، وابن محيصن عن مجاهد .

وبقية شيوخ أبى عمرو منهم اثنان رويا عن ابن عمر هما : عكرمة بن خالد ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وكلاهما قرأ على ابن عباس ، وأربعة لم يتصلوا فى روايتهم بعمر ، وهم : عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى ، وعاصم بن أبى النجود ، ودرباس مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبى رباح .

ولا نكاد نجد صحابيا تواترات قراءته ، بوجه واحد من وجوه القراءة إلى الحد الذى بلغته قراءة عمر بن الخطاب بين رواة الإدغام ، وفى هذا مايدعونا إلى القول بأن احتمال ورود قراءة الإدغام على لسان عمر بخاصة احتمال غير بعيد ، بل هو أمر ترشدنا إليه القرائن التى عرضناها بعد أن تتبعنا رجال السند مع كل قارىء من هؤلاء القراء ، وليس معنى أن قراءة رواة الإدغام متصلة بعمر بن الخطاب أنها منقطعة عمن سواه ، بل المراد أن عمر هو الشخصية التى تكررت مع كل منهم ، على حين اختلفت نسبة ورود البقية الأخرى من الصحابة القراء معهم كابن مسعود وعلى وعثمان وابن عباس وأبى وغيرهم .

على أن من الروايات ما يخبر بأن ابن عباس رضى الله عنه ، قد قرأ بحروف من الإدغام ، وذلك ما روى عن عمرو بن دينار قال : (سمعت ابن عباس يقول : هل

تّرى (مِنْ يَرَى) يُدْغِمُهَا ، يعنى اللام فى التاء ـــ كذا نقل هذا الحرف مدغما » قال السيرافى : » وأدغم أبو عمرو لام (هل) فى التاء ، ولم يدغم لام (بل) فيها ، قرىء : (هل تّرَى مِنْ فُطُور) ، (هَل تّرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ) وروى عنه أيضا : (هَل تّعْلَمُ لَه سَمِيًّا) ، ولم يدغم (بَلْ تأْتِيهِمْ بَغْتَةً) ونحوها ، وذكر بعض من احتج عنه للفرق بينهما أنه اتبع الأثر »[١] ، وهو ما رواه عمرو بن دينار عن ابن عباس .

يضاف إلى ذلك ما روى من أن ابن مسعود كان يقرىء الناس بحروف من الإدغام ، ومن لهجته الهذلية ، على ماسبق تفصيله[٢] .

فلا شك أنه وقد اشتهر عنه غرامه بقراءة القرآن بحروف من اللهجات أن يكون قد لَقَّنَ قراءةَ الإدغام تلاميذَه من أمثال زر بن حبيش ، الذى أخذ عنه عاصم ، وعلقمة بن قيس الذى أخذ عنه الأعمش ، من طريق يحيى بن علقمة ، وسعيد بن جبير الذى أخذ عن ابن مسعود ، كما أخذ عن ابن عباس ، فهذه هى طريق أبى عمرو فى رواية الإدغام ، وهذه هى مكانته بين رواته من غير القراء العشرة .

أما مكانته بين رواته من القراء العشرة فمن المعلوم أن يعقوب الحضرمى وهو أحد هؤلاء القراء قد أخذ القراءة عرضا على أبى عمرو ، وروى أيضا عن سلام الطويل حرف أبى عمرو بالإدغام ، حتى لقد روى ابن الجزرى عن صاحب المصباح عن رويس وروح وغيرهما وجميع رواة يعقوب : إدغام كل ماأدغمه أبو عمرو من حروف المعجم ، أى من المثلين والمتقاربين .

وقد وردت روايات فى الإدغام عن حمزة ، وافق فيها أبا عمرو فى حروف ، وانفرد دونه بحروف ، وكذلك فعل يعقوب[٣] ، كما وردت روايات أخرى عن الكسائى يأخذ فيها بإدغام أمثلة من الصغير ، وغالبا مايتفق جماعة من القراء على هذا النوع

---

(١) شرح السيرافى لكتاب سيبويه جـ ٣ مخطوط .

(٢) صفحة ٦٣ وما بعدها .

(٣) النشر جـ ١ ص ٣٠٠ .

من الإدغام ، أى : حين يكون الأمر متعلقا بمثال واحد فيقال مثلا : أدغم أبو عمرو وحمزة والكسائى وخلف الذال فى الثاء فى قوله تعالى : (فنبذتُّها)[١] . وأدغم أبو عمرو وحمزة وخلف والكسائى وأبو جعفر الذال فى التاء فى (عُذتّ بِرَبِّى) فى غافر والدخان[٢] ، ويقال أيضا : أدغم الكسائى ويعقوب وخلف وهشام النون فى الواو من (يٰس وَّالْقُرآن)[٣] .

كما روى عن عبد الله بن كثير المكى إدغام التاء فى أول الفعل المستقبل علامة للمخاطب أو للمؤنثة الغائبة فى تاء بعدها فى أحرف كثيرة ، منها ماقبله متحرك ، ومنها ماقبله ساكن من حروف المد واللين ، ومنها ماقبله ساكن من غير حروف المد واللين ، فأما ماقبله متحرك فنحو قوله (فَتَّفرقَ بِكُمْ عن سَبِيلِهِ) — (هِىَ تَّلقفُ مَا يأْفِكُونَ) ، وأما ما كان قبله ساكن من حروف المد واللين فنحو قوله (وَلَا تَّيمَّمُوا الْخَبِيثَ) (وَلَا تَّفرَقُّوا) (وَلَا تَّنازَعُوا) ، وأما ما كان قبله ساكن من غير حروف المد واللين فكقوله عز وجل : (فَإن تَّوَلَّوْا فإنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)وَ (إذْ تَّلقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ)[٤] .

وبذلك يعلم أن الإدغام الكبير قد انفرد بروايته من بين القراء العشرة أبو عمرو ، وتبعه تلميذه يعقوب مع اختلاف يسير ، وأما حمزة فقد أجاز أمثلة مفردة ، وأما بقية من أدغم منهم ، فإن روايتهم قد انصبت على الصغير ، مع اشتراك أبى عمرو فيها جميعا على وجه التقريب ، فهو بالنسبة إليهم قاسم مشترك فى جميع روايات الإدغام الصغير والكبير .

موقف الرواة من إدغام أبى عمرو

بقيت كلمة لابد منها تتصل بموقف الرواة من قراءته بالإدغام والإظهار ، وقد قسم ابن

---

(١) النشر جـ ٢ ص ١٦ .

(٢) السابق .

(٣) المرجع السابق ص ١٧ .

(٤) شرح السيرافى لكتاب سيبويه جـ ٣ مخطوط .

الجزرى رواة القراءة ومؤلفى الكتب إلى طوائف بحسب موقفهم من رواية الإدغام ، فمنهم من لم يذكر الإدغام البتة ، ومن هؤلاء أبو عبيد فى كتابه ، وابن مجاهد فى سبعته ، ومكى فى تبصرته ، والطلمنكى فى روضته ، وابن سفيان فى هاديه ، وابن شريح فى كافيه ، والمهدوى فى هدايته ، وأبو الطاهر فى عنوانه ، وأبو الطيب بن غلبون وأبو العز القلانسى فى ارشاديهما ، وسبط الخياط فى موجزه ، ومن تبعهم كابن الكندى وابن زريق ، والكمال ، والديوانى وغيرهم(١) .

ومنهم من ذكر الإدغام فى أحد الوجهين عن أبى عمرو بكماله من جميع طرقه ، وهم الجمهور من العراقيين وغيرهم(٢) .

ومنهم من ذكر الإدغام رواية عن الدورى والسوسى معا كأبى معشر الطبرى فى تلخيصه والصفراوى فى إعلانه(٣) .

ومنهم من خص بالإدغام السوسى وحده ، كصاحب التيسير وشيخه أبى الحسن بن غلبون والشاطبى ومن تبعهم (٤) .

ومنهم من ذكره عن غير طريق الدورى أو السوسى ، بل ذكره عن غيرهما من أصحاب اليزيدى وشجاع عن أبى عمرو ، كصاحب التجريد والمالكى صاحب الروضة (٥) .

ومع اختلاف رواة الإدغام . ومع اختلاف مصادر هؤلاء الرواة عن أبى عمرو فإنهم جميعا قد ذكروا مع الإدغام تخفيف الهمزة ، وهذا النهج من التلازم بين الإدغام وتخفيف الهمز تلازم طبيعى ، لأنه يتفق وطريقة أبى عمرو فى تعمد التخفيف ، والتماس

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٧٥ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق .
(٥) المرجع السابق .

أسبابه ، على ماسيأتى ، قال أبو الفتح ابن فارس بن أحمد فى صفة هذه الرواية : « وكان أبو عمرو يقرىء بهذه القراءة الماهر النحرير ، الذى عرف وجوه القراءات ولغات العرب »(١) .

هذا فيما يتصل برواية الإدغام وسنده ، فأما بقية الأصول المروية عن أبى عمرو فى قراءته فحسبنا أن نعرضها عرضا موجزا فى الباب التالى ، ثم نفرغ لدراسة الإدغام من الوجهتين الصوتية والنحوية ، لمعرفة أثر القراءات فى مجاليها ، فى البابين الثالث والرابع إن شاء الله .

* * *

---

(١) المرجع السابق .

الباب الثانى

قراءة أبى عمرو بن العلاء
أصولا وفرشا

الفصل الأول

أصول القراءة

توطئة

نرى لزاما علينا قبل أن نعرض أصول قراءة أبى عمرو ، أن نشير فى إيجاز إلى كيفية اجتماع هذه الأصول فى قراءته ، وأن نفسر المقصود بكلمة « الاختيار » لديه .

فقد عرفنا فى الباب الأول أن أبا عمرو قد اختار قراءته ، وأن لهذا الاختيار قيمة تميزه عن سائر القراء . فما المقصود بهذا الاختيار ؟ وما الدلالة الحقيقية الكامنة وراءه ، بيئية أو نحوية أو لغوية ؟

أما الدلالة التى يحملها اختياره فموضع دراستها هو البابان الثالث والرابع من هذه الدراسة . وأما المقصود بالاختيار فله قصة ومعنى سنتحدث عنهما الآن .

ويتصل بالاختيار مسألة أخرى ذات علاقة باستخدام بعض الأصول فى حال ، وإهمالها فى حال أخرى ، تلك هى كيفية التلاوة . فقد كان أبو عمرو يربط بعض أصول اختياره بالكيفية التى يجرى عليها فى تلاوته ، (فهو إذا أدرج — أى أسرع فى القراءة — لم يهمز ، كما أنه لم يكن يهمز فى الصلاة) وحين يدغم . فالهمز على ذلك مرتبط لديه بمسلكه فى التلاوة ، ولا شك أنه كان فى ذلك متبعا لامبتدعا ، أى : أنه كان ملتزما برواية عن رسول الله ﷺ ، علمته كيفيات التلاوة التى أثرت عنه .

ولذا نجد من المناسب أن نذكر شيئا عن هذه الكيفيات ، وتنوعها لدى أبى عمرو بحسب المواقف ، ليكون فى وسعنا استخدام مصطلحاتها بعد ذلك دون تحرج .

★ ★ ★

معنى الاختيار

ربما لانستطيع أن نكشف عن معنى الاختيار بأجلى صورة إلا إذا تتبعنا المراحل التى مرت بها القراءة فى المجتمع الإسلامى ، منذ عهد رسول الله ﷺ ، إلى أن جاء جيل تابعى التابعين الذين كان منهم أبو عمرو بن العلاء .

فقد كانت القراءة على عهد النبى تلقينا مباشرا منه لصحابته ، يُقْرِئُهم مايوحى إليه ، فيحفظونه عن ظهر قلب ، ويكتبه أمناء الوحى على قطع العظم والفخار وقصاصات الجلد ، وكان أهم مافى الأمر أن الصحابة تلقوا القرآن منه (حرفا حرفا ، لم يهملوا منه حركة ولا سكونا ، ولا إثباتا ولا حذفا ، ولا دخل عليهم فى شىء منه شك ولا وهم ، وكان منهم مَنْ حَفِظَهُ كُلَّهُ ، ومنهم من حفظ أكثره ، ومنهم من حفظ بعضه . كل ذلك فى زمن النبى ﷺ) (١) .

وقد حدثت على عهد النبى ﷺ حوادث ـــ سبق أن أشرنا إلى بعضٍ منها ـــ دلت على أن القرآن كان يقرأ على وجوه متعددة ، تبعا لاختلاف القبائل واللهجات . يقول ابن قتيبة : (وكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه ﷺ بأن يقرىء كل أمة بلغتهم ، وما جرت عليه عادتهم ، فالهذلى يقرأ : عتى حين ، والأسدى يقرأ : تِعلمون ، والتميمى يهمز ، والقرشى لايهمز) (٢) .

وتوفى رسول الله ﷺ ، وأصحابه يعلمون من أصول القراءة وأوجهها مالُقِّنُوهُ من النبى ، وكان كل منهم متمسكا بما عَلَّمَهُ رسولُ الله ، شديد التعلق به ، لما يرى فى ذلك من اتباع لأمر نبيه وإقرائه . وانتشر هؤلاء الصحابة فى أنحاء الأرض ، إبان حركة الفتوحات الإسلامية ، بما حملوا من قرآن ، على الوجه الذى أقر النبى كل واحد عليه ، فأحدث تعدد الأوجه واختلافها اختلافات كبيرة فى صيغة القرآن ، لعدم وجود النص

---

(١) النشر جـ ١ ص ٦ .

(٢) فى اللهجات العربية ص ٤٦ .

محررا مضبوطا فى أيديهم ، فقد كان مكتوبا فى الصحف بعد أن نسخه أبو بكر رضى الله عنه فى خلافته ، وأودعه بيت حفصة زوج النبى ﷺ ، فكان من السهل على ذوى الأهواء أن يهتبلوها فرصة يحرفون فيها الكلم عن مواضعه ، بزعم أن ذلك جاء لهجة معينة ، أو على لسان قبيلة من القبائل . وترامى الأمر بخطورته إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه فاهتم به ، وكان كتابته للمصاحف فى هذه الحقبة من تاريخ المجتمع الإسلامى أعظم الأحداث بركة على هذه الأمة ، فقد حفظ عليها وحدتها ودينها ، حين نفى عن نص القرآن مادخله من عبث المتعابثين ، وأبقى ماورد عن النبى متواترا كما هو فى صدر الصحابة الثقات . يقول ابن الجزرى : ولما كان فى نحو ثلاثين من الهجرة فى خلافة عثمان رضى الله عنه حضر حذيفة بن اليمان فتح أرمنية وأذربيجان ، فرأى الناس يختلفون فى القرآن ، ويقول أحدهم للآخر : « قراءتى أصح من قراءتك » ، فأفزعه ذلك . وقدم على عثمان ، وقال : « أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى » ، فأرسل عثمان إلى حفصة (زوج النبى) أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها ثم نردها إليك ، فأرسلتها إليه . فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها فى المصاحف ، وقال : إذا اختلفتم أنتم وزيد فى شيء فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم (١) .

ومعنى ذلك أن المصاحف التى كتبها عثمان كانت تحتوى ماصح لدى كاتبيها من أوجه فى القراءة ، أجمعوا على أنها كانت بأمر النبى وإقرائه . فأما ما اختلفوا فيه مع زيد فقد كتبوه بلسان قريش . ولسنا نشك — فى ضوء هذا النص — فى أن الأوجه التى قرىء القرآن بها ، والتى سماها النبى ﷺ « أحرفا » فى حديثه : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » إنما هى غالبا لهجات تواترت قراءة القرآن بظواهرها ، بقطع النظر عن مدلول العدد الذى اختلف فيه ، ولا مجال لذكر الخلاف حوله . فهو مفصل فى مظانه القديمة والحديثة (٢) .

---

(١) النشر جـ ١ ص ٧ .
(٢) تناولنا هذه المسألة فى كتابنا عن (تاريخ القرآن) .

وقد استطاع الصحابة الذين كتبوا هذه المصاحف أن يجمعوا بين الأوجه المتواترة لديهم فى القراءة عن طريق اطلاق الرسم ، وعدم تقييده بالنقط والشكل ، كيما « يحتمل ماصح نقله وثبتت روايته » (١) .

وتلقى الناس المصاحف فى كل قطر من الأقطار التى وجهت إليها ، فمصحف بالمدينة وآخر بمكة ، وثالث بالكوفة ، ورابع بالبصرة ، وخامس بالشام ، وسادس باليمن ، وسابع بالبحرين — تلقوا المصاحف ، وبينهم من الصحابة من كان لديهم قراءات أخذوها عن النبى ﷺ ، فطابقوا مالديهم ومايجدون فى المصحف المكتوب ، فأسقطوا ما شذ عنه ، وقرءوا بما وافق نصه ، واحتمله رسمه . ومن هنا كان أغلب أوجه الخلاف منحصرا فى نطاق الرسم العثمانى .

وتربّى على يد هؤلاء الصحابة جيل من التابعين أخذوا عنهم طريقتهم فى القراءة ، وحملوا عنهم أمانة العلم بالقرآن ، وكان كل تابعى يحفظ القرآن على الصورة التى لقنها عن شيخه الصحابى ، وكان هؤلاء التابعون منتشرين فى مراكز العالم الإسلامى الجديد ، بين مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام ، وهى العواصم الخمس الكبرى التى أصبحت فيما بعد مراكز إشعاع الثقافة الإسلامية .

بيد أن هؤلاء التابعين لم يكونوا على تجرد كامل لقراءة القرآن ، بل كانوا مشتغلين بالولاية والإفتاء والتفسير ، وبالصراع السياسى — على ماعرفناه عن سعيد بن جبير ، وعلى ماكان عليه غيره . ولكن جاء من بعدهم (قوم تجردوا للقراءة والأخذ ، واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية حتى صاروا فيها أئمة يقتدى بهم ، ويرحل إليهم ، ويؤخذ عنهم) (٢) .

وقد كان أغلب هؤلاء المتجردين من الموالى ، الذين لايظنون أن لهم حظا فى الصراع السياسى ، فانصرفوا إلى سلفهم من التابعين يأخذون عنهم ، وغالبا ماتلمس اقتصار الواحد منهم على الأخذ عن شيخ واحد ، وقليلا مانجد منهم من أخذ عن

---

(١) المرجع السابق .

(٢) النشر جـ ١ ص ٨ .

شيخين أو ثلاثة — كما حدث لعاصم ابن أبى النجود — وقد سبق القول فى ذلك ، فى الباب الأول .

كان من هذا الجيل أبو عمرو بن العلاء ، وكان على غير سنة معاصريه — جوالة رحالة بين الأمصار ، لم يترك إماما من الأئمة سمع به إلا ذهب إليه يستمنحه علمه ، ويستهديه قراءته ، حتى تجمع لديه محصول وافر من روايات الأئمة فى القراءة واللغة ، لم يسنح لغيره — كما قلنا — فكان شأنه فيما تحصل لديه شأن العالم الناقد البصير بكل تفصيل فى القراءة ، يعرف مصدره ، ويضبط أداءه ، وينسبه لبيئته التى يوافقها ، فسلك فى قراءته طريقة فذة ، هى أنه اختار أصولها ومفرداتها اختيارا دقيقا ، يدل على علم الرجل واقتداره ، فهو من هذا الوجه صاحب قراءة لا مقلد ، وهو معتمد دائما على صحيح الروايات .

وهذا هو معنى الاختيار ، أنه انتقى أصول قراءته ومفرداتها انتقاء لا يتقيد بمذهب ، ولا يمكن أن ينسب إلى مصدر بذاته من المصادر التعليمية فى عصره ، لأنه اختار بناء على فكرة ، لابوحى من النقل والتقليد اللذين جرى عليهما معاصروه من القراء . ومن ثم يمكن أن نقول : إن قراءته لاتشبه قراءة بعينها ، ولكن فيها مشابه من قراءات كثيرة ، تكشف عنها مؤلفات الفن ، وبخاصة ماتحدث منها عن طرق الأخذ والرواية .

★ ★ ★

كيفية القراءة

إذا أردنا أن نعالج موضوع كيفية القراءة عند القراء كان لزاما علينا أن نتتبع الآثار الواردة فى كيفية التلاوة عن النبى ﷺ ، فإن القراء لم يأتوا فى هذا الباب بدعا ، بل كانوا أتباع رواية ، وتلاميذ مدرسة ملقنين ، توارثوا طريقة النطق جيلا عن جيل ، واحتفظوا فى نطقهم بتلك الخصائص المتوارثة ، المروية عن النبى ﷺ ، وغاية جهدهم أنهم وضعوا لتلاوتهم قواعد خشية الإخلال بها ، نقصا أو زيادة ، فكانت قواعد المد والقصر ، والإدغام والتسهيل ، والغنة والإخفاء ، وما إلى ذلك من الأحكام — محاولة منهم لتقعيد الكيفية المروية بشأن تلاوة القرآن .

ومن الأحاديث المروية فى هذا الشأن ماجاء فى جامع الترمذى وغيره عن يعلى ابن مالك أنه سأل أم سلمة رضى الله عنها عن قراءة رسول الله ﷺ فإذا هى تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا ، قالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول لله ﷺ يقرأ السورة حتى تكون أطولَ من أطولَ منها » (١) .

وروى النسائى وابن ماجة عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قام بآية يرددها حتى أصبح : « إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبِادُكَ » (٢) .

وفى صحيح البخارى عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال : « كانت مدا ، ثم قرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » يمد الله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم » (٣) .

فإذا أضفنا إلى هذه الأحاديث ماورد فى تفسير قوله تعالى : « وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً »وقوله : « وَرَتِّلِ الْقُرْآن تَرْتِيلاً » ، قال ابن عباس : « بَيِّنْهُ » ، وقال مجاهد : « تَأَنَّ فِيه » ، وقال الضحاك : « انْبِذْه حَرْفاً حَرْفاً » يقول تعالى : « تَلَبَّثْ فى قراءته وتَمَهَّلْ فيها ، وافْصِلْ الحرفَ من الحرفِ الذى بعده » (٤) ـــ إذا أضفنا ذلك أمكننا أن نكون صورة تقريبية عن كيفية القراءة القرآنية على عهد رسول لله ، أعنى : القراءة المستحبة ، فقد كانت كما هو واضح من هذه الآثار قراءة مُتَأنِّيَة يَقْصِدُ بها رسولُ الله ﷺ التأمل والتعبد ، كما فى قراءة قيام الليل ، أو يَقْصِدُ بها تعليمَ الصحابةِ كيفية القراءة إذا كان بمحضرٍ منهم .

واستمرت الحال على ذلك من بعد الرسول ، يتبارى القوم فى تجويد قراءتهم ، ملتزمين ماروى لهم من معالم قراءة رسول الله ، يَمُدُّونَ أحرفَ المدِّ على تفاوتٍ فيما

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٠٨ .

(٢) السابق .

(٣) السابق .

(٤) السابق .

بينهم ، ويغُنُّونَ النونات ، ويفصلون الحرف فى نطقه عن سابقه ، ولاحقه ، يمكنهم أن يحققوا الكلمات ، ويتأملوا فى خلال ذلك معانيها ، وكانوا يعدون ذلك من باب القربة إلى الله ، فقد روى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يحب أن يُقْرَأَ القرآنُ كما أُنزِلَ » ـــ أخرجه ابن خزيمه فى صحيحه (١) .

حتى إذا انحدر الزمن بالناس ، وزاد القارئون ونقصوا فيما تُعُورِفَ عليه من تقاليد القراءة القرآنية ، نهض القراء إلى وضع قواعد القراءة ليترسمها المبتدئون ، وهى قواعد تنأى بهم عن الإخلال بقراءة القرآن ، بالنقص أو بالزيادة ، وأغلب الظن أنها لم تكن تنطبق إلا على القرآن ، فلم يكن الشعر يُقْرَأُ بمد أوغَنٌّ ، إذ لم تكن بالناس حاجة إلى تأمله أثناء قراءته ، بل كان يكفى أن يقرأوه قراءة عادية ، خالية من القيود التى يلتزمها قراء القرآن . ومن هنا انفصلت قراءة القرآن عن أسلوب القراءة فى غير القرآن ، فى الشعر وفى النثر ، وزاد الانفصال كثيرا حين فشت العاميات على الألسنة ، ومنهج العامية فى النطق لا يفرق بين أول الكلمة وآخرها ، فهو لا يلتزم غالبا بأية حركة فى أواخر الكلمات ، إذ إن الكلمات فى العامية تُلْقَى سريعةً متصلة ، ولكن الذى يبدو لنا حين نراجع القواعد التى رسمها القراء للنطق منذ بعيد ، ثم نقارن بينها وبين النطق الذى يلتزمه القراء الآن ، يبدو لنا أنه لافرق يُحَسُّ بين الجانبين ، إلا فى نطق الضاد ، فإن المحدثين من القراء لاينطقونها ، أو لا يحاولون النطق بها رخوة كما وُصِفتْ فى كتب القراءات ، وإنما تَنْطِقُ بها ألسنتُهم شديدةً ، وإن كان بعض المجيدين منهم قادراً أن يُمَثِّلَ فى نطقه الضادَ القديمة والحديثة ، كما هو واضح لدى السماع ، وهو ما سنعالجه فيما بعد فى وصف الأصوات الفصحى .

أما الطاء والقاف المجهورتان فقد همستا نهائيا على ألسنة القراء وغيرهم . حتى لم يبق لهما من أثر إلا على ألسنة بعض قراء السودان ، حيث ينطقون القاف (مُغَيَّنة) ، مجهورة ، ولدينا على ذلك بعض التسجيلات ، وفيما عدا ذلك يؤدى قراء القرآن أصوات اللغة القرآنية أداء محققا ، يبالغون فيه حرصا على ألا يهبط نطقهم إلى مستوى النطق

---

(١) السابق .

الشائع ، حتى لنكاد ندعوهم أحيانا بالمتقعرين ، رغم أنهم هم البقية الباقية من تراث النطق العربى الفصيح .

وحقا لا نتصور وجود فرق ذى بال على عهد الرسول ﷺ بين طريقة النطق فى اللغة النموذجية وقراءة القرآن ، اللهم إلا ما كان من أناة يقصد بها التأمل فى نظم الآيات أو معناها ، أما بعد أن اختلطت الألسنة ، واشتبهت أوجه النطق ، فقد ظهر الفرق واضحا بين كلتا الطريقتين .

بقى أن نعلم أن القراء إنما يلتزمون الدقة فى إخراج الأصوات فى قراءة القرآن فى نهج واحد من القراءة ، هو ما أسموه « قراءة التحقيق » ، فقد قسم القراء كيفية القراءة إلى ثلاث طرق : —

طريقة التحقيق : وهى عندهم عبارة عن « إعطاء كل حرفٍ حقَّه من إشباع المد ، وتحقيق الهمزة ، وإتمام الحركات ، واعتماد الإظهار والتشديدات ، وتوفية الغنات ، وتفكيك الحروف ، — أى بيانها — وإخراج بعضها من بعض بالسكتة والترسل ، واليسر والتؤدة ، وملاحظة الجائز من الوقوف ، ولايكون غالبا معه قصر أو اختلاس ، ولا إسكانُ محرك ولا إدغامه » (١) . وغير خاف أن مراعاة هذه الاعتبارات جميعا ليست من السهولة بحيث يتقنها القارىء فى زمن وجيز ، وإنما يحتاج لكى يتعودها إلى مواظبة التدريب حتى يألفها ، وتصبح له عادة ، فلا شك أنها قيود ثقيلة ، وقد حذر القراء من الشطط فى التزامها ، والمبالغة فى تطبيقها إلى حد تحريك السواكن ، وتوليد الحروف من الحركات ، وتكرير الراءات ، وتطنين النونات بالمبالغة فى الغنات ، فقد روى أن حمزة إمام المحققين قال لبعض مَنْ سمعه يُبَالغ فى ذلك : « أَمَا عَلِمْتَ أَن ما كان فوق الجعودة فهو قطَط ، وما كان فوق البياض فهو بَرَصٌ ، وما كان فوق القراءة فليس بقراءة » (٢) .

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٠٥ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة والجعد : الشعر الخشن غير المسترسل ، والقطط : الشعر شديد الجعودة : كشعر الزنوج .

قال ابن الجزرى : « وهذا النوع من القراءة وهو التحقيق هو مذهب حمزة وورش عن غير طريق الأصبهانى ، وقتيبة عن الكسائى ، والأعشى عن أبى بكر وبعض طرق الأشنانى عن حفص ، وبعض المصريين عن الحلوانى عن هشام ، وأكثر العراقيين عن الأخفش عن ابن ذكوان » [١] ، ثم أورد إسناد هذه القراءة متصلا ، مبتدئا بنفسه منتهيا بقراءة النبى ﷺ التحقيق . ثم قال : « قال الحافظ أبو عمرو الدانى : هذا الحديث غريب لا أعلمه يحفظ إلا من هذا الوجه وهو مستقيم الإسناد » [٢] . وقد كان أبو عمرو يقرأ هذا التحقيق فى غير الصلاة ، إذا ماقصد التلاوة المفصلة ، فيجانب حينئذ الإدغام وإسقاط الهمزة ، على ماتجىء الإشارة إليه . تلك هى الطريقة الأولى من طرق القراءة ، وهى — إن صحت أوصافها — تدعونا إلى أن نتأمل طريقة القراء فى عصرنا هذا بتنغيم القراءة وَمَوْسَقَتِهَا ، فإذا كانت قراءة التحقيق تتسم بالتؤدة ، وتفكيك الحروف ، وتوفية الغنات ، إلى غير ذلك من الأوصاف ، فقراءتهم بسبب من التحقيق ، بقطع النظر عما يخالطها من الاهتمام بالأنغام ، ولكن مابالنا نجدهم يفعلون هذا ويقرعون إلى جانبه بالاختلاس والقصر والإدغام والإسكان ... ؟ ... لاشك أن هذا يُعَدُّ انحرافا عن جادة القراءة ماأجدرهم أن يُقَوِّمُوه ، وإنما يجوز لهم ذلك ، إذا كانت قراءتهم بالطريقة الثانية :

طريقة الحدر : وهى الثانية من طرق القراءة الثلاثة ، والحدر عندهم عبارة عن « إدراج القراءة وسرعتها وتخفيفها بالقصر ، والتسكين ، والاختلاس ، والبدل ، والإدغام الكبير ، وتخفيف الهمز ، ونحو ذلك مما صحت به الرواية ، ووردت به القراءة مع إيثار الوصل وإقامة الإعراب ومراعاة تقويم اللفظ وتمكن الحروف [٣] » .

وأغلب الظن أن هذه الطريقة كانت طريقة أبى عمرو ، فقد وضح لنا مما

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

(٣) النشر جـ ١ ص ٢٠٧ .

سبق أنه كان يؤثر التخفيف ، وفى مفردات الدانى : حدثنا محمد بن على قال : حدثنا ابن مجاهد قال : « كان أبو عمرو حسن الاختيار سهل القراءة غير متكلف ، يؤثر التخفيف ماوجد السبيل إليه » (١) .

وقد ذكرت روايات كثيرة عنه أنه كان يؤثر الحدر فى القراءة ، فقد ورد فى طبقات القراء أن أبا عبيدة قال : « كانت دفاتر أبى عمرو ملء بيت إلى السقف ثم تنسك فأحرقها وتفرد للعبادة وجعل على نفسه أن يختم فى كل ثلاث » (٢) ، وتمكنه من أن يختم فى ثلاث ليال يدل صراحةً على أنه كان يحدر فى القراءة ، فلو أنه كان يحقق ما استطاع أن يختم فى أقل من عشر ليال ، ولا شك أنه كان فى هذه الطريقة يُدْغِمُ ، ويُسْقِطُ الهمزةَ ، ويَقْصُرُ الممدود ، إلى غير ذلك من وجوه الاختيار التى سنفصل أحكامها وأصولها فى هذا الباب .

والواضح من صفة طريقة الحدر أن القارىء لايصح أن يخل بنطق صوت من الأصوات ، بل ينبغى أن يحافظ على وجود الأصوات ، إلا مايعرض لحذف أو تسهيل أو إدغام .

والطريقة الثالثة هى التى سميت بالتدوير ، وهو عبارة عن التوسط بين التحقيق والحدر ، والأمر فى قياس هذه الطرق الثلاثة نسبى ، تعرف حدوده ومقاييسه بالمران .

ولله در الحافظ أبى عمرو الدانى رحمه الله حيث يقول « ليس التجويد بتمضيغ اللسان ، ولا بتقعير الفم ، ولا بتعويج الفك ، ولا بترعيد الصوت ، ولا بتمطيط الشد ، ولا بتقطيع المد ، ولا بتطنين الغنات ، ولا بحَصْرَمَةِ الراءات ، قراءة تَنْفِر منها الطباع ، وتمجُّها القلوبُ والأسماع ، بل القراءة السهلة العذبة ، الحلوة اللطيفة ، التى لا مَضْغَ فيها ولا لَوْكَ ، ولا تَعَسُّفَ ولاتَكَلُّفَ ، ولاتَصَنُّعَ ولا تَنَطُّعَ ، ولا تَخْرُجُ عن طباع العرب وكلام الفصحاء بوجه من وجوه القراءات والأداء (٣) » .

---

(١) مفردات أبى عمرو الدانى ـــ مخطوطة .

(٢) غاية النهاية فى طبقات القراء جـ ١ ص ٢٩٠ .

(٣) النشر جـ ١ ص ٢١٣ .

عرض للقراءة وأصولها [١]

يعتمد القراء غالبا فى أداء هذه القراءة على رواية راويين أخذا عن أبى محمد يحيى بن المبارك اليزيدى تلميذ أبى عمرو ، هما أبو عمر الدورى (المتوفى سنة ٢٤٦ هـ) وأبو شعيب السوسى (المتوفى سنة ٢٦١ هـ) وهما أشهر من نقل قراءة أبى عمرو من الأئمة ، ويعد سندهما أقوى سند حمل القراءة إلى الآفاق . وحفظ لنا ظواهرها ، وقد سبق أن قلنا : إننا نقدم السوسى فى رواية الإدغام على الدورى ، لتفرغ السوسى لهذه القراءة ، واشتغال الدورى بغيرها ، وقد وجدنا الإمام الشاطبى لا يذكر فى « شاطبيته » سواهما ممن روى عن أبى عمرو ، وأصول هذه القراءة تنحصر فى طائفتين :

الطائفة الأولى : مايؤخذ من الرواية على وجه الالتزام تعبدا ، كطريقته فى الاستعاذة والتسمية ، وهذان الأمران لايتصلان بلهجة ، ولا يعدان من العوامل الصوتية . فإذا كان أبو عمرو قد التزم أن يذكر الاستعاذة مثلا عند كل قراءة فما ذلك إلا لأنه متمسك بمضمون الأمر فى قوله تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ فاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » ، وما روى عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يستفتح القراءة بهذا اللفظ بعينه ، فوجود الاستعاذة فى مستهل القراءة ، والتزامه الجهر بها إنما هو تقليد تمسك به تنفيذا لأمر ، وعملا بسنة . وهذه الطائفة خارجة عن مجال دراستنا .

الطائفة الثانية : مايتصل بأحكام القراءة ، وموقفها من بعض مشكلات النطق ، ومذهب أبى عمرو الذى اختاره فيها ، ويشمل ذلك :

(١) باب أحكام الهمز .

---

(١) اعتمدنا فى عرض أصول هذه القراءة غالبا على مخطوطة (مفردة حرف أبى عمرو بن العلاء) لعبد الله ابن محمد بن عبد الله المدنى الانصارى المعروف بالنكزاوى — وهى مصورة لدى الدكتور عبد الفتاح شلبى . وراجعنا ماذكرناه على كتابى : النشر لابن الجزرى ، والتيسير لأبى عمرو الدانى .

(٢) باب أحكام الإمالة .
(٣) باب أحكام المد .
(٤) باب أحكام الوقف .
(٥) باب ياءات الإضافة .
(٦) باب الإدغام بشقيه (الصغير والكبير) .

وهناك فصل مشترك بينه وبين سواه من القراء ، وهو باب « أحكام النون الساكنة والتنوين » .

بقيت طائفة من الأحكام أهملها القراء فلم يضعوا لها أصولا ، ولم يدركوا من ورائها سرا ، وهى واردة ضمن باب يطلقون عليه (فرش الحروف) ، يستعرضون فيه موقف القارىء من كل كلمة فى القرآن ، مما لايتصل بالأصول المتقدمة ، فإذا جاءت كلمة ينطبق عليها حكم مما تقدم أحالوا إلى الأبواب السابقة .

ولسوف نعرض فيما يلى أحكام أبى عمرو فى كل من الأبواب السابقة ، مكتفين بذكر مايتصل بخصائص النطق لديه ، دون مايتصل بمشكلات الرسم ، ثم نحاول أن نعالج قواعد اختياره فى كل ماذهب إليه ، أصلا كان أو اختيارا مفردا ، وليس من رأينا أن نفصل بين اختيار أبى عمرو فى هذه الأبواب الكبيرة ، وبين اختياره فى الكلمة المفردة ، فقد يكون للكلمة المفردة من الدلالة مايدعم رأينا فى أصل من الأصول .

★ ★ ★

١ ـــ أحكامُ الهمز

لأبى عمرو بالنسبة للهمز بعامة موقفان ، موقف التحقيق عند التلاوة المفصلة ، وموقف التخفيف ، ومعنى التحقيق هنا أن ينطق بالهمزة محققة دون إبدال أو نقل ، فقراءته هذه شبيهة بقراءة حفص الشائعة التى تلتزم التحقيق ، ومعنى التخفيف أن يبدل من الهمزة حرف علة مناسبا . وذلك إذا قرأ فى الصلاة أو أدرج

القراءة أو قرأ بالإدغام ، فهذه أحوال ثلاث كان أبو عمرو يسقط فيها الهمزة ، ويقلبها إلى صوت علة ، ومعنى ذلك أنه كان يشعر عند القراءة السريعة فى الصلاة أو خارجها أو عند التزام الإدغام بثقل الهمزة ، فاختار لها أحكاما تنزع إلى تخفيفها ، إشاعةً للانسجام فى قراءته ، على ماأسلفنا . ولذلك أحوال :

الهمز الساكن المفرد : كان يبد لُه حرفَ علةٍ ، فاءً كان أو عيناً أو لاماً ، نحو قوله تعالى :

يُؤْمنون – يُؤْفَكُون – يُؤْلُون – الْمُؤْتَفِكَات – بِئْسمَا – الذِّئْب – البِئْر – كَدَأْبِ – الرُّؤْيَا – جِئْت – جِئْتُم – شِئْت – شِئْتُم – مَأْمُون – مَأْمَنَه – وما أشبه ذلك ، فينطق مكان الهمزة فى هذه المواضع حرف علة من جنس حركة ماقبلها .

واستثنى من ذلك خمسة أنواع :

(١) ما سكونه علامة الجزم – وجملة ذلك تسعة عشر موضعا : (نَنْسَأْهَا) فى البقرة ، و (تَسُؤْهُم) – فى آل عمران والتوبة ، و (تَسُؤْكُم) – فى المائدة ، و(يَنْشَأْ أو نَشَأْ) – فى النساء ، وفى الأنعام ثلاثة ، وإبراهيم ، والإسراء موضعان ، والكهف ، والشعراء ، وسبأ ، وفاطر ، ويس ، والشورى ، موضعان ، (يُهَيِّئْ) – فى الكهف ، و(أَمْ لم يُنَبَّأْ) – فى النجم .

(٢) ما كان سكونه للبناء ، وذلك فى فعل الأمر من مثل الأفعال السابقة نحو : (أَنْبِئْهُمْ) – فى البقرة ، و (أَرْجِئْه) – فى الشعراء ، إلى غير ذلك .

(٣) ماهمزه أخَفُّ من تسهيله – وذلك فى موضعين : (وتُؤْوِى إليْكَ) – فى الأحزاب ، و (الَّتى تُؤْوِيه) – فى المعارج ، فلو خفف لاجتمعت واوان ، واجتماعهما أثقل من الهمز .

(٤) مايؤدى إلى الالتباس ، وذلك موضع واحد هو : (أَثَاثاً ورِئْياً) – فى مريم ، فلو ترك همزه لأشبه (رِىّ الشَّارِبِ) وهو عنده من الرُّواءِ ، وهو المنظر الحسن .

(٥) مايخرج بتسهيله من لغة إلى أخرى ، وهما موضعان (مُؤْصدة) — فى البلد والهُمَزَة ، لأنها عنده من أَصَدَتْ إذا أَطْبَقَتْ ، فله أصل فى الهَمْزِ ، لا من أُوصِدَتْ ، فالهمز عنده لربط الفرع بأصله .

وقد ذكر الرواة مثالا فريدا فى باب الهمز المفرد ، خَرَجَ عن هذه الأصول ، وذلك قوله تعالى : « إِلَى بَارِئِكم » — فى موضعين بالبقرة ، ففيه عندهم اختلاس الهمزة للدورى ، والإسكان الخالص للسوسى ، مع تحقيق الهمزة فيهما ، وذهب آخرون إلى إشباع حركتها ، وذهب غيرهم إلى إبدالها ، واعتمادنا هنا على الروايتين السابقتين .

الهمزة المتحركة بعد ساكن : ونهجه فيها هو المعروف لدينا من طريقة حفص ، فهو يحققها ، وينطق بالساكن قبلها دون سكت بينهما نحو : خَلَوْا إلى ، والأرض ، ويَابَنِى آدَمَ ، إلى غير ذلك من الأمثلة ، ما خلا قوله عز وجل « عَادًا الْأُولَى » ، فقد نقل حركة الهمزة إلى اللام ليتمكن من الإدغام ، (إدغام نون التنوين فى اللام) فنطق بها مشددة مضمومة ، وأسقط الهمزة ، هكذا : « عَادَ لُّولَى » .

أما حكم الهمزة المفردة المتحركة مثل : يؤلف ، يؤذن ، يؤخرهم ، وشبهه فلا خلاف عنه فى تحقيق الهمزة فى ذلك كله ، ولسوف يفيدنا هذا الحكم فى علاج هذا النوع من الهمز عند التقائه بياء الإضافة ، فى عرض أحكام « ياءات الإضافة » فى هذا الفصل .

الهمزتان المجتمعتان فى كلمة وفى كلمتين : ولذلك حالات :

الأولى : أن تكون الأولى مفتوحة ، والثانية متحركة بالفتحة أو بالكسرة أو بالضمة **فى كلمة** ، فإذا تحركت الثانيةُ بالفتحةِ سُهِّلَتْ بين الهمزة والألف نحو : أأنذرتهم وأأقررتم ، وزيد بين الهمزتين ألف لتصير الأولى ممدودة ، ماعدا قوله : (آمنتم) — فى الأعراف وطه والشعراء ، و(آلهتنا) — فى الزخرف ، فإن الأئمة متفقون على عدم زيادة هذه الألف .

وإذا تحركت الثانية بالكسرة سهلت بَيْنَ بَيْنَ فتصير كالياء المختلسة الكسرة ،

وأدخل بينهما ألف نحو : (أَاْيِذا ، أَاْيِفكاً) ، ما خلا قوله : (أَيِمَّةً) — حيث وقع — فإنه لافصل بألف . وإذا تحركت الضمة سهلت بَيْنَ بَيْنَ ، فتصير كالواو المختلسة الضمة ، ولم تدخل بينهما ألف ، ووردت القراءة عنه بإدخالها .

الثانية : أن تتفق الهمزتان بالفتح أو بالكسر أو بالضم فى كلمتين : فالمفتوحتان مثل : (تِلْقَاءَ أَصْحَابِ ، وَجَاءَ أَمْرُنَا) ، والمكسورتان مثل : (هؤُلاءِ إِن كنتم ، على البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ) ، والمضمومتان مثل : (وليسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلَيَاءُ أُولئِكَ) وقد قرأ أبو عمرو هذا النوع بإسقاط إحدى الهمزتين وتحقيق الأخرى . والخلاف قائم حول أيٍّ من الهمزتين قد حذف ؟ .. ولا معنى له إلا فيما يتصل بحكم المد فيها ، هل يأخذ درجة المنفصل أو المتصل .. ؟ ..

الثالثة : أن تكون الأولى مضمومةً ، والثانيةُ مفتوحةً فى كلمتين مثل (أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ) ، وقد حقق الأولى وأبدل الثانية واوا مفتوحة .

الرابعة : أن تكون الأولى مفتوحةً والثانيةُ مضمومةً فى كلمتين — عكس الحالة السابقة — مثل : (جَاءَ أُمَّةً رَسُولُها) ، وهذا موضع واحد ، وقد حقق أبو عمرو الأولى وسَهَّلَ الثانية بَيْنَ بَيْنَ ، فجعلها كالواو المختلسةِ الضمة .

الخامسة : أن تكون الأولى مفتوحةً والثانيةُ مكسورةً فى كلمتين ، مثل (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يعقوبَ الموتُ) ، وحقق أبو عمرو الأولى وسهل الثانية بَيْنَ بَيْنَ ، فجعلها كالياءِ المختلسةِ الكسرة .

السادسة : وهى عكس سابقتها مثل : (قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ) ، حقق الأولى ، وأبدل الثانية ياءً مفتوحةً .

السابعة : أن تكون الأولى مضمومةً والثانية مكسورةً ، ولا عكس ، مثل (نَشَاءُ إِنَّكَ — شُهَدَاءُ إِلاَّ) ، حقق الأولى وسهل الثانية ، واختلف عنه فى كيفية تسهيلها ، فمنهم من جعلها بين الهمزة والياءِ ، اعتداداً بحركتِها ، وهو مذهبُ أكثر النحويين وبعض المقرئين ، ومنهم من سهلها بين الهمزة والواو اعتدادا بحركة

ماقبلها ، وهو قول أكثر المقرئين ، والأخفش من النحويين ، والوجهان صحيحان ، غير أن الأول أَقْيَسُ فى العربية ، والثانى آثَرُ فى الروايةِ ، وعليه الأداء .

فهذا عرض وافٍ لأحكام الهمزة وما يطرأ عليها من تغير فى اختيار أبى عمرو ، مع ملاحظة أن ذلك مشروطٌ بأن تكون القراءة فى الصلاة ، أو كونها مُدْرَجةً ، أو أن يكون القارئ ملتزما فى قراءته الإدغامَ ، فأما فى غير ذلك فقد كانت الهمزاتُ كلُّها محققةً ، تماما كما حفظنا فى قراءة حفص .

★ ★ ★

٢ ــ أحكام الإمالة

لأبى عمرو فى الإمالة أحكام :

أولا :

أنه أمال كلَّ ألِفٍ[1] بعدها راء مكسورة كسرةَ إعرابٍ ، وهى فى موضع اللام من الكلمة ، سواء تكررت الراء أم لم تتكرر ، وَقَعَ قبلها حرفُ استعلاءٍ أَوْ غيرُهُ نحو : (القَهَّار – والنَّهار – والْأَبْرَار – وأَبْصَارهم – و دِيَارهم ، وأَوْبَارِها وأَشْعَارِها – وبَيْنَ أَسْفَارِنا – مِنْ أَقْطارِها – والكفارِ – بِقِنْطارٍ – بِدِينارٍ) . واستثنى من ذلك قوله (وَالْجَارِ) – فى موضعى النساء .

فأما ما كانت الكسرة فيه للبناء فلا إمالةَ فيه عنده ، وذلك نحو : (جَبَّارِينَ) – فى المائدة والشعراء ، و (الْجَوَار) – فى الشورى والرحمن والتكوير ، ومِمَّا وقع مُمَالاً فى قراءته لفظة (هَارٍ) ، لأن الكسرة هنا ليست للبناء ، بل هى مثيلة الكسرة فى رَامٍ وغَازٍ – عَارِضَةٌ .

---

(١) عبارة المخطوطة : أنه أمال فتحة ماقبل كل ألف بعدها راء مكسورة ، وما قلناه هو الصحيح لأن الراء مسبوقة بفتحة طويلة هى الألف ، لا بفتحة قصيرة ثم ألف (ارجع الى المخطوطة ورقة ٢٩) ، وهذا الخطأ شائع عند القدماء فى مثل هذه المواضع .

ثانيا :

أمال كلَّ ألِف فى نهاية الكلمةِ ، منقلبةٍ عن ياء ، سواء كانت الألفُ لامَ الكلمةِ ، أم كانت للتأنيثِ ، وسواء اتَّصَلَ بالكلمة ضمير أم لا ، فالتي هي لام الكلمة مثل (تَرَى – يرى – اشترى – أَدْرَاكُم – اعْتَراكَ – وَلَوْ أَراكَهُمْ – أَدْرَاك – التَّوْرَاة – القرآن – مَجْراها – تَتَمارَى – يُفْتَرَى) ، والتى للتأنيث نحو (النَّصَارىَ – سُكَارىَ – أُسَارىَ – بُشْرَى – بُشْرَاكُمْ – ذِكْرَاهُمْ – الشِّعْرَى – الْأُخْرَى) .

ثالثا :

أن يكون قبل الألف المنقلبة عن الياء همزة نحو : (رَأَى كَوْكَبًا ، رَأَى أَيْدِيَهُمْ ، فَرَآه حَسَنًا) ، ونظيره حيث وقع .

فأما قوله : (وَنَأَى) – فى الإسراء وفصلت ، فاختلف فيه عن أبى عمرو ، فروى الدورى فتحة النون والهمزة ، وروى السوسى إمالة فتحة الهمزة ، بيد أن رواية الإمالة من السوسى منقوضة بما ذكره ابن الجزرى قال : « وأجمع الرواة عن السوسى من جميع الطرق على الفتح ، لانعلم بينهم فى ذلك خلافا » (١) .

وقد رويت عنه إمالته الألف من قوله تعالى : (وَمَنْ كَانَ فى هَذِهِ أَعْمَى) فحسب ، دون مابعدها ، إذْ كان المقصود من الثانية التفضيلَ بمعنى : « فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَشَدُّ عَمىً » والمقصود بالأولى هو الوصف .

رابعا :

أمال الألف من كلمة (الْكَافِرِينَ) إذا كانت جمعا منصوبا أو مجرورا فإن كانت مفرداً ، أو مرفوعة فلا إمالة فيها عنده . كما أمال الألفَ من كلمةِ (النَّاسِ) إذا كانت مجرورةً لاغيرُ ، بخلافِ عنه فى ذلك .

خامسا :

فإذا لَقِيَت الألفُ المنقلبةُ عن ياءٍ ، وهى التى مَرَّتْ فى (ثانيا وثالثا)

---

(١) النشر جـ ٢ ص ٤٤ .

ساكناً – فقد اختلف الرواة فيه عن أبى عمرو ، فروى الدروى فَتْحَ صوت الألف لسقوط موجب الإمالةِ ، وروى السوسى إمَالَتَه ، إلا ماكان مُنَّوناً فإنه فَتَحَهُ نحو : (مُفْتَرَىَ ، قُرَى) ، ومثال مالقى ساكنا (الْكُبْرَى اذْهَبْ – رَأَى الشَّمْسَ – النَّصَارَى الْمَسِيحُ – ونَرَى الله – وسَيَرَى الله) . فأما قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَ الذِّينَ كفروا . أَو لَمْ يَرِ الإِنْسَانُ) فقد قرأه بالفتح فى الوصل ، لانتفاء موضع الإمالة للجزم .

ومن المسائل المتفرعة على هذا :

(١) ما إذا وقف القارىء على (قُرىً ظَاهِرَةً) المنون ، وفيه عند ذلك وجهان : الفتح والإمالة .

فأما بقيةُ المنون (مُفترىً – قُرىً مُحَصَّنَةٍ) فالوقف على جميع ذلك بالإمالة ، والفرق أن الألف فى (قُرىً ظَاهِرَةً) مبدلةٌ فى التنوين ، وهى فى : (مُفْتَرَىً ، وقُرىً مُحَصَّنَةٍ) منقلبةٌ عن ياءٍ ، إذْ ليست هذه الكلمة فى موضع نصب .

(٢) وفى الوقف على الكلمات المنتهية براءٍ (كالنهار والغار والدار والأبرار والأشرار ، وبقنطار) ، خلافٌ ، فبعضُهم وقف عليهنَّ بالفتح لعدم موجب الإمالة وهو الكسرة ، وآخرون وقفوا عليهنَّ بالإمالة كالوصل .

سادسا :

كل ما كان فى الأسماء المؤنثة بزنة فَعْلى أو فِعْلى أو فُعْلى – كان يقرؤه بين اللفظين ، مالم يكن فيه راءٌ نحو : الْمَوْتَى والسَّلْوَى ، ومَرْضَى ، والرُّؤيا ، والدُّنْيَا ، وطوبى ، وسِيَماهُمْ ، وإِحْدىَ ، [وموسى ، وعيسى ، ويحيى][1] (اسما لا فعلا) .

فإن كان قبل الألف المنقلبة عن ياء فى ذلك كله راء أَمَالَهُ على ماتقدم ، فأما الكلمات : (بَلَى ومَتَى وعَسَى وَيَاوَيْلَتى ويَاحَسْرَتَى وأَنَّى – استفهاما –) ففيها

---

(١) كذا وردت بالمخطوطة ، ولا وجه للجمع بين هذه الأسماء الثلاثة الأخيرة وبين ماسبقها ، لأنها مذكرة ، والحديث عما كان من الأسماء المؤنثة .

الوجهان : الإمالة والفتح ، والفتح فى رأينا هو الارجح ، قال ابن الجزرى : « وروى فتح الألفاظ السبعة عن أبى عمرو من روايتيه سائر أهل الأداء من المغاربة والمصريين وغيرهم ، وبه قرأ الدانى على أبى الحسن . وروى جمهور العراقيين وبعض المصريين فَتْحَ جميعِ هذا الفصل عن أبى عمرو من روايتيه المذكورتين ، ولم يُمِيلُوا عنه شيئا مما ذكرنا سوى ماتقدم من ذوات الراء »[1] .

فَإِنْ جَاءَ بعد الألف فيما تقدم مما أماله بين اللفظين سَاكِنٌ نحو : (الْقَتْلَى الحُرُّ — وموسَى الكتابَ) قرأ جميع ذلك بالفتح فى الوصل ، وبالإمالة فى الوقف ، لعدم المانع ، وهو الساكن .

فأما إذا كان المنون فى موضع نصب نحو قوله عز وجل : « مَكَانًا سُوًى — وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى » ففيه الإمالةُ والفتحُ — على ماسبق فى « قُرًى ظَاهِرَةً» .

فهذا عرض لأحكام الإمالة عند أبى عمرو ، راعينا فيه الإيجاز غير الْمُخِلِّ ، ولسوف نحاول فى ملاحظاتنا على هذه الأحكام أن نصل إلى القاعدة الصوتية التى اتبعها فى اختيار حروف إمالته إلى جانب الاستفادة من نسبتها اللهجية فى تدعيم رأينا عن مصادر قراءته .

وبقى أمر يُلْحِقُهُ القراء عادةً بباب الإمالة ، وهو كيفية النطق بالراء واللام : ويروون أن أبا عمرو لم يكن يرقق شيئا من الراآت المتحركات — سوى المكسورة ، فقد أجمع الأئمة على ترقيقها ، نحو : (الحريق وفريق) ، فأما الراء الساكنة فإن كان الواقع قبلها مكسورا كَسْرًا لازما ولم يقع بعدها حرف استعلاء ، فالإجماع على ترقيقها نحو (مِرْيَة — وشِرْعَةً) فَإِنْ وقع بعدها ياء وكان ماقبل الراء مفتوحاً ففيه الوجهان ، ولا يُنْظَرُ حينئذ لنوع الحرف ، هل هو استعلاء أو غيره ، نحو : (مَرْيَم وقَرْيَة وقَرْيَتِكُم) فَهذه تُقْرَأُ بالترقيق وبالتفخيم .

أما اللام فإنها ترقق ، حتى إذا تقدمها صاد أو طاء أو ظاء ، وكانت مفتوحة نحو : (الطلاق ، والصلاة ، وفظلموا) .

---

(١) النشر جـ ٢ ص ٥٤ .

واللام فى اسم الله عز وجل مجمع على تفخيمها إذا سُبِقَتْ بفتح أو ضمّ نحو (قالَ الله ـــ رُسُلُ الله)، وترقق إذا تقدمها كسرٌ نحو : (بِسْمِ الله) .

٣ ـــ « أحكام المد »

وأحكام أبى عمرو فى المد لاتختلف عن أحكام غيره من القراء ، إلا أنه يمتاز بالتوسط فى المد ، ولا حاجة بنا إلى عرض أحكامه هنا لأن المد لا يتصل بلهجة ، وإنما هو صورة من صور التأنى فى تلاوة القرآن ، كما أن فائدته بعامة هى : تركيز النبر على مقطع معين ليعين ذلك على تحقيق همزة ، أو إظهار حرفٍ مشدد ، أو ساكن فى نهاية الكلمة ، وهذا حين يكون المد مُشْبَعاً ، فأما إن كان غير مُشْبَعٍ ، أى : طبيعيا ، فإن وظيفته أن يأخذ صوت العلة حقه فى الأداء الصوتى ، كما فى نحو « قال الله هذا » ، فالألفات الثلاثة فى هذه العبارة حركات مقطعية ، يعتبر النبر فيها تحقيقا لوجودها فى اللفظ كاملا ، ولئن كان طول المد المشبع يتفاوت بين القراء ، فما ذلك إلا لحرصهم على إثبات وجود صوت معين ، خيفة أن يضيع فى دَرْجِ القراءة ، وسنجد أن أبا عمرو يحاول أن يتجنب المد فى قراءته ما أمكن ، حين يحرك ياء الإضافة قبل الهمزة فى أغلب الحالات ، على ما سنفصل فيما بعد .

وغاية مايقال : إن توسط أبى عمرو فى المد وعدم مغالاته فيه يساعد أيضا على أداء عملية الإدغام التى اختص بها من بين جميع القراء .

٤ ـــ أحكام الوقف

وللوقف عند أبى عمرو أحكام :

أولها :

أن أصل الوقف على أواخر الكلم المتحركات فى الوصل بالسكون المحض .

ثانيها :

استحب الأئمة من القراء الإشارةَ إلى الحركات ، لما فى ذلك من البيان . وقد جاء هذا عن أبى عمرو أداءً من طريق الإمام الحافظ أبى عمرو عثمان بن سعيد ، والإشارة على وجهين : رَوْمٍ وإشْمَامٍ :

فالرَّوْمُ : هو الإشارة إلى الحركة مع صوتٍ خَفِىٍّ فى المرفوع والمضموم ، والمجرور والمكسور ، دون المنصوبِ والمفتوح ، فى أفصح اللغات ، فإذا خرج بعضُها خرج سائرُها .

والإشمام : هو الإشارة إلى الحركة من غير تصويت ، ويختص بالمرفوع والمضموم دون غيرهما . فالروم يدركه الأعمى والبصير ، أما الإشمام فلا يدركه غير المبصر . ولسوف نعالج هذه المسألة بعد أن نفرغ من الحديث عن الخلاف بين النحاة والقراء حول الإدغام .

★ ★ ★

٥ ــ أحكام ياءات الإضافة

ولياءات الإضافة ــ والمقصود بها ياء المتكلم متصلةً بالاسم والفعل والحرف ــ حالتان :

أ ــ حالة الفتح .

ب ــ حالة الإسكان .

أ ــ حالة الفتح وتكون الياء مفتوحة فى المواقع الآتية :

(١) إذا أتى بعدها همزة مفتوحة نحو : (إنِّىَ أُعلم) ، فى تسعة وتسعين موضعا ، واستثنى منهاثنا عشر موضعا أسكنها فيها هى : (فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُم ــ البقرة آ ١٥٢ ، فَطَرِنِى أفلا ــ هود آ ٥١ ، لَيَحْزُنُنِى أنْ ــ يوسف آ ١٣ ، سَبِيلِى

أُدْعُو – يوسف آ ١٠٨ ، ولِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى – طه آ ١٢٥ ، أَوْزِعْنِي أَنْ – النمل آ ١٩ ، لِيَبْلُوَنِى أَشْكُر – النمل آ ٤٠ ، تَأْمُرُونِى أَعْبُد – الزمر آ ٦٤ ، ذَرُونِى أَقْتُلْ – غافر آ ٢٦ ، أُدْعُونِى أَسْتَجِب لَكُمْ – غافر آ ٦٠ ، أَوْزِعْنِى أَنْ – الأحقاف آ ١٥ ، أَتَعِدَانِنِى أَنْ – الأحقاف آ ١٧ .

(٢) إذا أتى بعدها همزة « مكسورة » نحو « يَدِىَ إِلَيْكَ » وذلك فى اثنين وخمسين موضعا ، واستثنى منها ثمانى ياءات أسكنها أبو عمرو وهى : « أَنْصَارِى إِلَى اللهِ – آل عمران آ ٥٢ ، والصف آ ١٤ ، بَنَاتِى إِنْ – الحجر . آ ٧١ سَتَجِدُنِى إِنْ – الكهف آ ٦٩ ، والقصص آ ٢٧ ، والصافات آ ١٠٢ بِعِبَادِى إِنَّكُمْ – الشعراء آ ٥٢ ، لَعْنَتِى إِلَىَ – ص آ ٧٨ ، وَرُسُلِى إِنَّ اللهَ – المجادلة آ ٢١ .

(٣) إذا أتى بعدها ألف « ولام » نحو : (عَهْدِىَ الظَّالِمِين) ، وجملة ذلك ستة عشر موضعا ، واستثنى من ذلك ياءان أسكنهما أبو عمرو هما :
« يَاعِبَادى الَّذِيَن آمَنُوا – العنكبوت آ ٥٦ ، يَاعِبَادِى الَّذِين أَسْرَفُوا – الزمر آ ٥٣ .

(٤) إذا أتى بعدها همزة وصلٍ نحو : (إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ) وذلك فى سبعة مواضع .

ب – حالة الإسكان :

(١) إذا أتى بعدها همزة « مضمومة » نحو : (إِنِّى أُعِيذُهَا) ، فى عشرة مواضع .

(٢) وعند باقى حروف المعجم نحو (بَيْتِى – وَجْهِى – لِى) ، فى ثلاثين موضعا ، واستثنى من ذلك ياءان فتحهما هما : (وَمَحْيَاىَ – الأنعام ، وَمَالِىَ – يس) .

★ ★ ★

الفصل الثاني

الإدغام

الإدغام

توطئة :

وهى المشكلة التى رصدنا لها جهودنا ودراستنا منذ وقع الاختيار على قراءة أبى عمرو ، فلا شك أن الإدغام الكبير هو أولى الخصائص التى امتاز بها اختيار أبى عمرو فى قراءته ، وهو بما يحوى من عناصر ومشكلات يعد مجالا خصبا للدراسة ، ولاسيما أن النحاة قد أدلوا فى دراسته بدلائهم ، ابتداء من سيبويه إمام النحاة ، وكانت دراستهم للإدغام باعتباره ظاهرة هامة فى اللغة لاتتقيد برواية قرآن ، وإنما تحكى ماقاله العرب ، وتضع له القواعد المناسبة ، على حين التزام القراء منذ أبى عمرو إدغام الأمثلة القرآنية بناء على الرواية ، ومن هنا كان الموضوع جديرا بدراسة مستقلة تكشف عن أثر الإدغام فى تطور الأصوات العربية خاصة ، وتطور النطق العربى عامة .

ثم إن الإدغام الكبير يكشف عن اتجاه كان سائدا فى النطق العربى الفصيح لم يستطع النحاة أن يدرسوه ظاهرة عامة ، وإنما حاولوا تفسيره تفسيرا سطحيا ؛ ذلكم هو الاتجاه نحو « إسْكانِ المتحرك » ، فقد قال النحاة بأن الحركة إنما حذفت فيه للتقارب أو التجانس أو التماثل ، إرادَةَ الإدغام ، ونحن نخالفهم فيما ذهبوا إليه ، ونرى أن المشكلة أعمق مما قالوا ، وأَدَلُّ على ماكان عليه نطق العرب للغتهم من الناحيةِ الإعرابية . كما أن فى الإدغام جانبا يتصل بالنظام المقطعى فى العربية ، وتفصيلات هذا النظام المقطعى سوف نتعرض لها فى فصل مستقل ضمن دراستنا لمشكلات القراءة .

ولسوف نحاول الربط بين الإدغام وما يشبْهه من الظواهر التى تساعد على توضيح جوانب المشكلة . كما سنفصل ذلك بالنسبة لغيره من الظواهر التى نجدها متناثرة فى اختيارات أبى عمرو .

ولنبدأ الآن بتعريف الإدغام ثم نذكر موقف أبى عمرو من إدغام أمثلة كل حرف فى القرآن ، ثم نتبع ذلك بموقف النحاة على نفس النسق ، ونرى بعد ذلك مايكون .

أ ـــ تعريف الإدغام

قبل أن نتطرق إلى الحديث عن آراء القراء فى الإدغام ينبغى أن نناقش أولا تعريفه عند اللغويين والنحويين والقراء .

عند اللغويين :

ذكر صاحب اللسان عند تفسيره لمادة (دغم) : (دَغَمَ الغيثُ الأرض يدغمها ، وأدغمها : إذا غشيها وقهرها ... والإدغام : إدخال اللجام فى أفواه الدوابّ ، وأدغم الفرس اللجام : أدخله فى فيه ، وأدغم اللجام فى فمه كذلك . قال الأزهرى : وإدغام الحرف فى الحرف مأخوذ من هذا ، والإدغام إدخال حرف فى حرف ، يقال : أُدغمت الحرف وادَّغَمته على افتعلته)[1] .

فالإدغام عند اللغويين يحتمل وجهين : إما أن يكون الداخل غالبا ، وذلك فى إدغام السيل الأرض ، وإما أن يكون الداخل مغلوبا ، وذلك فى إدغام الفرس اللجام . وقد جاء تصورهم للإدغام فى الحروف محتملا للوجهين ، فهم يقولون : الإدغام إدخال حرف فى حرف . ولسوف نرى حين نعرض لآراء النحاة فى الإدغام أن الصورتين قد وردتا فى كلام العرب .

عند النحويين :

أما فى اصطلاح النحويين فهو : « أن تصل حرفا ساكنا بحرف مثله متحرك من غير أن تفصل بينهما بحركة أو وقف ، فيصيران لشدة اتصالهما كحرف واحد ، يرتفع اللسان عنهما رفعةً واحدةً شديدة ، فيصير الحرف الأول كالمستهلك لا على حقيقة التداخل والادّغام[2] » .

وعبارة المفصل « أن تصل حرفا ساكنا بحرف مثله متحرك » توحى بأن النحويين إنما يعالجون فى هذا التعريف عملية الإدغام وحدها .. دون إشارة إلى

---

(١) اللسان مادة دغم .

(٢) شرح المفصل لابن يعيش جـ ١٠ ص ١٢١ طبعة منير الدمشقى .

مايسبقها من حذف للحركة ، وقلب للصوت الأول من مثل الثانى ، سواء أكان مجانسا أم مقاربا .. أى : أنهم اقتصروا على تصوير العملية الصوتية . والمفروض أن الإدغام لايكون إلا بين مثلين ، سواء أكان ذلك بالفعل .. أم بالتحويل والقلب ، وعملية القلب والتحويل مستقلة عن عملية الإدغام ، سابقة عليها .. وإن كانت تتم من أجلها .

ويلفت النظر فى هذا التعريف أن النحويين لايتصورون الإدغام على أنه فناء للصوت الأول فى الصوت الثانى ، بل يجعلونهما « لشدة اتصالهما كحرف واحد يرتفع اللسان عنهما رفعة واحدة شديدة » ، ومثل هذا التعبير وارد فى كلام سيبويه حيث قال : « باب الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعا واحدا لايزول عنه [١] » .

وهذا التصور مما يفرق بين اللغويين والنحويين .. فاللغويون يجعلون الإدغام شاملا لقلب الصوت إلى نظيره لإدخاله فيه .. على حين يقصره النحويون على مجرد النطق بمثلين ، ساكن فمتحرك ، فعملية القلب منفصلة عن عملية الإدغام عندهم .. ويبدو أن تصور سيبويه للإدغام كان أوسع من تصور متأخرى النحاة ، بحيث ينطبق على فكرة المماثلة بعامة . فقد ورد فى كلامه حين تحدث عن المواضع التى تمال فيها الألفات قوله : « فالألف تمال إذا كان بعدها حرف مكسور . وذلك قولك : عابد وعالم ومساجد ومفاتيح ، وعُذافِر ، وهابيل ، وإنما أمالوها للكسرة التى بعدها ، أرادوا أن يقربوها منها ، كما قربوا فى الإدغام الصاد من الزاى حين قالوا : صدر ، فجعلوها بين الزاى والصاد ، فقرَّبَها من الزاى والصاد التماسَ الخفة ، لأن الصاد قريبة من الدال ، فقربها من أشبه الحروف من موضعها بالدال ، وبيان ذلك فى الإدغام : فكما يريد فى الإدغام أن يرفع لسانه من موضع واحِد ، كذلك يقرب الحرف إلى الحرف على قدر ذلك »[٢] .

---

(١) كتاب سيبويه جـ ٢ ص ٤٠٧ .

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٥٩ .

فمفهوم الإدغام هنا هو تقريب الصوت من الصوت بحيث تنتقل إلى أحدهما صفة من الآخر ، بيد أن فى تمثيل سيبويه بالفعل « صَدَرَ » فى هذا الموضع نظرا ، لأن الصاد هنا لم تجاور الدال مباشرة ، وهو الشرط الأساسى لحدوث المماثلة .. وكان الأصوب أن يمثل بكلمة « أصدر » لتحقيق الشرط فيها .. وقد تعرض ابن جنى لهذه المسألة ، فنص صراحة على أن « الصاد إذا تحركت لم يجز فيها البدل ، وذلك نحو صدر وصدف .. لاتقول فيه .. زدر ولا زدف ، وذلك أن الحركة قوت الحرف وحصنته فأبعدته منَ الانقلاب (١) » .

والواقع أن فى المسألة تفصيلا ، ذلك أن المماثلة تقع فى مثل هذا الموضع على وجهين :

١ ــ إبدال الصاد زايا ، وذلك مشروط بألا يفصل بين الصاد والدال حركة .

٢ ــ إشمام الصاد رائحة الزاى ، وذلك عند الفصل بحركة كما فى (صدر) .

وقد نص ابن جنى على جواز هذا الإشمام فقال « بل قد يجوز فيها إذا تحركت إشمامها رائحة الزاى (٢) » .. ولعل هذا هو مراد سيبويه عندما عبر بكلمة (قربوا) ، ولم يقل : (أبدلوا) ، على أن فيما قاله ابن جنى من أن الحركة قوت الحرف وحصنته نظرا أيضا ، لأن الصوت المهموس قد يتأثر بجهر الحركة التالية له فى بعض الحالات .. ومن الشواهد على ذلك هذا الذى تحدث عنه ابن جنى من جواز إشمام الصاد المتحركة صوت الزاى .. الأمر الذى لا نجد له من تعليل سوى وجود الحركة .

وعودة إلى كلام سيبويه لنلاحظ أنه حين عبر بكلمة « تقريب » كان يرمى إلى معنى أوسع من وصل الساكن بالمتحرك عند متأخرى النحاة ، وأوسع من مفهوم « الإدخال » فى عبارة اللغويين ، ونحن لانعترض على عبارة اللغويين .. ولكننا نقول : إن الذين حاولوا وضع تعريف للإدغام مثل « ابن يعيش » لم يلحظوا دقة عبارة

---

(١) سر صناعة الاعراب ص ٥٧ .

(٢) سر صناعة الاعراب ص ٥٧ .

سيبويه ، وما يريده بتقريب الصوت من الصوت .. فهم قد تصوروا الإدغام فى إطار الأصوات الصامتة ، وعلى الصورة التى ينتج عنها صوت مضعف ، سواء من المثلين أم المتقاربين . فأما هو فقد استخدم كلمة « الإدغام » يريد بها التعبير عن مطلق تأثر صوت بصوت ، سواء أكان صامتا أم حركة ، وسواء كان التأثر كاملا يترتب عليه فناء الصوت المتأثر .. أم كان جزئيا يفقد معه عنصرا من عناصره .

ومن هنا أطلق سيبويه على إشمام الصاد صوت الزاى فى « صدر » إدغاما .. وأطلق على قلب التاء دالا فى : (وَتد ← وَدّ) إدغاما (على ما سيأتى) .. كما أطلق على إمالة صوت الفتحة نحو الكسرة إدغاما ، وكل هذه الأشكال يشملها لفظ « تقريب» .

وقد وفق ابن جنى غاية التوفيق حين عرف الإدغام بأنه « تقريب صوت من صوت»[1] وقسم التقريب إلى قسمين ، أولهما على ضربين : —

١ — تقريب متحرك من متحرك فى مثل (وَدّ) فى اللغة التميمية[2] ، وأصلها (وَتِدٌ) .

٢ — تقريب ساكن من متحرك « كطاء « قَطَّع » وكاف « سُكَّر » الأوليين ، « وأصلهما قَطْطَع وسُكْكَر »[3] ، وقد أطلق على هذا القسم تسمية « الإدغام الأكبر » ، وقال بأن الصوت الأول شديد الممازجة للثانى .. لأنك إنما أسكنته (المتحرك) لتخلطه بالثانى وتجذبه إلى مضامَّته .

وأما ثانى القسمين وهو « الإدغام الأصغر » فهو « تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه من غير إدغام يكون هناك » أى : من غير ممازجة وخلط ، وجَعَلَهُ ضُرُوباً :

---

(١) الخصائص ج ٢ ص ١٣٩ .

(٢) السابق ص ١٤٠ .

(٣) السابق .

١ ـــ من ذلك الإمالة ، وقال : « وإنما وقعت فى الكلام لتقريب الصوت من الصوت ، وذلك نحو عالم وكتاب .. ألا تراك قربت فتحة العين من (عالم) إلى كسرة اللام منه ، بأن نحوت بالفتحة نحو الكسرة .. فأملت الألف نحو الياء » .

٢ ـــ ومن ذلك أن تقع فاء « افتعل » صادا أو ضادا أو طاء أو ظاء ، فتقلب لها تاؤه طاءً ، وذلك نحو : اصطبر ، واضطرب ، واطرد ، واظطلم .. الخ .

٣ ـــ ومن ذلك أن تقع فاء افتعل زايا أو دالا أو ذالا ، فتقلب تاؤه لها دالا ، كقولهم ازدان وادَّعى ، و(ادّكر واذدكر) فيما حكاه أبو عمرو .

٤ ـــ ومن ذلك أن تقع السين قبل الحرف المستعلى فتقرب منه بقلبها صادا ، على ماهو مبين فى موضعه من باب الإدغام ، وذلك كقولهم فى سُقْتُ : صُقْتُ ، وفى السوق : الصوق .

٥ ـــ ومن ذلك تقريب الصوت من الصوت مع حروف الحلق نحو : شِعِير ، وبِعِير ، ورغيف .

٦ ـــ ومن ذلك أيضا قولهم (فَعَلَ يَفْعَل) مما عينه أولامه حرف حلق ، نحو : سأل يسأل وسعر يسعر ، وسبح يسبح ، وذلك أنهم ضارعوا بفتحة العين فى المضارع جنس حرف الحلق ، لما كان موضعا منه مخرج الألف التى منها الفتحة .

٧ ـــ ومن التقريب قولهم : الحمدُ لُله ، والحمدِ لِله .

٨ ـــ ومنه تقريب الحرف من الحرف نحو قولهم فى : مَصْدر · مَزْدر ، وفى : التصدير : التزدير .

٩ ـــ ومن ذلك إضعاف الحركة لتقرب بذلك من السكون نحو : حَيِىَ وأُحْيِىَ وأُعْيِىَ ، فهو ـــ وإن كان مخفى ـــ « بوزنه محركا »[1] .

---

(١) راجع فى هذه الاضرب من المرجع السابق صفحات ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ .

ثم يعقب ابن جنى على ذلك كله بقوله : « وجميع ماهذه حاله مما قرب فيه الصوت من الصوت جار مجرى الإدغام بما ذكرناه من التقريب ، وإنما احتفظنا له بهذه السمة التى هى « الإدغام الصغير » ، لأن فى هذا إيذانا بأن التقريب شامل للموضعين ، وأنه المراد المبغى فى كلتا الجهتين ، فاعرف ذلك[1] ، وهكذا نرى كيف قبس ابن جنى فكرة التقريب عن سيبويه ، وفصلها هذا التفصيل الدقيق ، وقرر فى النهاية أن التقريب مرادف الإدغام ، فالإدغام بهذا المفهوم ينطبق على المماثلة لدى المحدثين . وهو خلاف ماذهب إليه المتأخرون من النحاة والقراء ، على سواء .

عند القراء :

أما القراء فقد قصروا عبارة الإدغام على هذا التقريب الاصطلاحى بمفهومه الضيق فقالوا : إنه « اللفظ بحرفين حرفا كالثانى مشددا »[2] . وهذا التعريف على قصره مشتمل على عمليات الحذف والقلب والإدغام ، فاللفظ بحرفين كالثانى ـــ يقتضى ضرورة حذف الحركة عند وجودها ، ثم قلب الأول من مثل الثانى ، وإلا فلن يكون الصوت مشددا .

وعلى أية حال فإن بين مفهوم الإدغام لدى كل من النحويين والقراء عموما وخصوصا مطلقا كما يقول المناطقة ، فالجميع متفقون على أن الإدغام ـــ كما يقصده القراء ـــ يحذف الحركة من الصوت الأول ـــ إن كان متحركا ، ويقلب الصوت الأول من مثل الثانى وهو الأصل ... أو من جنسه فى بعض الحالات ، ثم ينطق بالصوتين المتماثلين أو المتجانسين من موضع واحد ، وينفرد النحاة المتقدمون ببقية المفاهيم التى عددها ابن جنى فى حديثه عن الإدغام الأصغر . ولكن مفهوم القراء والنحاة المتأخرين قد غلب آخر الأمر فأصبح هو المقصود بلفظة « الإدغام » . وهو ماسنأخذ به فى إطلاقنا للكلمة ، فى دراستنا للموضوع .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٥ .

(٢) النشر جـ ١ ص ٢٧٤ .

ب ـــ أنواع الإدغام

وقد تعرض هذا الإدغام الاصطلاحى لعلاج كل من اللغويين والنحويين والقراء ، فتناوله كل فريق بما سمحت له به مادته ، وكان الاتفاق كاملا بين ماسجله اللغويون وماقرره النحاة من أنواع الإدغام(١) ، وقد سجل كل فريق من الظواهر ما أعانهم عليه مستوى بحثهم ، ولكن القراء اختلفت بصدد هذه الأنواع وجهة نظرهم على ما سنفصله بعد .

وكانت روايات اللغويين التى وضع النحاة قواعدها متنوعة ، تحدثوا عنها لدى استعراضهم لبعض الألفاظ والصيغ فى معاجمهم ، وقد عثرنا على بعض الأمثلة خلال بحثنا فى معجم « لسان العرب » ، ومنها يتضح لنا ماعده اللغويون إدغاما ، وقد جاء على أنواع ثلاثة :ـــ

النوع الأول ، ومن رواياته :

(١) « جلت » : الجليت لغة فى الجليد ، وهو ما يقع من السماء .. ويقال : جلتُّه عشرين سوطا ، أى ضربته ، وأصله : جَلَدْتُه ، فأدغمت الدال فى التاء(٢) .

(٢) « ابن سيده وغيره : والود : الوتد بلغة تميم ، فإذا زادوا الياء قالوا : وتيد ، قال ابن سيده : زعم ابن دريد أنها لغة تميمية ، قال : لا أدرى هل أراد أنه لايغيرها هذا التغيير إلا بنو تميم ، أم هى لغة لتميم غير مُغَيَّرة عن وَتِد »(٣) .

(٣) « قال ابن سيده : فأما من قال : بَرَّدَه بمعنى : سَخَّنَه ، لقول الشاعر :

عَافَتِ الماءَ فى الشتاء فقلنا : بَرِّديــهُ تُصَادِفيــه سَخينـــا

---

(١) المفصل جـ ١٠ ص ١٣٢ .

(٢) اللسان (جلت) .

(٣) المرجع السابق (وتد) .

فغالط ، إنما هو : بَلْ رِديه فأدغم ، على أن قطربا قد قاله[١] » .
وواضح أن هذا النوع مماقلب فيه الصوت الأول إلى نظيره الثانى .

النوع الثانى ، ومن رواياته :

(١) « وفى حديث أبى هريرة فى بعض الروايات : أيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جَلَدُّهُ .. هكذا رواه بإدغام التاء فى الدال ، وهى لغة » .

(٢) والفسطاط بيت من شعر . وفيه لغات : فسطاط ، وفستاط ، وفسّاط[٢] .

(٣) « التهذيب : الليث : الست والستة فى التأسيس على غير لفظيهما ، وهما فى الأصل : سِدْسٌ وسِدْسَةٌ ، ولكنهم أرادوا إدغام الدال فى السين فالتقيا عند مخرج التاء ، وبيان ذلك أنك تصغر (ستة) : سُدَيْسة ، وجميع تصغيرها على ذلك ، وكذلك الأسداس »[٣] .

النوع الثالث ، والرواية الوحدة الواردة فيه هى :

ذكر اللسان نظير الرواية السابقة غلبة الحاء على العين فى لغة سعد[٤] ، فيقولون : « كنت مَحُّم » فى معنى كنت معهم ، وذكر سيبويه أن : « مما قالت العرب تصديقا لهذا الإدغام قول بنى تميم : مَحُّم ، يريدون معهم ، و(مَحَّاؤُلَاء) يريدون : مع هؤلاء[٥] » .

والذى ينبغى أن نقرره هنا بادىء بدء : أن هذين النوعين الأخيرين غير قياسيين فى الإدغام بمفهومه الضيق ، أما الأول : فلأن القياس المروى « جَلَتُّه » ومجيئه

---

(١) اللسان جـ ٣ ص ٨٢ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٥ .
(٣) المرجع السابق جـ ٧ ص ٣٧١ .
(٤) المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٠ .
(٥) كتاب سيبويه جـ ٢ ص ٤١٣ .

على صورة « جَلَدُّه » لا يعنى إمكان إجراء الإدغام فى كل صورة على قياسه ، وإنما هى رواية مفردة . ثم إن ما جاء من جواز « فسَّاط » فإنما هو من باب اللهجات ، لا من باب التفاعل الصوتى القياسى . وعلى هذا فليس من الصواب أن نؤسس على مثال فريد قاعدة من قواعد الإدغام .

وأما رواية « ست وستة » فليست كما يبدو فى الظاهر — من باب قلب الدال والسين فى « سدس » تاء ، بل نرجح أنها مثال محفوظ يفسره اختلاف اللهجات أيضا ، لا تفاعل الأصوات . فلسنا من رأى سيبويه القائل بأن : « ست » أصلها « سدس » وأن السين الآخرة قلبت « تاء » لتقرب من الدال التى قبلها ، فصار التقدير : « سدت » ، فلما اجتمعت الدال والتاء وتقاربتا فى المخرج أبدلوا الدال تاء لتوافقها فى الهمس ، ثم أدغمت التاء فى التاء فصارت « ست »[1] ، فمن غير المعقول أن يستبدل الناطق العربى الذى ينحو دائما مَنْحى السهولة بصيغة « سدس » صيغة « سدت » ، لكى يصل منها إلى « ست » لسببين : **أولهما** : سهولة النطق بالصوت الرخو « السين » عقب النطق بالصوت الشديد « الدال » ، حتى لكأن اللسان يتنفس من وطأة الصوت الشديد فى نطق الصوت الرخو .

وثانيهما : أنه ليس من الجائز أن يقال فى « سدت » : « سد » ، على الإدغام التقدمى القياسى ، كما حدث فى « جَلَدُّه » ، وقد روى فيها « جَلتُّه » . ومن أجل هذا نرجح أن تكون الكلمة فى إحدى اللهجات : « سدس » ، وفى غيرها : « ست » ، ثم تداخلت اللهجات واختلفت فاستعملت الأخيرة فى العدد العام ، واستعملت الأولى فى حالة التصغير اللغوى « سُدْس » ، والاصطلاحى « سُدَيْسَةٌ » . وسيأتى أن سيبويه يعتبر ذلك الضرب من الإدغام شاذا غير مطرد . هذا فيما يتعلق بالنوع الثانى من الإدغام . وهو مايكون التأثر فيه تقدميا (على ماسيأتى) .

أما النوع الثالث .. فلم يحفظه سيبويه عن العرب إلا فى « مع » خاصة حين تقابل الهاء فى مثل « معهم ، ومع هؤلاء » ، ويمكن أن تكون صورته الأولى « مَهُّمْ » إن

---

(١) كتاب سيبويه جـ ٢ ص ٤١٣ .

جاز إدغام العين فى الهاء ، على الصورة القياسية المطردة ، ثم تقدم الناطق بمخرج الهاء قليلا إلى مخرج الحاء رغبة فى زيادة وضوح الصوتين المدغمين ، وبخاصة إذا علمنا أن الهاء صوت ضعيف بطبيعته .

وبذلك يكون النوع الأول هو النوع القياسى ، الناشىء عن التفاعل بين الأصوات ، بسبب مابينهما من تقارب فى المخارج والصفات .

جـ ـــ شروط الادغام عند القراء

لابد قبل عرض حالات الإدغام الواردة فى رواية أبى عمرو أن نذكر الشروط التى وضعها القراء له ، ثم نرى بعد ذلك درجة استمساكهم بهذه الشروط .

فقد حدد القراء بعد أبى عمرو فى الإدغام أمورا ثلاثة ، فذكروا أن له : سببا ، وشرطا ، ومانعا .

ويعنون بالسبب : العامل الذى ينشأ عنه إدغام حرفين معينين ، وهو منحصر فى (تماثل حرفين أو تجانسهما أو تقاربهما ، **والتماثل** : أن يتفقا مخرجا وصفة ، كالباء فى الباء ، والتاء فى التاء ، إلى آخر وجوه التماثل ، **والتجانس** : أن يتفقا مخرجا ويختلفا صفة ، كالذال فى الثاء ، والثاء فى الظاء ، إلى آخر أشكال التجانس) .
والتقارب : أن يتقاربا مخرجا ، أو صفة ، أو مخرجا وصفة ، (وهذا متوفر فى صور إدغام المتقاربين)[١] ، ولسوف نعرض لهذه الأسباب بالتحليل والنقد فيما بعد .

ويعنى القراء بالشرط الحال التى ينبغى أن يكون عليها التماثل أو التجانس أو التقارب ، وقد جعلوا التقاء الحرفين على هذه الصورة مشروطا بألا يفصل بين المدغمين مايجعل النطق بهما من موضع واحد متعذرا ، وقد عبروا عن ذلك بقولهم : (أن يلتقى الحرفان خطا ولفظا ، أو خطا لا لفظا ، فيدخل فى ذلك نحو : إنه هو ، ويخرج نحو : أنا نذير) ، وإن كنا نرفض فكرة الالتقاء الخطى فى هذا المقام ، لأن

(١) النشر جـ ١ ص ٢٧٨ .

الالتقاء الصوتى هو الأساس ، وظاهر أن الفاصل الصوتى بين الهاءين عارض ، وهو بين النونين ثابت .

كما اشترط القراء أن يكون المدغم فيه أكثر من حرف إن.كان الإدغام فى كلمة واحدة ، نحو « خلقكم » ، فأما « خلقك » فلا إدغام فيها ، لأن المدغم فيه على حرف واحد [١] .

وموانع الإدغام نوعان : **نوع عام** متفق عليه بين جميع القراء ، وهو ثلاثة :

١ ــ كون الحرف الأول تاء ضمير للمتكلم أو المخاطب نحو : « كنتُ تُرابا » و « أفأنت تُسمع .. » و « جئتَ شَيْئا إِمْرا »[٢] . ومقتضى ذلك قياسا أن يمتنع مع تاء المخاطبة نحو : « لقد جئِتِ شَيْئا فَرِيًّا » ولكنه قد اختلف فيه ،[٣] وسيأتى .

٢ ــ كون الحرف الأول مشددا ، نحو « رَبٌّ بما » و« مسَّ سَقر » ، وذلك لما يظهر من أن الحرف المشدد ينطق صوتين من موضع واحد ، فكيف إذا أضيف إليهما ثالث بالإدغام .. ؟

٣ ــ كون الحرف الأول منونا نحو : « سَارِبٌ بِالنَّهَارِ » و « فى ظلماتٍ ثَلَاثٍ » .

ونوع خاص مختلف فيه ، وقد لخصه ابن الجزرى فى قوله : « والمختلف فيه **الجزم ، قيل : وقلة الحروف ، وتوالى الاعلال ، ومصيره إلى حرف مد** ، واختص بعض المتقاربين بخفة الفتحة ، أو بسكون ماقبله ، أوبهما كليهما ، أو بفقد المجاور ، أو عدم التكرار »[٤] . وابن الجزرى يلخص فى هذا النص جميع العلل التى تلمسها القراء ليعللوا بها عدم ورود الرواية فى هذا المثال أو ذاك بالإدغام ، فأما الجزم فنحو : « ومن يبتغِ غَير » و« آتِ ذا القربى » ، و« لم يُؤْتَ سَعَةً » ، ذهب ابن مجاهد وأصحابه إلى

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٧٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) عمدة الخلاف ـــ لاحقة للشارح البائس الفقير العاكف محمد أمين المدعو بعبد الله أفندى زاده طبعة سنة ١٢٨٧ هـ .

(٤) النشر جـ ١ ص ٢٧٩ .

اعتبار الجزم مانعا من الإدغام ، وذهب آخرون إلى عدم الاعتداد به مانعا ، قال ابن الجزرى : والمشهور الاعتداد به فى المتقاربين ، وإجراء الوجهين فى غيره »[١] .

وأما بقية الموانع الواردة فى نص ابن الجزرى فسنعرض لها فى مواضعها خلال عرضنا لحالات الإدغام .

ولابن الجزرى فى كيفية الإدغام ملاحظة هى : « أن الصوتين المدغمين فى غير المثلين لم يعدم أحدهما وجوده ، بإدخاله فى حرف – كما ذهب إليه بعضهم ، بل الصحيح أن الحرفين ملفوظ بهما – كما وصفنا – طلبا للتخفيف [٢] » ، وهذه الملاحظة تعد الحرفين المدغمين فى حالة التقارب كما لوكانا متماثلين ملفوظا بهما ، ولسوف يظهر من تحليلنا فيما بعد مدى صحة هذه الملاحظة فى نظر البحث الحديث .

فأما حالات الإدغام فقد صنفها القراء المتأخرون على نوعين حين عالجوا كلا من إدغام المثلين والمتقاربين على حدة ، وجعلوا المتجانس من قبيل المتقارب ، وقد ذكر ابن الجزرى أن الحروف التى تدغم فى أمثالها سبعة عشر حرفا هى : (ب – ت – ث – ح – ر – س – ع – غ – ف – ق – ك – ل – م – ن – و – ى – هـ) ، كما ذكر أن الحروف التى تدغم فى مجانسها أو مقاربها ستة عشر حرفا هى : (ب – ت – ث – ج – ح – د – ذ – ر – س – ش – ض – ق – ك – ل – م – ن) .

ولنا هنا ملاحظات هى :

١ – أن فيما عده القراء حروفا مكررة ، فإذا ما حذفنا المكرر صار عدد الحروف التى تدغم فى أمثالها أو مجانسها اثنين وعشرين حرفا هى : (ب – ت – ث – ج – ح – د – ذ – ر – س – ش – ض – ع – غ – ف – ق – ك – ل – م – ن – هـ – و – ى) .

(١) النشر جـ ١ ص ٢٧٩ .

(٢) النشر جـ ١ ص ٢٨٠ .

٢ ـــ أن المراعى فى حصر هذه الأصوات إنما هو الصوت السابق المدغم ، فأما الصوت التالى المدغم فيه فقد يزيد بالحصر عن ذلك ، وسيأتى إحصاؤه فى الباب التالى .

٣ ـــ أن القراء إنما يعدون هذه الأصوات فى حدود ما ورد فى القرآن من أمثلة ، لا كما فعل النحويون حين عالجوا الإدغام بجميع وجوهه الممكنة فى اللغة . ولسوف نسجل هذه الفروق فيما بعد .

وسنرعى فى عرض حالات الإدغام عند القراء عدم تكرير الحرف فى موضعين ، بل نتحدث إن شاء الله عنه فى إدغام المثلين والمتقاربين دون تفرقة بينهما ، قصدا إلى الاختصار ، ولأن التفرقة بين كلا النوعين لا تحتمل عند القراء مدلولا علميا ذا بال ، اللهم إلا من حيث اختصاص أحدهما ببعض الحروف .

د ـــ حروف الإدغام عند القراء

الباء[١] : تدغم فى مثلها نحو : « لَذَهَبْ بِسمعهم ـــ البقرة آ ٢٠ ـــ الرُّعْبْ بِمَا ـــ آل عمران آ ١٥١ ـــ الكتابْ بالحقّ » ـــ البقرة آ ٢١٣

وتدغم فى الميم فى مواضع مخصوصة وردت بها الرواية ، كلها فى صورة « يُعَذِّب مَّنْ يَشَاءُ ـــ العنكبوت آ ٢١ » ، وفى رواية عن اليزيدى عن أبى عمرو جواز إدغام « فمَنْ تَاب مِّنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ ـــ المائدة آ ٣٩ » ، وتظهر فيما عدا هذين المثالين بإجماع ، وذلك فى قوله تعالى : « سَنَكْتُبُ مَا قالوا ـــ آل عمران آ ١٨١ ـــ ضُرِبَ مَثَلٌ ـــ الحج آ ٧٣ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ـــ هود آ ١١٢ وَكُذِّبَ مُوسَى ـــ الحج آ ٤٤ » والذى يظهر فى تعليل إدغام الأولين مع صحة النقل والرواية وجودُ مجاورٍ مُدْغَم ، إذْ إنَّ من الأصول فى الإدغام عند أبى عمرو مراعاة المشاكلةِ[٢] .

---

(١) مراجعنا فى هذا العرض هى : كتاب النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ، وشرح السيرافى لكتاب سيبويه الجزء الثالث مخطوط رقم ١٣٦ بدار الكتب ، وعمدة الخلان لمحمد أمين زادة ، وشرح المفصل جـ ١٠ .

(٢) المفصل جـ ١٠ ص ١٤٧ .

وذلك أن « يعذب من يشاء » مصحوبة دائما بعبارة « يغفر لّمن » أو « يرحمْ مَن » ، وكلاهما مدغم ، وكذلك « فَمَنْ تاب مِّنْ بَعْد ظُّلْمِهِ » أدغم الباء فى الميم لوجود المجاور المدغم فى « بعد ظلمه » حيث أدغمت الدال فى الظاء . فأما بقية الأمثلة فلا إدغام فيها .

والمثال الوحيد الذى يدعو إلى التساؤل هو أن الرواية لم ترد بإدغام « وكُذِّبَ مُوسى » مع أنه على صورة المثال المدغم « يعذب من » ، من حيث الظروف الصوتية السابقة ، وعلى صورة « فمن تاب من بعد ظلمه » ، فى أن الحرف المدغم فى كليهما مفتوح ، وقد ذكر القراء أن العلة فى عدم إدغامه انعدام الرواية وعدم وجود المجاورة ، وسيأتى الكلام على ذلك .

هذه حال الباء فى الإدغام الكبير . فأما فى الإدغام الصغير فإن الساكنة تدغم فى الفاء عند أبى عمرو والكسائى نحو « وإنْ تَعْجَب فَّعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ــ الرعد آ ٥ » كما أنها تدغم ساكنة فى الميم لديهما أيضا فى مثل قوله تعالى : « اركَب مَّعَنَا ــ هود آ ٤٣ »

(فمجموع الأحرف التى تدغم فيها الباء عند القراء فى الكبير والصغير ثلاثة هى : الباء ــ والفاء ــ والميم) .

التاء : وتدغم فى مثلها فى الكبير والصغير نحو « الموتْ تَحْبِسُونَهُمَا ــ المائدة آ ١٠٦ ــ الشوكةْ تَكون[1] ــ الأنفال آ ٧ ــ الآخرةْ تَوفنى ــ يوسف آ ١٠١ ونحو ربحتْ تِجارتُهم ــ البقرة آ ١٦ » ، وسواء كانت التاء تاء على كل حال ، أم كانت تنقلب فى الوقف هاء . فأما إن كانت تاء ضمير ، كما فى قوله تعالى : « كُنْتَ تَرْجُو ــ القصص آ ٨٦ » ــ « كُنْتُ تُراباً ــ النبأ آ ٤٠ » ، وكِدْتَ تَرْكَنُ ــ

---

(١) كل ماجاء من هذا النوع مما الصوت الأول فيه (الصوت المدغم) تاء مربوطة مُعَامَلٌ فى الإدغام معاملته فى حالة الوصل والتحريك . إذ إن هذه التاء تقلب (هاء) فى حالة الوقف فقط ، وإن كان من العرب من يقف عليها بالتاء أيضا فيقول : « ياأهل سورة البقرت » .(من أسرار اللغة ص ٢١٥) والإدغامُ وصلٌ ــ بل هو أوثق حالات الوصل ، وفى هذا دليل على أن وجود التاء ليس رهناً بوجود الحركة .

الإسراء آ ٧٤ » ، فقد مضى الكلام على عدم جواز إدغام تاء المضمر .

وتدغم التاء فى عشرة أحرف غيرها على التفصيل التالى :

التاء فى الثاء : نحو : « وآتوا الزكاة ثُّمَّ ـــ البقرة آ ٨٣ ـــ بالبينات ثُّمَّ ـــ المائدة آ ٣٢ ـــ النبوة ثُّم ـــ آل عمران آ ٧٩ ـــ القيامة ثُّم ـــ آل عمران آ ١٦١ » وقد اختلف عن أبى عمرو فى إدغام (الزكاة ثم ـــ التوراة ثم ـــ الجمعة آ ٥) لمانع كونهما من المفتوح بعد ساكن ، فروى إدغامهما ابن حبش[١] من طريقى الدورى والسوسى ، وبذلك قرأ الدانى[٢] من الطريقين ومن طريق غيرهما . وروى عن أصحاب ابن مجاهد[٣] الإظهار لخفة الفتحةِ بعد السكون ، وقد انفرد ابن شنبوذ[٤] بإدغام « إذا رأيت ثَّمَّ رأَيْتَ ـــ الدهر آ ٢٠ » ، وواضح أن التاء هنا تاء المضمر ، فإدغامها مخالف لمذهب أبى عمرو وأصوله ، والمأخوذ به هو الإظهار حفظا للأصول ورعيا للنصوص[٥] .

---

(١) هو الحسين بن محمد بن حبش بن حمدان ، أبو على الدينورى ـــ حاذق ضابط متقن ـــ قرأ على جماعة منهم أبو بكر بن مجاهد ، وقال عنه الدانى : متقدم فى علم القراءات ، مشهور بالإتقان ، ثقة مأمون ، توفى سنة ٣٧٣ (طبقات القراء جـ ١ ص ٢٥٠) .

(٢) هو عثمان بن سعيد بن عثمان أبو عمرو الدانى الأموى القرطبى ، مولى ، ولد سنة ٣٧١ هـ ، امام حافظ ، شيخ مشايخ المقرئين ، قرأ على جماعة كثيرة فى عصره ، وسمع الحدث وبرز فيه ، وفى أسماء رجاله ، وفى القراءات علما وعملا ، وفى الفقه والتفسير ، وتخرجت على يده مدرسة كبيرة فى القراءة ، وطاف بلاد الإسلام من مشرقها إلى مغربها ، إلى أن استقر بقرية (دانية) التى نسب إليها ، وهى من قرى قرطبة بالأندلس ، وتوفى سنة ٤٤٤ هـ . (طبقات القراء جـ ١ ص ٥٠٣).

(٣) هو أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمى الحافظ ، شيخ الصنعة وأول من سبَّعَ السبعة ، ولد سنة ٢٤٥ ببغداد ، وقرأ على جماعة كبيرة منهم قنبل المكى ، ومحمد بن يحيى الكسائى الصغير ، ومحمد بن جرير الطبرى ، وقرأ عليه أناس كثيرون منهم الشذائى ، والمطوعى ، وابن حالويه النحوى ، وابن حبش الدينورى ، قال ابن الجزرى : ولاأعلم أحدا من شيوخ القراءات أكثر تلاميد منه ، ولا بلغنا ازدحام الطلبة على أحد كازد حامهم عليه ، توفى سنة ٣٢٤ هـ . (طبقات القراء جـ ١ ص ١٤٢) .

(٤) هو محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت بن شنبوذ ، شيخ الإقراء بالعراق ، كانت بينه وبين ابن مجاهد منافسة حتى كان لايقرئ من قرأ عليه ، وكان يرى جواز القراءة بالشاذ ، وهو ما خالف المصحف الإمام ـــ والخلاف فى ذلك معروف قديما وحديثا ، قرأ على جماعة كبيرة ، وأقرأ أيضا كثيرين ، وتوفى سنة ٣٢٨ هـ ببغداد .(طبقات القراء جـ ٢ ص ٥٢) .

(٥) النشر جـ ١ ص ٢٨٧ و ٢٨٨ .

وتدغم التاء فى الثاء فى الصغير ، مثل قوله تعالى : « بَعِدَت ثَّمود ـــ هود آ ٩٥ » ـــ « رَحُبَت ثُّم ـــ التوبة آ ٢٥ » .

التاء فى الجيم : نحو : « الصالحات جّناح ـــ المائدة آ ٩٣ » ـــ البرية جّزاؤهم ـــ البينة آيتا ٧ ، ٨ » ـــ الآخرة جّئنا ـــ الإسراء آ ١٠٤ » ، ولا خلاف حول أى مثال من أمثلة التقاء التاء بالجيم ، (هذا فى الكبير) . فأما فى الصغير فتدغم التاء فى الجيم فى نحو « نضجت جّلودهم ـــ النساء آ ٥٦ ـــ وجبت جّنوبها ـــ الحج آ ٣٦ » .

ألتاء فى الدال : نحو: « التاليات ذّكرا ـــ الصافات آ ٣ ـــ المسكنة ذّلك ـــ آل عمران آ ١١٢ » ، وقد اختلف فى قوله تعالى : « وآتِ ذَا القربى ـــ الإسراء آ ٢٦ » ، فكان ابن مجاهد وأصحابه وابن المنادى[١] وكثير من البغداديين يأخذون بالإظهار من أجل النقص ، وقلة الحروف ، لكونه من المجزوم ، أو مما حكمه الجزم ، وكان ابن شنبوذ وأصحابه وأبو بكر الداجونى[٢] ومن تبعهم يأخذونه بالإدغام ، للتقارب وقوة الكسرة ، وبالوجهين قرأ الدانى والشاطبى[٣] وأكثر المقرئين[٤] ـــ وهذا فى الكبير وحده .

التاء فى الزاى : نحو : « فالزاجرات زّجرا ـــ الصافات آ ٢ ـــ إلى الجنة زُّمَراً ـــ الزمر آ ٧٣ » (فى الكبير) وفى الصغير نحو « خبت زّدناهم ـــ الإسراء آ ٩٧ » .

---

(١) هو أحمد بن جعفر بن محمد البغدادى ، المعروف بابن المنادى ، حافظ ثقة متقن محقق ضابط ، قرأ على عبيد الله بن محمد ابن أبى محمد اليزيدى وغيره ، وقرأ عليه الشذائى والدارقطنى . توفى سنة ٣٣٦ هـ (طبقات القراء جـ ١ ص ٤٤) .

(٢) هو محمد بن أحمد بن عمر أبو بكر الضرير الرملى ، من رملة لد ، يعرف بالداجونى الكبير ، إمام كامل ناقل رحال مشهور ثقة ، روى القراءة عن عبد الرازق بن الحسن والعباس بن الفضل بن شاذان وغيرهما ، وروى عنه القراءة أحمد بن نصر الشذائى ، وحدث عنه ابن مجاهد ، وحدث هو عن ابن مجاهد ، توفى سنة ٣٢٤ هـ (طبقات القراء جـ ٢ ص ٧٧) .

(٣) هو القاسم بن فِيرُّة بن خلف الشاطبى الرُّعَيْنىّ الضرير ، كان إماما كبيرا ، أعجوبة فى ذكائه وعلمه ، غاية فى القراءات ، حافظا للحديث ، بصيرا بالعربية ، إماما فى اللغة ، مع الزهد والعبادة ، ولد سنة ٥٣٨ هـ بشاطبة من الأندلس . وقرأ على علماء القراءة هنالك . ومن أشهر آثاره (الشاطبية) فى القراءات السبع ، توفى سنة ٥٩٠ هـ (طبقات القراء جـ ٢ ص ٢١) .

(٤) النشر جـ ١ ص ٢٨٨ .

التاء فى السين : نحو « الصالحات سَّنُدْ خِلُهُمْ ــ النساء آ ١٢٢ ــ السَّحَرَة سَّاجِدين ــ الشعراء آ ٤٦ ــ الْمَوْؤُدَة سُّئِلَتْ ــ التكوير آ ٨ » ــ فى الكبير ، فأما فى الصغير فنحو « أنبتت سّبع سنابلَ ــ البقرة آ ٢٦١ ــ وجاءت سَّيارة ــ يوسف آ ١٩» .

التاء فى الشين : نحو : « بأربعة شُّهداء ــ النور آ ١٣ ــ الساعة شَّىْءٌ ــ الحج آ ١ » واختلف فى قوله تعالى « جِئْتِ شَّيْئاً فَرِيًّا ــ مريم آ ٣٧ » ، وبالوجهين قرأ الدانى وابن الفحام الصقلى [١] ، وبهما أخذ الشاطبى وسائر المتأخرين[٢] . (فى الكبير وحده) .

التاء فى الصاد : نحو « والصافات صّفا ــ الصافات آ ١ ــ والملائكة صَّفًّا ــ النبأ آ ٣٣ ــ فالمغيرات صُّبحا ــ العاديات آ ٣ » ، هذا فى الكبير . فأما فى الصغير فقد أدغمت فى نحو : « لَهُدِّمت صَّوامع ــ الحج آ ٤٠ ــ حصرت صُّدورهم ــ النساء آ ٩٠ » ، فى قراءة غير يعقوب[٣] .

التاء فى الضاد : نحو : « والعاديات ضَّبحا ــ العاديات آ ١ » . (فى الكبير فقط) .

التاء فى الطاء : نحو : « الصالحات طُّوبَى ــ الرعد آ ٢٩ ــ الملائكة طَّيبين ــ النحل آ ٣٢ ، » واختلف فى قوله تعالى : « ولْتَأْتِ طَائِفَةٌ ــ النساء آ ١٠٢ » من أجل الجزم ، فرواه بالإدغام من روى إدغام المجزوم من المثلين ، وأظهر من أظهر سائر المجزومات ، إلا أن الإدغام يقوى هنا من أجل التجانس وقوة الكسرة والطاء ، ورواه الدانى وأكثر أهل الأداء بالوجهين . وقد انفرد ابن حبش عن السوسى بإظهار

---

(١) هو عبد الرحمن بن عتيق بن خلف بن الفحام الصقلى ــ ثقة ــ محقق ، شيخ الاسكندرية . انتهت إليه رياسة الإقراء بها علوا ومعرفة ، وهو صاحب كتاب « التجريد » الذى وصفه ابن الجزرى بأنه من أشكل كتب القراءات حلا ومعرفة ، ولد سنة ٤٢٥ هـ وتوفى سنة ٥١٦ هـ (طبقات القراء جـ ١ ص ٣٧٤) .

(٢) النشر جـ ١ ص ٢٨٨ .

(٣) المرجع السابق .

« الصلاة طَرَفَيِ النَّهَارِ ـــ هود آ ١١٤ » من أجل خفة الفتحة وسكون ماقبلها ، وأدغمه سائر أهل الأداء[١] .

وأما قوله تعالى : « بَيَّتَ طَائفة ـــ النساء آ ٨١ » فقد رُوِىَ إدغامُه قولاً واحدا عن أبى عمرو ، قال الدانى : « ولم يُدْغَمْ مِنَ الحروف المتحركة إذا قُرِىء بالإظهار غيرُه » وقال بعضهم : هو من السواكن ، من قولهم : « بَيَّاه ، وتبياه » . إذا تعمده ، فتكون التاء على هذا للتأنيث[٢] . **ويكون من باب الإدغام الصغير** .

التاء فى الظاء : نحو « الملائكة ظّالمى ـــ النحل آ ٢٨ » (ليس غيره من الكبير) ، ومن الصغير قوله تعالى : « إلاَّ ماحملت ظُّهُورُهما ـــ الأنعام آ ١٤٦ »

فمجموع الحروف التى تدغم فيها التاء عند القراء فى الكبير والصغير سبعة مشتركة هى (التاء ـــ الثاء ـــ الجيم ـــ الظاء ـــ السين ـــ الزاى ـــ الصاد) وتنفرد بإدغامها فى الكبير فى أحرف أربعة هى : (الذال ـــ الشين ـــ الضاد ـــ الطاء) .

الثاء : وتدغم فى مثلها فى الكبير نحو « حيثُ ثَّقفتموهم ـــ النساء آ ٩١ » « ثالثْ ثَّلاثة ـــ المائدة آ ٧٣ » ، ولا أمثلة لإدغامها فى مثلها فى الصغير .

وتدغم فى مجانسها أو مقاربها فى خمسة أحرف على التفصيل التالى :

الثاء فى التاء : ومن أمثلته : « الحديث تَّعجبون ـــ النجم آ ٥٩ ـــ حيث تُّؤمرون ـــ الحجر آ ٦٥ » وهذا فى الكبير دون خلاف ـــ فأما فى الصغير فقد وردت أمثلة لإدغامها فى التاء فى قوله تعالى : « لَبِثتُّم ـــ الكهف آ ١٩ » ، وقوله « لَبِثتُّ » ـــ طه آ ٤٠ ، وقوله « أورِثتُّموها ـــ الزخرف آ ٧٢ » .

الثاء فى الذال : وذلك فى مثال واحد هو قوله تعالى : « الحَرْثُ ذّلك ـــ آل عمران آ ١٤ » ، (من الكبير دون خلاف) ، وفى الصغير فى قوله تعالى : « يَلْهَث ذّلك ـــ الأعراف آ ١٧٦ » .

(١) النشر حـ ١ ص ٢٨٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٨٩ .

الثاء فى السين : نحو « الحديث سَّنَسْتَدْ رِجُهُمْ ــ القلم آ ٤٤ » وقوله : «الأجداث سِّراعا ــ المعارج آ ٤٣ » ، وقوله « حيث سَّكنتم ــ الطلاق آ ٦ » وقوله « وَوَرِث سُّلَيْمَانُ ــ النمل آ ١٦ » ، (وهى أمثلة من الكبير فقط) .

الثاء فى الشين : ومن أمثلته « ثَلَاث شُّعَبٍ ــ المرسلات آ ٣٠ » وقوله : « حيث شئتم ــ البقرة آ ٥٨ » ، (من الكبير فقط) .

الثاء فى الضاد : فى مثال واحد هو قوله تعالى : « حديث ضّيْفِ ــ » الذاريات آ ٢٤ ، (من الكبير فقط) ، فمجموع الحروف التى تدغم فيها الثاء عند القراء فى الكبير ستة ، وفى الصغير حرفان (التاء والذال) .

وتنفرد بإدغامها فى الكبير فى أحرف أربعة هى (التاء ــ السين ــ الشين ــ الضاد)

الجيم : وهذا الحرف لا محل له فى إدغام المثلين ، فهو لايدغم فى مثله فى القرآن ، ويدغم فى مقاربه فى حرفين على التفصيل التالى :

الجيم فى التاء : فى مثال واحد هو قوله تعالى : « ذى المعارج تَّعْرُجُ ــ المعارج آ ٣ » من الكبير فقط . ولا خلاف فى إدغامه .

الجيم فى الشين : فى مثال واحد أيضا هو قوله تعالى : « أخرج شَّطْأَهُ ــ الفتح آ ٣٩ » وهذا المثال من المختلف فيه . فالرواية عن السوسى وعن ابن مجاهد عن أبى الزعراء[1] عن الدورى بالإظهار . وأدغم سائر أصحاب الإدغام ، وهو الذى قرأ به الدانى وأصحابه ، ولم يذكروا غيره . قال ابن الجزرى : « والوجهان صحيحان[2] » وقد التقت الجيم بأصوات مقاربة لها فى المخرج ، بل أكثر قربا منها من التاء ، ومع ذلك لم تدغم فيها ، وذلك حين تلتقى بالضاد فى : « وأَخْرَجَ ضُحَاها ــ النازعات آ ٢٩ »

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبدوس أبو الزعراء البغدادى ، ثقة ضابط محرر ، أخذ القراءة عن أبى عمر الدورى ، وهو من أجل أصحابه وأضبطهم وأوثقهم ، وروى عنه أبو بكر ابن مجاهد ، مات حوالى سنة ٢٨٥ هـ . (طبقات القراء جـ ١ ص ٣٧٣) .

(٢) النشر جـ ١ ص ٢٨٩ .

« والصاد فى قوله : مُخْرَجَ صِدْقٍ ـــ الإسراء آ ٨١ » ، فما السر فى إدغامها فى التاء بإجماع ، وعدم إدغامها فى الصاد أو الضاد فى مثل هذه الأمثلة ، مع أن التاء ليست أقربَ مخرجا إلى الجيم من الصاد والضاد ؟؟[١] لقد لاحظ هذه الملاحظة أبو عمرو الدانى فقال : كالإجابة على هذا التساؤل « وإدغام الجيم فى التاء قبيح لتباعد مابينهما فى المخرج ، إلا أن ذلك جائز لكونها من مخرج الشين ، والشين لتفشيها تتصل بمخرج التاء فأجرى لها حكمها ، وأدغمت فى التاء لذلك » ، قال : ـــ وجاء بذلك نصا عن اليزيدى ابنه عبد الرحمن[٢] وسائر أصحابه فقالوا عنه : « كان يدغم الجيم فى التاء ، والتاء فى الجيم[٣] » ، ولسوف يظهر من التحليل الصوتى لأمثلة الإدغام أن اتفاق صوت التاء مع صوت الجيم فى الشدة يسمح بإدغام كليهما فى الآخر . أما الجيم مع الصاد فهما مختلفان من كل وجه ، مخرجا وصفة (جهر ، وهمس ، وشدة ، ورخاوة) . وأما الجيم مع الضاد فهما وإن اتفقا فى (الجهر) فقط فإن لكل منهما ميزة ، هى فى الجيم التعطيش ، وفى الضاد الاستطالة التى ليست لغيرها من الأصوات ، وهذا هو السر فى احتفاظ كل منهما بكيانه إلى جوار الآخر .

فمجموع الحروف التى تدغم فيها الجيم حرفان هما : « التاء ـــ الشين » ، وذلك فى الكبير ، ولا مثال لإدغامها فى الصغير .

الحاء : وتدغم فى مثلها نحو : « النكاحْ حَتى ـــ البقرة آ ٢٣٥ » ، وقوله : « لاأبرحْ حَتى ـــ الكهف آ ٦٠ » ، فأما فى إدغام المتقاربين فإنها تدغم فى حرف واحد فى « العين » . سماعا ، وقد نص ابن الجزرى على وجوب العناية بإظهارها إذا وقع بعدها مجانسها أو مقاربها ، نحو « فاصفحْ عنهم ـــ الزخرف آ ٨٩ » ، وقوله : فسبِّحْهُ ـــ ق آ ٤٠ » ، وذكر أنهم كثيرا مايقلبون الحاء فى الأول عينا ويدغمونها ، وكذلك يقلبون الهاء حاء ويدغمونها ، وكل ذلك لايجوز إجماعا[٤] .

---

(١) سوف نجد عند دراسة العلاقة المخرجية أن هذه الأصوات الثلاثة من منطقة واحدة .

(٢) سبقت إشارة إليه فى ترجمة ابيه اليزيدى فى الباب الأول .

(٣) النشر جـ ١ ص ٢٩٠ .

(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ٢١٨ .

الحاء فى العين : وتدغم فى موضع واحد باتفاق هو قوله تعالى « فَمَنْ زحزح عَّن النار ـــ آل عمران آ ١٨٥ » ، وتُظْهَرُ فى سائر المواضع على الأصح ، وهذه المواضع هى : « لاجناحَ عَليكم ـــ البقرة آ ٢٣٦ » ، وقوله « المسيح عيسى ـــ النساء آ ١٧١ » وقوله « الريح عاصفة ـــ الأنبياء آ ٨١ » ـــ وقوله « وماذبح على النصب ـــ المائدة آ ٣ » ـــ فأما الموضع المدغم ففيه قولان : **الإدغام** ، وقد جاء منصوصا عن اليزيدى ، وروى إدغامه عامة أهل الأداء ، وهو الذى عليه جميع طرق ابن فرح[(١)] عن الدورى ، وابن جرير[(٢)] ومن جميع طرقه عن السوسى . وبه قرأ الدانى عن أصحاب الإدغام ، وعليه أصحابه ، ومن مسوغات هذا الإدغام فى نظر القراء طول الكلمة وتكرار الحاء . وهو أمر لانظير له فى بقية الأمثلة التى اختير فيها الإظهار . والقول الثانى : **الإظهار** ، وقد رواه جمهور العراقيين من جميع طرق أبى الزعراء عن الدورى ، ومن جميع طرق السوسى ، قال ابن الجزرى : « والوجهان صحيحان مأخوذ بهما ، ثم يقول : وأما قول ابن مجاهد : سمعت أبا الزعراء يقول : سمعت الدورى يقول : سمعت اليزيدى يقول : (من العرب من يدغم الحاء فى العين نحو « فَمَنْ زُحْزِح عَّن النار » . وكان أبو عمرو لايرى ذلك) ، فمعناه : أنه لايرى ذلك قياسا ، بل يقصره على السماع ، بدليل صحة الإدغام نفسه من رواية شجاع[(٣)] وعباس[(٤)] وأبى زيد[(٥)] ، وعن

---

(١) هو أحمد بن فرح بن جبريل البغدادى ، ثقة كبير ، قرأ على الدورى والبزى وابن مجاهد وغيرهم ، توفى سنة ٣٠٣هـ بالكوفة (طبقات القراء جـ ١ ص ٩٥) .

(٢) هو محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبرى ـــ نسبة الى طبرستان ـــ البغدادى ، أحد الأعلام وصاحب التفسير والتاريخ ، ولد سنة ٢٢٤ هـ ، كان عارفا بالقراءات ، بصيرا بالمعانى ، فقيها فى أحكام القرآن ، عالما بالسنن وطرقها ، صحيحها وسقيمها ، ناسخها ومنسوخها ، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين . توفى سنة ٣١٠ هـ (طبقات القراء جـ ٢ ص ١٠٦) .

(٣) شجاع بن أبى نصر ، أبو نعيم البلخى ، ثم البغدادى الزاهد ، ثقة كبير ، ولد سنة ١٢٠ هـ ببلخ ، وعرض على أبى عمرو بن العلاء ، ومات ببغداد سنة ١٩٠ هـ (طبقات القراء ، حـ ١ ص ٣٢٤) .

(٤) هو العباس بن الفضل الواقفى الأنصارى البصرى ، قاضى الموصل ، أستاذ حاذق ثقة ، كان من أكابر أصحاب أبى عمرو فى القراءة ، وضبط عنه الإدغام ، وجاء عن أبى عمرو أنه قال : « لو لم يكن فى أصحابى إلا عباس لكفانى » . ولد سنة ١٠٥ هـ وتوفى سنة ١٨٦ هـ . (طبقات القراء جـ ١ ص ٣٥٣) .

(٥) هو سعيد بن أوس بن ثابت أبو زيد الأنصارى النحوى ، أحد تلامذة أبى عمرو بن العلاء ، وكان من جلة أصحابه وكبرائهم ، مات سنة ٢١٥ بالبصرة (طبقات القراء جـ ١ ص ٣٠٥) .

اليزيدى من رواية ابنه ومدين (١) ، والآدمى (٢) ، .(٣) فهذه هى جملة ماقيل عن إدغام الحاء فى العين فى الآية المذكورة .

وأما الآيات الأخرى (فلا جناح عليه — والمسيح عيسى — والريح عاصفة) فقد روى إدغامها القاسم بن عبد الوارث(٤) عن الدورى ، ورواه صاحب التجريد عن شجاع وعبيد الله(٥) فى المثالين الأولين ، والإظهار — فى رأى ابن الجزرى — هو الأصح وعليه العمل ، وبقويه وبعضده الإجماع على إظهار الحاء الساكنة التى إدغامها آكد من الحركة فى قوله تعالى : (فاصفح عنهم) ، فَدَلَّ ذلك على أن إدغام الحاء فى العين ليس بقياس ، بل مقصور على السماع ، كما أشار إليه أبو عمرو بن العلاء وفهم من هذا بداهةً أن الحاء لاتدغم فى العين إدغاما صغيرا ، بل لقد حذر القراء من الوقوع فى مثل هذا الخطأ (٦) ، وذلك فى مثل قوله تعالى : (فاصفح عنهم) حيث أجمعوا على الإظهار .

الدال : وهى لاتدغم فى مثلها فى الكبير ، وتدغم فى الصغير نحو « وقد دخلوا » المائدة آ ٦١ — فأما فى مقاربها فإنها تدغم فى عشرة أحرف ، إلا أن القراء يشترطون هنا — ولأول مرة منذ بداية عرضنا لأحكامهم فى الإدغام — شرطا مهما لجواز إدغامها فى هذه الحروف ، هو : ألا تكون الدال مفتوحة بعد ساكن ، وقد سبق

---

(١) هو مدين بن شعبب أبو عبد الرحمن البصرى يعرف بمردويه ، مقرىء مشهور ثقة ، أخذ القراءة عن عبد الله بن محمد اليزيدى ، وروى القراءه عنه أبو بكر النقاش ، والمطوعى ، وروى عنه أبو بكر بن مجاهد ، قال الذهبى ، بصرى ثقة . مات سنة ٣٠٠ هـ (طبقات القراء جـ ٢ ص ٢٩٢) .

(٢) جعفر بن محمد أبو محمد الاصبهانى الآدمى ، روى القراءة عن محمد بن سعدان ، وأبى عبد الرحمن عبد الله بن أبى محمد اليزيدى ، وروى عنه القراءة الاصبهانى شيخ أبى الحسن ابن شنبوذ (طبقات القراء جـ ١ ص ١٩٨) .

(٣) النشر جـ ١ ص ٢٩٠ .

(٤) هو القاسم بن عبد الوارث أبو نصر البغدادى . أخذ القراءة عن أبى عمر الدورى ، وهو من قدماء أصحابه ، واسماعيل بن أبى محمد اليزيدى ، وروى عنه ابن شنبوذ وابن مجاهد . (طبقات القراء جـ ٢ ص ١٩) .

(٥) هو عبيد الله بن على بن الحسن الهاشمى البغدادى ، روى الحروف عن نصر بن على بن نصر عن أبيه عن أبى عمرو بن العلاء . (طبقات القراء جـ ٢ ص ٤٨٩) .

(٦) النشر جـ ١ ص ٢٩١ ، جـ ٢ ص ١٩ .

أن أوردنا إشارة إلى هذا الاشتراط عندما ذكرنا نص ابن الجزرى فى موانع الإدغام المختلف فيها ، وقد اختار القراء الإظهار حين تفتح الدال بعد ساكن ، واستثنوا من ذلك ما إذا كان الحرف المدغم فيه (تاء) فحينئذ تدغم فيه الدال للتجانس ، فمن الأمثلة التى يمتنع فيها الإدغام قوله : « بعدَ ذَلك ـــ المائدة آ ٣٢ ، ودوادَ زَبُورا ـــ النساء آ ١٦٣ ـــ بعدَ ضَرَّاءَ ـــ هود آ ١٠ ـــ بعدَ ظُلْمِه ـــ الشورى آ ٤١ » ، لانفتاح الدال فى جميعها بعد ساكن ، وأما « التاء » فتدغم فيها الدال المفتوحة بعد ساكن مثل : « كاد تّزيغ ـــ التوبة آ ١١٧ ـــ على رواية التاء للسوسى ـــ بَعْد تّوكيدها ـــ النحل آ ٩١ » ، وسنجد أن هذا الشرط سيتكرر فى حروف أخرى ، نمر بها ، ثم نلقى فى النهاية فى (فصل مقارنة آراء النحاة بآراء القراء) ضوءا كافيا على فكرة القراء فى هذا الاشتراط ، وتفصيل الأحرف التى أدغم فيها صوت الدال على الوجه التالى :

الدال فى التاء : نحو « تكاد تّمَيَّزُ ـــ الملك آ ٨ ـــ الصَّيْد تَّنَالُه ـــ المائدة آ ٩٤ ـــ فى المساجد تِّلك ـــ البقرة آ ١٨٧ ـــ بعد تُّوكيدها ـــ النحل آ ٩١ » من الكبير ، وفى الصغير نحو (قد تَّبَيَّنَ) ـــ البقرة آ ٢٥٦ . وقد مضى الكلام على أنه لا شرط فى شكل الدال عند إدغامها فى التاء لقوة التجانس .

الدال فى الثاء : نحو (يريد ثَّواب ـــ النساء آ ١٣٤ ـــ لمن نريد ثُّمَّ ـــ الإسراء آ ١٨)ولم يرد فى القرآن غيرهما فى الكبير ، وأدغم فى الصغير قوله تعالى : (وَمَنْ يُرِد ثَّوابَ الدنيا) ـــ آل عمران آ ١٤٥ .

الدال فى الجيم : نحو (داود جَّالوت ـــ البقرة آ ٢٥١ ـــ الخلد جَّزاء ـــ فصلت آ ٢٨) ولا مثال غيرهما من الكبير ، وقد ورد خلاف حول إدغام « الخلد جزاء » ، فروى إظهار هذا الحرف عن الدورى من طريق ابن مجاهد ، وعن السوسى من طريق الخزاعى (لاجتماع الساكنين) ، وهذا الخلاف مؤسس على ما إذا كان النطق فى هذا الموضع وما أشبهه إخفاء أو اختلاسا أو إدغاما ، فلا فرق بين هذا المثال وبين غيره من كل ماسُبِقَ فيه الحرفُ المدغم بساكن صحيح ، وسوف نعالج هذه المشكلة عند البحث فى « **قضية الساكنين بين القراء والنحويين** » .

قال ابن الجزرى : « ومذهب المحققين الإدغام ، وبه كان يأخذ ابن شنبوذ وابن المنادى وغيره من المتقدمين ، ومن بعدهم من المتأخرين ، وبه قرأ الدانى ، وبه نأخذ ، وله نختار لقوة الكسرة ، والله أعلم[1] » .

وقد أدغمت الدال فى الجيم فى الصغير فى قوله تعالى : (لقد جّاءكم) .

الدال فى الذال : نحو : (من بعد ذّلك ـــ المائدة آ ٦٤ ـــ والقلائد ذّلك ـــ المائدة آ ٩٧ ـــ المرفود ذّلك آيتا ٩٩ ، ١٠٠ ـــ الودود ذّو العرش ـــ آيتا ١٤ ، ١٥) .

ويلاحظ أنه لا إدغام فى (بعدَ ذلك) بفتح الدال كما سبق . (هذا من الكبير) وتدغم فى الذال فى الصغير نحو : « ولقد ذّرأنا ـــ الأعراف آ ١٧٩ ـــ كهيعص ذّكر رحمة ربك ـــ مريم آيتا ١ ، ٢ » .

الدال فى الزاى : نحو : « تريد زّينة ـــ الكهف آ ٣٥ » ولا إدغام فى « داودَ زَبورا » وقد سبق ، (**فهما موضعان فقط من الكبير**) ، وتدغم فى الصغير فى الزاى نحو « ولقد زّينا ـــ الملك آ ٥ » .

الدال فى السين : نحو : « الأصفاد سّرابيلهم ـــ إبراهيم آيتا ٤٩ ، ٥٠ ـــ كَيْد سّاحر ـــ طه آ ٦٩ ـــ عَدَد سّنين ـــ المؤمنون آ ١١٢ » من الكبير . أما الصغير فقوله تعالى : « قد سّألها ـــ المائدة آ ١٠٢ » .

الدال فى الشين : نحو : « وشهد شّاهِد ـــ يوسف آ ٢٦ » فى موضعين فقط من الكبير ، ومن الصغير فى قوله تعالى : « قَد شّغَفَها حُبًّا ـــ يوسف آ ٣٠ » .

الدال فى الصاد : نحو : « فى مقعد صّدق ـــ القمر آ ٥٥ ـــ فى الْمَهْد صّبِياً ـــ مريم آ ٢٩ ـــ من بعد صّلاة ـــ النور آ ٥٨ » (من الكبير)، ومن الصغير فى قوله تعالى : « لقد صّدق الله ـــ الفتح آ ٢٧ » .

الدال فى الضاد : نحو : « من بعد ضّراء ـــ فصلت آ ٥٠ ـــ من بعد ضّعف ـــ الروم آ ٥٤ » ، ولا إدغام فى « بَعْدَ ضَرَّاءَ » ، وقد سبق . هذا من الكبير ، ومن الصغير نحو « قد ضّلوا ـــ المائدة آ ٧٧ » .

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٩١

الدال فى الظاء : نحو : « وما الله يريد ظُّلما ـــ غافر آ ٣١ ـــ من بعد ظُّلمه ـــ المائدة آ ٣٩ » ولا إدغام فى « بَعْدَ ظُلْمِه » . هذا من الكبير ، ومن الصغير نحو « لَقَد ظَّلَمَكَ ـــ ص آ ٢٤ » .

فمجموع الحروف التى أدغمت فى الدال فى الكبير عشرة هى : (التاء ، الثاء ، الجيم ، الذال ، الزاى ، السين ، الشين ، الضاد ، الصاد ، الظاء) ، وهى جميعها جائزة فى الصغير . وتدغم الدال فى مثلها فى الصغير . ولم يرد من ذلك أمثلة فى الكبير .

الذال : ولا تدغم فى مثلها إلا فى الصغير مثل : « إذْ ذَهبَ مُغاضِبًا ـــ الأنبياء آ ٨٧ » ، فأما فى مقاربها فإنها تدغم فى حرفين هما : (السين ، الصاد) فى الكبير ، وتدغم فى الصغير فى (السين ، الصاد ، التاء، الجيم ، الدال ، الزاى) .

الذال فى السين : نحو : (فاتخذ سَّبيله ـــ الكهف آ ٦١) فى موضعين فقط من الكبير ، وفى الصغير نحو : « إذ سَّمعتموه ـــ النور آ ١٢ » .

الذال فى الصاد : فى موضع واحد هو : « ماتخذ صَّاحبة ـــ الجن آ ٣ » من الكبير ، ومن الصغير نحو قوله تعالى : « وإذ صَّرفْنَا ـــ الأحقاف آ ٢٩ » .

الذال فى التاء : فى الصغير فقط فى نحو : « إذ تَّبرأ ـــ البقرة آ ١٦٦ » ، وتدغم فى التاء إذا وقع قبل الذال خاء نحو « اتخذتُّم العجل ـــ البقرة آ ٩٢ ـــ ثم اتخذتُّم ـــ البقرة ٥١ ـــ لاتخذتَّ ـــ الكهف آ ٧٧ » ، وتدغم فى التاء أيضا فى قوله « فنبذتُّها ـــ طه آ ٩٦ » ، وفى قوله « عُذتُّ بِربِّى ـــ غافر آ ٢٧ » .

الذال فى الجيم : فى الصغير فقط فى نحو « إذ جَّعل ـــ الفتح آ ٢٦ » .

الذال فى الدال : فى الصغير فقط فى نحو « إذ دَّخلت ـــ الكهف آ ٣٩ » .

الذال فى الزاى : فى الصغير فقط فى نحو « وإذ زَّاغت ـــ الأحزاب آ ١٠ » .

وهذه الحروف التى رويت مدغمة فى الصغير مروية عن أبى عمرو ، وتبعه هشام [(١)] بالإدغام ، وأظهر طائفة منهم نافع وابن كثير وعاصم وأبو جعفر ويعقوب ، إلى آخر ماذكره ابن الجزرى من خلاف مفصل فى هذا الصدد .

فمجموع الحروف التى أدغمت فيها الذال فى الكبير اثنان هما (السين والصاد) ، وفى الصغير ستة : (السين ـــ الصاد ـــ التاء ـــ الجيم ـــ الدال ـــ الزاى) .

الراء : وتدغم فى مثلها فى الكبير نحو « شهْرْ رَمضان ـــ البقرة آ ١٨٥ ـــ النارْ رَبنا ـــ آل عمران آ ١٩١ ـــ فتحريرْ رَقبة ـــ النساء آ ٩٧ ـــ أمْرْ رَبِّى ـــ الأعراف آ ٢٩ ، وفى الصغير نحو « واذكرْ رَبك ـــ الكهف آ ٢٤ » وفى إدغام المتقاربين تدغم فى حرف واحد هو « اللام » :

الراء فى اللام : وأمثلة هذا النوع من الإدغام كثيرة منها « الأنهار لّه ـــ البقرة آ ٢٦٦ ـــ المصير لّا ـــ البقرة آ ٢٨٥ ـــ الغرور لّتُبْلَوُنَّ ـــ آل عمران آ ١٨٥ ـــ الخير لّقُضِىَ ـــ يونس آ ١١ ـــ يغفر لّكُمْ ـــ الصف آ ١٢ ـــ فى البحر لّتبْتَغُوا ـــ الإسراء آ ٦٦ » ، وقد اشترط فيها فى هذا الموقع مااشترط فى الدال قبلها ، وذلك أنها تدغم فى اللام مالم تُفْتَحْ بعدَ ساكنٍ ، وقد أجمعوا على أنها تُظْهَرُ فى هذا الموقع نحو : « الحميرَ لِتَركَبُوهَا ـــ النحل آ ٨ ـــ البحرَ لِتأْكُلوا ـــ النحل آ ١٤ ـــ والخير لَعَلَّكُمْ ـــ الحج آ ٧٧ ـــ إن الأبرار لَفِى نَعيم ـــ الانفطار آ ١٣ » **إلا ما روى عن شجاع ومدين من إدغام الثلاثة الأولى** . (هذا فى الكبير) . فأما فى الصغير فإنها تدغم عند أبى عمرو من رواية السوسى ، واختلف عنه من رواية الدورى ، قال ابن الجزرى : « والخلاف مفرع على الإدغام ، فمن أدغم الإدغام الكبير لأبى عمرو لم يختلف فى إدغام هذا ، بل أدغمه وجها واحدا ، ومن روى الإظهار اختلف عنه فى هذا الباب عن الدورى ،

---

(١) هو هشام بن عمار السلمى الدمشقى ـــ مقرىء محدث فقيه ، ولد سنة ١٥٣ ، قال يحيى بن معين : ثقة ، وقال النسائى : لا بأس به ، وقال الدارقطنى : صدوق كبير المحل . توفى سنة ٢٤٥ هـ . (طبقات القراء جـ ٢ ص ٣٥٤) .

فمنهم من روى إدغامه ، ومنهم من روى إظهاره ، والأكثرون على الإدغام ، والوجهان صحيحان عن أبى عمرو ، وبالإدغام قرأ الدانى على أبى القاسم عبد العزيز بن جعفر(١) ، من قراءته لذلك على أبى طاهر (٢) عن ابن مجاهد . قال الدانى : وقد بلغنى عن ابن مجاهد أنه رجع عن الإدغام إلى الإظهار اختيارا واستحسانا ، ومتابعةً لمذهب الخليل وسيبويه قبل موته بست سنين . قلت : إن صح ذلك عن ابن مجاهد فإنما هو فى وجه إظهار الكبير ، أما فى وجه إدغامه فلا ، لأنه إذا أدغم الراء المتحركة فى اللام فإدغامها ساكنة أوْلَى وأحرى ـــ والله أعلم » انتهى كلام ابن الجزرى . ومن أمثلة إدغام الصغير : » أنِ أشْكُر لِّى ـــ لقمان آ ١٤ ـــ واصْطَبِر لِّعبادَتِه ـــ مريم آ ٦٥ » . ولنا إلى هذا الخلاف عودة فى فصل (مقارنة آراء النحاة بآراء القراء) إن شاء الله .

السين : تدغم فى مثلها نحو : الناس سُّكارَى ـــ الحج آ ٢ ـــ للناس سَّوَاءً الحج آ ٢٥ ، ولم ترد أمثلة على إدغامها فى مثلها فى الصغير . فأما فى إدغام المتقاربين فإنها تدغم فى كل من (الزاى والشين) :

السين فى الزاى : وقد أجمعوا على جواز هذا الإدغام ، وهو وارد فى موضع واحد بالقرآن : « وإذا النفوس زُّوِّجَتْ ـــ التكوير آ ٧ » .

السين فى الشين : فى مثال واحد أيضا هو « وَاشْتَعَلَ الرأس شَّيْباً ـــ مريم آ ٤ » ، وقد اختلفوا فى جواز هذا الإدغام ، فالإظهار من روايتى الدورى والسوسى وابن مجاهد وغيرهم ، والإدغام فى رواية سائر المدغمين ، وبه قرأ الدانى ، قال : وعليه أكثر أهل الأداء عن اليزيدى ، وعن شجاع ، وكان ابن مجاهد يُخَيِّرُ فيها ، يقول : إنْ شئت

---

(١) هو عبد العزيز بن جعفر أبو القاسم الفارسى ثم البغدادى ، مقرىء نحرى ، شيخ صدوق ، ولد سنة ٣٢٠ هـ ، قرأ على أبى بكر النقاش ، وقرأ عليه أبو عمرو الدانى الحافظ ، وتوفى سنة ٤١٢ هـ (طبقات القراء جـ ١ ص ٣٩٢) .

(٢) هو عبد الواحد بن عمر بن محمد بن أبى هاشم أبو طاهر البغدادى ـــ النحوى العلم الثقة ، أخذ عن جماعة منهم ابن مجاهد ، ولم يكن بعده مثل أبى طاهر فى علمه وفهمه ، مع صدق لهجته ، واستقامة طريقته ـــ توفى سنة ٣٤٩ هـ . (طبقات القراء جـ ١ ص ٤٧٥) .

أدغمتها وَإنْ شئتَ تَرَكْتَهَا . وقد أجمعوا على إظهار « لَايَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ـــ يونس آ ٤٤ » لخفة الفتحة[١] . فقد أُدْغِمَت السينُ فى ثلاثة أصوات هى (السين ـــ الزاى ـــ الشين) فى الكبير فقط .

الشين : ولا تدغم فى مثلها لعدم ورود أمثلة . وتدغم فى مقاربها فى حرف واحد هو (السين) :

الشين فى السين : وقد وقعت مدغمة فى مثال واحد هو قوله تعالى : « إلى ذى العرْش سَّبيلا ـــ الإسراء آ ٤٣ » ، وقد اختلف فيه ، فروى إدغامه منصوصا عن اليزيدى وعن الدورى وعن السوسى ، وبه قرأ الدانى من جميع طرق اليزيدى وشجاع ، وروى إظهاره عن سائر أصحاب الإدغام عن أبى عمرو . وبه قرأ الشذائىُّ[٢] عن سائر أصحاب أبى عمرو ، قيل : من أجل زيادة الشين بالتفشى ـــ قال ابن الجزرى : « ولا يمنع الإدغام من أجل صفير السين فحصل التكافؤ ، والوجهان صحيحان قرأت بهما . وبهما آخذ ـــ والله أعلم »[٣] .

الضاد : ولا تدغم فى مثلها ، وتدغم فى مقاربها فى الشين وحدها : ـــ

الضاد فى الشين : تدغم فى مثال واحد هو « لبعْض شَّأنهم ـــ النور آ ٦٢ » ، وقد اختلف فى إدغام هذا المثال ، فروى إدغامه منصوصا أبو شعيب السوسى عن اليزيدى ، قال الدانى : ولم يروه غيره (منصوصا) وروى إدغامه أداءً ابن شيطا[٤] عن أبيه أبى عمرو عن ابن مجاهد عن أبى الزعراء عن الدورى ،

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٩٢ ولسوف نناقش هذه العلة فى فصل (المقارنة) .

(٢) هو أحمد بن نصر بن منصور أبو بكر الشذائى البصرى ، امام مشهور ، قرأ على جماعة منهم . الداجونى الكبير وابن المنادى ، والقاسم بن عبد الوارث ، وقرأ على كثيرين ، وتوفى بالبصرة سنة ٣٧٣ هـ (طبقات القراء جـ ١ ص ١٤٤) .

(٣) المرجع السابق ، وسنناقش هذا الخلاف فى فصل (المقارنة بين النحاة والقراء) .

(٤) هو عبد الواحد بن الحسين بن أحمد بن شيطا أبو الفتح البغدادى . كامل ثقة رضى ، ولد سنة ٣٧٠ هـ ، وله كتاب التذكار فى القراءات العشر ، كان عالما بوجوه القراءات بصيرا بالعربية ، توفى سنة ٤٠٥ هـ (طبقات القراء جـ ١ ص ٤٧٣) .

وابن سوار[١] من جميع طرق ابن فرح سوى الحمامى[٢] ، ورواه أيضا شجاع والآدمى عن صاحبيه وبكران[٣] عن صاحبيه ، والزهرى[٤] عن أبى زيد ، والفحام عن عباس . وروى إظهاره سائر رواة الإدغام . قال الدانى : وبالإدغام قرأت . وقال ابن الجزرى : « وبلغنى عن مجاهد أنه كان لايمكن من إدغامها إلا حاذقا » .

وقد وردت أمثلة فى القرآن التقت فيها الضاد بالشين ، ومع ذلك فالإجماع منعقد على إظهارها ، وذلك نحو : « والأرضِ شَيْئاً ــ النحل آ ٧٣ « قال ابن مجاهد : ولا فرق بينهما إلا الجمع بين اللغتين مع الإعلام بأن القراءة ليست بالقياس دون الأثر . وعلل ابن الجزرى لعدم إدغام هذا المثال بأنه « يمكن أن يقال فى الفرق : إن الإدغام لما كان القارىء يحتاج إلى التحفظ فى التلفظ به اجتنب بعد الراء المحتاج إلى التحفظ فى التلفظ بها من ظهور تكرارها » .

وجاء أيضا مثال آخر هو « الأرضَ شَقًّا ــ عبس آ ٢٦ » وقيل فى تعليل عدم إدغامه « لخفة الفتحة بعد السكون » وإن كانت قد وردت رواية عن أبى العلاء عن ابن حبش عن السوسى بإدغامه ، وتابعه الآدمى عن صاحبيه [٥] .

والخلاف حول هذه الأمثلة على هذه الصورة يثير ــ ولاشك ــ مشكلة سوف نتعرض لعلاجها عند مناقشة هذه الخلافات فى فصل (المقارنة) .

---

(١) هو احمد بن على سوار أبو طاهر البغدادى . مؤلف المستنير فى العشر ، إمام كبير محقق ثقة ، قرأ على جماعة منهم فرح بن عمر الواسطى وابن شيطا ، وقرأ عليه ابن سكرة شيخ ابن البادش . توفى سنة ٤٩٦ هـ (طبقات القراء جـ ١ ص ٨٦) .

(٢) هو محمد بن على أبو ياسر الحمامى البغدادى ، مقرىء حاذق ناقل صاحب كتاب الايجاز فى القراءات العشر ، توفى سنة ٤٨٦ هـ (طبقات القراء جـ ٢ ص ٢١٤) .

(٣) هو بكران بن احمد بن سهل أبو محمد السراويلى ، مقرىء متصدر ، قرأ على أبى عمر الدورى . (طبقات القراء جـ ١ ص ١٧٨) .

(٤) هو عبد الله بن عمر الزهرى . روى القراءة عن أبى زيد سعيد بن أوس عن أبى عمرو . (طبقات القراء جـ ١ ص ٤٣٨) .

(٥) النشر جـ ١ ص ٢٩٣ .

العين : تدغم فى مثلها فى الكبير مثل : « يشفعْ عِنده ـــ البقرة آ ٢٥٥ ـــ لأضيعْ عَمل عامل ـــ آل عمران آ ١٩٥ ـــ تَطّلِعْ عَلَى ـــ المائدة آ ١٣ » ، والقياس أن يجوز هذا فى الصغير ، ولكن لم ترد به أمثلة ، ولا مجال للعين فى إدغام المتقاربين .

الغين : تدغم فى مثلها فى الكبير فى موضع واحد بالقرآن وهو : « ومن يبتغْ غَيْرَ الإسلام ـــ آل عمران آ ٨٥ » ، وقد اختلف فى هذا الموضع من أجل الجزم ، فروى إدغامه عن ابن مجاهد ، ونص على إدغامه الحافظ أبو العلاء وأبو العز[1] وابن الفحام ومن وافقهم ، وروى إظهاره سائر أصحاب ابن مجاهد ، وروى الشذائى الوجهين جميعا ، ونص عليهما أبو عمرو الدانى ، قال ابن الجزرى : والوجهان صحيحان فيه ، وفيما هو مثله مما يأتى من المجزوم . والقياس لا يأبى إدغامها فى الصغير ، بيد أنه لم ترد بذلك أمثلة فى القرآن ، ولا تدغم الغين فى مقاربها ، شأنها فى ذلك شأن العين . ولسوف يأتى فى دراستنا لمقاييس الإدغام عند القدماء أن حروف الحلق ليست بأصل للإدغام .

الفاء : وتدغم فى مثلها فى الكبير نحو « وما اختلفْ فِيه ـــ البقرة آ ٢١٣ ـــ خلائفْ فِى الأرض ـــ فاطر آ ٣٩ ـــ تعرفْ فِى وجوههم ـــ المطففين آ ٢٤ ـــ كيفْ فَعل ـــ الفيل آ ١ » والقياس لا يأبى إدغامها فى الصغير ، ولكن لم ترد أمثلة . وشأن الفاء فى المتقاربين شأن سابقتيها ، عند أبى عمرو ، وقد انفرد الكسائى بإدغام « إن نشأ نخسف بّهم ـــ سبأ آ ٩ » من الصغير ، بإدغام الفاء فى الباء .

القاف : وتدغم فى مثلها فى الكبير نحو : « من الرزقْ قُل ـــ الأعراف آ ٣٢ ـــ أفاقْ قَال ـــ الأعراف آ ١٤٣ ـــ ينفقْ قُربات ـــ التوبة آ ٩٩ » والقياس لا يأبى إدغامها فى مثلها فى الصغير . فأما إدغامها فى مقاربها فقد حدث ذلك فى حرف واحد هو :

---

(١) هو محمد بن الحسين بن بندار أبو العز الواسطى القلانسى ، ولد سنة ٤٣٥ هـ بواسط ، ألف كتاب الارشاد فى العشر ، برع فى القراءات ، وهو جيد النقل ذو فهم فيما يقوله ، توفى سنة ٥٢١ هـ . (طبقات القراء جـ ٢ ص ١٢٨) .

القاف فى الكاف : تدغم القاف فى الكاف بشرط وضعه القراء هو « أن يتحرك ماقبل القاف » نحو « ينفق كّيف ـــ المائدة آ ٦٤ ـــ خالق كُّل ـــ الأنعام آ ١٠٢ » فإن سكن ماقبلها لم تدغم نحو « وفوقَ كُلِّ ذى علم عليم ـــ يوسف آ ٧٦ » دون خلاف (هذا فى الكبير) ولا مثال على إدغامها فيها فى الصغير .

الكاف : وتدغم فى مثلها فى كلمة أو فى كلمتين نحو : مناسِكْكُم ـــ البقرة آ ٢٠٠ ـــ ربكْ كَثيرا ـــ آل عمران آ ٤١ ـــ إليكْ كَما ـــ النساء آ ١٦٣ » .

وقد ورد مثالان من المثلين دار حولهما خلاف ، فأولهما : « يَكُ كَاذِباً ـــ غافر آ ٤٨ » والخلاف فيها من أجل الجزم هو نفس الخلاف حول « يَبْتَغِ غَيْر ـــ آل عمران آ ٨٥ » وثانيهما : « يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ ـــ لقمان آ ٢٣ » ، ذهب جماعة إلى الإظهار ، وهو الأرجح فى رأى الجمهور ، وحجتهم أن النون مخفاة قبل الكاف الأولى ، فلو أدغمت فى مثيلتها لوالى القارىء بين إعلالين[1] ، وهو أمر عسير « وقد روى الإدغام عن الدورى من طريق واحدة ، كما روى مدين عن أصحابه ، وعن عباس وعبد الله بن عمر الزهرى عن أبى زيد ، كلاهما عن أبى عمرو . قال الدانى : والأخذ والعمل بخلافه[2] .

هذا فى الكبير ، ومن الصغير قوله تعالى : « أينما تكونوا يدرككم الموت ـــ النساء آ ٧٨ » . وفى إدغام المتقاربين تدغم الكاف فى القاف :

الكاف فى القاف : ويشترط لإدغام الكاف فى القاف أن يتحرك ماقبلها نحو : « لَكْ قَال ـــ البقرة آ ٣٠ ـــ فَلَنُو لِّيَنَّك قّبلة ـــ البقرة آ ١٤٤ ـــ من عندك قُّل ـــ النساء آ ٧٨ » ، فإن سكن ماقبلها لم تدغم ، وسواء فى ذلك الساكن المعتل والساكن الصحيح نحو : « إليك قال ـــ الأعراف آ ١٥٦ ـــ يحزنْكَ قَولهم ـــ

---

(١) يريد أن النون مخفاة قبل الكاف ، ثم يأتى بعد الإخفاء مباشرة إدغام الكاف الأولى فى الثانية ، وقد أطلق ابن الجزرى لفظة « إعلال » على كل من الإخفاء والإدغام ، يعنى بها ما حدث من تأثير صوتى وهو غير الإعلال الاصطلاحى .

(٢) النشر جـ ١ ص ٢٨١ .

يونس آ ٦٥ ـــ تركوكَ قائما ـــ الجمعة آ ١١ » وليس فى القرآن أمثلة على إدغام الكاف فى القاف إدغاما صغيرا .

اللام : تدغم فى مثلها : « قيلْ لَهُم ـــ النحل آ ٢٤ ـــ جعلْ لَكم ـــ البقرة آ ٢٢ ـــ قالْ لَبِثت ـــ البقرة ٢٥٩ ـــ الفصلْ لَقضى ـــ الشورى آ ٢١ ـــ من قَبْلْ لَفى ـــ الجمعة آ ٢ » وقد اختلف فى إدغام « آل لوط ـــ القمر آ ٣٤ » و « يَخْلُ لَكُمْ ـــ يوسف آ ٩ » قيل : فأما « يَخْلُ لَكُمْ » فمن المجزوم ، فإن كانت هذه هى العلة الحقيقية فقد تقدم القول فيها ، وإن كان المانع سكون ماقبل اللام فسوف نتعرض له بالحديث فيما بعد . وأما « آل لوط » فقد روى إدغامه عن الدورى من أربع طرق ، وعن السوسى من طريق واحدة ، والجميع عن اليزيدى ، وعن شجاع عن أبى عمرو ، وروى إظهاره سائر الجماعة ، وهو اختيار ابن مجاهد ، ورواه عن عصمة[1] ومعاذ[2] عن أبى عمرو . وقد اختلف المظهرون فى مانع إدغامه ، فروى ابن مجاهد عن عصمة بن عروة الفقيمى عن أبى عمرو أنه قال : « لا أدغمها لقلةِ حروفها » ، ورد الدانى هذا المانع بالإجماع على إدغام « لَكَ كَيدا ـــ يوسف آ ٥ » ، وهو أقل حروفا عند التحليل ، ورجح الدانى أن يكون الاعتلال الذى حدث فى « آل » ـــ بالبدل من الواو على رأى الكوفيين ، ومن الهاء على رأى البصريين ـــ هو السبب فى عدم الإدغام ، وبذلك يكون المانع عدم الرغبة فى إحداث إعلالين فى كلمة واحدة فى حالة الإدغام ، لاقلة حروف الكلمة . بيد أن ابن الجزرى حاول أن يفسر عبارة أبى عمرو السابقة : (قلة الحروف) بمعنى أنها قليلة الدور فى القرآن ، قال : « وقلة الدور وكثرته معتبرة » ، ولا تعقيب لنا على هذا التفسير إلا بأن نقول : إن فى الإدغام حالات مؤسسة على مثال واحد ، ومع ذلك أجيز إدغامها ، فكيف وقد وردت عبارة (آل لوط) فى القرآن أربع مرات ؟ على أن ابن الجزرى قد عقب على ذلك فقال : « على أن

---

(١) عصمة بن عروة الفقيمى البصرى روى القراءة عن أبى عمرو بن العلاء وعاصم بن أبى النجود ، وروى عنه يعقوب بن اسحاق الحضرمى والعباس بن الفضل وغيرهما . (طبقات القراء جـ ١ ص ٥١٢) .

(٢) معاذ بن معاذ أبو عبد الله العنبرى الحافظ قاضى البصرة ، روى القراءة عن أبى عمرو بن العلاء ، وهو من المكثرين عنه قال ابن معين : ثقة . توفى سنة ١٩٦ هـ (طبقات القراء جـ ٢ ص ٣٠٢) .

أبا عمرو من البصريين ، ولعله أيضا راعى كثرة الإعلال ، وقلة الحروف مع اتباع الرواية[(١)] » . وأدغمت اللام فى مثلها فى الصغير نحو : « قُلْ لَهُمْ ـــ النساء آ ٦٣ » .
أما إدغام المتقاربين فقد أدغمت اللام فى مقاربها وهو الراء على الوجه التالى :

اللام فى الراء : وقد اشترط القراء لهذا الإدغام ألا تفتح اللام بعد ساكن[(٢)] مثل : فعصوا رسولَ ربِّهم ـــ الحاقة آ ١٠ « إلا لام (قال) فإنها تدغم حيث وقعت ، لكثرة دورها نحو : قال رَّب ـــ قال رَّجل » . فاللام تدغم فى الراء إذا تحرك ماقبلها بأى حركة تحركت هى ، نحو : (رسل ربك ـــ هود آ ٨١ ـــ كمثل ريح ـــ آل عمران آ ١١٧ ـــ أنزل رَّبكم ـــ النحل آ ٣٠) ، وكذلك تدغم فى الراء إذا سكن ماقبلها ، وكانت هى مضمومة أو مكسورة نحو : (يقول رَّبنا ـــ البقرة آ ٢٠١ ـــ سبيل رَّبك ـــ النحل آ ١٢٥ ـــ هذا من فضل رَّبى ـــ النمل آ ٤٠) هذا فى الكبير . وتدغم اللام فى الراء فى الصغير نحو : « وقل رَّب ـــ المؤمنون آ ١١٨ ـــ بَل رَّان ـــ المطففين آ ١٤ » .

كذلك فإن للام أحكاما أخرى فى الإدغام الصغير ، حيث تدغم اللام من (هل وبل) فى أحرف غير الراء هى : (التاء ، الثاء ، الزاى ، السين ، الضاد ، الطاء ، الظاء ، النون) ، وهذا الإدغام لدى الكسائى ، ووافقه حمزة فى بعض وجوهه ، وأمثلته على التوالى هى : (هل تَّعلم ـــ مريم آ ٦٥ ـــ بل تُّؤثرون ـــ الأعلى آ ١٦ ، هل ثُّوب الكفار ـــ المطففين آ ٣٦ ، بل زُّين ـــ الرعد آ ٣٣ ، بل زَّعمتم ـــ الكهف آ ٤٨ ، بل سَّولت لكم ـــ يوسف آ ١٨ ، بل ضّلوا ـــ الأحقاف آ ٢٨ ـــ ، بل طَّبع ـــ النساء آ ١٥٥ بل ظَّننتم ـــ الفتح آ ١٢ ، بل نَّقذف ـــ الأنبياء آ ١٨ ، هل نَّحن منظرون ـــ الشعراء آ ٢٠٣) ، وللكسائى مذهب آخر هو إدغام اللام الساكنة حيث وقعت فى (الذال) نحو : (من يفعل ذّلك ـــ الفرقان آ ٦٨) .

فأما أبو عمرو فقد روى عنه إدغام اللام من (هل تّرى) فى موضعين من

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٨١ .
(٢) لنا على ذلك تعليق فى « مقارنة موقف النحاة بموقف القراء » .

القرآن ــ الملك آ ٣ ، الحاقة آ ٨ ، كما روى عنه إظهار اللام عند الأحرف الثمانية السابقة .

الميم : وتدغم فى مثلها فى الكبير ، وفى الصغير ، فالكبير مثل : « الرحيمْ مَلك ــ الفاتحة آ ٣ ــ إبراهيمْ مُصَلّى ــ البقرة آ ١٢٥ ــ يعلم مَا ــ البقرة آ ٢٥٥ » ، والصغير : « ــ وهم من ــ الأنبياء آ ٢٨ »

وتدغم فى مقاربها فى الباء ، وقد استخدم بعض القراء فى التعبير عن هذه الحالة لفظة (الإدغام) ، والواقع أنه ليس بإدغام ، بل هو بحسب تعبيرهم « إخفاء » ، لأن الذى يحدث عند التقاء الميم بالباء أن الميم لاتدخل في الباء ليصير الحرفان باء مشددة ، بل تبقى الميم غنة خيشومية ، قال السيرافى : (وروى عن أبى عمرو أنه كان يدغم الميم فى الباء إذا تحرك ماقبل الميم مثل : « مريمْ بُهتانا – النساء آ ١٥٦ – لكيلا يعلْم بَعد عِلْمٍ شَيْئا ــ النحل آ ٧٠ ــ بأعلمْ بالشاكرين ــ الأنعام آ ٥٣ » فإذا سألت أصحابه عن اللفظ بما ترجموا عنه من إدغام ذلك لم يأتوا بباء مشددة ، وقد سألت أبا بكر ابن مجاهد رحمه الله فذكر أنهم يترجمون عنه بإدغام أو نحو هذا من اللفظ[١] » ، وقدفهِمَ من نص السيرافى أن شرط إخفاء الميم عند الباء أنْ يتحرك ماقبل الميم ، فإن سكن ماقبلها أجمعوا على ترك الإخفاء ، إلا ما روى عن أبى عمرو من الإخفاء بعد حرف المد أو اللين[٢] نحو : (الشهر الحرامْ بِالشهر الحرام ــ البقرة آ ١٩٤ ــ اليومْ بِجالوت ــ البقرة آ ٢٤٩ » .

النون : تدغم فى مثلها فى الكبير نحو : « ونحن نسبح ــ البقرة آ ٣٠ ــ تخافونْ نُشوزهن ــ النساء آ ٣٤ ــ للكافرينْ نَصيب ــ النساء آ ١٤١ » وتدغم فى مقاربها فى حرفين هما : الراء واللام بشرط أن يتحرك ماقبلها ــ على الوجه التالى :

---

(١) شرح السيرافى لكتاب سيبويه ــ مخطوطة رقم ١٣٦ ــ نحو ــ المجلد الخامس ــ دار الكتب .

(٢) هذا دليل على أن أبا عمرو لم يكن يعتد ماوقع بعد حرف المد أو اللين واقعا بعد ساكن ، بل كان يعتبره بعد حركة طويلة .

النون فى الراء :نحو : « وإذ تأذن ربك ــ الأعراف آ ١٦٧ ــ خزائن رحمة ــ الإسراء آ ١٠٠ » .

النون فى اللام : نحو : (لن نؤمن لّك ــ الإسراء آ ٩٠ ــ يتبين لّكم ــ البقرة آ ١٨٧ ــ زين لّلكافرين ــ الأنعام آ ١٢٢) ، فإن سكن ماقبل النون لم تدغم فى الراء أو فى اللام ، ومثال الراء : (بإذن ربهم ــ القدر آ ٥ ــ يخافون رَبَّهم ــ النحل آ ٥٠) ، ومثال اللام : (مُسْلِمَيْن لك ــ البقرة آ ١٢٨ ــ مع سليمان لله ــ النحل آ ٤٤) . إلا فى كلمة (نحن) خاصة فقد جوزوا الإدغام حيث وقعت . وقد روى ذلك منصوصا أصحاب اليزيدى عنه سوى ابن جبير ، واختلف فى تخصيص هذه الكلمة بالإدغام ، فقيل لثقل الضمة ، ويرده إظهار « أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ــ الأنعام آ ١٠١ » وقال الدانى : « للزوم حركتها وامتناعها من الانتقال من الضم إلى غيره ، وليس ماعداها كذلك » وقال ابن الجزرى : ويمكن أن يقال لتكرار النون فيها ، وكثرة دورها ، ولم يكن ذلك فى غيرها » .

وإدغام هذه الكلمة حيث وقعت رواية الجمهور عن اليزيدى ، وقد انفرد الكارزينى[١] عن السوسى بإظهارها لسكون ماقبل النون (طردا للقاعدة) . كما انفرد محمد بن غالب[٢] عن شجاع بإدغام ماقبله ساكن ، من ذلك نحو (مسلمين لك ــ مع سليمان لله) ، ولم يستثن من ذلك سوى : (أَرْضَعْنَ لَكُمْ) فأظهره ، والأول هو الأرجح والمعمول به[٣] .

الواو : وتدغم فى مثلها فى الكبير مثل (هو والذين ــ البقرة آ ٢٤٩ ــ الْعَفْوْ وَأْمر ــ الأعراف آ ١٩٩ ــ وهو وليهم ــ الأنعام آ ١٢٧) .

---

(١) هو محمد بن الحسن بن آذربهرام الكارزينى الفارسى ، إمام مقرىء جليل ، انفرد بعلو الاستاد فى وقته ، قرأ على المطوعى والشذائى والشنبوذى ، وقرأ عليه أبو القاسم الهذلى . (طبقات القراء جـ ٢ ص ١٣٢) .

(٢) محمد بن غالب ، مشهور صالح ورع ، أخذ القراءة عن شجاع عن أبى عمرو بن العلاء ، وهو أضبط أصحاب شجاع ، قرأ عليه عشر ختمات ، ثلاثا بالادغام وسبعا بالاظهار ، وروى القراءة أيضا عن الأصمعى عن أبى عمرو . توفى سنة ٢٥٤ هـ (طبقات القراء جـ ٢ ص ٢٢٦) .

(٣) المرجع السابق ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

الهاء : وتدغم فى مثلها فى الكبير نحو (فيهْ هُدًىَ ـــ البقرة آ ٢ ـــ آيات اللهْ هُزُواً ـــ البقرة ٢٣١) ، وفى الصغير نحو (يُوَجِّهْهُ ـــ النحل آ ٧٦) .

الياء : وتدغم فى مثلها فى الكبير نحو (نودىْ يَاموسى ـــ طه آ ١١ ـــ ومن خِزىْ يَوْمِئِذ ـــ هود آ ٦٦) .

ملحوظة : نبه القراء إلى أن صوت الطاء إذا جاور التاء مباشرة أدغم وجوبا مع بقاء صفة الإطباق فى مثل : « بَسَطْتَ ، وفَرَّطْتُ وأَحَطْتُ » ، كما نصوا على قراءة ابن محيصن بإدغام الظاء فى التاء فى : « أَوعظتَّ » مع إبقاء صفة التفخيم[1] وذلك مقتصر كما هو ظاهر على الإدغام الصغير . ولا موضع لهذين الصوتين فى الكبير .

ملاحظات إحصائية :

أولا : حاصل هذا أن توزيع الأصوات بالنسبة للإدغام عند القراء يأتى على مجموعات أربعة :ـــ

(١) مجموعة لاتدغم ولا يدغم فيها وهى : الهمزة ـــ الهاء ـــ الغين ـــ الخاء .

(٢) مجموعة لاتدغم ويدغم فيها وهى : العين ـــ الياء ـــ الواو ـــ الصاد ـــ الزاى ـــ الميم .

(٣) مجموعة تدغم ولا يدغم فيها وهى : الحاء .

(٤) مجموعة تدغم ويدغم فيها وهى : القاف ـــ الكاف ـــ الجيم ـــ الشين ـــ الضاد ـــ الطاء ـــ الظاء ـــ اللام ـــ الراء ـــ النون ـــ الدال ـــ التاء ـــ الذال ـــ الثاء ـــ السين ـــ الفاء ـــ الباء .

ثانيا : تنحصر مواطن نقض أبى عمرو للقياس فى الإدغام فى الأصوات الآتية : ـــ

(١) لم يدغم أبو عمرو « الباء فى الميم » فيما عدا (يعذب من) إجماعا .

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٢٠ .

(٢) لم يدغم « الحاء فى العين » فيماعدا (زحزح عن النار) ، وإظهارها أرجح فى نظرنا[١] .

(٣) لم يدغم « الضاد فى الشين » فيما عدا (لبعض شأنهم) ، على وجهين : والحجة دائما فى جميع ذلك هى أن السماع لم يرد ، وأن القراءة ليست بالقياس دون الأثر . ومعنى نقضه للقياس عدم طرده للإدغام فى كل ماجاء على صورة هذه الأمثلة ، بصرف النظر عن قواعد النحاة فى هذه الأصوات .

ثالثا : اختلف الرواة عن أبى عمرو فى إدغام الأمثلة الآتية :

(١) (فمن تاب من بعد ظلمه) والأرجح الإدغام ، لوجود المجاور كما مر .

(٢) (وآتوا الزكاة ثُم ـــ حملوا التوراةَ ثُم) ، فقيل : تدغم للتقارب ، وقيل تظهر لخفة الفتحة بعد السكون .

(٣) (وآتِ ذَا القربى) لكونه من المجزوم أو مما حكمه الجزم ، فقيل بالإدغام للتقارب ، وقيل بالإظهار من أجل النقص ، وقلة الحروف .

(٤) (جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا) فالإظهار من أجل كون المدغم تاء ضمير ، والإدغام لقوة الكسرة .

(٥) (ولتأتِ طَائفة) فالإظهار من أجل الجزم ، والإدغام من أجل التجانس وقوة الكسرة والطاء .

(٦) (وأقم الصلاة طرفى النهار) ، والإظهار من أجل خفة الفتحة بعد السكون ، والإدغام من أجل التجانس وقوة الطاء .

(٧) (أخرجَ شَطأه) وفيها الوجهان .

(٨) (الخلدِ جَزاء) والإظهار من أجل التقاء الساكنين ، والإدغام من أجل قوة الكسرة .

(٩) (اشتعل الرأس شيّباً) وفيه الوجهان .

---

(١) ستأتى وجهة نظرنا فى هذه المسألة وأشباهها فى فصل (المقارنة) .

(١٠) (ذى العرش سَبيلا) الإظهار من أجل زيادة الشين بالتفشى ، والإدغام لزيادة السين أيضا بالصفير .

(١١) (ونحن له مسلمون) وما جاء على صورته ، الإدغام ، قيل : لثقل الضمة ، وقيل : لتكرار النون وكثرة دورها فى القرآن ، والإظهار طرداً للقاعدة ، وهى أنه قد سكن ماقبلها .

(١٢) فى المجزوم من المثلين نحو : (ومن يبتغ غير — يكُ كاذبا) وفيه الوجهان .

(١٣) (آل لوط) الإظهار لقلة الدور ، والإدغام جريا على القاعدة .

(١٤) (الأرض شقا) الإظهار لخفة الفتحة بعد السكون ، والإدغام للتقارب .

رابعا : انفرد بعض الرواة بمخالفة مذهب أبى عمرو ، وقالوا بإدغام بعض الأمثلة قياسا ، وذلك فى المواضع الآتية :

(١) (وإذا رأيْت ثَّم) وهو من تاء المضمر ، والمأخوذ به هو الإظهار .

(٢) (فلا جُنَاح عليه — والمسيح عِّيسى — والريح عّاصفة) ، والإظهار هو مذهب أبى عمرو .

ملحوظة : سوف يأتى (فى بحث المقارنة بين النحاة والقراء فى الإدغام) تفسير لوجوه الخلاف بين الرواة ، وترجيح وجه منها على أساس علمى من الدراسة الصوتية ، وكذلك دراسة فكرة المفتوح بعد ساكن وامتناع الإدغام معه لدى بعض القراء ، وحروف الحلق وامتناع الإدغام معها .

★ ★ ★

الباب الثالث

الدراسة الصوتية

الفصل الأول

ملاحظات على أحكام الهمز عند أبى عمرو

توطئة

هذا الباب مخصص فى كتابنا هذا لدراسة ماسبق من أحكام القراءة دراسة علمية صوتية . وقد سبق أن عرضنا فى الباب السابق أصول القراءة فى إيجاز غير مخل . ونحب أن نشير هنا إلى أمور :

أولها : أن أحد الأصول التى قدمناها تقف دراسته فى رأينا عند حد ما عرضنا هنالك من أحكام ، وذلك : أصل أبى عمرو فى **المد** ، كما أن أحكام أبى عمرو فى **الوقف** مدروسة بعد ذلك فى الفصل الرابع من الباب الرابع .

ثانيها : أننا نبدأ هذا الباب بدراسة صوتية لأحكام أبى عمرو فى كل من **الهمز والإمالة وياءات الإضافة** ، ونلتزم فى علاج كل من هذه الأبواب حدود ماوجدنا فى القراءة من أحكام ، دون أن ندرس هذه الظواهر دراسة شاملة ، وبخاصة « الإمالة » التى قدم فى موضوعها وحده بحث مفصل عنها فى القراءات واللهجات العربية ، بكلية دار العلوم ، كما أن مقاييس الامالة قد درست بدقة فى أعمال أستاذنا الدكتور أنيس .

ويكفى أن نذكر هنا أن الإمالة كظاهرة صوتية إنما كانت فى أكثر مواضعها من تقاليد تميم وجبرانها من قبائل العرب فى وسط الجزيرة وشرقيها[1] ، وأن أهل الحجاز قد أثرت عنهم الإمالة فى بعض المواضع على سيأتى ، فإذا كان أبو عمرو قد اختار فى قراءته بعض أوجه الإمالة ، دون توسع فى القراءة بها ، فذلك دليل على اعتداله فى موقفه بين قراءة الحجازيين ، وتقاليد التميميين اللغوية .

---

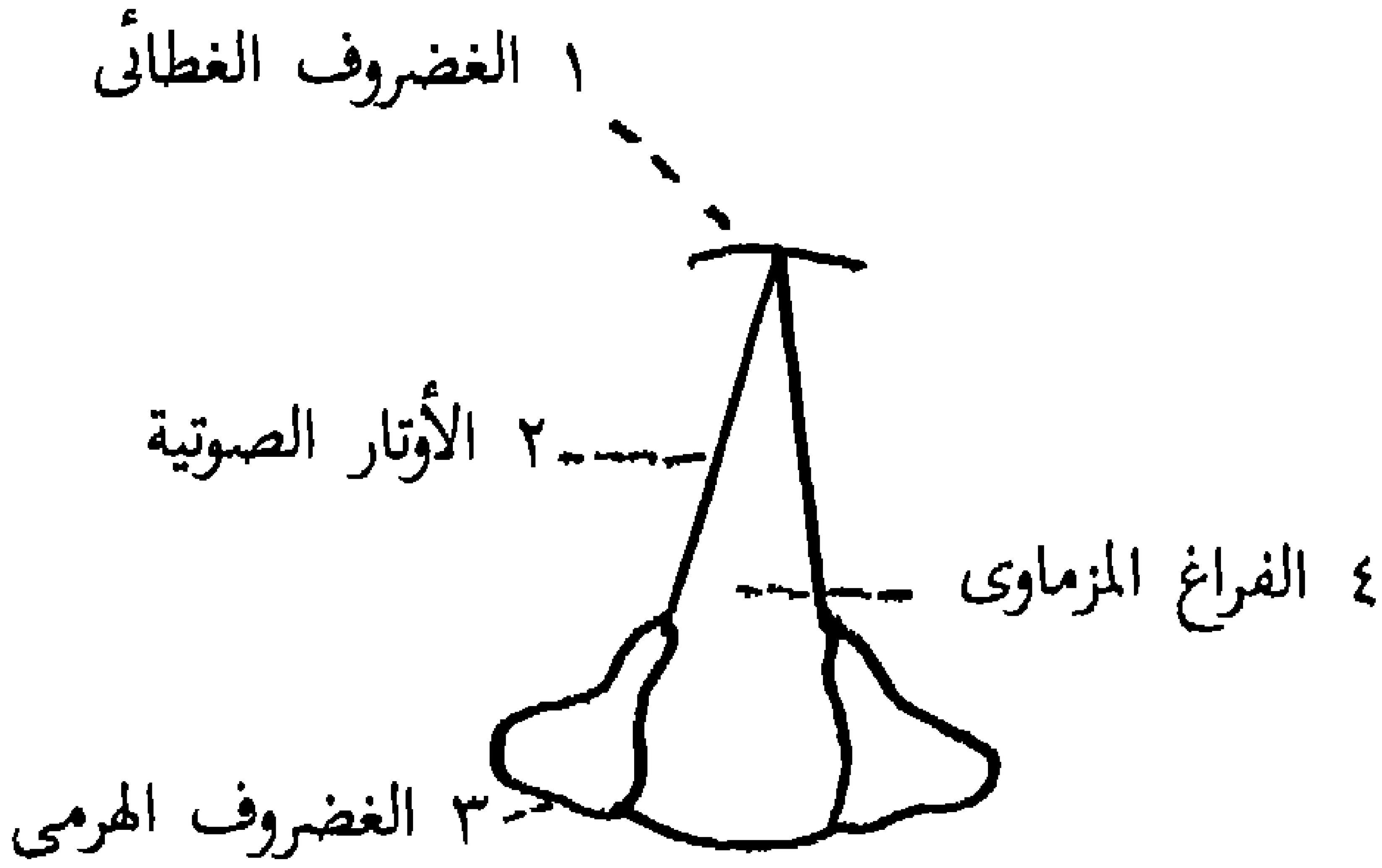
(١) فى اللهجات العربية ص ٥٠ .

ولعل من الصواب أن نقول : إن القدر الذى اختاره أبو عمرو فى مواضع الإمالة يعد فى رأينا القدر الذى توافرت معه خاصة الفصاحة لدى قريش وتميم ، دون غلو أو انحراف .

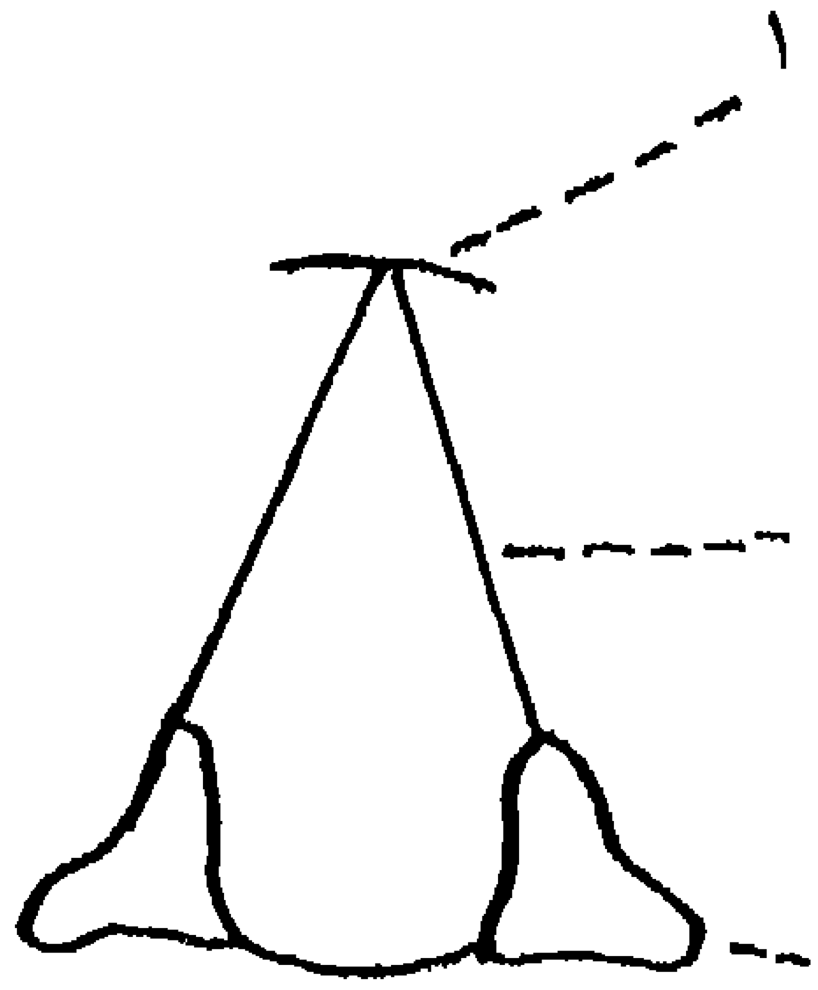
ثالثها : لأبى عمرو فوق الأصول اختيارات فى فرش الحروف ـــ كما أسلفنا وقد وجدنا أن بعض هذه الاختيارات متساوق مع اختياره فى الأصول ، فآثرنا عند المناقشة أن نجمع كلا الاختيارين فى صعيد واحد ، وأن نخصهما بعلاج موحد ، وذلك كاختياره القراءة بأصل عام هو (الإدغام) ، ثم اختياره القراءة بالإسكان فى نحو (يأمركم ، يشعركم ، ينصركم ـــ بارئكم) ، فالإسكان فى هذه الأمثلة المفردة هو عين الإسكان فى الإدغام ، ولذا جعلنا علاج مشكلة الإدغام من الوجهة النحوية مرتبطا بعلاج هذه الأمثلة ، من حيث كانت الدلالة فيها واحدة ، وخصصنا لذلك الباب الرابع من الكتاب .

ملاحظات على أحكام الهمز عند أبى عمرو

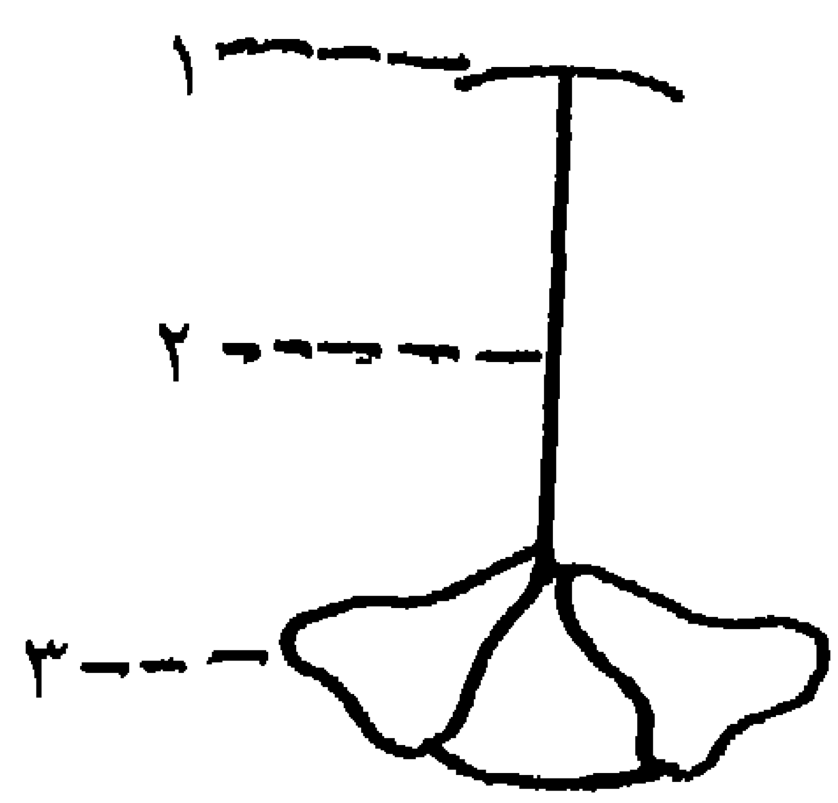
أولا : وصف الهمزة : لكى ندرك جيدا وصف هذا الصوت المسمى بالهمزة ينبغى أن نقدم فكرة عن طريقة إنتاجها فى صورتها الكاملة ، وذلك بعرض الأوضاع المختلفة للحنجرة . وقد قدم لنا كتاب general Phonetics رسوما أربعة توضيحية تساعد على تصور هذه الأوضاع ، نقدمها فيما يلى : —



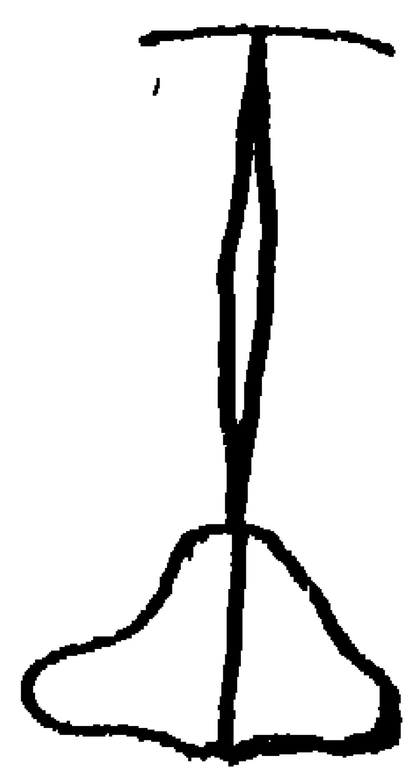
١ — زفير أو همس



٢ — شهيق



٣ — إسرار



٤ — جهـر

ويلاحظ على هذه الرسوم الأربعة مايلى : ــ

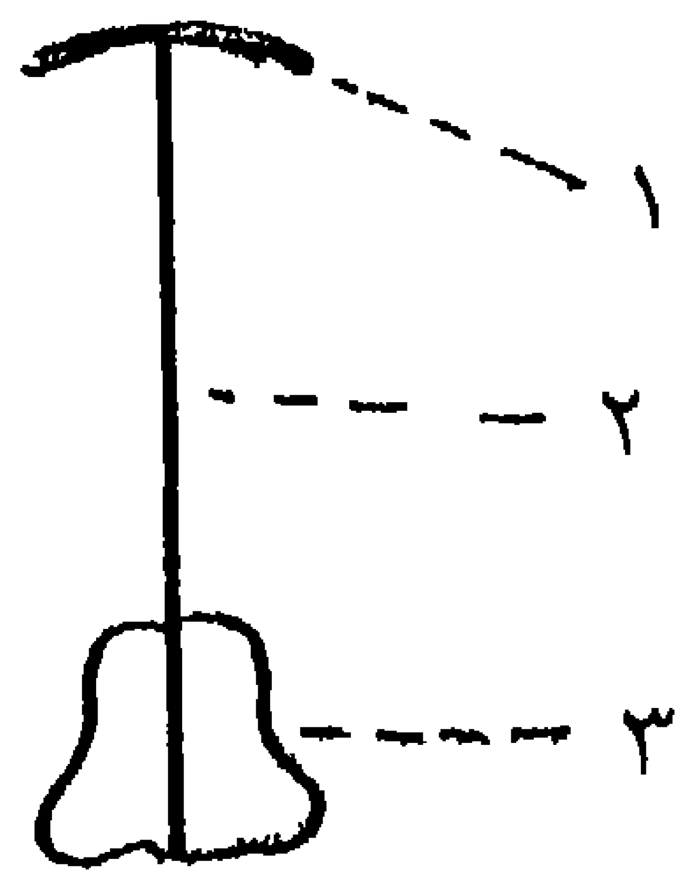
(١) فى الرسم رقم (١) يلاحظ أن الخط الممثل لكل من جانبى الفراغ المزمارى الغشائى والخط الممثل لأحد أضلاع الغضروف الهرمى على استقامة واحدة .

(٢) وفى الرسم رقم (٢) يصنع هذان الخطان زاوية منفرجة .

(٣) وفى الرسم رقم (٣) ينطبق الخطان الغشائيان تماما ، ويصنع الخطان الغضروفيان زاوية حادة .

(٤) وفى الرسم رقم (٤) ينطبق الخطان الغضروفيان تماما ، ويكون الخطان الغشائيان منطبقين بحيث يسمحان للهواء بالخروج من بينهما محدثا ذبذبة .

(٥) هذه الأوضاع الأربعة لايتوفر مع أى منها النطق بالهمزة ، لأن شرط النطق بها أن ينطبق الخطان الغشائيان والغضروفيان انطباقا كاملا وشديدا بحيث لا يسمح للهواء بالمرور مطلقا . ويمكن أن نتخيل رسم الحنجرة فى هذا الوضع على الصورة التالية .



٥ – الهمزة

ويجب أن نقرر هنا أن أى تغيير فى وضع الحنجرة خلاف هذا الوضع لا ينتج

(١) ص ٢٢ general phonetics ــ طبعة ميدسون ١٩٦٠ . وعلم اللغة ــ للدكتور السعران ص ١٤٦ .

الهمزة ، وإنما يؤدى إلى أصوات أخرى غيرها قطعا ، مما يدخل تحت شكل من الأشكال السابقة .

والهمزة صوت انفجارى ــ غير مجهور ــ وقد اختلفت تعبيرات المحدثين فى صفته : فذهب Daniel Jones إلى أنه صوت لا هو بالمجهور ولا بالتنفسى [١] It is neither breathed nor voiced وذهب R.M.Heffner إلى أنه صوت مهموس دائما[٢] This sound is alwoys a voicless

والواقع أنه لاتعارض بين كلا الرأيين ، فكلاهما قد نفى عن الهمزة صفة الجهر ، ولكن كلا منهما أصدر حكمه بناء على نظرة إلى الحنجرة تختلف عن نظرة الآخر ، فجونز قد اعتبر أن للحنجرة ثلاثة أوضاع : الاحتباس (وذلك فى الهمزة وحدها) ، والانفتاح دون ذبذبة (وذلك فى المهموسات) والانفتاح مع الذبذبة (وذلك فى المجهورات) ، وبذلك تكون الهمزة صوتا لاهو بالمجهور ولا بالرخو (التنفسى) .

أما هفنر Heffner فقد اعتبر أن للحنجرة وظيفتين هما : ذبذبة الأوتار الصوتية ، وهى صفة الجهر ، وعدم ذبذبتها وهى صفة الهمس ، ويدخل فى حالة عدم الذبذبة احتباس فى الحنجرة (وذلك فى الهمزة) ، أو انطلاق فيها (وذلك فى بقية المهموسات) ، على أن من المسلم به لدى كل منهما أن الهمزة عبارة عن احتباس فى الحنجرة . glottal stop .

ومن الأوصاف التى خص بها القدماء الهمزة أنها صوت سلس فى النطق ، سهل فى الذوق ، دون مبالغة فى تحقيقه ، وهى صوت مرقق فى جميع المواضع[٣] .

---

(١) An outline of english phonetics ص ١٣٨ فقرة ٥٥٣ الطبعة السابعة .

(٢) general phonetics ص ١٢٥ .

(٣) النشر جـ ١ ص ٢١٦ ، وقد حذر ابن الجزرى هنا مما يفعله بعض الناس ينطق بها كالمتهوع ، وبخاصة حين تلقى مجانسها أو مقاربها فى مثل : اهدنا ــ أعوذ ــ أعطى ــ أحطت ــ أحق .

ثانيا : أحوال الهمزة : بناء على ماسبق نستطيع أن نقرر أنه ليس للهمزة سوى حالة واحدة هى حالة أدائها أداء كاملا تنتج فيه عن الوضع رقم (٥) ، وما سوى ذلك أصوات أخرى لا علاقة لها بالهمزة إلا من حيث وقوعها موقعها بعد سقوطها ، سواء كان ذلك حركة طويلة ، أو صوت لين مركب ، أو حركة قصيرة ، أو هاء ، أو غير ذلك مما يحل محلها .

وليس من الصواب : أن يقال : هذه همزة مسهلة ، أو هذه بين بين ، أو هذه همزة مقلوبة هاء ، إذ لا وجود فى الواقع للهمزة فى هذه الحالات ، حيث إن وضع الحنجرة قد تغير إلى وضع آخر غير وضع الهمزة .

وهنا نخلص إلى دراسة أحكام الهمز لدى أبى عمرو ، لعلنا نستطيع أن نستخرج من مجموع هذه الأحكام قاعدته الصوتية التى جرى عليها فى معاملته للهمزة :

ويمكن حصر هذه الأحكام فى نطاق ما يأتى : ـــ

الحالة الأولى : وهى حالة الهمزة المحققة ـــ وذلك حين تتحرك بعد ساكن مثل : الأرض ـــ خلوا إلى ... ، ويلاحظ أن هذه الهمزة إذا سقطت حلت محلها الحركة القصيرة بعدها على الوجه التالى : ص ح ص + ص ح ← ص ح + ص ح [١].

ومعنى ذلك أن الهمزة قد سقطت وسقط معها موقعها ، ولذلك لم يجز أبو عمرو التصرف فيها ، بل أبقى عليها محققة . وهذا التقسيم المقطعى منطبق على : الْأرض ـــ خَلَوْا إلي . حين نأخذ من الأولى (أَلْ) ، ومن الثانية (لَوْإ) ،بيد أن فى التمثيل لهذا النوع بقوله تعالى : « يَابَنِى آدم » نظرا ، لأن الهمزة هنا تلت حركة طويلة لا ساكنا ، فهى متحركة بعد حركة ، لابعد ساكن ، ويترتب على إسقاطها اجتماع حركتين طويلتين ، وهو أمر ثقيل فى النطق ، فكان الهمز أخف منه .

وأما نحو « عادًا الأولى » فيمكن أن ينضوى تحت حالة أخرى ـــ الحالة الثانية ـــ لأن الهمزة سيحل محلها عند الإسقاط حركة طويلة ، وبذلك تظل ملحوظة الموقع عند الإبدال ، وهذا هو الذى حدث عند الإدغام فى قراءة « عَادَ لُّولَى » .

(١) ص رمز للصامت ، و ح = رمز للحركة .

الحالة الثانية : تذهب فيها الهمزة ويتخلف عنها طول فى الحركة السابقة عليها ، وذلك فى حالة الهمز الساكن المفرد ، وأمثلة هذه الحالة مطردة : يؤمنون ــ جئت ــ مأمون .. الخ حيث يتحول التقسيم المقطعى :

(يُؤْمِ) : ص ح ص + ص ح ← ص ح ح + ص ح

(جِئْتِ) : ص ح ص + ص ح ← ص ح ح + ص ح

(مأْمُو) : ص ح ص + ص ح ح ← ص ح ح + ص ح ح

ويلاحظ أن هذا لايحدث فى حالة ما إذا كان السكون علامة للجزم أو البناء ، والحكمة فى ذلك أن إسقاط الهمزة سوف يترتب عليه وجود حركة طويلة واجبة الحذف للجزم ، فيحدث اختلال فى الموقع ، وهو ما يتفاداه أبو عمرو فى قراءته بتحقيق الهمزة فى هذه المواضع ، مثل : تَسُؤْهُم ــ يَشَأْ ، وأَنْبِئْهُمْ ، وأرجِئْه .

وهكذا نجد أن أبا عمرو يهدف فى كلتا الحالين السابقتين إلى الحفاظ على موقع الهمزة ، سواء بالإبقاء عليها ، أم بإحلال الحركة الطويلة محلها . ومعلوم أننا نتحدث حتى الآن عن معاملته للهمز المفرد . ويأتى بعد ذلك دور الحديث عن الهمزتين فى كلمة ، وفى كلمتين ، ولذلك ثلاث حالات :

الأولى : حين تتفق الهمزتان فى الحركة التالية لهما ، فيسقط أبو عمرو فى قراءته إحداهما . ففى مثل : (تلقاءَ أُصحاب النار) يحدث الإسقاط فى المقاطع:ــ

«قَاءَ أُصْ : ص ح ح / ص ح / ص ح ص ← ص ح ح / ص ح ص

والخلاف قائم حول أى الهمزتين قد حذف ، على أن الصور التى عرضناها فيما سبق تدفعنا إلى القول بأن المحذوف هو الهمزة الأولى ، من حيث وقعت بين حركتين ، فهى أكثر ميلا إلى التلاشى من الهمزة الثانية التى وقعت أول الكلمة ، فهى أكثر ثباتا فى موقعها .

وسيظهر من حديثنا عن النظام المقطعى أن الصوت يكون أكثر تعرضا للحذف والتأثر حين يكون نهاية مقطع ، وهو أكثر ثباتا فى موقعه حين يكون بداية مقطع . ويلاحظ أن هذا الحكم مقتصر على ماإذا كانت الهمزتان فى كلمتين .

الثانية : حين يكون الانتقال بين الهمزتين من ضم إلى فتح مثل : (لو نشاءُ أَصبناهم)، أو من كسر إلى فتح مثل « وِعَاءِ أَخيه » ، وقراءة أبى عمرو هنا تسقط الهمزة ، ليحل محلها صوت لين ، ناتج عن ازدواج الحركة على الصورة التالية :

شَاءُ أَ　　　　شَاءُوَ

ص ح ح / ص ح / ص ح ⟵ ص ح ح / ص ح — ح

الثالثة : وتتصل ببعض مواقع الهمزتين فى كلمة ، وفى كلمتين :

ا ـــ **فى كلمة** : ويكون الانتقال بين الهمزتين من فتح إلى فتح ، نحو : أأنذرتهم ، أو من فتح إلى كسر نحو : أَئِفكاً ، أو من فتح إلى ضم نحو : أأُنزل ، ويكتفى أبو عمرو هنا بحذف الهمزة الثانية لتحل محلها حركتها ، فينطق فى الأولى فتحتين ، وفى الثانية فتحة وكسرة ، عبر عنها القدماء بالياء الْمُخْتَلَسَة ، وفى الثالثة فتحة وضمة عبروا عنها بالواو المختلسة ، وقد سبق أن فسرنا هذه الظاهرة فى حالة النطق بالمثال : (أأنْ) محققا ، ومختلسا . ولا مراء فى أن ازدواج الحركة فى الحالتين الأخريين ينتج عنه صوت لين مركب .

ب ـــ **فى كلمتين** : ويكون الانتقال بين الهمزتين من فتح إلى ضم نحو : « جاءَ أمَّة » ، أو من فتح إلى كسر نحو : « شُهَدَاءَ إِذْ » ، أو من ضم إلى كسر ـــ دون العكس ـــ نحو « نشاءُ إِنَّك » ، وتجرى قراءة أبو عمرو على إسقاط الهمزة الثانية ، وإبقاء حركتها ، لِتُنْطَقَ على الصورة السابقة : فتحة فضمة ، أو فتحة فكسرة ، فى الحالتين الأوليين . ولا شك أن الانتقال من الفتح إلى الضم ينتج الواو ، والانتقال من الفتح إلى الكسر ينتج الياء ، ولكن القارىء غير حريص على النطق بياء أو بواو ، ولذا وصف نطقه بالاختلاس .

وأما فى الحالة الأخيرة ، حين يكون الانتقال من ضم إلى كسر ، فقد وجدناهم يختلفون فى النطق بياء أو بواو ، ونحن ـــ بعدما سمعنا القراء وحاولنا مجاراتهم

فى نطقهم نجزم بأن الناتج من ازدواج الحركة واو ـــ لا ياء ، وإن كان القارىء كما أسلفنا غير حريص على ذلك ، وإنما هو ينطق بكسرة فى إثر ضمة على ماسبق ، محاولا تصوير مايسمى بالاختلاس .

ملاحظة :

قال ابن جنى فى تفسير عبارة « بَيْنَ بَيْنَ » : (وأما الهمزة المخففة فهى التى تسمى « همزة بين بين » ومعنى قول سيبويه ـــ بين بين ـــ أى : هى بين الهمزة وبين الحرف الذى منه حركتها ، إن كانت مفتوحة فهى بين الهمزة والألف ، وإن كانت مكسورة فهى بين الهمزة والياء ، وإن كانت مضمومة فهى بين الهمزة والواو ، إلا أنها ليس لها تمكن الهمزة المحققة ، وهى مع ماذكرنا من أمرها ، فى ضعفها وقلة تَمَكُّنُهَا بزنة المحققة (١) .

وقد ساق ابن جنى دليلا على أن الهمزة موجودة رغم ضعفها قوله : « ويدلك على أنها وإن كانت قد قربت من الساكن فإنها فى الحقيقة متحركة أنك تعتدها فى وزن العروض حرفا متحركا ، وذلك نحو قول كثير عزة :

أً انْ زُمَّ أُجْمَـالٌ وفـــارق جيرةٌ   وصاح غُرَابُ البينِ أنت حزينُ ؟

ألا ترى أن وزن قولك «أً اَنْ زُمْ : فَعُولُنْ ، فالهمزة اذن مقابِلةٌ لعين فعولن وهى متحركة كما ترى (٢) .

فإذا وضعنا هذا الكلام فى ضوء مآأسلفنا من الحديث أمكن إدراك موقفنا منه . وخلاصة البحث : أن أبا عمرو قد حاول فى معاملته للهمزة المحافظة على النظام المقطعى الذى يتضمن الهمزة ، فهو إما أن يثبتها محققة ، وإما أن يعوض عنها حركة طويلة أو قصيرة فى إثر أخرى ، أو صوت لين ، والحالة الوحِدَة التى اختار فيها

---

(١) سر صناعة الاعراب جـ ١ ص ٥٣ ـــ ٥٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٤ .

الإسقاط دون تعويض ، لايكاد يحس المستمع بأثر ذلك الإسقاط لوجود نظيرها ونظير حركتها . فإذا تأملنا هذا الموقف من أبى عمرو فى ضوء ما جرى عليه لسان أهل الحجاز من عدم الهمز إلا عند الاضطرار ، وماجرى عليه لسان تميم من التحقيق المطلق للهمز ، وجدناه يتخذ موقفا وسطا بين الطرفين ، وهو موقف الاعتدال الذى اتصف به فى كل اختياره ، على ماسيكشف عنه البحث إن شاء الله .

* * *

ملاحظات على أحكام أبى عمرو فى الإمالة :

أولا — يتضح مما تقدم أن هناك تلازما بين الإمالة لدى أبى عمرو وبين صوت الراء فى غالب اختياره . فإذا أطلق حمزة والكسائى وخلف إمالتهم فى كل ماكان من الأسماء والأفعال من ذوات الياء نحو « موسى — عيسى — يحيى — الموتى — طوبى — إحدى — كسالى — أسارى — يتامى — فرادى — نصارى — أيامى — حوايا — ذكرى — بشرى — سيما — ضيزى — الهدى — الحمى — الضحى — الزنى — أزكى — أبى — سعى — زكى — فسوى ..الخ » ... فإن أبا عمرو لا يُميلُ من هذه الطوائف جميعا إلا ماكان فيه راء ، فهو يميل من الأمثلة السابقة : أسارى — نصارى — بشرى — ذكرى — ويمكن تلخيص أحكامه فى الإمالة على الوجه التالى : —

(١) تمال الفتحة الطويلة إذا كان بعدها راء مكسورة كسرةَ إعراب فى مثل : « القهار — الأبرار — ديارهم » .

(٢) وتمال أيضا فى نهاية الكلمة إذا سبقتها راء ، وفصل بينهما صوت كالهمزة فى مثل : « رأى » . ولم نجد أبا عمرو يخرج عن هذا التلازم بين الراء والإمالة إلا فى بضعة أمثلة قليلة منها :

١ — ماكان فيه راء ولكن فصل بين الصوتين فاصل غير الهمزة ، وذلك فى إمالة « الكافرين » جمعا منصوبا أو مجرورا . وقد قوى الإمالة عنده فى ذلك — مع وجود فاصل الفاء — كون الراء واقعة بين كسرة الفاء القصيرة ، وكسرة الراء الطويلة ، فكانت الإمالة أدعى إلى إظهار الانسجام فى أصوات اللين (الحركات) التى تحتويها الكلمة .

٢ — ومنها اختياره إمالة كلمة « الناس » إذا كانت مجرورة لاغير . وحجته فى ذلك ماذكره ابن الجزرى قال : « قد ذكر عبد الله بن داود الحربى عن أبى عمرو أن

---

(١) التيسير ص ٤٦ . والنشر جـ ٢ ص ٣٥ ومابعدها .

الإمالة فى الناس « فى موضع الخفض لغة أهل الحجاز [١] » فإمالته هنا يغلب عليها طابع التقليد لنطق أهل الحجاز لاغير . مع ضرورة أن تكون الكلمة فى موضع الخفض .

٣ ــ فأما اختياره إمالة « أعمى » الأولى فى قوله تعالى « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ، (الإسراء / ٧٢) دون غيرها من ذوات الياء فأغلب الظن أن ذلك كان للفرق بين اللفظين ، حيث كانت الأولى صفة والثانية صيغة تفضيل ، وعلى أية حال فهى شاذة عن أصله الذى أشرنا إليه ، ولذلك لم يملها فى أى موضع آخر من القرآن .

فإذا صرفنا النظر عن هذا الذى خرج عن أصل أبى عمرو فى الإمالة ــ وجدنا أن هذا الأصل قد اطرد لديه اطرادا قياسيا فى المواضع التى ذكرنا .

ثانيا ــ لهذا التلازم بين الراء والإمالة لدى أبى عمرو ما يسوغه من الناحية الصوتية . ذلك أن الراء صوت متوسط [٢] يشترك فى هذه الصفة مع الياء . ويذكر سيبويه قربا آخر بين الصوتين ، ويستدل على هذا القرب « بأن الألثغ يجعلها ياء » [٣] . فهذا الاشتراك فى الصفة يجعل من السهل على الناطق أن يؤدى الراء الممالة أكثر من غيرها من الراءات المفتوحة أو المضمومة ، لأنه حينئذ سوف يحاول أن يجعل فتحة الفم عند النطق بالراء ضيقة تكفى لأدائها مرققة . وضيق المخرج فى حالة الراء المرققة كافٍ تقريبا لأداء الكسرة الممالة ، دون غيرها من الحركات ، ومن هنا كان الانسجام الصوتى عند أداء الإمالة على شرط أبى عمرو فى أتم أشكاله ، يساعد عليه اشتراط وجود كسرة تالية للحركة الممالة فى أغلب الحالات . ومما يساعد على فهم طريقة أبى عمرو فى هذا الباب أنه لم يكن يرقق شيئا من الراءات المتحركات سوى المكسورة . فهذا الترقيق

(١) النشر جـ ٢ ص ٦٣ . والأشمونى جـ ٤ .
(٢) سر الصناعة جـ ١ ص ٦٩ .
(٣) الكتاب جـ ٢ ص ٢٦٨ .

مرحلة أولى فى سلم الإمالة ، يليه أن تمال الفتحة إلى الكسرة ليحدث انسجام بين الصامت وحركته .

ثالثا ــ ولدى أبى عمرو غير الإمالة الخالصة ، وهى التى يشار إليها فى جدول الرموز الدولية بالرمز (e) (١) إمالة أخرى لطيفة أو بين اللفظين ــ كما عبر القدماء ــ ، وهى بين الحركة الممالة (e) والفتحة المرققة .

وقد اختار أبو عمرو هذا النوع من الإمالة فى كلمات لم تقوفيها الأسباب الداعية إلى إمالتها طبقا لاختياره ، وذلك فيما كان من الأسماء المؤنثة بزنة فَعْل وفِعْل وفُعْل ، وليس فيه راء مثل : « المولى ــ السلوى ــ الرؤيا ــ الدنيا ــ سيماهم ــ إحدى ــ ويلحق بهذه الأسماء ، موسى وعيسى ويحيى »

رابعا ــ نحن نرجح أن أبا عمرو لم يمل غير ذوات الراء على مامضى عليه جمهور القراء المغاربة والمصريين ، ونرى أن الروايات بالنسبة لغير ذوات الراء روايات مفردة (٢) لاتقف أمام روايات الجمهور .

خامسا ــ تنسب الإمالة عموما إلى تميم ــ قوم أبى عمرو . كما ينسب الفتح إلى أهل الحجاز . وإن كان تفصيل المسألة يثبت أن بعض أهل الحجاز كانوا يميلون . ومن أدلة ذلك مامضى من قول أبى عمرو : « إن الإمالة فى (الناس) فى موضع الخفض لغة أهل الحجاز » .

بيد أننا نتساءل : إذا كان شيوع الإمالة كظاهرة عامة ثابتا لتميم (٣) ، فهل كان أبو عمرو فى إمالته متأثرا بنهج قومه ؟

لأبى عمرو موقف وسط بين الطرفين : فتح الحجاز وإمالة تميم ، شأنه فى قراءته كلها ، وقد وجدنا من قبل قراء كحمزة والكسائى وخلف ، أسرفوا فى القراءة بالإمالة ، فلو أن أبا عمرو نهج هذا النهج فى قراءته لقلنا : إنه متأثر بلهجة قومه ، أوْلَمَا كان ذلك غريبا ، ولكنه كما رأيناه قد اقتصر فى إمالته على طائفة معينة من الكلمات تندرج تحت أصل واحد ، مع بعض إضافات مختارة قليلة ، ذكرنا سبب اختياره لها .

---

(١) جدول الرموز الصوتية (ا) كتاب أصوات اللغة الطبعة الأولى .

(٢) النشر جـ ٢ ص ٥٣ .

(٣) فى اللهجات العربية ص ٥٠ .

ونضيف هنا : أن أبا عمرو فى اختياره الإمالة ربما يكون قد تأثر بأئمة القراءة المكيين ، الذين أخذ عنهم ، من أمثال مجاهد بن جبر المكى . وقد ورد فى رسالة « الإمالة فى القراءات واللهجات العربية » نص نقله عن كتاب « الموضح لمذاهب القراء واختلافهم » لأبى عمرو عثمان الدانى ، لحظنا فيه اضطرابا لم يتنبه اليه الناقل . والنص هو : (وروى سعيد بن عيسى النحوى قال : « سمعت أبا عمرو يقول : إذا كانت الياء بعد الراء كسرت الراء ، قال : وقال أبو عمرو « أدركت أصحاب ابن مجاهد وهم لايكسرون شيئا من القرآن إلا حروفا نحو قوله : وماأدراك . وافترى ، وترى ، وأدراكم . يكسرون الراءات » فلهذا اختص أبو عمرو بالإمالة الخالصة ليدل على الفرق بينها وبين غيرها . اقتداء بالعرب ، واتباعا لأصحاب ابن مجاهد) (١) .

ونحن نلاحظ بعض الاضطراب فى تأليف هذا النص : ذلك أنه إن كان يتحدث عن أبى عمرو بن العلاء وهو مقتضى سياق النص ـــ فليس من حق سعيد ابن عيسى أن يزعم أنه سمع من أبى عمرو هذه المقالة ، لأن سعيدا هذا من نحويى القرن الخامس ، (توفى سنة ٤٦٠) (٢) ، وهو أندلسى ، كما أنه ليس لأبى عمرو أن يقول : « أدركت أصحاب ابن مجاهد » لأن ابن مجاهد توفى سنة ٣٢٤ (٣) ، وإنما أدرك أبو عمرو مجاهد بن جبر المكى نفسه ، وقرأ عليه ـــ على ماسبق فى الباب الأول .

وإذا كان يتحدث عن أبى عمرو عثمان الدانى (المتوفى سنة ٤٤٤ هـ) فأغلب الظن أن ذلك صحيح لتناسب مابين تاريخى الرجلين ، وقد أدرك أبو عمرو الدانى فعلا أصحاب ابن مجاهد ، وروى كتاب السبعة لابن مجاهد سماعا عن أبى مسلم محمد ابن أحمد الكاتب بسماعه منه (٤) . غير أن سياق الحديث يحتم أن يكون الحديث عن أبى عمرو بن العلاء لأنه يتحدث هنالك عن الأئمة الأولين من القراء (٥) ، ومنهم

---

(١) الإمالة ص ١٨٧ نقلا عن الموضح ورقة ٣٥ .

(٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة للوزير جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى ـــ جـ ٣ ص ٤٧ .

(٣) طبقات القراء جـ ١ ص ١٤٢ .

(٤) طبقات القراء جـ ١ ص ٥٠٤ ، ٥٠٥ .

(٥) الإمالة ص ١٨٨ .

الكسائى (ص ١٨٧) . وأبو عمرو ص ١٨٧ ، وابن عامر ص ١٨٨ ، ويبدو أن النص المذكور يتحدث عن كلا الاثنين : ابن العلاء والدانى ، فالمتحدث هو الدانى ، والذى اختص بالإمالة الخالصة اقتداء بالعرب هو ابن العلاء . وينقح النص على هذا الأساس ، وإلا فليس من المفيد الاستشهاد بالنص فى موضعه من الرسالة المذكورة ، لما بينا من التناقض بين منطوقه وسياقه .

وأياما كان الأمر . فليس يبعد أن يكون أبو عمرو بن العلاء قد تأثر فى نهجه فى الإمالة بشيوخه المكيين ، وهم كما رأينا فى الباب الأول أبرز شيوخه ، وأكثرهم قربا من قراءة الفصحاء .

★ ★ ★

ملاحظات حول أحكام أبى عمرو فى ياءات الإضافة :

أولا ـــ الأساس الصوتى الذى استخرجناه من تتبع حروف أبى عمرو فى هذا الباب ، ومن ملاحظتنا لمنهجه العام فى قراءته هو :

١ ـــ أن أبا عمرو ـــ بما عرف عنه من التوسط فيما يختار ـــ يبدو أنه كان يكره تتابع الحركات المتغايرة ، يعنى أنه يكره أن توالى فى النطق فتحة وكسرة وضمة على صورة ما ، فإذا اجتمعت تخلص من إحداها تخفيفا [١] ، ومثال ذلك : « إنىِّ أعيذها » مما وقع بعد الياء فيه همزة مضمومة ، فلو أنه فتح الياء لنطق على التوالى بكسرة ففتحة فضمة ، وهو أمر يكرهه ذوقه ، ولذا أسكن الياء ليكون الانتقال من كسرة إلى ضمة فحسب ، وهنا ينشأ مايسميه القراء بالمد المنفصل .

٢ ـــ فإذا لم تجتمع الحركات الثلاث ، وكان المجتمع منها حركتين أولاهما طويلة ، وهى متلوة بساكن أو بهمزة مفتوحة أو مكسورة ، ترتب على ذلك ضرورة المد ، قبل الهمزة ، فإذا وجد مندوحة عنه هرب إليها ، وهو هنا يختار فتح الياء ، أى : إنه يفضل النطق بصوت اللين المركب على أن ينطق بحركة طويلة ممدودة ، أو مقصورة ، ومن أمثلة ذلك : «إنِّىَ أُعلم ـــ يدىَ إليك ـــ عهدىَ الظَّالمين ـــ إنِّىَ اصْطفيتك » ، وهكذا لم نجده يقصر الحركة الطويلة على ماعليه قراءة حفص ، فى مثل المثالين الأخيرين ، بل استبدل بها صوت لين مركبا.

٣ ـــ فإذا لم تكن هنالك ضرورة مد أبقى الحركة الطويلة على حالها . وذلك فى مثل « وجهى ، بيتى ، لى » مالم تتوال حركات طويلة تضطره إلى اختصار إحداها ، وسيأتى لذلك مثال .

---

(١) هذه الكراهية واردة فى كلام سيبويه حين تحدث عن الإسكان فى « عُصْرَ » التى أصلها (عُصِرَ) قال : « وإنما حملهم على ذلك أنهم كرهوا الكسرة بعد الضمة » كما قال بكراهة العرب رفع السنتهم عن المفتوح الى المكسور أو المضموم فى كرُم وعَلم (الكتاب جـ ٢ ص ٢٥٨) .

ثانيا ـــ فإذا ما ناقشنا بعض ما استثنى من الكلمات لم نجده يخرج عن هذه القواعد : فقد فتح « محياى » من قوله تعالى : (ومحيايَ ومماتى لله رب العالمين ـــ الأنعام آ ١٦٢) لما أن النسيج الصوتى عند اتصال الكلمتين يترتب عليه فى حالة الإسكان النطق بالأصوات الآتية على التوالى : ياء + حركة طويلة + لين مركب + لين مركب + حركة قصيرة .

وهذا النطق يترتب عليه نتيجتان :

(١) ضرورة مد الحركة الطويلة لأن مابعدها ساكن ، طبقا لقاعدة المد العارض للسكون المعروفة فى أحكام التجويد .

(٢) ورود النطق على صورة ماأعل ، فالياء الساكنة والواو هنا على صورتهما فى كلمة « سيد » التى أصلها « سيود » ، والقاعدة تقضى بأن كل ياء وواو اجتمعتا على هذه الصورة تقلب الواو منهما ياء ، وتدغم الياء فى الياء كما أدغمتا فى : « ومن خزى يومئذ » ، ولاشك أن فتح الياء ، أعنى الفصل بين الياء والواو بحركة سوف يحل هذه المشكلة من حيث تجنب المد ، وتحاشى تلك الصورة الصعبة الشبيهة بما يعل ويبدل .

ومما استثنى أيضا أن أبا عمرو فتح ياء « مالى » من قوله تعالى : « ومالىٓ لا أعبد ـــ يس آ ٢١ » لأن الإسكان يترتب عليه وجود ثلاث حركات طويلة هى : « ما ـــ لى ـــ لا » ، وهذه الثالثة ممدودة مدا منفصلا ، لوجود همزة بعدها فى (أعبد) ، فكان مما يتفق وطريقة أبى عمرو أن يفتح الياء احتصارا لإحدى الحركات الطويلة .

ومن ذلك يظهر أن أبا عمرو لم يلجأ إلى حذف الحركة الطويلة مطلقا ، وإنما هو يبدلها أو يختصرها .

ثالثا ـــ هذه حالات ياءات الإضافة وقواعدها ، سواء فى ذلك ماثبت فى الرسم ، أو مااختار هو أن يثبته نطقا ، وإن كان محذوفا رسما .

وقد لوحظ أن رسم المصحف قد جاء بحذف الياءات من آخر الاسم المنادى دائما وذلك فى مثل : « ياقوم لقد أبلغتكم ــ ياأبت ــ يارب إنّ هؤلاء ــ رب إنى نذرت » ، وقد قرئت هذه الياء محذوفة أيضا باتفاق (١) . ولكن جاءت كلمة مثبتة الياء فى موضعين ، هى « ياعبادى الذين » (العنكبوت آ ٥٦ ، الزمر آ ٥٣) ، وكان قياس قاعدة أبى عمرو هنا أن يحرك الياء ، ولكنه قرأها بالإسكان فى الموضعين قولا واحدا . ونرجح أنه إنما فعل ذلك طردا لقاعدة حذف ياء المنادى فى جميع القرآن .

رابعا ــ أما بقية مااستثنى من القواعد السابقة فنرجح أنه كان على أساس الرواية والاتباع ، ومما يلاحظ فى هذا الباب أن أكثر الياءات المستثناة متصل بفعل أو بجمع تكسير ، ولم يخرج عن ذلك سوى مثالين هما : سبيلى أدعو (يوسف آ ١٠٨) ، ولعنتى إلى (ص آ ٧٨) ، فلعله أراد أن يميز فى قراءته بعض الياءات من بعض ، أو لعله كان أثرا تواتر إليه عن شيوخ كثيرين فاتبعه ، ولسنا نجد من تعليل قاطع فى هذه المسألة .

* * *

الفصل الثاني

الإدغام عند النحاة

الإدغام عند النحاة

حاول النحويون أن يُقَعِّدُوا ظاهرة الإدغام ، كما حاول القراء أن يعللوا لرواياتها ، وقد ذكرنا من قبل أن القراء لم يعرفوا من أنواع الإدغام التى وردت فى كلام اللغويين غير النوع الأول ، وهو إدغام الصوت الأول فى الثانى ، دون النوعين الآخرين ، حيث يتأثر الثانى بالأول ويدغم فيه ،أو يقلب الصوتان معا إلى صوت شبيه بهما ، قريب منهما، ثم يحدث إدغام فى المثلين كما فى (محّم) . وهما النوعان اللذان سبق أن رفضناهما كقياس .

وكان السبب فى أن القراء لم يعرفوا هذين النوعين من الإدغام أنهم ملزمون بما ورد فى القرآن من أمثلة دون زيادة ، فهم — كما قلنا — أتباع رواية . على حين أن كلا من اللغويين والنحاة يعالج الظاهرة فى حدود ماسمع من العرب ، وذلك ميدان رحب متنوع ، وهو يساعد على استقصاء جوانب الظاهرة اللغوية ، استقصاء يسمح بوضع قوانين دقيقة لها من الناحيتين الصوتية والنحوية .

ولذا اتجهنا فى دراسة الإدغام بعد أن سردنا ما لدى القراء من روايات وتفصيلات إلى دراسة موقف النحاة من هذه الظاهرة :

حاول النحاة أن يقعدوا ظاهرة الإدغام بصورها الثلاث ، وكان رائدهم على الطريق هو إمامهم أبو بشر عمرو ، الملقب بسيبويه ، وعلى الرغم من دقة صياغتة فيما كتب ، وصعوبة منحاه فى التعبير ، فقد كانت محاولته صريحة فى وضع القواعد . وفى نسبة الأمثلة إلى بيئاتها غالبا . فهو قد نسب النوع الثالث فى رواية اللغويين الى لغة تميم — كما سبق ، ثم جعله مقيسا فى إدغام العين فى الهاء فقال : (فلا تدغم العين مع الهاء كقولك : اقطع هلالا ، البيان أحسنُ ، فإن أدغمت لقرب المخرجين حولت الهاء حاء ، والعين حاء ، ثم أدغمت الحاء فى الحاء ، لأن الأقرب إلى الفم لايدغم فى الذى قبله ، فأبدلت مكانها أشبه الحرفين بها ، ثم أدغمته فيه ، كى لايكون الإدغام فى الذى فوقه ، ولكن يكون فى الذى هو من مخرجه ، ولم يدغموها فى العين لأنها خالفتها فى

الهمس والرخاوة ، فوقع الإدغام لقرب المخرجين ، ولم تقو عليها العين ، إذ خالفتها فيما ذكرت لك ، ولم تكن حروف الحلق أصلا للإدغام . ومع هذا فإن التقاء الحاءين أخف فى الكلام من التقاء العينين ، ألا ترى أن التقاءهما فى باب « وددت » أكثر ، والمهموس أخف من المجهور ، فكل هذا يباعد العين من الإدغام ، إذ كانت هى والهاء من حروف الحلق ، ومثل ذلك « اجْبَهْ عِنَبَه » فى الإدغام والبيان ، وإذا أردت الإدغام حولت العين حاء ، ثم أدغمت الهاء فيها فصارتا حاءين ، والبيان أحسن ، ومما قالت العرب تصديقا لهذا فى الإدغام قول بنى تميم : « مَحُّم » يريدون معهم ، « ومَحَّاؤلاء » يريدون : مع هؤلاء [(١)] ، وهذا الشرح من سيبويه غنى عن كل تعليق .

ويعرض سيبويه بعد ذلك للحديث عما يقابل رواية اللغويين فى النوع الثانى ، فيذكره أثناء حديثه عن إدغام الحاء فى العين فيقول : « ولم تدغم الحاء فى العين فى قولك : امدح عرفه ، لأن الحاء قد يفرون إليها إذا وقعت الهاء مع العين ، وهى مثلها فى الهمس والرخاوة ، مع قرب المخرجين ... ولم تقو العين على الحاء ، إذ كانت هذه قصتها ، وهما من المخرج الثانى من الحلق ، وليست حروف الحلق بأصل للإدغام ، ولكنك لو قلبت العين حاء فقلت فى : امدح عرفه ـــ امد حّرفه : جاز ، كما قلت : (اجْبَحّنبَه)فى : « اجبه عنبه » ، حيث أدغمت وحولت العين جاء ، ثم أدغمت الهاء فيها : [(٢)]

وظاهر أن هذا النوع من الإدغام ، وهو الذى يقلب فيه الصوتان إلى صوت متوسط فى مخرجه بينهما لايكون قياسيا إلا فى أصوات الحلق الثلاثة : ـــ (الحاء ـــ العين ـــ الهاء) ، على الصورة التى رسمها سيبويه وقد سبق أن قلنا : إن المحفوظ فى هذا الباب أمثلة نادرة لاينبغى القياس عليها ، إلى حد أن يضع سيبويه أمثلة يؤكد بها قاعدة أقامها على مثال فريد .

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٤١٣ .

(٢) المرجع السابق .

أما ماذكره اللغويون من حديث الإدغام الذى جرى فى « ست وستة » حين قالوا : إن الدال والسين قد التقتا عند مخرج التاء ثم أدغمتا ، فإن سيبويه يعتده شاذا غير مطرد ، ولعل ذلك لندرة وروده فى اللغة ، فليس من المنطق أن تؤسس قاعدة على مثال فريد ، وقد مضى لنا أيضا رأى فى هذا الضرب من الإدغام يتفق مع نظر سيبويه .

هذا ماقاله النحويون فيما يتصل بإدغام الثانى فى الأول ، وبإدغام الصوتين بعد قلبهما إلى مقاربهما .

أما النوع الأول : وهو مايدغم فيه الصوت الأول فى الثانى فذلك هو مدار بحثنا ، وهو أيضا مدار المعركة الكبيرة بين النحاة والقراء ، تلك المعركة التى كان أساسها أن النحاة إنما يعالجون قضايا اللغة بعامة ، فهم إذا تعرضوا لظاهرة من الظواهر تتبعوها فى اللهجات المختلفة ، وحاولوا أن يتخذوا موقفا إيجابيا مما يرد اليهم ، على حين يلتزم القراء ماروى عن رسول الله ﷺ من قراءات ، فما أجازه التزموه ، حتى ولو خالفه قياس النحويين ، ومالم يرد فى رواية لم يبالوا به ، مهما دافع النحاة عنه ، فالنحاة على هذا أرحب مجالا ، لأنهم لايفرقون فى دراسة الظاهرة اللغوية بين القرآن وغير القرآن ، ومن ثم وجدنا سيبويه فى علاجه للإدغام يضرب الأمثلة من النثر ومن الشعر ، أو يضع أمثلة ليطبق عليها قاعدته ، ويسوق أحيانا بعض الآيات القرآنية فى معرض الاستدلال والمناقشة .

وقد وجدنا حين استعرضنا تناول كل من النحويين والقراء لمسألة الإدغام أن ترتيب أحدهما لحروف المعجم يختلف عن ترتيب الآخر ، فسيبويه وهو رائد النحويين فى هذا الباب قد جرى فى ترتيب الحروف على نهج خاص ، يختلف قليلا عن ترتيب الخليل لها فى « كتاب العين » ، ولم يتبع فيه ترتيب (ء ـــ ب ـــ ت) . ومعلوم أن الخليل قد رتب الحروف بحسب ترتيب المخارج من الداخل الى الخارج على الوجه التالى : ع ح هـ / خ غ / ق ك / ج ش / ض / ص س ز / ط د ت / ظ ذ

ث / ر ل ن / ف / ب م / و ا ى / همز .[١]

واتبع القراء ترتيب : ء ب ت ث / ، فأما سيبويه فقد رتب الحروف ترتيبا مخرجيا هكذا : ء ا / هـ ع ح / غ خ / ق ك / ج ش ى / ض / ل ر ن / ط د ت / ص ز س / ظ ذ ث / ف / ب م و [٢] .

ويلاحظ بعض الاختلاف بين ترتيب الخليل وسيبويه ، وهو اختلاف يسهل إدراكه للنظرة الأولى .

ومن السهل أن نحكم لسيبويه بالدقة البالغة فى ترتيب الأصوات تبعا لمخارجها ، وأن نسجل على الخليل — إنْ صحت نسبة هذا الترتيب إليه — أنه لم يدرك ترتيب الأصوات من هذا الوجه ، فخلط بين الأصوات من ناحية ، حيث قرن مثلا الواو بالياء فى المخرج ، وجمع إليهما الألف ، وشتان مابين الثلاثة فى المخرج ، وخلط بين المجموعات من ناحية أخرى ، فوضع مجموعة الظاء والذال والثاء وضعا يوحى بأنها أعمق مخرجا من مجموعة الراء واللام والنون .

ومن أجل هذا وجدنا أن أجيال العلماء بعد سيبويه قد التزمت ترتيبه التزاما مطلقا . وقد لاحظ هذا الخلط ابن جنى فقال بعد أن ذكر ترتيب سيبويه : « فهذا هو ترتيب الحروف على مذاقها وتصورها ، وهو الصحيح . فأما ترتيبها فى كتاب العين ففيه خطل واضطراب ومخالفة لما قدمناه آنفا ، مما رتبه سيبويه وتلاه أصحابه عليه ، وهو الصواب الذى يشهد التأمل له بصحته [٣] .

ويظهر أن توفيق سيبويه فى هذا الترتيب قد نتج عن تقسيم المجموعات الإدغامية ، فكل مجموعة متجانسة أو متقاربة فى المخرج تتبادل فيما بينها التأثير والتأثر ، وهو فى هذا الترتيب متساوق مع منطق الموضوع الذى يعالجه ، ولسوف يزداد تقديرنا لوجهة نظره حين نتعرض لمقاييسه التى وضعها للإدغام .

---

(١) معجم العين — مخطوطة مصورة بمكتبة كلية دار العلوم — الورقة الأولى .

(٢) الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٤ .

(٣) سر صناعة الاعراب ص ٥٠ — ٥١ .

ومن المناسب أن نذكر هنا أن ماكتبه سيبويه خاصا بالإدغام ظل هو النهج الذى سلكه النحويون من بعده ، مشهورروهم ومغمورروهم ، ويكفى أن نتصفح كتاب شرح « المفصل » لابن يعيش ، لندرك أنه لم يكن سوى نسخة من كلام سيبويه مضافا إليه جملة من الهوامش والتعليقات ، ويتضح من دراسة الكتابين أن أقسام الأصوات بالنسبة للإدغام عند النحاة هى : —

(١) أصوات لا تدغم ولايدغم فيها ، وهى : الهمزة .

(٢) أصوات لاتدغم ويدغم فيها وهى : الحاء — الشين — الياء — الواو — الضاد — الفاء — الميم .

(٣) أصوات تدغم ولا يدغم فيها ، وهى : الهاء — العين .

(٤) أصوات تدغم ويدغم فيها ، وهى : الخاء — الغين — الكاف — القاف الجيم — اللام — النون — الراء — الطاء — الدال — التاء — الظاء — الذال — الثاء — الصاد — الزاى — السين — الباء .

* * *

مقارنة بين القراء .. والنحاة

وبمقارنة هذه الأقسام بما سبق أن أحصيناه لدى القراء يلفت نظرنا مايأتى : ـــ

أولا : أن بعض الأصوات التى لاتدغم ولاتدغم فيها لدى القراء قد انتقل عند النحاة إلى أقسام أخرى ، فالهاء عندهم من القسم الثالث ، والعين والحاء من القسم الرابع .

فاذا تأملنا موقف النحاة من هذه الأصوات الثلاثة وجدنا أن لديهم مايسند وجهة نظرهم من الناحية الصوتية ، فهم قد أجازوا إدغام الهاء فى الحاء رجعيا وتقدميا ، ولم يجيزوا إدغام الحاء فى الهاء رجعيا ، وأغلب الظن أنهم أحسوا بما تتصف به الهاء من ضعف صوتى ، ووجدوا أن الحاء أكثر منها قوة ووضوحا فى السمع لما فيها من الاحتكاك ، فحكموا بجواز إدغام الهاء فى الحاء ، أى : إدغام الأضعف فى الأقوى ، وهذا حكم سليم أقاموه ولاشك على أساس ماسمعوا من مشافهة الأعراب ، بيد أننا نرى أن الإدغام الرجعى للهاء فى الحاء فى مثل « أجبه حاتما » أرجح من الإدغام التقدمى فى مثل : اذبح هذه ، لأن الإدغام القياسى إسراع بالحركة النطقية فى موضع أخرى بعدها ، والإسراع بالحركة النطقية لايتم فى حالة الإدغام التقدمى ، وإنما الذى يحدث هو أن الناطق يؤكد هذه الحركة بتضعيفها ، وذلك أمر أشبه بالإبطاء منه بالإسراع .

أما إجازة النحاة إدغام الغين والخاء ، كلاهما فى الآخر ، فأمر تجيزه قوانين المماثلة ، فى ذوات المخارج المختلفة ، فضلا عن أن هذين الصوتين من مخرج واحد ، وكل ماحدث فى مثل : « ادمغ خلفا واسلخ غنمك »، أن الصوت السابق قد انتقلت اليه من تاليه صفة الجهر أو الهمس ، وهو مايحدث كثيرا بين الأصوات المختلفة بالجهر والهمس . حين تتجاور تجاورا مباشرا ، وسيأتى تحليل ذلك فى الفصل التحليلى لأمثلة الإدغام .

ثانيا : أن المجموعة الثانية عند القراء لاتكاد تتفق مع مجموعة النحاة المماثلة إلا فى الواو ــ الياء ــ الميم ــ وأما بقية الأصوات فمختلفة عند إحداهما عنها عند الأخرى . والنحاة فى هذه المجموعة متجاوبون أيضا مع القواعد الصوتية ، فهم يحافظون دائما على الصوت ذى الميزة ألا تذهب ميزته بسبب الإدغام ، وقد وصفوا الشين بالتفشى ، والضاد بالاستطالة ، وهما صفتان لايمكن تعويضهما إذا مافقدتا بالإدغام ، ولذا منعوا إدغامهما . فإذا أضفنا إلى ذلك أن رواية إدغام الشين فى السين « جاءت فى مثال واحد هو : « ذى العرش سبيلا ــ الإسراء آ ٤٢ » ، كما روى إدغام « الضاد فى الشين » فى مثال واحد أيضا هو : « لبعض شأنهم ــ النور آ ٦٢ » دون سائر المواضع .. وأن هذين المثالين الفريدين مختلف فى إدغامهما – رجحنا موقف النحاة بشأن الصوتين ، وقلنا بعدم جواز إدغامهما مطلقا ، أخذا برواية الإظهار ، أما تعليل بعض النحاة لعدم جواز إدغام الفاء لما فيها من التأفيف ، فهو ــ فى رأينا ــ تعليل واه ، وهو على أية حال لم يرد فى كلام « سيبويه » ، وإنما هو فى الغالب من تصرف صاحب « شرح المفصل » ، والعلة ــ التى نراها لذلك هى : أن الفاء والباء متباعدتان صفة ، وإن تقاربتا مخرجا ، وقد يستساغ إدغام الشديد فى الرخو عند الاختلاف أو الاتفاق فى الجهر أو الهمس ، بحكم طبيعة التطور الصوتى للغة ،. أما إدغام الرخو فى الشديد مع الاختلاف فى الجهر والهمس فهو نادر الحدوث فى اللغة .

وأما موقف القراء من صوتى « الصاد والزاى » فنرى أنه لايناقض موقف النحاة ، إذ لم يجز القراء إدغامهما فى غيرهما ، كأن يلتقيا بالتاء فى مثل » حرصت ــ يوسف آ ١٠٣ » و « كنزتم ــ التوبة ٣٥ » [(١)] .

وهو أيضا موقف النحاة لامتيازهما بالصفير ، بيد أن إجازة النحاة لإدغام أصوات الصفير بعضها فى بعض مبنى على إمكان التقائها فى درج الكلام ، وتأثير بعضها فى بعض ، على حين لم يجد القراء أمثلة من هذا القبيل فى القرآن ، فلم يتكلموا فى هذا الجانب .

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢١٧ .

وقد أجاز القراء أن تدغم « الحاء » فى « العين » بناء على رواية مختلف فيها بإدغامهما فى قوله « زحزح عن النار ـــ آل عمران آ ١٨٥ » ، دون بقية الأمثلة التى التقى فيها الصوتان . وسيأتى أن نرجح جانب الإظهار ، فى الدراسة المقارنة لآراء النحاة والقراء .

ثالثا : كذلك لا نجد اتفاقا بينهما فى المجموعة الثالثة التى اقتصرت عند القراء على الحاء فى حين شملت عند النحاة : « الهاء والعين » ..

وقد ناقشنا قبل ذلك مسألة « الهاء » حيث أجاز النحاة إدغامها فى الحاء رجعيا وتقدميا ، كما ناقشنا رأى النحاة فى الحاء بهذا الصدد ، وروينا فى عرض أمثلة إدغام « الحاء » عند القراء إجماعهم على عدم جواز ماأجازه النحاة بشأنها ، إلا فيما يتعلق بإدغامها فى العين فى المثال المذكور ، وقد مضت هنالك مناقشته وترجيح الرأى فيه . وأما إدغام العين فقد ناقشنا مشكلته فى تعريف الإدغام ، فلا داعى لتكرارها هنا ، فإذا كنا قد رفضنا أن يدغم فى « العين » مجانسها وهو « الحاء » كما قال القراء ، ورفضنا أن تدغم « العين » فى مقاربها على الصورة المفردة التى رواها « سيبويه » ، فإن وضع العين فى رأينا يشبه تماما وضع « الهمزة » ، من حيث هى صوت لايدغم ولايدغم فيه .

ولايخفى مابين الصوتين من شبه قريب ، حتى لقد تبادلا الموقع فى مثل : إنك وعنك ، وأنت وعنت ، وهو ماأطلق عليه رواة اللهجات لقب « العنعنة » التميمية .

رابعا:ليس الاتفاق كاملا بينهما فيما يتعلق بأصوات الفم ، ونستطيع بمقارنة الإحصاء الذى نقدمه فى الصفحات التالية أن ندرك هذه الفروق ، وأن ندرك ماوراءها مما سنعرضه فيما بعد .

* * *

ويلاحظ أن سيبويه يورد بجانب بعض الأصوات أحكاما معينة ، يميل فيها أحيانا إلى تفضيل البيان ، وأخرى إلى تفضيل الإدغام ، وثالثة إلى المساواة بينهما . ومن ذلك :

(١) أنه قال : فى إدغام نحو(جعل لك . فعل لبيد) : الإدغام أحسن ، والبيان عربى جيد حجازى [١] .

(٢) وقال : (الهاء مع الحاء كقولك : اجبه حملا ، البيان أحسن ، والإدغام عربى حسن) [٢] .

(٣) وقال فى إدغام العين فى الهاء : (فإذا أردت الإدغام حولت العين حاء ، ثم أدغمت الهاء فيها فصارتا حاءين ، والبيان أحسن ، ومما قالت العرب تصديقا لهذا الإدغام قول بنى تميم « محّم » يريدون : معهم ، «ومحاؤلاء » يريدون : مع هؤلاء) [٣] .

(٤) وقال : (الغين مع الخاء البيان أحسن والإدغام حسن) [٤] .

(٥) وقال : (القاف مع الكاف ـــ البيان أحسن والإدغام حسن) [٥] .

(٦) وقال : (الكاف مع القاف ـــ البيان أحسن والإدغام حسن) [٦] .

(٧) وقال (الجيم مع الشين ـــ الإدغام والبيان حسنان) [٧] .

(٨) وقال : (اللام مع الراء ـــ الإدغام أحسن) [٨] .

(٩) وقال فى لام هل وبل مع الراء [٩] (وذلك قولك « هرّأيت » .. وإن لم تدغم فقلت : هل رأيت ، فهى لغة لأهل الحجاز ، وهى عربية جائزة) .

وقد تعمدنا أن ننقل هذه النصوص من سيبويه لندل على بعض أهداف كان يقصد إليها ؛ فقد كان كما هو مقرر يعلم أن الإدغام فى تميم ، وأن البيان أو الاظهار فى

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٤١٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٤١٣ .
(٤) المرجع السابق .
(٥) المرجع السابق ص ٤١٤ .
(٦) المرجع السابق .
(٧) المرجع السابق .
(٨) الكتاب جـ ٢ ص ٤١٤ .
(٩) المرجع السابق ص ٢١٦ .

قريش ، وقد جاءت أحكامه هذه على أساس تفضيل مايجيء على لسان أهل الحجاز غالبا ، سواء كان إدغاما أم بيانا ، ولم يستطع سيبويه أن يخفى ميله إلى قريش ، بل صرح به فى النص الأول ، حين وجد أن الإدغام أحسن ، فقال كمن يغرى قارئه بلهجة قريش : (والبيان عربى جيد حجازى) ، وهذا هو شأنه بالنسبة لجميع الأحكام التى اختار فيها البيان وفضله ، يستقيه دائما من لسان قريش ، على حين تكون الصورة المفضولة عنده من لسان تميم .

أما فى النص الذى يسوى فيه بين الأمرين (البيان حسن والإدغام حسن) فإن هذا يدل فى رأينا على أن مثل هذا النوع من الإدغام كان أكثر شيوعا على ألسنة العرب دون تمييز بين قبائلهم ، وهو أيضا ماتدل عليه الصورة التى يفضل فيها الإدغام على البيان ، وإن لم يفته أن يؤكد جانب البيان فى قوله : (فهى لغة لأهل الحجاز وهى عربية جائزة) ، هذا رغم اقتناعه بشيوع الإدغام فى تلك الصورة على لسان الحجازيين ، وبأن غالبيتهم يفضلون الإدغام على البيان فيها . .

وبذلك لم يعد لدينا أدنى شك فى أن الإدغام كان فى الأصل لتميم ، وأنه فشا على ألسنة العرب جميعا ، حتى كانوا يتحدثون به فى فصيح القول ، وهو مصداق قول أبى عمرو السابق ذكره (الإدغام كلام العرب الذى يجرى على ألسنتها ولا يحسنون غيره) .

وإليك جداول مقارنة الأصوات المدغمة بين النحاة والقراء .

(جداول مقارنة الأصوات المدغمة)

الصوت	عند النحاة		عند القراء	
	يدغم فى	ويدغم فيه	يدغم فى	ويدغم فيه
الهمزة	—	—	—	—
الهاء	الحاء	—	—	—
العين	الحاء	—	—	الحاء
الحاء	—	الهاء والعين	العين	—
الغين	الخاء	الخاء	—	—
الخاء	الغين	الغين	—	—
القاف	الكاف	الكاف	الكاف	الكاف
الكاف	القاف	القاف	القاف	القاف
الجيم	الشين — التاء	الطاء — الدال — التاء الظاء — الذال — الثاء	الشين — التاء	التاء — الدال — الذال
الشين	—	الجيم — اللام — الطاء الدال — التاء — الظاء الذال — الثاء	السين	التاء — الجيم — الضاد الدال — الثاء — السين
الياء	—	الواو — النون	—	النون
الواو	—	النون	—	النون
الضاد	—	الطاء — الدال — التاء الطاء ـ الذال — الثاء اللام	الشين	التاء — اللام — الدال الثاء
اللام	الصاد ـ الزاى — السين الطاء — الدال — التاء الظاء — الذال — الثاء الشين — الراء — النون	النون	الراء — التاء — الثاء الزاى — السين — الضاد الطاء — الظاء — النون الذال	الراء — النون

الصوت	عند النحاة: يدغم فى	عند النحاة: ويدغم فيه	عند القراء: يدغم فى	عند القراء: ويدغم فيه
الراء	اللام نادرا	اللام ـــ النون	اللام	اللام ـــ النون
النون	الياء ـــ الراء ـــ الميم ـــ اللام ـــ الواو		اللام ـــ الراء الواو الميم ـــ الياء	اللام
الطاء	الدال ـــ التاء ـــ الظاء الذال ـــ الثاء ـــ الصاد الزاى ـــ السين ـــ الضاد الشين ـــ الجيم	الدال ـــ التاء ـــ الظاء الذال ـــ الثاء ـــ اللام	التاء	التاء ـــ اللام
الدال	الطاء ـــ التاء ـــ الظاء الذال ـــ الثاء ـــ الصاد الزاى ـــ السين ـــ الضاد الشين ـــ الجيم	الطاء ـــ التاء ـــ الظاء الذال ـــ الثاء ـــ اللام	التاء ـــ الثاء ـــ الجيم الذال ـــ الزاى ـــ السين الشين ـــ الصاد ـــ الضاد الظاء	الذال
التاء	الدال ـــ الطاء ـــ الظاء الذال ـــ الثاء ـــ الصاد ـــ الزاى ـــ السين ـــ الجيم الشين ـــ الضاد	الدال ـــ الطاء ـــ الظاء الذال ـــ الثاء ـــ اللام	الطاء ـــ الظاء ـــ الذال الثاء ـــ الصاد ـــ الزاى السين ـــ الضاد ـــ الجيم ـــ الشين	الثاء ـــ الجيم ـــ الدال الذال ـــ اللام
الظاء	الطاء ـــ الدال ـــ التاء الذال ـــ الثاء ـــ السين الصاد ـــ الزاى ـــ الجيم الشين ـــ الضاد	الطاء ـــ الدال ـــ التاء الذال ـــ الثاء اللام	التاء	التاء ـــ اللام ـــ الدال
الذال	الطاء ـــ الدال ـــ التاء الظاء ـــ الثاء ـــ الصاد السين ـــ الزاى ـــ الجيم الشين ـــ الضاد	الطاء ـــ الدال ـــ التاء الظاء ـــ الثاء ـــ اللام	السين ـــ الصاد ـــ التاء الجيم ـــ الدال ـــ الزاى	الدال ـــ التاء ـــ الثاء

الصوت	عند النحاة: يدغم فى	عند النحاة: ويدغم فيه	عند القراء: يدغم فى	عند القراء: ويدغم فيه
الثاء	الطاء — الدال — التاء الظاء — الذال — الصاد — السين — الزاى — الجيم الشين — الضاد	الطاء — الدال — التاء الظاء — الدال — اللام	التاء — الذال — السين — الشين — الضاد	التاء — الدال — اللام
الصاد	الزاى — السين	الطاء — الدال — التاء الظاء — الذال — الثاء اللام — الزاى — السين	—	التاء — الدال — الذال
السين	الشين — الصاد — الزاى	الطاء — الدال — التاء الظاء — الذال — الثاء اللام — الصاد — الزاى	الزاى — الشين	التاء — الثاء — الدال الذال — الشين — اللام
الزاى	الصاد — السين	الطاء — الدال — التاء الظاء — الذال — الثاء اللام — السين — الصاد	—	التاء — الدال — السين الذال — اللام
الفاء	—	الباء	الباء	الباء
الباء	الفاء — الميم	الفاء	الميم — الفاء	الميم
الميم	الباء (اخفاء)	الباء — النون	الباء (اخفاء)	الباء — النون

ويلاحظ على هذا الجدول الإحصائى ما يأتى :

(١) بلغت حالات تأثر الأصوات بعضها ببعض فى الإدغام عند القراء والنحاة (١٠٦) ست حالات ومائة ، وبلغ عدد الأصوات التى تدغم فى مجانسها أو مقاربها لدى الفريقين ستة عشر صوتا هى : (القاف والكاف والجيم واللام والراء والنون والطاء والدال ، والتاء والظاء والذال والثاء والصاد والزاى والسين والباء) .

وانفرد القراء بإدغام أربعة أصوات هى : (الفاء والحاء والشين والضاد) .

واتفقوا على عدم إدغام ثلاثة أصوات هى (الهمزة والياء والواو) .

كما اتفقوا على أن (الميم) تخفى عند صوت واحد هو : (الباء) .

وبلغ عدد الأصوات التى يدغم فيها مجانسها ومقاربها سبعة وعشرين صوتا ، هى مجموع حروف الهجاء فيما عدا (الهمزة) .

(٢) سلكنا فى ترتيب المجموعات مسلك سيبويه ، فقد وجدناه أنسب ترتيب يتفق مع طبيعة الموضوع .

(٣) اقتصرنا فى الجدول على ذكر ما كان من باب الأصوات المتقاربة أو المتجانسة ، دون المتماثلة ؛ إذ التقاء المثلين ليست له أهمية صوتية ، وإن كانت له دلالة نحوية سيأتى تفسيرها .

(٤) يلاحظ أن مجموعة أصوات الحلق وهى : (الهمزة — الهاء العين — الحاء — الغين — الخاء) هى أقل المجموعات قابلية للإدغام عند الفريقين ، ويشترك معها فى هذه الصفة المجموعة الشفوية وهى : (الفاء — الباء — الميم) .

(٥) أكثر المجوعات إدغاما عند الفريقين هى مجموعة الأصوات الأسنانية واللثوية وهى : (الطاء — الدال — التاء — الظاء — الذال — الثاء — الصاد — الزاى — السين) .

(٦) تتوسط بين المجموعتين الأصوات الغارية والطبقية واللهوية وهى : (القاف — الكاف — الجيم — الشين — الياء) . ويلحق بها (اللام — الراء — النون — الواو — الياء) .

(٧) يلاحظ بين الفريقين قدر كبير من الاتفاق ، وبخاصة فى مجموعة الأصوات الأسنانية واللثوية مع فروق يسيرة ، وفى الأصوات الطبقية واللهوية . .

(٨) فأما ما اختلفت فيه وجهتا نظر الفريقين فمرجعه إما إلى اتساع مجال البحث أمام النحاة وانحصاره أمام القراء بالروايات المروية ، وإما أن يكون مرجعه إلى ماسن النحاة من قواعد ومقاييس .

ولن نستطيع أن نحيط بأطراف الموضوع ما لم نعرض الأساس الذى بنى عليه النحاة قواعدهم فى هذاب الباب عرضا مستفيضا ، ثم نناقش ما بينهم وبين القراء من خلافات .

★ ★ ★

الفصل الثالث

أساس قواعد النحاة
دراسة الأصوات

توطئة :

جرى أغلب النحاة ابتداء من سيبويه على ألا يعرضوا أحكامهم فى الإدغام إلا إذا قدموا لها بدراسة الأصوات ومخارجها وصفاتها ، ونحن نقرر هنا مطمئنين أن سيبويه قد وضع قواعد هذا البحث وأحكامه لا لفترة معينة من الزمن ، بل يكاد ذلك يكون نهائيا ، وكان تصرفه فيها تصرفا رائعا ، صادرا عن عبقرية سبقت الزمن ، فلم يكن ممن جاء بعده من العلماء والباحثين إلا أن اتبعوا نهجه ، واكتفوا بما قال ، فلم يزيدوا بعد سيبويه على ماقال حرفا ، بل أخذوا يرددون عباراته فى كتبهم ، ويصرحون بأنهم إنما يتبعون مذهبه ، سواء فى ذلك علماء النحو وعلماء القراءة .

ومن أجل هذا نرى أن نكتفى هنا بمناقشة سيبويه فى صفات الأصوات ، حتى يمكن الكشف عن الأسس التى أجاز بناء عليها إدغام حرف وإظهار آخر . أما آراء سيبويه فى وصف مخارج الأصوات وتقسيمها فسوف نفيد منه فى فصل قادم عن « مخارج الأصوات عند المحدثين » ، حرصا على عدم التكرار .

★ ★ ★

صفات الأصوات عند سيبويه

ذكر سيبويه صفات كثيرة للأصوات يمكن تصنيفها على الوجه الآتى : —

(١) صفات عامة هى : الجهر والهمس ، والشدة والرخاوة والتوسط .

(٢) صفات خاصة تتميز بها مجموعات صغيرة من الأصوات ، وهى : الإطباق ، واللين ، والمد ، والاستطالة والتفشى ، والصفير ، والغنة .

(٣) صفات خاصة تتميز بها أصوات مفردة ، وهى : الانحراف والتكرير .

وسنبدأ فى عرض مدلولات هذه الصفات فى كلام سيبويه ، ليمكننا فهم مقاييسه فى الإدغام .

الصفات العامة

الجهر والهمس :

وصف سيبويه الأصوات بالجهر والهمس ، فالصوت عنده إما مجهور أو مهموس ، ولكن ... كيف حدد سيبويه معنى كل من الجهر والهمس .. ؟ ..

لقد كان تعريفه للمجهور بأنه : (حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ، ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد عليه ، ويجرى الصوت) (١) .

وكان تعريفه للمهموس بأنه : (حرف أضعف الاعتماد فى موضعه حتى جرى النفَس معه) (٢) .

ولابد لنا لكى نفهم المقصود بهذا الكلام من أن نفسر أولا مايقصده سيبويه بكلمة (الموضع) فى كلا التعريفين ، هل المقصود بها مخرج الصوت ، أو شىء آخر ... ؟

لقد استخدم سيبويه كلمة (الموضع) هذه فى مكان آخر يحتم أن يكون

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٥ .

(٢) المرجع السابق .

معناها هو مايقصد بكلمة (مخرج) ، فقال عندما تحدث عن الحروف المطبقة والمنفتحة (فأما المطبقة فالصاد والضاد والطاء والظاء ، والمنفتحة كل ماسوى ذلك من الحروف ، لأنك لاتطبق لشيء منهن لسانك ، ترفعه إلى الحنك الأعلى ، وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك فى مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ماحاذى الحنك الأعلى من اللسان ، ترفعه إلى الحنك ، فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف ، وأما الدال والزاى ونحوهما فإنما ينحصر الصوت إذا وضعت لسانك فى مواضعهن ، فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان ، وقد بين ذلك بحصر الصوت) [١] .

فإذا تأملنا هذا النص وجدناه يستخدم كلمة (الموضع) بمعنى مكان التقاء أعضاء النطق التى يخرج منها الصوت ، ويتضح ذلك فى قوله (فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان) .

فإذا أخذنا بهذا التفسير لكلمة (الموضع) كان لنا أن نفسر (إشباع الاعتماد فى الموضع) بأنه (العملية العضلية المطلوبة فى إصدار الصوت) [٢] ، والتى تجرى فى العضوين عند التقائهما فى نقطة معينة ، ولكن هل يمكن أن يقال من الوجهة العلمية : إن اتصال طرفى المخرج فى حالة المجهور أشد توترا وأكثر تمكنا (واعتمادا) منه فى حالة المهموس .. ؟ ..

وبعبارة أخرى : ماالذى دفع سيبويه إلى أن يقول بإشباع الاعتماد وضعفه ، للتفرقة بين المجهور والمهموس من الأصوات .. ؟

وللإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نتناول بقية تعريفه للمجهور ، ففى عبارته بعد (إشباع الاعتماد) وصفان له هما أنه : (يمنع النفس أن يجرى معه) ، وأن (الصوت يجرى فيه) .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٦ .
(٢) الأصوات اللغوية ص ٩٢ .

وقبل أن نفسر المراد بهذين الوصفين لابد أن نعترف — مع إعجابنا البالغ — لسيبويه بالتوفيق حين جعل دور الرئتين ركنا فى تعريفه لكل من المجهور والمهموس ، إذ لم يعد هنالك أدنى شك فى أن الرئتين تقومان بدور أساسى فى إنتاج الأصوات ، حتى وجدنا البحوث الصوتية الحديثة تبدأ بدراسة تشريح الرئتين من الحجاب الحاجز ، لتفسير العمليات الصوتية بعامة ، والمقطعية بوجه خاص (١) .

وقد فسر أستاذنا (منع النفس) بأنه ناشىء عن (اقتراب الوترين الصوتيين أحدهما من الآخر ، حتى ليكادان يسدان طريق التنفس) (٢). ، فالمنع فى الحقيقة جزئى ، إذ يحول الجهر بين كمية الهواء المحتبسة فى الصدر بين أن تنطلق على طبيعتها كما فى حالة التنفس العادى ، فيتسرب الهواء بين الوترين الصوتيين ضاغطا عليهما ليحركهما ، فيجرى الصوت ، فإذا تم ، وانقضى الاعتماد جرى النفس على طبيعته .

ويبدو أن سيبويه كان يقصد بعبارة (ويجرى الصوت) شيئا زائدا فى حالة الجهر عن حالة الهمس ، إلا أنه لم يدرك أن منشأ هذه الزيادة فى الحنجرة ، فقد كان يجهل تشريح الأعضاء الصوتية ، فكان أن عبر عن فكرته هذا التعبير الغامض العام ، بيد أن سيبويه يحاول أن يلقى مزيدا من الضوء على فكرته حين تحدث فى مواضع أخرى عن الفرق بين المجهور والمهموس ، فجعل أساس هذه التفرقة أن صوت المجهور من الصدر والفم ، وصوت المهموس من الفم وحده ، (٣) . وهنا يبدو سيبويه وكأنه يتصور أن بالرئة خاصة عضوية لإنتاج الصوت المجهور ، وأن هذه الخاصة العضوية تنشط فى هذه الحالة نشاطا يتوقف معه النفس حتى ينقضى الاعتماد ويجرى الصوت ، فلعله قد استبعد أن تقوم الرئتان بأداء وظيفتين فى آن واحد ، وظيفة التنفس ، ووظيفة الجهر بالصوت ، فافترض أنهما إما أن تقوما بالتنفس وحده عند الهمس ، وإما أن تقوما بجهر

---

(١) general phonetics (الفصل الخاص بدارسة الرئتين وتشريحهما) .

(٢) المرجع السابق ص ٩٣ .

(٣) الكتاب ج ٢ ص ٢٨٤ .

الصوت ، وحينئذ تتوقف عملية التنفس حتى ينقضى الاعتماد ويجرى الصوت ، وتزداد فكرة الاعتماد وضوحا لدى سيبويه حين نجده يجعل له مركزين فى الصدر والفم ، فيقول : (وإنما فرق المجهور والمهموس أنك لا تصل إلى تبيين المجهور إلا أن تدخله الصوت الذى يخرج من الصدر ، فالمجهورة كلها هكذا يخرج صوتهن من الصدر ، ويجرى فى الحلق ... أما المهموسة فتخرج أصواتها من مخارجها ، وذلك مما يزجى الصوت ، ولم يعتمد عليه فيها كاعتمادهم فى المجهور فأخرج الصوت من الفم ضعيفا [١]) .

ومعنى ذلك أن سيبويه يقصد (بإشباع الاعتماد) أن للمجهور موضعين : موضعا فى الفم هو مخرج الحرف ، وموضعا فى الصدر هو مخرج الجهر ، ولذا كان المجهور مشبعا ، لقوة اعتماده بازدواجه ، فى حين كان المهموس ضعيفا لما أنه معتمد على موضع واحد هو مخرج الفم ، والنفس جار معه دون احتباس .

وقد فسر أستاذنا أيضا مدلول عبارة (صوت الصدر) التى استخدمها سيبويه بأنه : (الصدى الذى نحس به ولاشك فى الصدر ، كما نحس به حين نسد الأذنين بالأصابع ، أو حين نضع الكف على الجبهة ، فهو الرنين الذى نشعر به مع المجهورات وسببه تلك الذبذبات التى فى الحنجرة [٢]).

فقد أدرك سيبويه إذن صدى الصوت ، لا الصوت ذاته لعدم معرفته بمصدر الذبذبة الصوتية . كما أن تصوره لاحتباس النفس احتباسا كاملا مع المجهور ــ طبقا لتعبيره ــ تصور منطقى لا واقعى ، لأن الواقع يؤيد أن منع النفس جزئى لا كلى .

فإذا مارجعنا إلى أول حديثنا حين فسرنا كلمة (الموضع) بأنها مرادف (المخرج) كان لنا أن نسجل هنا أن سيبويه كان يعتبر أن للمجهور موضعين فى الصدر والفم ، أى مخرجين ، وأن للمهموس موضعا واحدا فى الفم وحده ، أى مخرجا واحداً .

---

(١) الأصوات اللغوية ص ٨٩ نقلا عن شرح السيرافى ــ مخطوط بدار الكتب .

(٢) المرجع السابق ص ٩٠ .

وبذلك يكون للمجهور فى رأى سيبويه صفات ثلاث :ـــ

(١) اشباع الاعتماد فى الصدر والفم .

(٢) منع النفس من الجريان منعا تاما ، وهو فى رأينا جزئى .

(٣) جريان الصوت ـــ وهو مايعنى لدى المحدثين نشاط الأوتار أو الشفاه الصوتية ، الذى يسمح فى نهايته للنفس بالانطلاق .

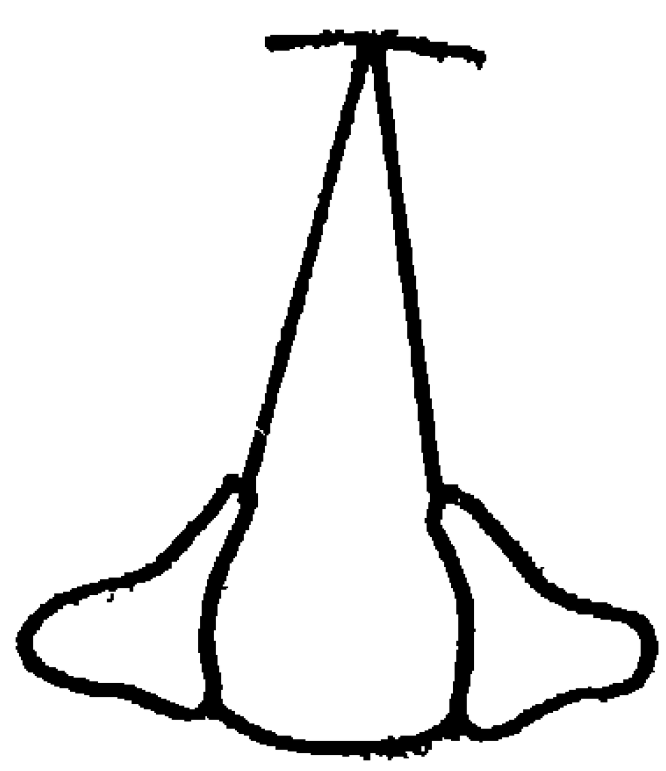
ويتميز المهموس لدى سيبويه بصفتين :

(١) ضعف الاعتماد ، لما أن له موضعا واحدا فى الفم .

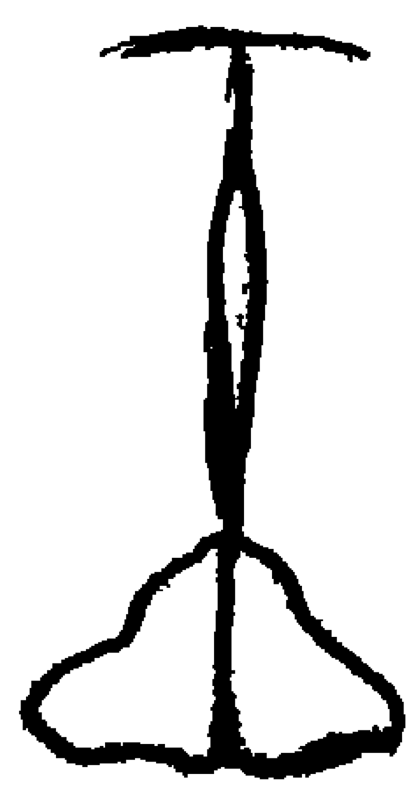
(٢) جريان النفس على طبيعته ، وهو قوله فى صفته (حتى جرى النفس معه) .

ومن المؤكد أن حركة مرور الهواء وانسيابه أثناء نطق الصوت المهموس تكاد تقترب فى سهولتها من حركة التنفس ، ولو أن المرء حاول أن يجعل هواء نفسه يمر فى حالة الجهر بنفس القدر الذى يكون عليه فى حالة الهمس لما استطاع ذلك ، وكل مايحدث هو أن الحجاب الحاجر والرئتين تضغطان قدرا معينا من الهواء ليمر بين الشفاه الصوتية المشدودة من أجل الجهر بالصوت .

وقد سبق أن نقلنا عن كتاب General Phonetics بعض الرسوم التوضيحية التى تحدد أشكال الحنجرة فى حالاتها المختلفة ، ولابأس أن نكرر هنا رسمين منها لشكل الحنجرة فى حالة الجهر ، وفى حالة الهمس :



حالة الزفير أو الهمس



حالة الجهر

ولاشك أن هذين الرسمين يعبران تماما عن دقة سيبويه فى تصوره لحالة النفَس فى كلتا الحالين ، كما أنهما يكشفان أيضا عن صحة الملاحظة التى أخذناها عليه ، والتى تقرر أن منع النفس فى حالة الجهر جزئى لا كلى . والحالة الوحِدَةُ التى يحتبس فيها النفس احتباسا كاملا هى حالة الهمزة ، وهو احتباس لاعلاقة له بالجهر ، بل يرجع إلى طبيعة الصوت الانفجارية ، كما سبق ذلك فى بابه .

ولكى يمكن التفرقة بين المجهور والمهموس رأى سيبويه أن يصف لنا تجربة تساعد على هذه التفرقة فقال : بعد وصفهما : (وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جرى النفس ، ولو أردت ذلك فى المجهورة لم تقدر عليه ، فإذا أردت إجراء الحروف فأنت ترفع صوتك إن شئت بحروف اللين والمد أو بما فيها منها ، وإن شئت أخفيت [١]).

وتفاصيل هذه التجربة متصلة بما سبق له فى تعريف المجهور والمهموس ، فهو يقول : إن المهموس يمكن ترديده خلال جرى النفس بعكس المجهور ، بمعنى أننا لو أطلقنا النفس على طبيعته ، وحاولنا خلال ذلك النطقَ بالسين مثلا مكررة لأمكننا ذلك ، ولسمعنا صوت السين مكررا دون أن يسبقه أو يلحقه صوت مد (قصير أو طويل) ، أى أننا نسمع مجموعة من السينات مجردة بطول النفس هكذا : (س س س س س) ، دون أن يتخلل بينها سوى سكتات قصيرة ليس لها مدلول صوتى .

فالمهموس من واقع هذه التجربة = اعتماد + نفس .

أما فى حالة الجهر فلا يمكن النطق بالصوت مرددا مع انطلاق النفس وحده ، لأن الذى سيحدث حينئذ هو مهموسه ، أما المجهور فيحتاج للنطق به إلى عمل آخر هو (رفع الصوت) ، وهو ماعناه من قبل بصوت الصدر ، ولابد من النطق بحركة يتأدى بها إلى تكرار نطقه ، وهى حركة تكون أحيانا طويلة وأحيانا قصيرة ، بحسب موقعها ، فهى قصيرة إذا كانت سابقة على الصوت ، وهى طويلة إذا كانت تالية له ، وذلك هو قول سيبويه : (فإذا أردت إجراء الحروف فأنت ترفع صوتك إن شئت

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٥ .

بحروف اللين والمد ، أو بما فيها منها ، وإن شئت أخفيت) ، فحالة الإخفاء لن تظهر حروف مد أو لين ولا ماهو من جنسها من الحركات القصيرة ، لأن الحركات جميعها مجهورة ، فمتى أخفينا ــ أى همسنا ــ لم يعد لها وجود .

وإشارة سيبويه إلى استخدام أصوات المد ، لأنها تساعد على إظهار الصوت المجهور ويمكن تمييزه [1] ، فلو حاولنا النطق بالزاى مثلا جاءت المحاولة فى الصورة التالية :

(زازا زا زا زا زا) ، أو كانت على صورة : (أز أز أز أز أز)

وعلى هذا فالمجهور من واقع التجربة = اعتماد + صوت + نفس .

مع ملاحظة الفرق فى الاعتماد فى كلتا الحالين ، ومع ملاحظة الفرق فى كمية الهواء اللازمة لكليهما على ماسبق .

★ ★ ★

وقد ظلت محاولة سيبويه تفسير المجهور والمهموس من الأصوات قانونا سار عليه جميع من جاء بعده من النحاة والقراء . إلى أن جاءت بحوث المحدثين فصدقت كثيرا مما قاله فى هذا الباب ، كما سيأتى .

الشدة والرخاوة والتوسط :

وقد حدد سيبويه معناها على الوجه التالى : ــ

الشديد هو : (الذى يمنع الصوت أن يجرى فيه)

والرخو هو : (الذى يجرى فيه الصوت)

وهنا تقوم التفرقة بين الصفتين عنده على أساس فكرة (التوتر) [2] ، أى على

---

(١) الأصوات اللغوية ص ٨٩ .

(٢) نحن نستخدم هنا كلمة (التوتر) ، ونعنى بها مايطرأ على أعضاء النطق من نشاط مهما كان ، فلهذه الأعضاء وضعان : وضع (الراحة) ،وذلك حين لاتقوم بأى نشاط ، ووضع (التوتر) الذى ينشأ عن تحرك عضلات النطق لإنتاج الأصوات خلال العملية الكلامية ، ولاشك أن أية حركة مرتبطة دائما بحدوث (شد وتوتر) فى هذه العضلات .

أساس النشاط العضلى وحده ، دون أن يكون للنفَس أو الحنجرة دخل فى التفرقة بينهما .

ومن أجل هذا رأى سيبويه أن المنع فى حالة الشدة منصب على (الصوت) لا على النفَس ، ويقصد بالصوت هنا مايشمل المجهور والمهموس ، أى مايشمل مايجتمع فيه صوت الصدر والفم معا ، أو صوت الفم وحده ، فكلاهما عنده صوت ، وهو فى حالة الشدة محتبس احتباسا كاملا ، لأن التوتر فى المخرج قد بلغ أكمل حالاته . ولا فرق فى درجة التوتر بين المجهور الشديد والمهموس الشديد . أما الرخو — فعلى العكس من ذلك يجرى فيه الصوت . وتنقاس — فى رأينا — درجة التوتر على مخرجه تبعا لكونه مجهورا أو مهموسا ، على ماسبق .

وفى ضوء كلام سيبويه هذا يمكن القول بأن التوتر فى المخرج على درجات ثلاث :

(١) درجة قصوى — حين يكون التوتر كاملا ينغلق معه المخرج انغلاقا تاما ، وذلك فى حالة الأصوات الشديدة : مجهورة أو مهموسة .

(٢) درجة وسطى — ويكون التوتر مطلوبا فيها لمقاومة الهواء المندفع فى المجرى ، حيث لا يعترض طريقه سوى اتصال طرفى المخرج ، وذلك فى حالة الأصوات المهموسة الرخوة .

(٣) درجة دنيا ، حين يكون التوتر مطلوبا لمقاومة كمية الهواء القليل المار بالحنجرة ضاغطا على الأوتار الصوتية ، محدثا ذبذبة يراد لها أن تخرج من موضع الصوت بصورة معينة ، وذلك فى حالة الأصوات المجهورة الرخوة .

وقد أضاف سيبويه إلى هاتين الصفتين صفة ثالثة ، هى (التوسط) ، أدركها فى صوت واحد هو (العين) ، فجعلها متوسطة بين الشدة والرخاوة ، ولعل ذلك لشعوره بزيادة التوتر فيها أكثر من أخواتها المجهورات ، ولكنها زيادة لاتصل إلى درجة الشدة فجعلها متوسطة .

★ ★ ★

الآن وقد انتهينا من تفسير هذه الصفات العامة نثبت هنا إحصاء بالأصوات المتصفة بها عند سيبويه (١) وهى كما يلى : —

المجهورة : الهمزة — الألف — العين — (الغين) — (القاف) — الجيم — الياء — (الضاد) — اللام — النون — الراء — (الطاء) — الدال — الزاى — (الظاء) — الذال — الباء — الميم — الواو .

المهموسة : الهاء — الحاء — (الخاء) — الكاف — الشين — السين — التاء — (الصاد) — الثاء — الفاء .

الشديدة : الهمزة — القاف — الكاف — الجيم — الطاء — التاء — ألدال — الباء — (النون — الميم — الراء) .

الرخوة : الهاء — الحاء — الغين — الخاء — الشين — الصاد — الضاد — الزاى — السين — الظاء — الثاء — الذال — الفاء — (الواو — الياء — الألف) (٢) .

المتوسطة : (العين) .

ولنا على هذا الإحصاء ملاحظات نجملها فيما يلى : —

(١) عد سيبويه من بين الأصوات المجهورة (الهمزة) ، وقد نفى عنها المحدثون صفة الجهر على الإطلاق .

(٢) عد من بين الأصوات الرخوة (الضاد) ، وقد أصبحت بعد تطورها من الأصوات الشديدة ، فهى النظير المطبق للدال بعد أن كانت لا منفتح لها (٣) . وسنتحدث عن ذلك فيما بعد .

(٣) عد من بين المجهورات كلا من (القاف والطاء) ، وقد أدى بهما التطور

---

(١) الكتاب ج ٢ ص ٤٠٥ — ٤٠٦ .

(٢) مابين الهلالين يجمع الى صفة الشدة أو الرخاوة صفة أخرى لها موضع من الحديث فيما بعد .

(٣) الأصوات اللغوية ص ٤٩ ومابعدها .

الصوتى الذى تعرضتا له خلال القرون إلى أن فقدتا صفة الجهر ، فأصبحتا مهموستين [١]

(٤) ذهب ابن جنى – على خلاف سيبويه – إلى أن صفة التوسط لاتقتصر على (العين) بل تشمل أيضا أصوات (اللام والنون والميم والراء) ، وسيأتى ذلك .

صفات المجموعات

أدرك سيبويه فى بعض الأصوات صفات متشابهة نصنفها إلى مجموعات بحسب هذه الصفات ، وذلك بجانب اتصافها بالجهر أو بالهمس ، وبالشدة أو الرخاوة أو التوسط ، وكانت مجموعات سيبويه على الشكل الآتى :ـــ

(١) مجموعة (الصاد والضاد والطاء والظاء) . وقد وصفها بالإطباق ، وقد سبق أن ذكرنا نص سيبويه الذى يشرح فيه المقصود بكونها مطبقة ، فهو يعنى بذلك أن اللسان عند إنتاج أحد هذه الأصوات ينطبق على الحنك الأعلى فى موضعين ، لا فى موضع واحد كبقية الأصوات . وقد اعتد سيبويه هذا الإطباق صفة قوة فى الصوت ، تميزه على غيره من الأصوات المنفتحة .

(٢) أدرك العلماء بعد سيبويه وجود مجموعة أخرى تتصل بالمجموعة السابقة ، وهذه المجموعة هى (الخاء ـــ الغين ـــ القاف) وهى تشترك مع المجموعة السابقة فى صفة (التفخيم) ، أوبحسب عبارة القدماء : (الاستعلاء) ، وضده الاستفال ، ومعناه الترقيق . ولاشك أن أشد أصوات هذه المجموعة تفخيما أو استعلاء هى الأصوات المطبقة ، والاستعلاء كالإطباق صفة قوة فى الصوت اللغوى [٢] .

(٣) والمجموعة الثالثة هى مجموعة (الصاد والزاى والسين) ، وهى تلك التى تمتاز بالصفير ، قال سيبويه (وهن أندى فى السمع) [٣] ، ولعله يقصد بقوله (أندى)

---

(١) الأصوات اللغوية ص ٤٩ ومابعدها .

(٢) النشر ج ١ ص ٢٠٢ .

(٣) الكتاب جـ ٢ ص ٤٢٠ .

شدة وضوحهن فى السمع ، فالصفير على هذا صفةِ قوة فى الصوت تميزه على غيره من الأصوات .

(٤) تلى ذلك مجموعة مكونة من (الضاد والشين) ، وهى تمتاز بالاستطالة والتفشى ، ومعنى (الاستطالة) أن الصوت يشغل من اللسان مساحة كبيرة تصل مخرجه بمخرج صوت آخر يجاوره ، وهو أيضا المعنى الذى تؤديه كلمة (التفشى) تقريبا ، فاستطالة الشين تصلها بمخرج الطاء ، واستطالة الضاد تصلها بمخرج اللام [١] وهذه الاستطالة تكسب الصوت ميزة على غيره من الأصوات . بيد أن الضاد الفصيحة قد بدأت تتخلى عن استطالتها هذه المميزة لها ، منذ اختلط العرب بالأعاجم إبان الفتوح الإسلامية ، حيث ظهرت صعوبة النطق بها على وجهها الصحيح ، فانحرفت بها الألسن ، وأفقدتها استطالتها ، ونطقت بها قريبا من مطبق الدال ، وقد حدث فى الوقت ذاته تطور آخر لصوت « الطاء » المجهور الذى كان مطبق الدال فى اللسان العربى ، إذ عرض له بعض الظروف الصوتية التى أفقدته صفة الجهر، ليصبح مهموسا .

وبذلك تطور الصوتان (الضاد والطاء) معا حيث حل الأول محل الثانى . وتحول الثانى إلى فونيم جديد له صفة جديدة هى : الهمس .

ولعل هذا هو الذى أشار إليه سيبويه حين حذر الناطق العربى من بعض الأصوات « غير المستحسنة أو الكثيرة فى لغة من ترتضى عربيته ، ولا تستحسن فى قراءة القرآن ولا فى الشعر ، وعد منها ..... الضاد الضعيفة والطاء التى كالتاء [٢] ، بيد أن هذا التطور الذى شاع الآن على الألسنة حتى أضاع معالم النطق الأصيل لا يذهب مالكل من الصوتين من أحكام أملتها تقاليد اللغة الفصحى ، فيبقى لهما فى رأينا امتيازهما على ماقرر القدماء .

---

(١) المرجع السابق ص ٤١٢ ــ ٤٢٠ .

(٢) الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٤ .

(١٣)

(٥) وهناك مجموعة (الميم والنون) ، وهى تمتاز بالغنة ، ويقصد بها أن أحد هذين الصوتين إذا جاور صوتا آخر يؤثر فيه بالإخفاء ، فإنه يختفى ويترك مكانه غنة ، أى : صوتا أنفيا يدل على وجوده ، وهذه الغنة ، أو الأنفية ـــ بحسب التعبير الحديث ـــ تعد من صفات القوة التى تميز هذين الصوتين عما سواهما من مقاربهما .

(٦) ومجموعة (الواو والياء) ، وقد امتازت على غيرها من الأصوات بالمد واللين ، والمد أو اللين صفة قوة فيهما تميزهما عن مقاربهما من الأصوات .

صفات الأصوات المفردة

ولم يحدد سيبويه مثل هذا النوع من الصفات إلا لأصوات ثلاثة ، كل على حدة :

الصوت الأول : (اللام) ، وقد وصفها بالانحراف ، ويقصد به أن الصوت يخرج من (حافة اللسان) حين تتصل بمجاورها من الأسنان والأضراس ، ولم يعتد سيبويه هذا الانحراف صفة قوة فى اللام .

الصوت الثانى : (الراء) ، وقد وصفها بالتكرير ، إذ لاحظ أن الصوت لا يجرى فى المخرج إذا لم يحدث هذا التكرير ، وظاهر كلام سيبويه أنه صفة ذاتية فى الراء ، أى : إنه لابد أن يكون ، ولكن القراء حذروا من إظهاره والمبالغة فيه ، [١] وإن كان اتصاف الراء به من أسباب قوتها التى تميزها على مقاربها .

الصوت الثالث : هو (الألف) ، وقد وصفه سيبويه بأنه (الهاوى) ، ولعله يشير بذلك إلى مايعنيه من جاء بعده من وصفه (بالهوائية) ، وهو أنه يخرج من الجوف [٢] ، والألف عند سيبويه فى باب الإدغام قرينة الهمزة ، وهما لايصح فيهما الإدغام [٣]. وقد سبق أن قلنا : إن الحديث عن الألف بهذا الاعتبار لا قيمة له ، فما هى إلا حركة طويلة لا موضع للحديث عنها فى الإدغام .

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٠٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩٩ .
(٣) الكتاب جـ ٢ ص ٤١١ .

مقاييس الإدغام عند النحاة

هذا الذى بسطناه من دراسة النحويين لمخارج الأصوات ، وصفاتها العامة والخاصة . يثير فينا مشاعر الإعجاب بمنهجهم الذى سلكوه ، فإنهم لم يبدأوا حديثهم عن الإدغام حتى بسطوا القول فى المخارج والصفات ، بل لقد ذكر سيبويه بعد أن عدد الحروف العربية التسعة والعشرين ، بعض الأصوات الملحقة بها ، مما صح وروده على لسان العرب ، كالنون الخفيفة (الغنة) ، والصاد التى كالزاى ، وكالألف الممالة ، ثم أتبع ذلك بذكر أصوات مستهجنة ، غير مستحسنة ولا كثيرة فى لغة من ترتضى عربيته ، ولا تستحسن فى قراءة القرآن ولا فى الشعر ، وهى « الكاف التى بين الجيم والكاف ، والجيم التى كالكاف ، والجيم التى كالشين ، والضاد الضعيفة ، والصاد التى كالسين ، والطاء التى كالتاء ، والظاء التى كالثاء ، والباء التى كالفاء .

وبعد أن يقدم سيبويه هذه الدارسة المفصلة للأصوات ، ولمخارجها وصفاتها ، يبدأ فى ذكر مقاييسه التى توصل إلى إدراكها بناء على المقارنة والمفاضلة بين المخارج والصفات ، وكانت له فى هذا الباب مقاييس مهمة تحتوى ملاحظات صوتية غاية فى الدقة فى غالب الأحيان ، وإن لم تخل من مأخذ على ماسيجىء .

وأول مايلفت انتباهنا لديه أن الإدغام ليس سوى وسيلة للاقتصاد فى الجهد العضلى أثناء النطق ، أى : إنه طلب للخفة ، سواء أكانت خفة إعرابية أم خفة صوتية ، والخفة الإعرابية منحصرة فى حذف الحركة الإعرابية من آخر الكلمة المدغمة ، والخفة الصوتية هى إشاعة الانسجام بين الأصوات المنطوقة ، حتى لاينبو بعضها عن بعض فيحدث ثقلا ، قال سيبويه : (أحسن مايكون الإدغام فى الحرفين المتحركين اللذين هما سواء ، إذا كانا منفصلين ، أن تتوالى خمسة أحرف متحركة بهما فصاعدا ، ألا ترى أن بنات الخمسة وما كانت عدته خمسة لاتتوالى حروفها متحركة استثقالا للمتحركات مع هذه العدة ، ولابد من ساكن ... ثم يقول : ومما يدلك على أن الإدغام فيما ذكرت لك أحسن أنه لا تتوالى فى تأليف الشعر خمسة أحرف متحركة ، وذلك

نحو قولك : جَعَلَ لَكَ ، فَعَلَ لَبِيد) [١] .

وسيبويه فى هذا النص يعترف بأن الضرورة الصوتية مقدمة على الضرورة الإعرابية ، وما الضرورة الصوتية هنا إلا التهرب من تتابع الحركات ، المستثقل على اللسان ، فكأن المتكلم فى نظر سيبويه لا ينطق بكلمات تنتهى بحركات إعرابية ، وإنما ينطق بكتل صوتية ، ومقاطع يتحكم فى تقسيمها موقع النبر ، (وسوف يأتى حديث فى ذلك) ، وهذا الإجراء الصوتى الذى يعمد إليه المتكلم تحت حكم الضرورة المقطعية ليس إلا اختصارا للجهد العضلى بحذف بعض الحركات ، وتوحيد النطق ببعض الأصوات .

وإطلاق كلمة (مقاييس) فى هذا الصدد فيه بعض التوسع ، لأن ماسنورده لهم ليس سوى ملاحظات صاغوها فى صورة قواعد عامة لم تخل من مناقضات ، فلنبدأ الآن فى عرض هذه الملاحظات : ــ

أولا : وضع اللسان فى حالة الإدغام : عرف النحاة الإدغام بأنه : (أن تصل حرفا ساكنا بحرف مثله متحرك من غير أن تفصل بينهما بحركة أو وقف ، فيصيران لشدة اتصالهما كحرف واحد ، يرتفع عنهما اللسان رفعة واحدة) [٢] ، وهذا التعريف يحتوى ملاحظة مهمة تصور وضع اللسان حالة النطق بالصوتين المدغمين ، وهو أنه يؤديهما فى رفعة واحدة ، وهى فكرة مأخوذة عن سيبويه ، حيث ذكرها فى مواضع مختلفة من كتابه ، فقال فى باب الإدغام : (هذا باب الإدغام فى الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعا واحدا لايزول عنه [٣]) ، وقال فى « باب ماتمال فيه الألفات »: (فكما يريد فى الإدغام أن يرفع لسانه من موضع واحد ، كذلك يقرب الحرف إلى الحرف على قدر ذلك [٤]) .

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٧ .
(٢) المفصل جـ ١٠ ص ١٢١ .
(٣) الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٧ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٥٩ .

وظاهر أنه لافرق بين مانقل من كتاب المفصل وماذكره من قبله سيبويه ، فالملاحظة التى أثبتها كلاهما هى أن اللسان فى الإدغام يرتفع عن الصوتين المدغمين رفعة واحدة .

وقد أيد هذه الملاحظة من المحدثين العالم السويسرى (فنتلر) ، فقد قام منذ نحو خمسين عاما بأبحاث خرج منها : (بأن الناطق بحرفين متواليين إذا تماثلا أو تشابها لدرجة أن آلات النطق لكى تنطق الحرف الثانى منهما تحتاج أن تتحرك نفس الحركة التى تحركتها لكى تنطق الحرف الأول منهما ، فإن الناطق لايجىء بهذه الحركة إلا مرة واحدة)[١] ، ومثال ذلك :

أن الناطق بكلمة (وعدت Wa'ad-tu) ، أو بكلمة (وعدنا Wa'ad-na) حين ينطق الكلمة الأولى (وعدت) مثلا — دون إدغام — بضع لسانه للنطق بالدال ، ثم إنه لايزيل لسانه عن موضعه بمجرد النطق بها لكى يعيده إلى نفس الموضع لينطق بالتاء ، بل يظل لسانه فى موضعه حتى يتم نطق التاء التى هى من مخرج الدال ، ولاشك أن بقية أعضاء النطق تظل متخذة نفس الموقف الذى اتخذه اللسان . ومثل هذا يحدث فى النطق بكلمة (وعدنا) ، لأن الدال والنون من مخرج واحد ، رغم اختلاف الصفة بينهما تبعا لاختلاف مجرى الهواء فى كل منهما عن الأخرى [٢] .

ليست هذه الملاحظة التى اكتشفها (فنتلر) سوى تقرير لما قال به سيبويه من قبل ، مع بعض إضافات حديثة ، فإن سيبويه قد خص اللسان هنا بهذه الملاحظة ، على حين أشاعها فنتلر فى سائر آلات النطق ، كشد الأوتار الصوتية ، واستمرار النفس .

وقد ذكرنا حتى الآن أمثلة لما يلتقى من الأصوات متماثلا ، أو متجانسا

---

(١) من محاضرة للأستاذ المستشرق أ . شاده ألقاها بعنوان (علم الأصوات عند سيبويه وعندنا) بقاعة الجميعة الجغرافية .

(٢) السابق .

(مشتركا فى المخرج ـــ مختلفا فى الصفة) ، ولكن ملاحظة سيبويه لاتنطبق على هاتين الحالتين فحسب ، بل تنطبق أيضا على حالة تقارب الصوتين (حين يتقارب مخرجاهما) ، كما إذا التقى فى الكلام نون وباء فى مثل : (عنبر) حيث تنطق (عمبر) ، أو لام وراء فى مثل : (هل رأيت) حيث تصبح (هَرَّأَيْتَ) (١) ، فاللسان هنا يأخذ وضعه فى مخرج الصوت الثانى ، ثم ينطق الصوتين من هذا الموضع دون أن يحدث أدنى تغيير فى وضعه .

ثانيا : أكثر الإدغام فى حروف الفم :

لاحظ سيبويه أن الإدغام يقع فى الأصوات بنسب مختلفة ، وأن أكثر وقوعه فى حروف الفم واللسان ، فهو يقول (... إنما أصل الإدغام فى حروف الفم واللسان ، لأنها أكثر الحروف) (٢) .

وهذه الملاحظة صادقة لأن أصوات الفم واللسان فى مجموعها أكثر من أصوات الحلق والشفتين ، وإنما كان ذلك لأن اللسان أقدر أعضاء النطق على الحركة ، والناطق يستطيع بوساطة لسانه أن ينتج عددا من الأصوات بمجرد وضع لسانه فى موضع معين ، وتغيير صفة نطقه .

فالانفجار المهموس فى موضع الأسنان واللثة ينتج التاء ، والانفجار المجهور فى نفس الموضع ينتج الدال ، والعدول عن الانفجار مع الهمس ينتج السين ، ومع الجهر ينتج الزاى ، وهكذا . وظاهر أن هذه الأصوات جميعها من مخرج واحد تقريبا ، وأى تغيير فى وضع اللسان ينتج عددا آخر من الأصوات لايفصل بين أفراده سوى خط رفيع فى المخرج ، أو صفة تميزه عن نظيره .

هذه المرونة التى يتصف بها اللسان فى جزئه الأمامى هى التى أتاحت لمجموعة أصوات الفم هذه الكثرة ، ولكن التجاور والتقارب جعلها عرضة دائما للتأثر بما يليها

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الكتاب جـ ٢ ص ٤١٢ .

من أصوات ، ولذا أدغم كل منهما فى الآخر ، مالم يحل دون ذلك ظرف صوتى آخر على ماسيجىء .

أما مجموعة أصوات الحلق فليست لها هذه الكثرة التى لحروف الفم ، لا فى العدد ولا فى حالات الإدغام ، وقد قرر القدماء وفى مقدمتهم سيبويه « أن حروف الحلق ليست بأصل للإدغام [١] » ، « فالبيان — دائما — فيها أحسن ، والإدغام عربى حسن [٢] . فإذا ماأريد إدغامها فإنها تلتزم ترتيبا معينا فيما بينها ، بحيث قرر النحاة (أن الصوت الأقرب إلى الفم لايدغم فى الذى قبله) [٣] ، فالعين لاتدغم فى الهاء ، لأن الهاء أبعد فى الحلق من العين ، والعكس جائز ، أى أن الهاء تدغم فى العين ، بالشرط الذى سبق من أنهما يقلبان حاء . إلى غير ذلك من التفاصيل التى بسطها سيبويه فى هذا الموضع من مبحث الإدغام .

واتخذت الباء وهى أكثر الأصوات تطرفا فى المخرج عكس ماتتخذه أصوات الحلق ، فقد أدغمت فى الفاء ، التى تعتبر أعمق منها ، دون أن يجوز العكس ، (إلا شذوذا فى قراءة الكسائى بإدغام « نخسف بّهم ») [٤] .

وبذلك يمكن أن نقول : إن الإدغام يحدث غالبا فى أصوات الفم [٥] ، ويتجه فى غيرها نحو الصوت الأقرب إلى الفم غالبا أيضا ، فهو فى الحلق طردى ، وفى الشفتين عكسى . ومنطقة وسط الفم تعد على هذا أشبه بقطب مغناطيسى يجذب إليه ماحوله من أصوات .

ثالثا : الإدغام لايكون إلا فى الأقوى [٦] : ومعنى ذلك أن الإدغام يسجل دائما ضعف صوت معين أمام صوت آخر أقوى منه ، وقد بنى النحاة فكرتهم عن

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٤١٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٤١٢ ، ٤١٣ .
(٣) الكتاب جـ ٢ ص ٤١٣ .
(٤) المفصل جـ ١٠ ص ١٤٦ .
(٥) سيأتى لنا تقسيم للفم بحسب توزيع الأصوات على مناطقه ، ومنه يتبين المراد بأصوات الفم تفصيلا .
(٦) المفصل جـ ١٠ ص ١٤٠ .

عنصر « القوة » فى الصوت على ماقرره سيبويه فى الصفات ، حين اعتبر بعض الأصوات متميزا عن الآخر بصفة زائدة فيه . وقد سبق عرضنا لهذه الصفات وتصنيفها ، ويبقى أن نعرف ترتيب هذه الصفات من حيث قوتها ، أو بعبارة أخرى : ترتيب الأصوات فى القوة بناء على هذه الصفات .

والذى وجدناه لدى النحاة فى هذا الباب أنهم لم يبالوا مطلقا بسقوط الصفات العامة أو وجودها فى حالة الإدغام ، فالجهر والهمس والشدة والرخاوة لاتثير مشكلة عند الإدغام ، ولاتهم مراعاتها ، ولذا وجدنا (الجهر) يسقط من العين عند إدغامها فى الحاء ، فى مثل « امدح عرفه » ، فتصبح « امد حّرفه » [1] ، كما يسقط من الغين حين تدغم فى الخاء فى مثل : « ادمغ خلفا » فتصبح : « ادْمخّلفا » [2] ، ويسقط من الجيم حين تدغم فى الشين مثل : « أخرج شطأه » ، فتصبح : « أَخْرشَّطأه » ، كما يسقط من الدال حين تدغم فى الشين أيضا .

ووجدنا الهمس يسقط عند إدغام الخاء فى الغين فى مثل : « اسلخ غنمك » فتصبح : « اسلغّنمك » ، ويسقط من التاء عند إدغامها فى مجهور كالدال أو الزاى أو الضاد .

ووجدنا الشدة تسقط من الجيم حين تدغم فى الشين ، ومن الباء حين تدغم فى الفاء فى مثل : « اذهب فانظر » .

ووجدنا الرخاوة تسقط من الظاء عند إدغامها فى التاء فى مثل : « أيقظ توفيق » كما تسقط من الثاء عند إدغامها فى الدال فى مثل : ورث داود .

وجميع الأمثلة التى ضربها سيبويه ومن بعده سائر النحاة فى هذا الباب دالة على أن هذه الصفات الخمس الأولى ليست بذات بال فى حالة الإدغام ، بل إن الأصوات تتنازل عنها نظير وضعها الجديد الذى تكسب فيه وجوداً آخر ، أو صفة مقابلة .

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٤١٣ .

(٢) المرجع السابق .

أما فيما يتعلق بصفات المجموعات والأفراد فقد حفل بها عموما النحاة ، واعتدوها عناصر قوة فى الصوت فحافظوا عليها من أن تفنى بسبب الإدغام ، ولكنهم فصلوا فجعلوها ثلاثة :

أولا : صفات لا أهمية لها ، فهى ليست من أسباب قوة الصوت أو ضعفه ، وهى (الاستعلاء) فنجد القاف تدغم فى الكاف ، والعكس جائز أيضا . دون أدنى خلاف ، (والانحراف) فى اللام ، حيث تدغم فى أصوات كثيرة على مامر دون أدنى خلاف ، وبخاصة إذا كانت لام المعرفة ، و (الهوائية) فى الألف ليست من أسباب قوتها ، بل هى لاتعد من أصوات الإدغام .

ثانيا : صفة اعتد بها النحاة اعتدادا جزئيا ، وهى الإطباق ، فقد خيروا المتكلم فى حالة التقاء الطاء بالتاء أو الدال بين أن يدغم مع الإطباق أو عدم الإطباق ، وذلك لأنه صفة قوة فى الصوت يحسن أن تبقى ، ويجوز أن تفنى ، ونستطيع أن نجد فى مناقشة النحاة فى هذا الباب تفرقة مهمة ، فقد جعلوا إذهاب الإطباق أمثل ، فى إدغام الطاء فى الدال ، قالوا : (لاشتراكهما فى الجهر وافتراقهما بالإطباق) وجعلوا إبقاءه أمثل فى حالة إدغامها فى التاء (لافتراقهما فى الجهر والإطباق) [1] .

فكأن صوت الطاء سوف يتخلى فى هذه الحالة عن صفتين هما عنصر القوة فيه (الجهر والإطباق) ، دون أن يعوضه صوت التاء عن إحداهما شيئا ، ومن هنا كان الإبقاء على الإطباق أمثل ، ليكون الصوت قد تنازل عن صفة واحدة من صفاته هى الجهر ، وهو كما نعلم صفة عامة يسهل التنازل عنها .

وكذلك شأن الظاء مع كل من التاء والدال ، أو الثاء والذال ، وهو أيضا شأن الصاد مع السين والزاى .

ثالثا : صفات اعتد بها النحاة اعتدادا كاملا ،وهى صفات (الاستطالة ، والتفشى ، والصفير ، والمد ، واللين ، والغنة ، والتكرير) .

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٤١٢ ، ٤١٨ .

فالضاد لاتدغم فى الصاد مثلا ، مع أنهما مطبقان ، لامتياز الضاد بالاستطالة ، فإدغامها فى الصاد يحرمها هذه الميزة [١] وكذلك لاتدغم الصاد فى الضاد لأن الصاد تمتاز بالصفير ، وهو صفة لايمكن التنازل عنها .

وقد رأينا فى عرض أمثلة الإدغام لدى النحاة أنهم قد أجازوا إدغام مجموعتى (الطاء والدال والتاء والظاء والذال والثاء) فى كل من (الصاد والسين والزاى) ولم يجيزوا العكس إبقاء على هذا الصفير الذى جعلهن أندى فى السمع . وصوت الشين لايدغم فى الجيم لامتيازه بالاستطالة والتفشى اللذين ليسا فى الجيم ، والعكس جائز .

كذلك لم يجز النحاة إدغام الواو فى الباء مع أن مخرجهما هو الشفتان ، ولا الياء فى الجيم أو فى الشين مع أن المخرج واحد ، لامتياز الواو والياء باللين والمد الذى ينبغى الحرص عليه فى النطق ، ولا يجوز التنازل عنه .

ولم يجز النحاة أيضا إدغام كل من النون والميم فى الباء إدغاما كاملا حرصا على مافيهما من الغنة . وهذا هو نفس موقفهم من الراء حيث منعوا إدغامها فى اللام والنون ، حرصا على خاصة تكريرها . ويبدو أن حرص العرب على صفة الصفير فى أصواته كان أشد من حرصهم على وجود الإطباق فى أصواته ، فقد جاء على ألسنتهم ذهاب الإطباق عند إدغام الطاء فى التاء أو الدال ، أو إدغام الظاء فى الثاء أو الذال ، ولكن ذلك لم يحدث فى أصوات الصفير ، فقد امتنع إدغامها فيما يذهب صفيرها ، فالسين لاتدغم عندهم إلا فى أختيها الصاد والزاى ، وكذلك الشأن فيهما ، ومن ثم وضع النحاة قاعدتهم على أساس الاحتفاظ بصفة الصفير دائما ، وبصفة الإطباق أحيانا . ولعل مايمكن أن نعلل به صوتيا لتميز الصفير على الإطباق هو درجة الوضوح ، فالصوت الصفيرى أكثر قوة من الصوت المطبق ، بحيث يمكن أن ترتب أصوات الصفتين على أساس أن أكثرها قوة هو الصوت الذى يجتمع فيه صفتا الإطباق والصفير وهو : الصاد ، ويليها الأصوات التى تمتاز بالصفير فحسب ، وهما

---

(١) المرجع السابق ص ٤٢٠ .

صوتا : السين والزاى ، يليهما الأصوات المطبقة فحسب ، وهى : الطاء والظاء والضاد .

والخلاصة أنه يمكن القول بأن صفات (الاستطالة ، والصفير ، والتكرير ، والغنة ، واللين والمد) تعد فى نظر النحاة صفات قوة لايمكن التنازل عنها ، وبأن صفة الإطباق يتنازل عنها أحيانا مع تفصيل .

أما بقية الصفات فليست بذات أهمية فى قوة الصوت وضعفه فى باب الإدغام .

هذه هى القواعد التى وضعها النحاة مقاييس للإدغام ، وظاهر أنهم يفترضون اطراد ظواهر النطق لدى الأعراب ، وأن ماجرى على خلاف ماقالوه ، يعد فى عرفهم شاذا ، أو ضعيف الرواية .

الفصل الرابع

موقف المحدثين من المخارج والصفات

هذا هو تراث القدماء فيما يتصل بدراسة الأصوات وصفاتها ، وما أسسوه على ذلك من مقاييس ، وما قالوا به من تفسيرات لبعض الظواهر الصوتية الناشئة عن الإدغام ، وما كان بينهم من اختلاف فى وجهات النظر فى القياس أو التعليل .

بيد أن فيما قالوه بعض النقاط المبهة التى تقتضى منا علاجا حديثا يكشف عن غموضها ، وهو ما سوف نحاوله حين نعرض أصوات العربية الفصحى فى ضوء التقسيم الحديث للمخارج ، وفى ضوء ما أثر من صفات عامة وخاصة تعرض لها القدماء والمحدثون .

ولاشك أن وضع جدول للأصوات الفصحى بوصفها القديم مرسومة بالرموز الصوتية الدولية سوف يعين على عملية الدرس والتحليل التى نقوم بها فى هذا الفصل ، لنرى تأثير الإدغام على تطور بعض أصوات الفصحى ، ومدى تأثيره فى التوزيع الفونيمى للأصوات العربية القديمة والحديثة .

بيد أن هناك أساسين يمكن اختيار أحدهما لرسم هذا الجدول :

أولهما : ذلك التقسيم الذى قال به (فيرث) لمخارج الأصوات ، والذى يتجلى فى تقسيمه للحنك الأعلى على أساس رسم خطوط أفقية تبدأ دائماً من بداية كل من الأضراس ، من الجانب الأيمن إلى الأيسر ، ورسم ثلاثة خطوط رأسية تبدأ من بين كل من الأسنان الأمامية إلى نهاية الحنك الأعلى ، فإذا كان عدد الخطوط الأفقية ثمانية ينتج عنها سبعة مناطق أفقية ، وكان عدد الخطوط الرأسية ثلاثة ينتج عنها أربعة رأسية ، فإن عدد المربعات والمستطيلات التى ينقسم إليها الحنك الأعلى فى تقسيم (فيرث) يصبح ثمانية وعشرين ، هذا فى تقسيم الحنك الأعلى وحده ، ويضاف إلى هذا العدد مجموعة من المخارج تشمل الشفتين معا ، أو إحداهما مع الأسنان ، كما تشمل ماوراء الحنك الأعلى وهما مخرجا الحلق والحنجرة ، وبذلك يصبح عدد المواضع التى يمكن أن تسهم فى تحديد وصف الصوت اللغوى اثنين وثلاثين . وهو لاشك تقسيم دقيق مسرف فى الدقة ، يفيد

بصفة خاصة عند إجراء تجارب سقف الحنك الصناعى (البلاتوجرافيا) ، الذى يبين بدقة وضع اللسان بالنسبة إلى الأصوات التى تنتج من التقائه بالحنك الأعلى تبيينا دقيقا (١) .

وثانيهما : هو التقسيم الشائع لدى أغلب المحدثين ، وهو الذى يقسم الفم إلى عدة مناطق رئيسة تبدأ من الشفتين إلى الحنجرة ، فهو لقلة تقسيماته يعين على سهولة تحديد العلاقة بين صوت وآخر ، وبين مجموعة وأخرى من الأصوات اللغوية ، وقد اخترنا أن نأخذ بمنهجه بصفة عامة مع بعض تعديلات تتفق وطبيعة الأصوات العربية الفصيحة ، وإن كنا لانستطيع الاستغناء به عن بعض ما ذهب إليه سيبويه فى تحديد مخارج بعض المجموعات على ماسيأتى :

---

(١) أصوات اللغة ص ٧٦ ، ٧٧ .

ومن هذا الجدول يتضح رأى المحدثين وطريقتهم فى تنظيم مخارج الأصوات وصفاتها ، ومنه يظهر أنهم لم يفرقوا بين بعض الأصوات التى اعتدها القدماء ممتازة بصفة معينة وبين غيرها مما لايشركها هذه الصفة . فهم قد اعتبروا صفير (السين والزاى والصاد) وتفشى (الشين) مشابها للاحتكاك فى الثاء والفاء ، وجعلوها جميعا فى قائمة واحدة . ومعلوم أن نظرة القدماء إلى هذه الأصوات على أنها ممتازة إنما كانت على أساس ملاحظتهم للواقع الأصواتى فى اللغة ، كما سبق فى حديثنا عن الصفات وترتيبها لدى النحاة .

ولاشك أن المتأمل فى تقسيم المحدثين للمخارج لا يسعه إلا أن يرى فيها صورة من عبقرية سيبويه ، فهو قد وزع الأصوات ومجموعاتها على المخارج ، تماما كما فعل المحدثون ، مع بعض فروق دقيقة ، وفيما عدا ماذهب إليه من اعتبار الخيشوم مخرجا للنون فى حالة الإخفاء . ونرى نحن مع المحدثين أنها نون (أنفمية) مخرجها هو مخرج الصوت التالى لها ، والذى تتأثر به ـــ على ماهو مرسوم بالجدول .

ويلاحظ أن الجدول الدولى لم يعتبر الأصوات المطبقة وحدات مستقلة ، بل اعتبرها فروعا لنظائرها المنفتحة ، فالصاد فرع السين ، والظاء فرع الذال ،والطاء الحديثة فرع التاء ، والضاد الحديثة فرع الدال ، وبعبارة أخرى : اعتبر الإطباق صفة عارضة فى الصوت ، على حين اعتبرها القدماء أصواتا مستقلة ، وعالجوها كمجموعة ذات وضع خاص ، مع ملاحظتهم علاقتها بنظائرها ، والدليل على ذلك أن الضاد عندهم صوت مطبق لا نظير له ، أى إنه ليس بفرع عن صوت منفتح . أما المحدثون من العلماء العرب فيرون أن التكوين الأصواتى يتوقف على التشكيل اللغوى فى كل لغة ، فالأصوات المطبقة ليست وحدات مستقلة فى اللغات الأوربية ، ولكنها مستقلة فى العربية ـــ على مارأى القدماء .

ويلاحظ أن طريقة المحدثين تعيننا على فهم العلاقات بين مخارج بعض الأصوات المختلفة ، وبخاصة فيما يتصل بمفهوم التقارب بين الأصوات ، وهو مانرجو

أن نضع له تفسيرا دقيقا ، كما أن طريقة القدماء تعيننا على فهم العلاقات بين مجموعة أصوات الأسنان واللثة على ماسيأتى .

وليس لنا من جديد فى هذا الجدول ، يضاف إلى المحاولات السابقة لوضع الرموز الصوتية للغة الفصحى سوى ثلاثة أمور :ـــ

أولها : أننا اعتبرنا الضاد بوصفها القديم تدخل فى باب الجانبى المحتك ، لأنها تتكلف من الجانب الأيمن أو الأيسر من اللسان مع مايحاذيه من الأضراس العليا ، مع اتصافها بالرخاوة التى يعبر عنها فى الجدول بالاحتكاك ، وهناك محاولات تجعل الضاد من الأصوات الأسنانية وحدها (١) ، أو جانبية أسنانية (٢) ولكن هذه المحاولات تصرف النظر عن كونها مطبقة ، وأن صفة الإطباق فيها تساعد على اتصال اللسان باللثة فى موضع اللام على ماوصف القدماء ، فلذا اعتبرناها (جانبية أسنانية لثوية) .

ثانيها : أننا أثبتنا وجود النون الأسنانية ، أى النون التى يليها صوت من الأصوات الاسنانية وهى (الثاء والذال ، والظاء) ـــ وذلك فى حال الإخفاء ، حين تقع النون ساكنة قبلها . ، وقد أغفلت المحاولات السابقة هذا الصوت ، مع أنه أحد متغيرات الفونيم (n) الأسنانى اللثوى .ولم نحاول أن نضع للنون مع الشين رمزا مستقلا ، لشدة قرب مخرج الشين من مخرج الجيم ، بل لاتحاد المخرجين مع امتياز الشين ببعض الامتداد نحو اللثة ، وهو ماعبر عنه القدماء بالاستطالة والتفشى ، فكان من الأنسب توحيد وجود النون بين الشين والجيم فهى نون غارية ، وإن كان هذان الصوتان يفترقان أحيانا فى بعض الأحكام ، كأن تدغم اللام فى الشين دون الجيم ، وهو ماسوف نشير اليه .

ثالثها : أننا جعلنا مخرج (الخاء والغين) هو اللهاة ، مخرج القاف ، لا كما

---

(١) l'arabe classique Page 73 .

(٢) مناهج البحث فى اللغة ص ٩٠ وما بعدها .

" جدول توزيع الأصوات الفصحى "

	شفوي ثنائي		شفوي أسناني		أسناني			أسناني لثوي				لثوي			غاري لثوي		غاري		طبقي		لهوي		حلقي		حنجري
	مهموس	مجهور	مهموس	مجهور	مهموس	مجهور		مهموس		مجهور		مهموس		مجهور	مهموس	مجهور	مهموس	مجهور	مهموس	مجهور	مهموس	مجهور	مهموس	مجهور	مهموس
						منفتح	مطبق	منفتح	مطبق	منفتح	مطبق	منفتح	مطبق												
انفجاري		ب / b						ت / t	ط / ṭ	د / d	(ط) ض / ḍ							ج / J	ك / K		ق / q	(ق) / G			ء / ?
أنفي		م / m		م١ / m صورة		ن١ / n صورة				ن / n أصل الوحدة				ن٢ / n صورة				ن٣ / n صورة		ن٤ / n صورة		ن٥ / N صورة			
جانبي محتك											(ض / ḍ)														
جانبي غير محتك										ل / l															
تكراري														ر / r											
احتكاكي			ف / f		ث / th	ذ / dh	ظ / ḍh					س / s	ص / ṣ	ز / z	ش / š						خ / x	غ / gh	ح / ḥ	ع / ʕ	هـ / h
استمراري غير محتك أو نصف حركة		و / w																ي / y		و / w					
الحركات	ضمة ضيقة / u																كسرة ضيقة / I		ضمة ضيقة / u						
																	فتحة نصف واسعة / ɛ		فتحة واسعة مطبقة / a						

(*) ما بين القوسين صورة لنطق الفصحى القديمة . والرموز المركبة نظرا إلى نقص ماكينة الطباعة فيما يتعلق بالرموز الصوتية .

متوسط ، وهو ينتج عندما تتجاور فى النطق (نون وفاء) تجاورا مباشرا ، كما فى كلمة (أنف) ، وكلمة (انفكّ) ، حيث تقلب النون ميما مخرجها هو الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا .

و / W: صوت الواو العربية ـــ شفوى ـــ طبقى ـــ رخو (استمرارى) ـــ مجهور ، يعد لدى المحدثين صوت لين مركب ، إذ هو فى بعض أحواله مرحلة انتقال بين حركتين متواليتين كالفتحة والضمة ، أو العكس نتيجة الانزلاق فيما يسمى بالانجليزية Diphthong ـــ أى المزدوج .

ف / F: صوت الفاء العربية ـــ شفوى أسنانى ـــ رخو (احتكاكى) ـــ مهموس .

ث / th: صوت الثاء العربية ـــ بين أسنانى ـــ رخو (احتكاكى) مهموس .

ذ / dh: صوت الذال العربية ـــ هو النظير المجهور لصوت الثاء ، فهو صوت بين أسنانى ـــ رخو (احتكاكى) ـــ مجهور .

ظ / ḍh: صوت الظاء العربية ـــ هو النظير المطبق لصوت الذال ، فهو صوت بين أسنانى ـــ رخو (احتكاكى) ـــ مجهور ـــ مطبق .

ت / t: صوت التاء العربية ـــ أسنانى لثوى ـــ شديد (انفجارى) مهموس .

د / d: صوت الدال العربية ـــ هو النظير المجهور لصوت التاء . فهو صوت أسنانى لثوى ـــ شديد (انفجارى) ـــ مجهور .

ط / ṭ: صوت الطاء العربية ـــ هو النظير المطبق لصوت التاء . فهو صوت أسنانى لثوى ـــ شديد (انفجارى) مهموس ـــ مطبق ، وقد تطور هذا الصوت عن أصل مجهور ، ولكنه فقد صفة الجهر فى بعض الظروف الصوتية .

ن / n: صوت النون العربية ـــ أسنانى لثوى ـــ أنفى ـــ مجهور ـــ متوسط [(١)] ـــ وهو العضو الأصلى فى هذه الوحدة . الذى يتكون من أعضاء كثيرة ، وذلك بحسب ما إذا التقت الوحدة الأصلية التقاء مباشرا بصوت يؤثر فيها بنقل مخرجها ، وذلك على الوجه التالى :

---

(١) سر صناعة الإعراب ص ٦٩ .

ن / n^1 : أحد تنوعات النون العربية : أسنانى ــ أنفى ــ مجهور ، ينتج عندما يلتقى صوت النون الأصلية بأحد الأصوات البين أسنانية (الثاء ــ الذال ــ الظاء) فينقل مخرج النون إلى مخرج الصوت التالى ، أى بين الأسنان .

ن / n^2 : أحد تنوعات النون العربية ــ لثوى ــ أنفى ــ مجهور ــ ينتج عندما يلتقى صوت النون الأصلية بأحد الأصوات الأسنانية اللثوية (التاء ــ الدال ــ الطاء ــ الضاد) حيث جرى اعتبار القراء لها مخفاة عند هذه الأصوات .

كما أنه ينتج عند التقائها بأحد الأصوات اللثوية (السين ــ الزاى ــ الصاد) فيصبح مخرج النون من مخرج الصوت التالى لها ، ويلاحظ أن اللام من مجموعة الأصوات الأسنانية اللثوية ، وأن الراء من مجموعة الأصوات اللثوية ، وهما يخرجان من هذه القاعدة ، إذ إن النون تفقد معهما وجودها لتصبح لاما أو راء . وهو ما يسميه القراء إدغاما بغير غنة .

ن / n^3 : أحد تنوعات النون العربية ــ غارى ــ أنفى ــ مجهور ــ ينتج عندما يلتقى صوت النون الأصلية بأحد الأصوات الغارية وهى (الجيم ــ الشين ــ الياء) فيتأخر مخرج النون إلى حيث مخرج الصوت التالى لها .

ن / n^4 : أحد تنوعات النون العربية ــ طبقى ــ أنفى ــ مجهور ــ ينتج عندما يلتقى صوت النون الأصلية بصوت الكاف ، فيتأخر مخرج النون إلى حيث مخرج الكاف .

ن / n^5 : أحد تنوعات النون العربية ــ لهوى ــ أنفى ــ مجهور ــ ينتج عندما يلتقى صوت النون الأصلية بصوت القاف . فيتأخر مخرج النون إلى حيث مخرج القاف ، وليس للخاء والغين هذه الخاصة مع النون لشدة شبههما بأصوات الحلق كما مر .

ض / ḍ : صوت الضاد العربية ــ أسنانى لثوى ــ جانبى ــ رخو (محتك) ــ مجهور ــ مطبق ــ ليس له نظير فى الأصوات الفصحى المنفتحة (1) ، وقد وصفه القدماء بالاستطالة ، ومعناها امتداد مخرجه من الفم حتى يتصل بمخرج صوت آخر

---

(١) كتاب سيبويه جـ ٢ ص ٤٠٦ .

هو اللام ــ على مامر ــ ولكنه تطور حتى أصبح نظير الدال المطبق ، بعد أن تخلت الطاء عن هذه المكانة ، فتخلى هو أيضا عن صفتى الرخاوة والاستطالة .

ل / l: صوت اللام العربية ــ أسنانى لثوى ــ جانبى ــ مجهور ــ متوسط بين الشدة والرخاوة (١) غير محتك وقد عده سيبويه شديدا .

ر / r: صوت الراء العربية ــ لثوى ــ مجهور ــ مكرر ــ متوسط بين الشدة والرخاوة (٢) وقد عده سيبويه شديدا ، والتكرير كما سبق ــ صفة ذاتية فى الراء ، أى إنها لاتكون فصيحة بدونه ، ولكن المبالغة فيه مستقبحة .

ز / z: صوت الزاى العربية ــ لثوى ــ رخو (احتكاكى) مجهور ــ يصفه القدماء إلى جانب الرخاوة بالصفير ، كما سبق .

س / s: صوت السين العربية ــ لثوى ــ رخو (احتكاكى) مهموس ــ صفيرى .

ص / s: صوت الصاد العربية ــ لثوى ــ رخو (احتكاكى) مهموس ــ صفيرى ــ مطبق ، ونظيره المنفتح هو صوت السين .

ــ مطبق ، ونظيره المنفتح هو صوت السين .

ش / S: صوت الشين العربية ــ غارى ــ ملثى ــ رخو (احتكاكى) مهموس ــ ميزه القدماء على غيره بالاستطالة والتفشى ، ويعنون بذلك أن مخرج الشين قد امتد حتى اتصل بمخرج الطاء ، ومعنى ذلك أن الاحتكاك الذى امتازت به قد زاد فى المساحة التى تشغلها من اللسان والفم ، فامتد مخرجها نحو اللثة قليلا . وهو مايعنيه المحدثون بكلمة « ملثى » (٣) وقد أتاح لها هذا التفشى ميزات ليست لغيرها من الأصوات الغارية (٤) .

---

(١) سر الصناعة ص ٦٩ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٣) جدول الرموز الدولية ــ أصوات اللغة .

(٤،٥) وقد نتج عن ذلك ظاهرة تثبت هذه الملاحظة ، ذلك أن الشين رغم أنها من نفس مخرج الجيم والياء قد انفردت دونهما بادغام لام المعرفة فيها . وهذه اللام تدغم وجوبا كما وضح فى عرضنا السابق فى ثلاثة عشر صوتا هى (ط ــ د ــ ت ــ ظ ــ ذ ــ ث ــ ص ــ ز ــ س ــ ض ــ ش ــ ر ــ ن) ، وهذه كلها=

ج / J: صوت الجيم العربية ـــ غارى ـــ شديد (انفجارى) مجهور ، بيد أن شدته تتصل فى نهايتها ببعض الرخاوة التى تنتج مايسمى بالتعطيش (٥) .

=أصوات مخرجها قريب جدا من مخرج اللام ، إن لم يكن مخرج اللام ذاته ، فيما عدا (الشين) ، فهى وحدها من أصوات وسط الحنك ووسط اللسان . هذه الملاحظة تدعونا من جانب آخر إلى أن نتصور نطق (الجيم) الفصيحة على أنه احتباس للهواء عند ملتقى وسط اللسان مع مايوازيه من الحنك الأعلى ، ثم ينفجر محدثا صوتا شديدا مجهورا مشوبا بقليل من الاحتكاك فى آخره (هو مايسمى بالتعطيش) وهذا القدر من الاحتكاك قليل بحيث تحتفظ معه الجيم بشدتها .

وهناك ملاحظة أخرى فيما يتعلق بوصف الجيم الفصحى ، هى أن أحدا من القدماء لم يحاول أن يشير إلى اتصافها بما يسمى « بالتعطيش » ، وهو ذلك الاحتكاك الذى يحدث عقب انفجارها فى النطق . وقد دعانا هذا الموقف من القدماء إلى الشك فى اتصاف الجيم الفصحى بهذه الصفة ، وبخاصة حين لاحظنا أن اللام لاتدغم فيها مع أنها تدغم فى الشين التى هى من مخرجها .

وإنما يدفعنا إلى القول باتصافها بالتعطيش اعتباران نثبتهما هنا وهما : ـــ

١ – أن الجيم والكاف صوتان متجاوران فى المخرج . لايفصل بينهما صوت آخر ومع ذلك لم تدغم الجيم فى الكاف مع تقاربهما فى صفة الشدة واختلافهما فى الجهر والهمس ، ولو أن الجيم أدغمت فيها لما زادت على أن تنازلت عن صفة الجهر وهو أمر أكثر وقوعا فى الادغام من نقيضه ـــ على ماسيأتى ـــ ومن هنا نرى أن المانع الذى حال دون ادغامها فى الكاف إنما هو حرص الناطق العربى على أن يحتفظ لها بميزة أخرى زائدة على الشدة والجهر ، هذه الميزة هى « التعطيش » ، والمعروف أن الصوت ذا الميزة لايدغم فيما عدم هذه الميزة أو نظيرها ، لأنه يعد أقوى منه ، والأقوى لايدغم فى الأضعف على مامضى فى «مقاييس الادغام عند النحاة » .

٢ – أن سيبويه عندما حذر من نطق بعض الأصوات غير المستحسنة فى اللسان العربى ولا جائزة فى قراءة القرآن أو الشعر ، عدد منها : (الجيم التى كالكاف والجيم التى كالشين والكاف التى بين الجيم والكاف – الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٤) والجيم الأولى تحدث عندما يتأخر مخرج الجيم الفصحى قليلا إلى مخرج الكاف فتنطق حيما نصفها الآن « بالقاهرية » ، والجيم الثانية تحدث عندما يتقدم مخرج الجيم الفصحى قليلا ليشمل مخرج الشين ، فتنطق جيما (شامية) ، أو مجهور الشين ، وتحدث الثالثة فى رأينا ـــ حين تهمس الجيم الفصحى من مخرجها فى غار الفم لتصبح صورتها على مايرى المحدثون هكذا (c) أى جيما مهموسة (أصوات اللغة ـــ جدول الرموز الصوتية (أ) .

فقد وضح اذن أن الجيم الفصحى كانت قد تعرضت لبعض الانتقاص فى النطق منذ بدأ اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب . فكان أن حذر سيبويه من الانسياق مع هذا التطور الأصواتى غير الفصيح ، الذى جاء على صورة ماعدده من أنواع الانحراف . ولاشك أن مخرج الجيم الفصحى إنما هو بين الجيم الأولى والثانية فهى غارية ، لا طبقية كالكاف ، ولا غارية ملثاة كالشين ، هذا من حيث المخرج . أما من حيث الصفة فهى قد جمعت شدة الكاف إلى قليل من رخاوة الشين ، وهو مايحدث عند التعطيش . وحسبنا دليلا على حدوثه تواتره على ألسنة قرائنا . الذين يعد نطقهم إحدى الوثائق التاريخية على نطق العرب الفصحاء .

ومن هنا رأى بعض المحدثين اعتبار الجيم الفصحى « صوتا مركبا » من عنصرى الشدة والرخاوة (مناهج البحث فى اللغة ص ١٠٣) .

ولكن صفة التعطيش هذه التى برهنا على وجودها فى « هامش الصفحة السابقة » لم تعطه عند النحاة ميزة على مقاربه من الأصوات ، كما كان للشين ميزة بتفشيها .

ى / y: صوت الياء العربية ـــ غارى ـــ رخو ـــ استمرارى ـــ مجهور ، ويعد لدى المحدثين صوت لين مركبا كالواو ، لما أنه أحيانا من أثر الانتقال بين حركتين كالفتحة والكسرة أو العكس .

ك / k: صوت الكاف العربية ـــ طبقى شديد (انفجارى) مهموس .

ق / G: صوت القاف العربية ـــ لهوى ـــ شديد (انفجارى ـــ مجهور ـــ وصفه القدماء بالاستعلاء والتفخيم ، ومما يؤكد صفته كمجهور أن القدماء قد نبهوا إلى إظهار الغين إذا جاورت القاف فى مثل « لاتزغ قلوبنا » لقرب مابين الغين والقاف مخرجا وصفة [1] . والمقصود بالصفة هنا الجهر ، لأن الغين رخوة والقاف شديدة ، فهما من هذه الوجهة متباعدتان . وقد تعرض هذا الصوت لبعض الظروف الصوتية التى أفقدته صفة الجهر ، فأصبح مهموسا فى نطقنا الحديث ، ورمزه (q) .

غ / gh : صوت الغين العربية ـــ لهوى ـــ رخو (احتكاكى) مجهور ـــ يعد عند القدماء من أصوات الحلق ، وإن أشبه القاف فى صفة الاستعلاء .

خ / x: صوت الخاء العربية ـــ لهوى ـــ رخو (احتكاكى) مهموس . وهو نظير الغين ، مستعل أيضا .

ح / ḥ : صوت الحاء العربية ـــ حلقى ـــ رخو (احتكاكى) مهموس ـــ وهو نظير العين .

ع / ؟ : صوت العين العربية ـــ حلقى ـــ مجهور ـــ متوسط بين الشدة والرخاوة (احتكاكى) .

ء / ? : صوت الهمزة العربية ـــ حنجرى ـــ شديد (انفجارى) مهموس .

هـ / h: صوت الهاء العربية ـــ حنجرى ـــ رخو (احتكاكى) مهموس ـــ أطلق

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٢٠ .

عليه بعض المحدثين صفة « الصوت الناقص » حيث إنه عبارة عن الهواء المار بالأوتار الصوتية دون أى عارض يعترض طريقه (١) ، وتدل البحوث الحديثة على أن طبيعته الصوتية قريبة من طبيعة الحركات ، وقد سبق أن قررنا ذلك .

وفى ضوء هذه الدراسة الوصفية لأصوات الفصحى نستطيع أن نقوم بدارسة تحليلية لعملية الإدغام كما نتصورها ، بقطع النظر عما قاله القدماء فى هذا الصدد ، ولاشك أن القيام بهذه الدراسة يقتضى منا أن نمهد له بدراسة « المماثلة بين الأصوات وعلاقة الإدغام بها » ، كيما نفرغ بعد ذلك لعلاج مشكلته من الوجهة الصوتية .

* * *

٣ ــ ظاهرة المماثلة عند المحدثين وعلاقتها بالإدغام

كان ماسبق من الحديث عن معنى الإدغام عرضا لآراء القدماء بصدده ، ونحن هنا نوضح آراء المحدثين فيما سمى «بالمماثلة » :

والمماثلة نوعان : رجعية وتقدمية ، وذلك بحسب كونها من الأمام إلى الخلف ، أو من الخلف إلى الأمام ، والنوع الأول ــ المماثلة الرجعية ــ هو الأكثر شيوعا من الآخر ، مع أن كلا منهما يمكن أن يحدث فى لغة واحدة (٢) ، ومن الأمثلة على هذه الظاهرة فى العربية أن ينطق بعض الناس لفظة « اجتمع » : « اجد مع » ، فالتاء قد جاورت الجيم مجاورة مباشرة ، ففقد صوت التاء صفته كمهموس ، ليصبح مجهورا فى صورة نظيره « الدال » ، وقد اتخذت المماثلة هنا صورة تقدمية لأن الثانى فيها قد تأثر بالأول . ومثال ذلك أيضا : « ادّعى واذّكر ، وازداد » فالتأثر فى المثال الأول جاء فى صورة قلب لتاء الافتعال دالا ، وجاء فى المثال الثانى على مرحلتين ، حين قلبت تاء الافتعال إلى مجهورها الدال على صورة المماثلة التقدمية ، ثم فنيت الدال فى الذال على

---

(١) محاضرة « علم الأصوات عند سيبويه وعدنا » للدكتور أ . شاده .

(٢) الأصوات اللغوية ص ١٢٦ الطبعة الثالثة .

التأثر التقدمى أيضا ، وكان فى المثال الثالث فى صورة انقلاب التاء دالا بالزاى المجهورة [١] .

وقد يحدث العكس فتكون المماثلة رجعية يتأثر فيها الصوت الأول بالتالى كما فى قولهم : « ادّكر » ، فقد فنى الصوت الأول وهو الذال فى التاء (المجهورة) التى صارت دالا ، فأصبح مثلها .

ومن البين أن التأثر قد يكون جزئيا ، بمعنى أن يفقد الصوت صفة من صفاته كالجهر والهمس ، ويتحقق الصوت حينئذ ببعض صفاته الأخرى . وقد يكون كليا بمعنى أن يفقد الصوت وجوده كله ويصبح صوتا آخر .

ومهما يكن من شيء ، فإن من الضرورى أن نتساءل عن السبب الذى من أجله يؤثر صوت معين فى صوت آخر ، وعن القانون الذى يحكم هذه الظاهرة الصوتية الشائعة ؟ .

يقول مؤلفا كتاب (النحو التاريخى للغة الفرنسية) : « لقد لعبت المماثلة دورا بالغ الأهمية فى التطور الأصواتى للغة الفرنسية ، ومن الممكن تعريف أثرها بأنه : صوت أكثر قوة يؤثر على صوت أكثر ضعفا ، فيحيله شبيها به » [٢] .

فهما هنا يرجعان سبب حدوث المماثلة إلى قوة ذاتية فى الصوت المؤثر تميزه عن مجاوره الذى يتأثر به .

ولكن عالما آخر هو « موريس جرامونت » قد ذكر سببا آخر لحدوث المماثلة ، وإن شارك هذين العالمين رأيهما آخر الأمر ، فقد اتجه فى تفسير حدوث المماثلة وجهة خارجية بعيدة عن جوهر الصوت حين قال : « أما الوجه الذى تتم به الظاهرة فهو ذو طابع خارجى لايعتمد على جوهر الصوت ، فإذا ماتحدثنا عنه من الوجهة النفسية العضوية لم نجد للمماثلة الرجعية من تعليل سوى إسراع بحركات النطق

---

(١) الأصوات اللغوية ص ١٢٨ .

(٢) grammaire historique de la langue française Page 47

عن مواضعها ، وبأن المماثلة التقدمية التزام هذه الحركات والجمود عليها [(١)] ، وهذا فى رأينا تعريف للظاهرة بشقيها فى صورة تعليل نفسى عضوى ، ولكن المؤلف لايعتد بهذا التفسير وحده ، إذ يقول بعده : « ومع ذلك فهذه التفرقة ثانوية ، أما الشيء الأساسى فهو أن هناك صوتا يسيطر على صوت آخر ، وأن الحركة تتم فى اتجاه أو فى آخر ما إذا كان الصوت المسيطر موجودا فى الأمام أو فى الخلف » ، ويستطرد قائلا : « ولاشك أن الصوت المؤثر هو ذلك الذى تتوفر فيه صفات : أن يكون أكثر قوة ، أو أكثر مقاومة ، أو أكثر استقرارا ، أو أكثر امتيازا ، وإنما تتحدد هذه الصفات سلفا طبقا لنظام اللغة ، وعلى ذلك يمكن التنبؤ بالوجه الذى تتم عليه ظاهرة المماثلة ، الأمر الذى يستبعد معه هوى المتكلم ، ولتبسيط الأمر يمكننا أن نحدد القضية كلها فى كلمة واحدة هى (القوة) ، فالمماثلة تخضع لقانون واحد هو قانون (الأقوى) ... وقد قام الدليل على صحة هذا القانون منذ عام ١٨٩٥ ، وليست «المماثلة» ونقيضها : المخالفة ـــ هما اللذان يخضعان وحدهما له ، بل تخضع له جميع الظواهر التى يكون فيها تغير صوت ناشئا عن وجود صوت آخر . ولم يستثن من هذا القانون شيء ، ولن يخرج عن نظامه شيء مطلقا » [(٢)] ، وهنا يبدو لنا جرامونت وكأنه يرفض التفسير النفسى العضوى السابق ، إذ أنه يستبعد أن يكون لنفسية المتكلم دخل فى إحداث مثل هذا التأثير ، بل يرجع ذلك إلى صفات يمتاز بها الصوت المؤثر دون غيره ، ولكنه كما سبق أن قلنا يعتمد فى تفسيره للظاهرة على الأساسين الصوتى والنفسى ، وإن رجح الجانب الصوتى لموضوعيته ، وقد تحدث المؤلف فى هذا النص عن الصفات التى تجعل صوتا معينا أقوى من غيره ، فجعلها منحصرة فى (القوة والمقاومة والاستقرار والامتياز) ، ثم لخصها جميعا فى كلمة (القوة) ، ويظهر من كلامه أنه يجعل موقعية الصوت من عناصر قوته .

فقد تحدث عن تأثير الأصوات الصامتة بعضها فى بعض ، فضرب لذلك

---

(١) Traité de Phonètique, P. 185.

(٢) المرجع السابق .

مثلا كلمة (BEC) التى تنتهى بكاف انفجارية مهموسة ، ولكنها حين تلاها صوت الدال فى عبارة bec de lièvre [١] نتج عن التقاء الصوتين تأثر الكاف بالدال فى الجهر وحده ، ولكنها لم تصبح بذلك (جيما) ، وهى النظير المجهور للكاف ، بل أصبحت كافا مجهورة ، انفجارية ، كما هى .

ويفسر « جرامونت » هذا الحدث الصوتى ، فيتساءل : كيف تمت هذه الظاهرة ؟ ويجيب عن ذلك بقوله : « إن ال (d) أكثر قوة من ال (c) ، لابطبيعتها ، ولكن بحكم وضعها ، فهى فى موقع قوى لأنها بداية مقطع ، بالإضافة إلى أنها مسنودة بال (c) أى محمية بها من تأثير الحركة السابقة عليها ، فى حين أن ال (c) فى وضع ضعيف ، لأنها نهاية مقطع ، بالإضافة إلى أنها مسبوقة بحركة غير منبورة voyelle inaccentuée فقد اهتمت عضلات النطق بإصدار ال (d) ، ولم تهتم بإصدار ال (c) ، فنتج عن ذلك أن إحدى الحركات النطقية التى أعدت من أجل ال (d) — وهى ذبذبة الحنجرة — قد احتلت مجال ال (c) [٢] .

ويضرب بعد ذلك مثالا على « مقاومة الصوت لعوامل التأثير التى تحوطه ، ولكنه يجعل ذلك خاصا ببعض اللغات دون بعض ، فقد يقاوم الصوت عوامل الفناء التى تحوطه فى لغة ، ولا يقاومها فى لغة أخرى ، كما فى كلمة (uestis) اللاتينية ، فإن صوت ال (S) لم يفن فيها رغم أنه مسبوق بحركة ، ومتلو بصوت مقارب له ، فى حين وجدنا كلمة (testa) اللاتينية قد تحولت فى الفرنسية آخر الأمر إلى tête ، رغم أن الظروف الصوتية فى الكلمتين واحدة ، ولكن انتقال الثانية إلى الفرنسية قد أخضعها لقانون المماثلة فيها ، حيث تتدخل عوامل (عقلية ونفسية وعضوية) فى إحداث هذا التأثير [٣] .

ونستطيع أن نفيد من هذا الحديث المفصل بعض الحقائق المهمة فى

---

(١) هذا تعبير فرنسى بمعنى (مشقوق الشفة — أو الأعلم).
(٢) المرجع السابق ص ١٨٦ .
(٣) المرجع السابق ١١٨ .

الموضوع : فهو حين حدد صفات الصوت المؤثر المسيطر بأنها (القوة أو المقاومة أو الاستقرار أو الامتياز) يبدو أنه كان يؤسس ملاحظته بناء على الواقع الصوتى فى اللغات الأوربية ، وقد جعل انطباق هذه الصفات جميعها أوبعضها على لغة معينة خاضعا لظروف هذه اللغة ، بحيث لايعد من الضرورى أن يحدث فيها مايحدث فى لغة أخرى بحرفه ، فالأمر على هذا نسبى تحدد خطوطه الظروف الصوتية الخاصة بنظام اللغة .

على أنه من المحقق أن قانون « القوة » قانون عام فى كل اللغات بحيث لايمكن كما حدث جرامونت ـــ أن يتخلف ، ولكن الشكل الذى تتخذه القوة هو الذى يحتمل التنوع والاختلاف ، وقد سبق أن ذكرنا فى حديثنا عن مقاييس « سيبويه » فى الإدغام أنه جعل التأثير الإدغامى دائما للصوت الأقوى ، وحدد هنالك صفات القوة فى الصوت فحصرها جميعا فى ذات الصوت ، ولم يتعرض لموقعه ، ذلك لأن الموقعية متصلة بدراسة النظام المقطعى ، ولم يكن ذلك موضع اهتمام سيبويه والنحاة من بعده ، إلا فى بعض إشارات يسيرة عابرة نجدها فى كتبهم ، وهى ليست بذات قيمة هامة فى علاج الموضوع .

ولن نستطيع أن نتحدث عن أوجه الشبه بين حديث جرامونت وكلام القدماء إلا إذا حددنا طبيعة العلاقة بين المماثلة والإدغام ، ... ونقصد هنا الإدغام بمفهومه الاصطلاحى الذى نعالج أمثلته فى قراءة القرآن ، كما نعالج مقاييسه فى اللغة . وعلى الرغم من أن الأمثلة التى ساقها « جرامونت ، لاعلاقة لها بما يحدث فى الإدغام الاصطلاحى ، إذ إن التأثر فى مثل bec de lièvre إنما هو على مثال (أصدر) ، فإن إطلاق المماثلة شامل فى نظرة المحدثين لكل تأثير يحدث بين صوتين متجاورين فيقارب بينهما مهما يكن مبلغه ، أى إنه ينطبق تمام الانطباق تقريبا ـــ كما أسلفنا ـــ على معنى « الإدغام فى اصطلاح «سيبويه » و « ابن جنى » وبعبارة أخرى : المماثلة هى التقريب فى اصطلاح هذين الإمامين ، مع فارق واحد هو : أنهما يطلقان الإدغام أيضا على حالة التضعيف المحض الناشىء عن التقاء المثلين ، فى حين أن المماثلة لا علاقة

لها بمثل هذه الظاهرة . فإذا أخذنا فى اعتبارنا انفراد « الإدغام » فى رأيهما بهذه الحالة كان الإدغام أعم من المماثلة .

أما علاقة المماثلة بالإدغام الاصطلاحى فمن الواضح أنها أعم من وجه ، من حيث كانت شاملة لكل حالات التأثر ، فى حين نجده مقتصرا على حالة الاندماج الصوتى الكامل ، حيث يفقد الصوت المتأثر وجوده فقدانا كاملا ، كما أن الإدغام الاصطلاحى شامل حالة التضعيف التى أشرنا اليها سابقا ، وهى لاتدخل فى نطاق مفهوم المماثلة .

وإذا شئنا تحديد العلاقة من الوجهة المنطقية قلنا : إن بينهما ــ على هذا الأساس ــ عموما وخصوصا من وجه ، يجتمعان فى حالة التفاعل الصوتى الكامل ، وتنفرد المماثلة بحالات التأثير الناقص ، وينفرد الإدغام بحالة التضعيف . على أن الإدغام الاصطلاحى يحدث أحيانا مع بقاء أثر للصوت المدغم ، كما فى إدغام المتجانسين ، وكما هى الحال فى الإدغام بغنة ، ومع هذا تظل العلاقة بين الاصطلاحين كما حددناها عموما وخصوصا وجهيا ، فإذا كان الإدغام أحد أشكال المماثلة ، بل هو أقيس أشكالها جميعا فى العربية ، فمن البدهى أن تنطبق عليه قوانين المماثلة التى قررها المحدثون ، وقد وجدنا أنهم وضعوا لها قانونا عاما هو قانون (الأقوى) ، وقلنا إن هذا يتفق ووجهة نظر القدماء حين عالجوا الإدغام ، ولكن الفرق بين الفريقين ينحصر فى أن المحدثين قالوا بالموقعية فى المماثلة ، وجعلوها أول صفات القوة ، فى حين لم يتعرض القدماء لهذه الصفة . والواقع أن ظاهرة الإدغام لاتتم غالبا إلا بشرط الموقعية ، موقعية الصوت المدغم وموقعية الصوت المدغم فيه . ولإيضاح هذه الفكرة يمكن أن نستعين بأفكار المماثلة واصطلاحاتها فى تقسيم أنواع الإدغام ، فكما قيل : إن المماثلة رجعية حين يتأثر الأول بالثانى ، وتقدمية حين يتأثر الثانى بالأول ، يمكن أن نقول : إن الإدغام يتم على صورتين :

---

(١) الأصوات اللغوية ص ١٣٤ .

١ – إدغام رجعى ، حين يفنى الصوت الأول فى الثانى ، وهذا هو القياس فى الإدغام ، وهو أعم أشكاله جميعا مثل : (كلما خبت زّدناهم ــ الإسراء آ ٩٧) .

٢ – إدغام تقدمى حين يفنى الصوت الثانى فى الأول ، قياسا فى صيغة افتعل ، حين تكون الفاء فيها صوتا مجهورا كما فى « اذّكر وادّعى » ، وشذوذا فى مثل « جلدّه » فى « جلدته » .

فإذا نظرنا إلى الشكل الأول من أشكال الإدغام ، وهو الإدغام الرجعى ، وجدنا أن موقع الصوت المدغم لابد أن يكون سابقا ، وهو فى موقعه هذا يكون دائما نهاية مقطع ، فهو ضعيف عرضة للتأثر بالصوت التالى ، فى حين أن الصوت التالى أكثر قوة ، لأنه بداية مقطع ، فهو متمكن فى موضعه .

وعلى ذلك نقرر أن الموقعية بصورتها هذه شرط أساسى فى حدوث الإدغام الرجعى ، تفرضه طبيعة العملية الإدغامية ، فإذا توفر هذا الشرط أحدث التجانس أو التقارب عمله ، وإذا تخلف هذا الشرط لم يكن ثمة إدغام ، ولنأخذ مثلا على ذلك قوله تعالى (كلما خبت زدناهم) ، فالتاء هنا وقعت قبل الزاى مباشرة . وهى هنا نهاية مقطع ، فكان أن تأثرت بالزاى فأدغمت فيها لتقارب مابينهما فى المخرج . ولكن لو حدث أن انعكس الموقع بأن تقدمت الزاى على التاء ــ فإن الإدغام لايحدث حينئذ بالصورة السابقة ، أى إن التاء لاتقلب زايا . ومعلوم أن صوت الزاى لايدغم فى التاء إدغاما رجعيا ــ كما مر فى أمثلة النحاة . على أننا لو أخذنا مثلا صوت التاء فى التقائه بصوت الثاء فسنجد أن الموقعية تشترط بينهما أيضا لكى يدغم أحدهما فى الآخر إدغاما رجعيا . وبذلك نستخرج أن شرط الموقعية موجود فى الإدغام الرجعى ، رغم عدم النص عليه صراحة فى كلام القدماء ، أما فى الإدغام التقدمى فلامحل لاشتراط الموقعية من وجهين : قلة أمثلته ، وكونه غير قياسى ، فهو لايحدث إلا شذوذا ، وعكسه قياسى .

أما عن الصفات الأخرى التى ذكرها « جرامونت » فمن الممكن أن نرجع إلى ماسبق أن قررناه بصدد المقاييس التى وضعها النحاة للإدغام ، لنرى هنالك

الصفات الذاتية التى تجعل الصوت قويا . وقد قسمناها إلى صفات قوة لايمكن التنازل عنها ، وهى : (الاستطالة ، والتكرير ، والصفير ، والغنة ، واللين ، والمد) ، وصفة قوة يمكن التنازل عنها أحيانا ، وهى (الإطباق) .

ونستطيع أن نقول هنا فى ضوء كلام جرامونت : إن الصوت الذى يتصف بصفة من هذه الصفات يمكن أن يعد صوتا ممتازا ، أو أكثر مقاومة ، أو اكثر استقرارا وثباتا ، فصوت الضاد يتصف (بالاستطالة) ، ولما كان معناها أن المخرج يشغل مساحة كبيرة من أعضاء النطق أكثر من غيره ، فهو صوت أكثر استقرارا ، بمعنى أنه من الصعب أن يتأثر لثبات مركزه فى الفم بالنسبة لمقاربه من الأصوات .

وصوت كالصاد مثلا ، يمتاز بالصفير وبالإطباق ، ومعنى الصفير أنه أشد احتكاكا بمخرجه عند صدوره ، فهو أكثر وضوحا فى السمع ، فكان من العسير إحداث تأثير فيه ، إلا مع أخويه (السين والزاى) ، مع الاحتفاظ بالإطباق ، وهو ماسنعود لنناقشه فى القريب .

وهكذا يمكن أن يقال بالنسبة لسائر وجوه المقارنة بين القدامى والمحدثين .

وخلاصة القول : أن أسباب حدوث المماثلة بين الأصوات فى الإدغام الرجعى منحصرة فى (القوة) ، والقوة تتحقق فى صورتين :

١ — قوة ذاتية فى الصوت المؤثر ، ناشئة عن اشتماله على عناصر صوتية أكثر من الصوت المتأثر .

٢ — قوة موقعية ، حين يكون الصوت المؤثر بداية مقطع ، فى حين يحتل الصوت المتأثر نهاية المقطع السابق .

هذا إلى أن هنالك عاملا أساسيا هو التقارب بين الصوتين أو تجانسهما ، حتى يتم إدغامهما ، وهو شرط بدهى فى الإدغام .

وبهذين المعيارين ـــ اللذين يلخصان كل ماقبل قديما وحديثا فى هذا الصدد ـــ سوف نقيس ظاهرة الإدغام ، كما وردت فى اللغة الفصحى .

بيد أن حدوث المماثلة على هذا الوجه مشروط بأن يلتقى الصوتان التقاء مباشرا ، بمعنى ألا تفصل بينهما حركة ، كما سبق أن قلنا فى فصل إدغام القراء ، ولما كانت أواخر الكلمات ساكنة أحيانا ومتحركة أحيانا أخرى ، فقد قسم القدماء الإدغام إلى (صغير وكبير) .

ثم إن مصطلح الإدغام يطلق ـــ ضمن مايطلق عليه عند القدماء ـــ على مجموعة من الأمثلة لاتدخل فى نطاق المماثلة بمعناها الذى فصلناه ، فهو يطلق على صورة التقاء المثلين ، كما يطلق على التقاء المتجانسين أو المتقاربين . ولذا كان لابد من أن نشرح وجهة نظرنا فى هذه التقسيمات التى قال بها القدماء ، تمهيدا لتصفية حالات الإدغام ، واستخراج نتائج دراسته الصوتية والنحوية .

★ ★ ★

نقد تقسيمات القدماء للإدغام

ا ـــ التقسيم الأول : إلى صغير وكبير

قسم القدماء الإدغام إلى صغير وكبير ، ويعنون بالصغير أن يكون الصوت المدغم ساكنا ، أى لاتتلوه حركة ، سواء كان عدم الحركة فيه لازما ، كما فى فعل الأمر ، وحروف قد ، وإذ ، وهل ، وبل ، والتنوين ، أم كان عارضا كحركة اللام فى الماضى المسند إلى ضمير التاء فى مثل : فرطت ، فإن حركة الطاء فى هذا الفعل هى فى الأصل الفتحة ، ولكن اتصال الفعل بالتاء حذف الحركة كراهة توالى حركات كثيرة فى كلمة واحدة أو شبهها .

ويعنون بالكبير أن يكون الصوت المدغم متحركا ، فيلزم للإدغام أن تحذف هذه الحركة . وبذلك يمكن أن يقال : إن الإدغام الكبير يستلزم إجراء عمليتين :

الأولى : حذف حركة الصوت المدغم ، ليتم التقاء الصوتين التقاء مباشرا .

الثانية : قلب الصوت الأول من مثل الثانى لتتم المماثلة بين الصوتين على صورة الإدغام .

ولاشك أن العملية الأولى تثير مشكلة نحوية لأنها ذات صلة بالإعراب ، وجواز حذف الحركة الإعرابية ، وأسباب هذا الحذف ، ومواضعه ، وهى مشكلة خصصنا لعلاجها الباب الرابع من هذا البحث ، إلى جانب ظواهر أخرى تتصل بها فى قراءة أبى عمرو .

ولذا نفترض دائما فى هذا الفصل أن الصوت الأول لاتفصله عن الثانى حركة ، أى إن التقاءهما دائما على صورة الإدغام الصغير ، لأنها الصورة التى ينشأ عنها إدغام الصوت فى تاليه ، ونتائج هذا الإدغام فى مجال التوزيع الفونيمى لأصوات اللغة العربية .

فالمشكلة الصوتية فيما سمى بالإدغام الكبير هى بعينها مشكلة الإدغام الصغير ، وإن ضيق القراء مجال هذا ، ووسعوا مجال ذاك ، ربما لقلة الأمثلة الواردة فى القرآن ، أو لعله لتأثرهم بقواعد النحاة ، لأن هذا التقسيم ليس له من هدف إلا خدمة الجانب النحوى ، وبعبارة أخرى ، ليس لهذا التقسيم من أساس إلا النحو .

والغريب أن النحاة الأوائل كسيبويه والسيرافى لم يذكروا فى كتبهم إشارة إلى هذا التقسيم ، وقد كتب السيرافى فصلا عن « إدغام القراء » لم يشر إلى وجود مثل هذا التقسيم ، مما يؤيد مانذهب إليه من أنه كان من صنعة المتأخرين من القراء ، متأثرين بمقالات النحاة كابن جنى ، وهو تقسيم يدور حول الحركة الإعرابية وجواز حذفها ، أو اختلاسها فى بعض أمثلة الكبير ، فهو مفيد من حيث كونه تصنيفا للأمثلة الإدغامية من وجهة النحو ، وهو مايعين على دراسة المشكلة النحوية وأثرها على شكل المقطع العربى ، على ماسيجىء فى موضعه ان شاء الله .

* * *

ب ـــ التقسيم الثانى : إلى مثلين ومتقاربين ومتجانسين

قلنا عن التقسيم الأول : إنه كان مؤسسا على وجهة النظر النحوية للإدغام ، وهذا التقسيم يقوم فى حقيقته على التوزيع الصوتى للأمثلة الواردة ، وقد وجدنا أن

سيبويه ومن تبعه لم يذكروا منه سوى إدغام المثلين والمتقاربين ، وجعلوا إدغام المتقاربة شاملا لما سوى المثلين . فى حين وجدنا القراء يضيفون مصطلح « المتجانسين » فى هذا التقسيم ، وهى إضافة ناشئة عن تأمل أصحابها فى توزيع الأمثلة الواردة على أساس أصواتى .

وقد سبق أن ذكرنا مايقصده القراء بكل من إدغام المثلين ، والمتقاربين ، والمتجانسين ، ولكن لابأس أن نوجز ماذكرناه من قبل من أجل اطراد المناقشة .

فالمقصود بإدغام المثلين : أن يلتقى صوتان متماثلان فينطقا من موضع واحد ، بحيث يرتفع اللسان بهما ارتفاعة واحدة ، كأن يلتقى فى الكلام تاء وتاء ، أو دال ودال ، أو سين وسين ، فى مثل قوله تعالى : (الشوكة تكون ــ وقد دخلوا ــ الشمس سراجا) .

والملاحظ أن إدغام الدال فى (وقد دخلوا) قد ترتب عليه عدم قلقلة الدال الأولى ، على ماتجرى عليه قراءة التحقيق ، وبذلك لم يحدث فصل بين الصوتين بحركة أو شبه حركة .

وبدهى أن هذا النوع لا يحتوى من العملية الإدغامية إلا على الخطوة الأولى ، وهى حذف الحركة فى الأمثلة المحركة ، ثم ينطق بالصوتين على صورة الصوت المضعف (المشدد) ، ومعلوم أن الصوت المشدد بصوتين ، أولهما ساكن والثانى متلو بحركة ،ومن المقطوع به أنه لافرق بين الصوت المشدد فى مثل (قتّل) وبين الصوتين المدغمين فى مثل (الشوكة تكون) لا من حيث النطق الذى يأتى بهما من موضع واحد فى كلتا الحالين ، ولا من حيث التقسيم المقطعى ، لا فرق إلا أن الصوت المشدد فى (قتّل) فى موضع الوسط من الكلمة ، فى حين يتوزع فى (الشوكة تكون) بين نهاية الكلمة الأولى وبداية الثانية ، والتقسيم المقطعى لايعترف بهذا الفرق .

ومن هنا نرى أن مشكلة هذا النوع من الإدغام نحوية لا صوتية ، فلا علاقة له بالمماثلة من قريب أو بعيد . ولذا لم نتعرض له فى حديثنا فى هذا الفصل .

والمقصود بإدغام المتجانسين أن يتحد الصوتان فى المخرج ويختلفا فى الصفة . ويلاحظ أن هذا النوع يشمل العملية الإدغامية بشقيها (حذف الحركة ــ إن وجدت ، وقلب الصوت من مثل تاليه) ، ولذا فإنه سوف يكون موضع تحليل صوتى وإحصائى فى هذا الفصل ، إلى جانب أنه سيكون من مادة الباب التالى عندما نعالج المشكلة النحوية فى قراءة أبى عمرو .

والمقصود بإدغام المتقاربين : أن يختلف الصوتان مخرجا دائما ، ويتحدا أحيانا فى بعض الصفات ، أو يختلفا فيها ، فلدينا فى المتقارب صورتان :

١ – اختلاف فى المخرج واتحاد فى الصفة ، مثل إدغام الثاء فى الشين فى مثل قوله تعالى : (حيث شئتم) ، فالمخرج فيهما مختلف كما هو واضح ، ولكن الصوتين قد اتحدا فى الصفة العامة ، وهى الهمس والرخاوة (الاحتكاك) ، وامتازت الشين بالتفشى .

٢ – اختلاف المخرج ، واختلاف فى بعض الصفات ، مثل إدغام الجيم فى التاء فى قوله تعالى : (ذى المعارج تعرج) ، فالجيم مخرجها غير مخرج التاء ، كما أنها مجهورة والتاء مهموسة ، وقد اشتركتا فى الشدة (الانفجارية) مع امتياز الجيم بالتعطيش .

والمفروض فى هذا النوع أن تتقارب المخارج مع اختلافها ، فإن تباعدت لم يكن إدغام على ماسيأتى فى التحليل .

هذا النوع من الإدغام هو أساس بحثنا الصوتى فى هذا الفصل ، لأنه هو الذى يتم فيه التبدل الصوتى على أساس غلبة صفات القوة على عوامل الضعف ، حيث تكثر العناصر الصوتية التى ترجح كفة صوت على الآخر . على حين يقتصر اختلاف الصفة فى حالة التجانس على غلبة صفة أو صفتين على الأكثر ، صفة كما بين التاء والدال ، فليس بينهما سوى الجهر والهمس ، وصفتان كما بين التاء والطاء ، فليس بينهما سوى الجهر والهمس والإطباق والإنفتاح . وكذلك الحال بين الثاء والذال ، والثاء والظاء .

ومن هنا كانت فكرة تجانس الأصوات بسيطة قريبة المنال ، على حين نجد فكرة التقارب معقدة لكثرة الاعتبارات التى تتصل بها .

ولسوف نتناول الآن علاج هاتين الفكرتين تفصيلا تمهيدا لإجراء دراستنا التحليلية للإدغام .

★ ★ ★

« فكرة التجانس »

كان تحديد القدماء لفكرة التجانس على أساس اتحاد المخرج واختلاف الصفة ، ولو أننا نظرنا إلى جدول الرموز لأوقعنا فى ورطة ، إذ يضم المخرج الواحد فيه مايزيد أحيانا على خمسة أصوات مختلفة الصفات ، فمخرج الأصوات (الأسنانية اللثوية) يضم أصوات : « التاء والدال والطاء والنون والضاد واللام » ، ولا شك فى اختلاف كل صوت عن الآخر فى الصفة ، ولكن الورطة تأتى من اعتبارنا اتحاد المخرج بينها ، والواقع أن مخرجها رغم اتحاده من ناحية الأسنان واللثة ، مختلف من ناحية شكل اتصال اللسان بهذا الموضع المخرجى ، وهذا الاختلاف يسمح لنا باعتبارها مختلفة المخارج ، فمخرج التاء والدال والطاء واحد ، إذ يكون اتصال اللسان فيها بالأسنان واللثة على صورة اعتماد مقدمه على اللثة ، واتصال طرفه المدبب بأصول الثنايا العليا . ويعتمد فى حالة اللام بطرفه المدبب على أصول الثنايا ، على حين يلاصق جانبه بعض الأسنان والأضراس العليا على ماحدده سيبويه .

ويعتمد فى حالة النون بطرفه المدبب وحده على اللثة وأصول الثنايا العليا ، ويعتمد فى حالة الضاد بجانبه (الأيمن أو الأيسر) على مايليه من الأضراس مع اتصال طرف اللسان بموضع اللام ، طبقا لتحديد سيبويه أيضا . ولعلنا فى ضوء تحديدات سيبويه للمخارج نكون أقدر على تصنيف مجموعات الأصوات المتجانسة مع بعض تعديلات تتفق ومايراه المحدثون ، وذلك على الوجه التالى : ــ

(١) العين والحاء .

(٢) الغين والخاء .

(٣) الجيم والشين والياء .

(٤) الطاء والدال والتاء .

(٥) الظاء والذال والثاء .

(٦) الصاد والزاى والسين.

(٧) الباء والميم والواو .

ويلاحظ أن العلاقة بين كل مجموعة من هذه المجموعات هى وحدة المخرج مع افتراق الصوت عن مجانسه فى صفة واحدة كالأنفية فى الميم دون الباء ، والجهر والهمس فى العين والحاء والغين والخاء ،والإطباق والانفتاح ، فى الدال والتاء أو الطاء ، والذال والثاء أو الظاء ، والزاى والسين أو الصاد . أو فى صفتين كالجهر والشدة (الانفجارية) والهمس والرخاوة (الاحتكاك) فى الجيم والشين ، أو الجهر والإطباق والهمس والانفتاح فى التاء والطاء ، والثاء و الظاء .

★ ★ ★

«فكرة التقارب »

وتشتمل فكرة التقارب على علاقتين .. العلاقة المخرجية ، والعلاقة الوصفية ، لأن الصوت ماهو إلا مخرج وصفة ، وقد يدنو الصوت بمخرجه من مخرج صوت آخر ، فتكون العلاقة بينهما هى قرب المخرج . وقد تكون صفات الصوتين مع اختلاف المخرج متقاربة أو متباعدة ، فيحدث الإدغام أولا يحدث ، وحينئذ ينبغى أن ندرس هذه الناحية لندرك علاقة الصوتين المتقاربين من الوجهة الوصفية ، وبذلك نكون قد فهمنا تماما فكرة التقارب بين الأصوات ، التى تعد سببا أساسيا لحدوث المماثلة الإدغامية .

العلاقة المخرجية

ولدراسة العلاقة المخرجية بين الأصوات المدغمة ينبغى أن نقسم مجرى الصوت إلى مناطق أربع : —

(١) منطقة خارج الفم ، وتشمل فى الجدول السابق (الشفتين معا ، أو إحداهما مع الأسنان) .

(٢) منطقة وسط الفم ، وتشمل (الأسنان واللثة والغار) .

(٣) منطقة مابعد الوسط ، وتشمل الطبق واللهاة .

(٤) منطقة نهاية المجرى ، وتشمل الحلق والحنجرة .

وقد فرض علينا هذا التقسيم مالاحظناه فى جدول مقارنة الأصوات المدغمة [١] من تجمع أصوات كل منطقة من هذه المناطق على حدة ، وتبادلها غالبا التأثير فيما بينها .

ولكى تتضح فكرتنا فى هذا التقسيم ينبغى أن نفصل القول فى أصوات كل منطقة على حدة .

أصوات المنطقة الأولى : وهذه الأصوات هى (الباء ، والميم ، والفاء) [٢] وأحد هذه الأصوات الثلاثة وهو الفاء يدغم فى الباء فى مثل قوله تعالى : (نخسف بهم) ، كما أن «الباء» تدغم فى الفاء ، كما فى قولنا : (اذهب فى هذا الطريق) ، والثالث « الميم » يخفى فى الباء ، أى إنه يتأثر بها دون غيرها ، ولكن ذلك من باب التجانس لا التقارب .

وبذلك تكون هذه المجموعة قد تبادلت فيما بينها التأثير ، بناء على هذه العلاقة المخرجية ، كما أن صوتا منها لم يتأثر بأى صوت آخر خارج المنطقة .

---

(١) الفصل الأول من هذا الباب .

(٢) لم نعد منها (الواو) لعدم أهميتها فى باب الإدغام .

أصوات المنطقة الثانية : وهذه الأصوات هى : (التاء، والدال ، والطاء ، والنون ، والضاد والجيم ، والشين ، واللام ، والراء ، والثاء ، والذال ، والظاء ، والسين ، والزاى ، والصاد) ، وأصوات هذه المنطقة تعد أكبر مجموعة إدغامية ، حتى اعتبرها القدماء أصل الإدغام ، كما سلف . ولكثرتها وتنوع مخارجها تعقدت علاقاتها ، حتى إننا لنعترف بأن الجدول الذى وضعناه للأصوات الفصحى لايشرح لنا العلاقة بين مخارج وحداتها ، رغم اقتناعنا بأن الإدغام بينها من باب المتقارب لا المتجانس ، وحسبنا أن مجموعة الأصوات الأسنانية اللثوية (التاء والدال والطاء والضاد واللام والنون) وهى أكثر أصوات المنطقة عددا لايمكن أن نتصور صدورها من مكان واحد ، لأنها حينئذ تعد من المتجانس ، لا من المتقارب ، والأمر بعكس ذلك كما اتضح فيما مضى ، ولذا فإن جمعها كلها تحت عنوان (الأسنانية اللثوية) فيه تساهل كبير ، وليس يعيننا على إدراك الفروق الدقيقة بين مخارج أفراد هذه المنطقة سوى أن نعود إلى ماذكره سيبويه نستعين به على تصنيفها .

ولاشك عندنا فى أن وصف سيبويه معبر تماما عن التغاير المخرجى الذى يسمح لنا بأن نعتبر الإدغام فيها من باب المتقارب لا المتجانس .

فإذا قسمنا أصوات هذه المنطقة إلى وحدات متجانسة ، ثم بحثنا عن العلاقة المخرجية بين هذه الوحدات أمكن أن ندرك معنى التقارب فيما بينها .

وتقسيم هذه الأصوات إلى وحدات يعنى تقسيمها هكذا (الطاء والدال والتاء) ، و (الظاء والذال والثاء) ، و(الصاد والزاى والسين) ، و(النون واللام) ، و(الراء) ، و(الضاد) ، و(الجيم) ، و(الشين) ، وكل وحدة من هذه الوحدات ــ سواء تكونت من صوت واحد أو أكثر ــ تعد علاقتها بالوحدة الأخرى علاقة تقارب ، لاختلاف مخارجها ، على مارأينا فى وصف سيبويه .

وقد أدانا النظر فى ضوء الجدول الذى وضعناه لرموز الفصحى إلى تحديد علاقاتها المخرجية على الوجه التالى : ــ

(١) **صوتان متجاورا المخرج** ، ومن الأمثلة على ذلك : إدغام الجيم فى

الشين ، واللام فى النون أو فى الراء ، والطاء فى كل من الثاء والذال والظاء ، واللام فى كل من هذه المجموعة أيضا .

(٢) **صوتان يفصل بين مخرجيهما مخرج واحد** ، ومن أمثلة ذلك إدغام الشين فى السين وعكسه ، والضاد فى الشين ، والطاء فى الشين ، والدال فى الشين ، والتاء فى الشين ، واللام فى الشين .

(٣) **صوتان يفصل بين مخرجيهما مخرجان** ، ومن أمثلة ذلك ، إدغام الجيم فى التاء ، والطاء فى الجيم ، والظاء فى الشين ، والذال فى الشين ، وإدغام التاء فى الشين أيضا .

(٤) **صوتان يفصل بين مخرجيهما ثلاثة مخارج** ، وذلك كإدغام الظاء فى الجيم والذال فى الجيم ، والتاء فى الجيم .

ونلفت النظر هنا إلى أننا نعد المخارج طبقا للجدول ، لاطبقا لوصف سيبويه ، وإلا لكانت الفواصل أكثر من ذلك بكثير .

ويلاحظ أنه أنسب مايكون القرب حين لايزيد الفاصل على مخرج واحد ، وقد ورد منه فى القرآن الكثير ، أما حين يفصل بين الصوتين مخرجان فإن الأمر يختلف ، فقد نجده لدى النحاة والقراء ولكنه مستقبح ، وذلك مثل : إدغام الجيم فى التاء فى قوله تعالى (ذى المعارج تعرج) ، وهذا المثال لم يسلم من النقد ، قال الدانى :

« وإدغام الجيم فى التاء قبيح لتباعد مابينهما فى المخرج ، إلا أن ذلك جائز لكونها من مخرج السين [١] » وقد ذكر ابن الجزرى أنه لاخلاف فى إظهار الجيم عند الضاد والصاد فى قوله تعالى (أخرج ضحاها) ، و(مخرج صدق) [٢] ، وهذا يدل فعلا على سلامة حكم الدانى ، لأن الضاد والصاد قد يكونان أقرب إلى الجيم فى المخرج من التاء ، وقد يكون فى الأمر سر آخر نتناوله عند الحديث عن العلاقة الوصفية.

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٩٠ .

(٢) المرجع السابق .

وقد نجد الفصل بمخرجين لدى النحاة دون القراء ، وذلك كبقية ماذكرنا من أمثلة . أما حين يفصل بين الصوتين ثلاثة مخارج فلا نجد له عند القراء أثرا إلا فى حرف واحد من الإدغام الصغير ، وهو إدغام الذال من(إذ) فى الجيم فى مثل قوله تعالى : (إذ جاؤكم ـــ إذ جعل) ، ومادون ذلك انفرد بذكره النحاة .

على أن من غير الممكن فى العربية أن يدغم صوتان يفصل بين مخرجيهما أكثر من ثلاثة مخارج على الوجه الذى بيناه ، وستتأكد هذه الحقيقة أكثر من ذلك فى بقية المناقشة ، وبذلك نخرج بنتيجة محددة بشأن هذه المجموعة من الأصوات ، وهى :

أولا ـــ أن الإدغام يقع بين وحداتها على التفصيل المبين فى أمثلة القراء فى الفصل الثانى من الباب الثانى ، وفى أمثلة النحاة فى الفصل الأول من هذا الباب ، وهو واقع بين أدنى وحداتها وأقصاها ، حيث تفصل بين الصوتين المدغمين ثلاثة مخارج .

ثانيا ـــ أن من غير الممكن إدغام صوتين يفصل بين مخرجيهما أكثر من ثلاثة مخارج ، طبقا لجدول أصوات الفصحى .

أصوات المنطقة الثالثة : وهذه الأصوات هى (الكاف والقاف والغين والخاء) ونبادر إلى حذف هذين الصوتين الأخيرين لا لتحاقهما بأصوات الحلق ، فيبقى لدينا حرفان هما (الكاف والقاف) ، والمعروف أن هذين الصوتين يكونان وحدة مستقلة تتبادل فيما بينها التأثير ، فتدغم القاف فى الكاف ، كما تدغم فى القاف ، وهذه المنطقة تعد فى رأينا جدارا يفصل بين أصوات الفم وأصوات الحلق فى الإدغام ، وهو جدار محايد لايؤثر ولا يتأثر ، حتى إن الكاف ـــ رغم التصاق مخرجها بمخرج الجيم ، إلى حد أن تطورت الجيم الفصيحة فى بعض الألسنة الحديثة إلى أن صارت مجهور الكاف ـــ هذه الكاف لا تتأثر بالجيم مطلقا ، وسنعود إلى مناقشة هذا الموضوع فى بحث « العلاقة الوصفية » .

أصوات المنطقة الرابعة : وهذه الأصوات هى (العين والحاء والهاء والهمزة) ويلحق بها (الغين والخاء) .

فأما الغين والخاء فقد قاما أيضا بدور القاف والكاف ، فتبادلا التأثير معا ، دون أن تنشأ لهما علاقة بأصوات أخرى ، سواء من فوقهما أو من أسفلهما .

وأما العين والحاء والهاء ، فقد جرى التأثير بينها على الوجه المبين فيما سبق عند النحاة ، وعلى ماذكرنا بصدد رواية إدغام أبى عمرو للحاء فى العين فى قوله تعالى (فمن زحزح عن النار).

وأما الهمزة ، فلا تدخل فى باب الإدغام على ماسبق أن ذكرنا من كلام النحاة فى الفصل الأول من هذا الباب .

وبذلك يمكن تلخيص العلاقة المخرجية بين الأصوات المتقاربة فى الملاحظات الآتية : —

١ — ملاحظة استقلال كل منطقة من المناطق الأربعة بأصواتها ، بحيث لايتأثر صوت من منطقة بصوت من منطقة أخرى تأثرا إدغاميا ، وذلك باستثناء صوت النون الذى يدغم أو يخفى مع أصوات المناطق الثلاثة الأولى على ماهو مبين فى أحكام التجويد .

٢ — ملاحظة صحة قول النحاة بأن أكثر مايكون الإدغام فى أصوات الفم ، وقد أضافت هذه الدراسة إلى هذا القول دليلا إحصائيا على صحته .

٣ — ملاحظة أن الصوتين المدغمين لايفصل بينهما سوى ثلاثة مخارج على الأكثر ، وأن ذلك لايكون إلا فى أصوات منطقة وسط الفم ، أما بقية المناطق فإن العلاقة المخرجية بين الأصوات المدغمة فيها هى التجاور والملاصقة .

* * *

العلاقة الوصفية

لعلنا بعد دراسة فكرتى التجانس والتقارب المخرجى نستطيع أن نقوم بدارسة صفات الأصوات وعلاقة بعضها ببعض ، أعنى : دراسة القيمة الصوتية لهذه الصفات ، ومدى مابينها من تعادل أو تمايز .

وقد سبق أن قمنا بحصر حالات التأثر الإدغامى التى وقعت فى اللغة بعامة بين الأصوات المتقاربة والمتجانسة فبلغت ست حالات ومائة حالة ، موزعة على الأصوات المختلفة تأثرا وتأثيرا .

كما سبق أن قسمنا صفات الأصوات بحسب ماذهب إليه القدماء إلى ثلاثة أقسام : « صفات عامة ، وصفات مجموعات ، وصفات أصوات مفردة » . وقلنا هنالك : إن الصفات العامة هى : (الجهر والهمس ، والشدة والرخاوة والتوسط) ، وإن صفات المجموعات هى (الإطباق والانفتاح ، والاستعلاء والاستفال ، والاستطالة ، والغنة ، واللين ، والمد والصفير) . وإن صفات الأفراد هى (الانحراف ، والتكرير) .

هذه الصفات جميعها هى مادة دراستنا للعلاقة الوصفية بين الأصوات المدغمة سواء منها ماكان عاما أو خاصا ، بيد أن هنا ملاحظة تتصل بطريقتنا فى علاج الصفات العامة ، فيمكن أن ندمج مجموعة الأصوات المتوسطة فى مجموعة الأصوات الرخوة ونسميها بالأصوات المتمادية [(١)] ، وبعبارة أخرى اعتبرنا التوسط من باب الرخاوة ، ليسهل علينا تصور حالات الالتقاء الممكنة بين صفات أربع ، تتبادل فيها بينها المواقع ، بالإضافة إلى أن تجاهل صفة التوسط هنا لايؤثر فى النتيجة العامة على ماسيجىء . هذا إلى أننا لانفرق هنا بين متجانس أو متقارب ، فالفصل بينهما لايؤثر فى النتيجة أيضا .

فإذا مارجعنا إلى « جدول مقارنة الأصوات المدغمة » فى الفصل الأول ،

---

(١) هذا اقتراح مازال قيد البحث فى لجان المجمع اللغوى (عام ١٩٦٢ م) .

وأردنا أن نقيس هذه الصفات الأربع فى أحوالها المختلفة كان لابد أن نصنف حالاتها كالآتى :

(١) حالات يتنازل الصوت فيها عن صفة واحدة هى الجهر ، وذلك حين يتفق الصوتان فى الشدة والرخاوة ويكون المدغم مجهورا والمدغم فيه مهموسا ، فدرجة التقارب بينهما مقيسة بقدر مابينهما من اتفاق واختلاف ، إذ فى هذه الحالة وأشباهها تكون الشقة بين الصوتين قريبة .

(٢) حالات يتنازل الصوت فيها عن صفة واحدة هى الهمس ، وذلك حين يتفق الصوتان فى الشدة والرخاوة ، ويكون المدغم مهموسا والمدغم فيه مجهورا ، وهى نظير سابقتها .

(٣) حالات يتنازل الصوت فيها عن صفة واحدة هى الشدة ، وذلك حين يتفق الصوتان فى الجهر أو الهمس ، ويكون المدغم شديدا والمدغم فيه رخوا ، وهى نظير سابقتيها .

(٤) حالات يتنازل الصوت فيها عن صفة واحدة هى الرخاوة ، وذلك حين يتفق الصوتان فى الجهر أو الهمس ، ويكون المدغم رخوا والمدغم فيه شديدا ، وهى نظير سابقاتها .

(٥) حالات يتنازل الصوت فيها عن صفتى الجهر والشدّة ليصبح مهموسا رخوا فالصوتان هنا متباعدان صفة ، وإن تقاربا مخرجا . وكذلك الحالات المماثلة التالية .

(٦) حالات يتنازل الصوت فيها عن صفتى الهمس والشدة ليصبح مجهورا رخوا .

(٧) حالات يتنازل الصوت فيها عن صفتى الجهر والرخاوة ليصبح مهموسا شديدا .

(٨) حالات يتنازل الصوت فيها عن صفتى الهمس والرخاوة ليصبح مجهورا شديدا .

(٩) حالات لايتنازل الصوت فيها عن صفتيه ، ولكنه ينقلب إلى صوت له صفاته العامة ذاتها ، وهنا يكون التقارب فى الصفة فى أتم أشكاله ، بل إنه لايكون من المتقارب ولكن من المتماثل صفة ، ويشمل ذلك أربع حالات :

أ — مجهور شديد ينقلب إلى مجهور شديد .

ب — مجهور رخو ينقلب إلى مجهور رخو .

جـ — مهموس رخو ينقلب إلى مهموس رخو .

د — مهموس شديد ينقلب إلى مهموس شديد .

ولسوف نقوم الآن بعرض هذه الحالات جميعها فى جداول إحصائية ، لندرك أهمية كل صفة من هذه الصفات فى تطور اللسان العربى ، ومدى حرصه على تمثيل كل منها فى النطق الفصيح .

جدول (١) لقياس تنازل الصوت عن الجهر

صفة الصوت الأول	صفة الصوت الثانى	حالات الورود فى الإدغام	عدد الحالات	ملاحظات
مجهور رخو	مهموس رخو	العين فى الحاء ، الغين فى الخاء ، الظاء فى الثاء ، الظاء فى السين ، الظاء فى الصاد ، الظاء فى الشين ، الذال فى الثاء ، الذال فى الصاد ، الذال فى السين ، الذال فى الشين ، الزاى فى الصاد ، الزاى فى السين ، الضاد فى الشين ، اللام فى الصاد ، اللام فى السين ، اللام فى الثاء ، اللام فى الشين .	١٧	يلاحظ أن عدد الأصوات المجهورة سبعة عشر صوتا.
مجهور شديد	مهموس شديد	القاف فى الكاف ، الجيم فى التاء الطاء فى التاء ، الذال فى التاء	٤	يلاحظ أننا نعد كلامن القاف والطاء مجهورا طبقا للوصف القديم .

ومن ذلك يتضح أن عدد الحالات الإدغامية التى يفقد الصوت فيها صفة الجهر وحدها مع مجانسه أو مقاربه ــــ هى إحدى وعشرون حالة .

فلو أننا قمنا بحصر الأصوات التى يجرى فيها هذا النوع من التغير لوجدناها طبقا للجدول : (الجيم والدال والذال والزاى والضاد والطاء والظاء والعين والغين والقاف واللام) .

أما بقية المجهورات فلا تفقد فى هذه الحالة جهرها ، وهى (الباء والراء والميم والنون والواو والياء) . وذلك لعدم وجود مقارب أو مجانس مهموس لهذه الأصوات فى الفصحى تنقلب إليه بعد أن تفقد صفة الجهر ، وهو أمر واضح ، على حين أن الأصوات التى تنازلت عن صفة الجهر فى الحالات المذكورة قد انتقلت إلى نظير مهموس شائع فى أصوات الفصحى ، وسيأتى تحليل ذلك .

وقد بان أيضا أن عدد **الحالات** التى يتنازل فيها الصوت عن جهره هو تقريبا **ضعف عدد الأصوات** التى تتعرض لهذا التغيير فهو $\frac{٢١}{١١}$.

جدول (٢) لقياس تنازل الصوت عن الهمس

صفة الصوت الأول	صفة الصوت الثانى	حالات الورود فى الإدغام	عدد الحالات	ملاحظات
مهموس – رخو	مجهور رخو	الحاء فى العين ، الثاء فى الظاء ، الثاء فى الذال ، الثاء فى الزاى ، الثاء فى الضاد ، الصاد فى الزاى ، السين فى الزاى ، الخاء فى الغين	٨	
مهموس شديد	مجهور شديد	الكاف فى القاف ، التاء فى الدال التاء فى الطاء ، التاء فى الجيم	٤	عدد الأصوات المهموسة أحد عشر صوتا

ومن هذا الجدول يتبين أن عدد الحالات الإدغامية التى يفقد فيها الصوت صفة الهمس وحدها اثنتا عشرة حالة .

وهذه الحالات موزعة على الأصوات المهموسة التالية : (التاء والثاء والحاء و الخاء والسين والصاد والكاف). أما بقية المهموسات وهى : (الهمزة والشين والفاء والهاء) فلا تفقد همسها أبدا ، وذلك لعدم وجود نظير لكل منها مجهور فى الأصوات العربية ، فالهمزة لا مجهور لها ، وكذلك الفاء والهاء ، وأما مجهور الشين فهو وإن كان مستحسنا فى العربية إلا أنه غير مستخدم كثيرا فى النطق الفصيح على ماقرر النحاة [1] على حين يكشف تأمل الأصوات التى تتنازل عن صفة الهمس عن أنها تنتقل إلى صوت مجهور شائع فى أصوات الفصحى . على ماسيكشف عنه تحليلنا فيما بعد .

وقد ظهر لنا من الإحصاء أن حالات التنازل عن الهمس أقل بكثير من حالات التنازل عن الجهر من ناحية ، وهى أيضا أقل بالنسبة لعدد الأصوات المهموسة ، إذ قد بلغ ($\frac{٧}{١٢}$) ، وإن كان الفرق من هذه الناحية ليس كبيرا .

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٤ .

جدول (٣) لقياس تنازل الصوت عن الشدة

صفة الصوت الأول	صفة الصوت الثانى	حالات الورود فى الإدغام	عدد الحالات	ملاحظات
مهموس شديد	مهموس رخو	التاء فى الثاء ،التاء فى الصاد ، التاء فى السين ،التاء فى الشين	٤	
مجهور شديد	مجهور رخو	الطاء فى الظاء ،الطاء فى الذال الطاء فى الزاى ، الطاء فى الضاد الدال فى الظاء ، الدال فى الذال الدال فى الزاى ، الدال فى الضاد الباء فى الميم	٩	عدد الأصوات الشديدة ثمانية أصوات.

وهذا الجدول يرينا أن عدد الحالات التى يتنازل فيها الصوت عن صفة الشدة وحدها ـــ ثلاث عشرة حالة .

والأصوات التى تتعرض لهذا التغيير هى (الباء والتاء والدال والطاء) ، أما بقية الأصوات الشديدة وهى (الهمزة والجيم والقاف والكاف) ، فلا تفقد شدتها وحدها ، لتصبح رخوة ، لأن الهمزة ليس لها نصيب فى الإدغام ، والجيم إن فقدت شدتها انقلبت إلى صوت غير مستحسن فى اللغة الفصحى ، حيث تصبح مجهور الشين ، والقاف إن فقدت شدتها تصبح غينا ، ولم يحدث أن كان بين الصوتين تبادل إدغامى ، على مامر ، والكاف إن فقدت شدتها تصبح (خاء) متقدمة (من موضع الخاء المكسورة) ، وليس بين الصوتين علاقة إدغامية أيضا .

جدول (٤) لقياس تنازل الصوت عن الرخاوة

صفة الصوت الأول	صفة الصوت الثانى	حالات الورود فى الإدغام	عدد الحالات	ملاحظات
مهموس رخو	مهموس شديد	الثاء فى التاء	١	
مجهور رخو	مجهور شديد	الظاء فى الطاء ، الظاء فى الدال الظاء فى الجيم ، الذال فى الطاء الذال فى الدال ، الذال فى الجيم اللام فى الطاء ، اللام فى الدال	٨	عدد الأصوات الرخوة عشرون صوتا.

وهذا الجدول يرينا أن عدد الحالات التى يتنازل فيها الصوت عن صفة الرخاوة وحدها هو تسع حالات ، موزعة على الأصوات (الثاء ــ الذال ــ الظاء ــ اللام) . من بين الأصوات الرخوة البالغ عددها عشرين صوتا .

وهذه النسبة ذات دلالة مهمة إذا ماقورنت بسابقتها ، إذ إن أربعة أصوات شديدة من ثمانية يقع عليها التغير من الشدة إلى الرخاوة ، فى حين نجد أن أربعة أصوات من عشرين هى التى تفقد رخاوتها . وهذا يدل على أن الإدغام وسيلة من الوسائل التى تتخلص بها اللغة من شدة الأصوات الشديدة ، وعلى أن اللغة لا تميل بواسطة الإدغام إلى إحلال الشدة محل الرخاوة إلا فى أصوات قليلة . وهذه صفة من صفات اللغة الحضرية المتطورة .

جدول (٥) لقياس تنازل الصوت عن الهمس والرخاوة

صفة الصوت الأول	صفة الصوت الثانى	حالات الورود فى الإدغام	عدد الحالات	ملاحظات
مهموس رخو	مجهور شديد	الثاء فى الطاء ، الثاء فى الدال ، الثاء فى الجيم	٣	

ومن ذلك يتبين أن صوتا واحدا من الأصوات الرخوة المهموسة هو الذى يتعرض لتغيير صفتيه ، وهو « الثاء » ، أما بقية الأصوات الرخوة المهموسة وهى (الحاء ــ الخاء ــ السين ــ الشين ــ الصاد ــ الفاء ــ الهاء) ، فلا تتعرض لفقد صفتيها . وذلك فيما نرى لأمرين : أحدهما : أن الصوتين متباعدان صفة ، فأولهما على نقيض الآخر تماما ، وثانيهما : أن الانتقال فى هذه الحالة من الهمس والرخاوة إلى الجهر والشدة ، وهو أمر تثبت الإحصاءات عدم اتجاه اللغة فى تطور أصواتها إليه .

جدول (٦) لقياس تنازل الصوت عن الجهر والشدة

صفة الصوت الأول	صفة الصوت الثانى	حالات الورود فى الإدغام	عدد الحالات	ملاحظات
مجهور شديد	مهموس رخو	الجيم فى الشين ، الطاء فى الثاء الطاء فى الصاد ، الطاء فى السين الطاء فى الشين ، الدال فى الثاء الدال فى الصاد ، الدال فى السين الدال فى الشين ، الباء فى الفاء		

وهنا نجد أن عدد الحالات التى يفقد فيها الصوت صفتى الجهر والشدة عشر حالات موزعة على جميع الأصوات الشديدة المجهورة (الباء ـــ الجيم ـــ الدال ـــ الطاء) ، باستثناء القاف (التى فقدت جهرها فى الفصحى منذ عهد بعيد) .

ومقارنة هذا الجدول بسابقه تكشف عن حقيقة هى : أن اللغة تتجه غالبا إلى التخلص من الأصوات الشديدة المجهورة ، على حين تبقى على الأصوات المهموسة الرخوة ، رغم أن عددها أكبر من عدد سابقتها ، إذ إن نسبة المجهورة الشديدة إلى المهموسة الرخوة هى نسبة ٥ : ٨ .

جدول (٧) لقياس تنازل الصوت عن الجهر والرخاوة

صفة الصوت الأول	صفة الصوت الثانى	حالات الورود فى الإدغام	عدد الحالات	ملاحظات
مجهور رخو	مهموس شديد	الظاء فى التاء ، الذال فى التاء اللام فى التاء .	٣	

فالأصوات التى تفقد صفتى الجهر والرخاوة ثلاثة هى (الظاء والذال واللام) من بين المجهورات الرخوة البالغ عددها اثنى عشر صوتا ، والباقى هو (الراء ـــ الزاى ـــ الضاد ـــ العين ـــ الغين ـــ الميم ـــ النون ـــ الواو ـــ الياء) ، ويلاحظ هنا أن بين المجموعة التى لم تتأثر مجموعة الأصوات المتوسطة (الراء والعين والميم والنون) ماعدا اللام .

جدول (٨) لقياس تنازل الصوت عن الهمس والشدة

صفة الصوت الأول	صفة الصوت الثانى	حالات الورود فى الإدغام	عدد الحالات	ملاحظات
مهموس شديد	مجهور رخو	التاء فى الظاء ، التاء فى الذال التاء فى الزاى ، التاء فى الضاد	٤	

وقد اقتصر هذا التغيير كما نرى على صوت واحد هو (التاء) ، دون صوت « الكاف » الذى يشاركه فى الهمس والشدة .

بيد أن مقارنة هذا الجدول بجدول (٥) ترينا أن العربية حريصة من الوجهة الفونولوجية على الإبقاء على الصوت المهموس ، شديدا كان أم رخوا ، كما أنها تتجه إلى التخلص من المجهور شديدا كان أم رخوا ، ولكن يظهر حين نقارن نتيجة الجدول (٧) بالجدول (٦) أن التخلص من الجهر والشدة أكثر من الجهر والرخاوة .
فإذا رجعنا إلى الجدول (١) ، ورأينا هنالك كثرة الحالات التى يتخلص فيها من الجهر حسبنا أن اللغة تميل فى تطورها إلى همس المجهور ـــ وهى كذلك غالبا ، ومعنى ذلك فى الاحتمال الأخير أن الإدغام وسيلة من وسائل اللغة إلى تطوير أصواتها داخل البيئة الحضرية .

أما حالات اتفاق الصوتين فى الصفات العامة فقد جاءت كما أسلفنا على صور أربع :

جدول (٩) لقياس حالات الاتفاق فى الصفات العامة .

صفة الصوت الأول	صفة الصوت الثانى	حالات الورود فى الإدغام	عدد الحالات	ملاحظات
مهموس رخو	مهموس رخو	الهاء فى الحاء ، الشين فى السين الثاء فى الصاد ، الثاء فى السين الثاء فى الشين ، الصاد فى السين السين فى الشين ، السين فى الصاد	٨	
مجهور رخو	مجهور رخو	الظاء فى الذال ، الظاء فى الزاى الظاء فى الضاد ، الذال فى الظاء ، الذال فى الزاى ، الذال فى الضاد ، اللام فى الزاى ، اللام فى الظاء ، اللام فى الذال ، اللام فى الراء ، اللام فى النون ، اللام فى الضاد ، الراء فى اللام ، النون فى الياء ، النون فى الراء ، النون فى الميم ، النون فى اللام ، النون فى الواو	١٨	
مجهور شديد	مجهور شديد	الطاء فى الدال ، الطاء فى الجيم الدال فى الطاء ، الدال فى الجيم	٤	
مهموس شديد	مهموس شديد	— — —	لاشىء	

ومن هذا الجدول يتبين أن حركة التبادل أنشط ماتكون فى الأصوات المجهورة الرخوة ، إذ بلغ عدد حالات التبادل ثمانى عشرة حالة ، وهى فى الأصوات المهموسة الرخوة ثمانى حالات . والقاسم المشترك بين هذه الحالات جميعا هو الرخاوة . وهى نتيجة تؤيد ماسبق أن سجلناه فى ضوء الجد ولين (٣ ، ٤) ، من أن الرخاوة من الصفات التى تتسم بها اللغة الحضرية ، ولذا يهرب إليها من الشدة ، وهى فى هذا الجدول تساعد على إحكام الصلة بين الأصوات وتقريب مابينها ، حتى ليدغم الرخو فى الرخو على كثرة ، مهموسا كان أم مجهورا ، أى إن وجود الرخاوة فى صوتين يدنى أحدهما من الآخر فى أحوال كثيرة ، بالإضافة إلى أن الأصوات الرخوة هى أكبر مجموعة فى الأبجدية العربية ، إذ تصل إلى عشرين حرفا متقارب المخارج فى حين أن الشديدة ثمانية أحرف .

ولم نجد فى حالة اقترانها بالجهر غير صوتين اثنين من الأصوات المجهورة الشديدة ينتقل أحدهما إلى مقارب له مجهور شديد ، هما : (الطاء والدال) ، فإذا اقترنت بالهمس لم يدغم أحدها فى نظيره ، لتباعد مابين مخارجها ، فأحدها من أعمق مخرج صوتى ، وهو الهمزة ، إذ إن مخرجها هو الحنجرة ، وثانيها من وسط الفم وهو الكاف ، ومخرجها من الطبق ، وثالثها من مقدم الفم وهو التاء ، ومخرجها من الأسنان واللثة . ومثل ذلك يمكن أن يقال فى حالة الأصوات المجهورة الشديدة .

صفات المجموعات والمفردات

هذا هو مانفيده من دراسة العلاقة الوصفية بين الأصوات بعضها مع بعض فيما يتعلق بالصفات العامة ، أما صفات المجموعات والمفردات فهى صفات مميزة لأصواتها كما سبق فى مقاييس النحاة ، وحسبنا أن نراجع أمثلة الإدغام لندرك أهمية هذه الصفات فى تشكيل الواقع الصوتى ، أى فى تشكيل التوزيع الفونيمى لأصوات اللغة الفصحى ، ومدى تأثير الإدغام فى التطور الأصواتى للسان العربى قديما وحديثا .

إلا أنه ينبغى ألا تفوتنا الإشارة إلى أن الصفات العامة ـــ كما وضح من الجداول السابقة ـــ ليست إحداها بصفة قوة ، إذ قد وجدنا أن بعضها يذوب فى بعض ، على تفاوت فى القلة والكثرة . أما صفات المجموعات والأفراد فهى تفرض أصواتها على الأصوات الأخرى .

أى إنها لاتباعد بين الأصوات المتقاربة ، ولكن تحدد وجهة التأثير الإدغامى بين أصواتها وغيرها . وبعبارة أخرى : يوجد تعادل بين الصفات العامة ، بحيث تحل إحداها محل الأخرى ، لكن وجود الصفة الخاصة يزيل حالة التعادل بين الأصوات . على ما مر فى دراسة هذا الموضوع .

★ ★ ★

الفصل الخامس

الإدغام وعلاقته بالإبدال

سبق أن درسنا فى الفصل الثانى من هذا الباب فكرة الإدغام ، وعلاقته بظاهرة المماثلة ، وقد كان من تتمة هذا المبحث الصوتى أن نقوم بدراسة ظاهرة الإبدال بين الأصوات من حيث كونها انقلاب صوت إلى آخر ، كما هى الحال فى الإدغام . وعلى الرغم من أن هذا الموضوع لاعلاقة له بقراءة أبى عمرو واختياره فإنه من الناحية الصوتية يشير إلى علاقة وثيقة بينه وبين الإدغام ، وربما كشفت لنا دراسته عن بعض الجوانب الخفية فى التطور الصوتى للغتنا العربية ، وأثر هذا التطور فى ثروتها اللفظية .

(١) معنى الإبدال :

يراد بالإبدال عند اللغويين « إقامة حرف مكان حرف مع الإبقاء على سائر أحرف الكلمة [١] » ، ويبدو أن الذين وضعوا هذا التعريف قد تصوروا أن عملية هذا الإبدال إرادية يقوم بها صاحب اللغة متى شاء ، ولذا عبروا بقولهم « إقامة حرف مكان حرف » ولو أنهم عبروا بقولهم : « قيام حرف مكان حرف » لكانوا أقرب إلى التعبير عن طبيعة التطور الصوتى الذى يطرأ على اللغة ، فالواقع أن حدوث هذه الظاهرة غير متوقف على إرادة تقصد إليه ، وإنما هو عملية ترتبط بالتاريخ وبالزمن الطويل ، بحيث يجد المتكلمون باللغة أنفسهم أمام كلمات متعددة ، يدل تشابهها على أن إحداها قد تعرضت لمثل هذا التطور خلال السنين ، وليس من حق أى انسان ــ فى رأينا ــ أن يقوم هو بإحلال صوت محل صوت آخر من أجل توليد مفردة أو صيغة جديدة يضيفها إلى مالدينا من تراث لغوى ، بل المفروض أننا نلتزم بما ورثناه من تقاليد هذه الفصحى .

ولكن هل يكفى أن يفرق بين اللفظتين اختلافهما فى حرف واحد أيا كان ،

---

(١) كتاب الإبدال ص ٩ المقدمة .

لتعد صيغتاهما من باب الإبدال .. ؟ . أم أن العملية مشروطة بوجود علاقة بين المبدل والمبدل منه ؟ .

كلا هذين السؤالين يعد اتجاها خاصا بجمهور من العلماء القدامى ، ففريق اعتد كل لفظتين اختلفتا فى صوت واتفقتا فى بقية الأصوات من باب الإبدال ، ومن هؤلاء أبو الطيب عبد الواحد بن على اللغوى الحلبى (المتوفى سنة ٣٥١ هـ) ، وقد جمع فى مؤلفه « كتاب الإبدال » كثيرا من هذا النوع الذى اختلفت صورتاه فى صوت واحد دون بقية الأصوات ، رغم أنه قد لاتوجد أدنى علاقة بين الصوتين ، ورغم أننا لوراجعنا معاجم اللغة لوجدناها تثبت لأمثال هذه الكلمات معانى مختلفة ، أو تعتدها من باب الترادف ، ومن ذلك أنه اعتد قيام العين مقام الباء من باب البدل فى مثل (البَلَه ، والعَلَه) [1] ، فى حين رواهما صاحب اللسان أصلين لمعنيين مختلفين [2] ، واعتبر قيام الميم مقام الحاء فى (كردم وكردح) بدلا ، وهما فى اللسان مختلفان . وكذلك الحال فى (تخاوض القوم فى الحديث وتفا وضوا) فهما فى اللسان من باب المترادف ، إلى غير ذلك من الأمثلة . وكان من آرائه تصوره أن الإبدال بجميع صوره لايقع إلا بين لهجتين مختلفتين فقال : « ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف ، وإنما هى لغات مختلفة لمعان متفقة ، تتقارب اللفظتان فى لغتين لمعنى واحد حتى لايختلفان إلا فى حرف واحد ، قال : والدليل على ذلك أن قبيلة واحدة لاتتكلم بكلمة طورا مهموزة وطورا غير مهموزة ، ولا بالصاد مرة وبالسين أخرى ، وكذلك إبدال لام التعريف ميما ، والهمزة المصورة عينا كقولهم فى نحو (أنَّ) : (عَنَّ) ، لاتشترك العرب فى شىء من ذلك ، إنما يقول هذا قوم ، وذاك آخرون [3] » ، والواقع أن الإبدال على الصور التى رواها يدفع غالبا إلى نسبته إلى لهجات مختلفة ، لاستحالة أن يكون صادرا عن لسان واحد ، بيد أن فى المسألة تفصيلا لايحتمل مثل هذا التعميم ، بل قد يعدله .

---

(١) كتاب الإبدال ص ١٦ .

(٢) اللسان جـ ١٣ ص ٤٧٧ ، ٨١٥ .

(٣) المرجع السابق ــ المقدمة ص ٦٩ .

والفريق الآخر هو الذى اشترط لكى تعد الكلمتان من باب الإبدال أن تكون بين الصوتين علاقة تدعو إلى إحلال أحدهما محل الآخر ، ومن أبرز علماء هذا الفريق (أبو زكريا الفراء ــ المتوفى سنة ٢٠٧ هـ) ، وله « كتاب النوادر » فى اللغة ، وقد روى عنه السيرافى فى شرحه لكتاب سيبويه رأيه حيث قال : « إنما يعلم ماتناسب من الحروف باللغة أن يبدل الحرف من أخيه ويكون معه فى قافية واحدة مثل ، مدح ومده والنون والميم فى قافية ، والعين والهمزة مثل : استأديت واستعديت ، وهذا كثير ، يبدل الحرف من أخيه فيدغم فيه إذا قرب ذلك القرب [١] ، ومعنى ذلك أن الفراء بربط بين الإبدال والإدغام ، ويستدل بحدوث الإبدال بين الصوتين على أنهما متقاربان ، ومن ثم يجوز أن يدغما : أحدهما فى الآخر .

واشتراط العلاقة بين الصوتين المبدلين أمر منطقى ، إذ هى دليل على إمكان حدوث إبدال . ولكن الربط بين الإدغام والإبدال يعد فى رأينا محتملا للأخذ والرد ، لأننا لانسلم مع الفراء بأن كل ماجاز إدغامه جاز إبداله ، أو العكس ، فإن بعض الأصوات التى جاز إدغامها لم توجد لها أمثلة فى الإبدال ، والعكس أيضا صحيح ، فكثير من الأصوات التى رويت على أنها إبدال لايحدث بينها إدغام ، كالجيم والياء مثلا ، اللهم إلا إذا كان الفراء يريد أن يعبر عن الفكرة العامة فى الموضوع ، ولابأس بوجود مستثنيات تفرق بين الظاهرتين .

وقد تعرض السيرافى لهذا الرأى بالنقد الشديد فقال : وهذا كله خطأً فاحش فى باب الإدغام ، لأنه يلزم قائله إذا اعتبر الإدغام بالقلب والإبدال فى بعض المواضع أن يدغم الهمزة فى العين ، والعين فى الهمزة ، من حيث قالوا : استأديت واستعديت ، وهذا لايقوله أحد ، ويلزمه أيضا أن يدغم الهاء فى الهمزة ، والهمزة فى العين ، من حيث قالوا : إياك ، وهياك ، وهيهات ، وأيهات ، فيقول فى :اجبه أحمد : اجبأً حمد ، وفى اقرأ هذا : اقر هًّذا ، وذا مستشنع لايقوله أحد ، وكذلك ، تدغم الياء فى الهمزة ، والهمزة فى الياء من حيث قالوا : يلمعى وألمعى ــ إذا كان ظريفا ، ويرقان وأرقان ، ويلندد وألندد —

---

(١) شرح كتاب سيبويه – مخطوط بدار الكتب جـ ٣.

ومعناه شديد الخصومة ... وكذلك إدغام الجيم فى الحاء والحاء فى الجيم من حيث قالوا : تركت فلانا يجوس بنى فلان — بمعنى يدوسهم ويطلب فيهم ، وكذلك يحوسهم بهذا المعنى ، و (أجم) الأمر وأحم — إذا حان الوقت ، فيقال فى الإدغام فى قولنا : أخرج حاتما : أخر حّاتما ، وفى اذبح جذعا : إذ بَجّذعا ، وهذا مستشنع منكر لا يقوله أحد ، وكذلك إدغام الثاء فى الفاء ، والفاء فى الثاء ، لأنهم قالوا : جدث وجدف ، والدفى والدثى ، وغير ذلك مما يطول شرحه ، وليس أحد يدغم بعض ما ذكرناه فى بعض . والنون تدغم فى الراء ليس بين الناس فى ذلك خلاف ، ولا تدغم الراء فى النون عند الفراء ولاغيره فيقال للمحتج عنه : أليس النون إذا أدغمت فى الراء فإنما تدغم فيها لما بينهما من المؤاخاة لاجتماعهما فى قافية ، أو بدل أحدهما من الآخر على ماذكرناه عنه من صفة الحروف التى يدغم بعضها فى بعض ؟ ..

فإذا قال : نعم . قيل له : فبهذا المعنى أجز إدغام الراء فى النون ، لأن الاتفاق بينهما قائم ، وقد ناقض فيه ، والصحيح ماقاله سيبويه من أن الراء فيها تكرير ، وهو صوت يختص به الراء دون ماقاربها فى المخرج ، وأبدل منها ، وكذلك غيرها من الحروف التى لها صوت وتفشٍّ واستطالة ، نحو الصاد والزاى والسين والشين ، فكرهوا إدغامها لئلا يذهب ذلك الصوت) [١] .

ويلاحظ على السيرافى فى نقده هذا اعتباره لكثير من الألفاظ المترادفة من باب الإبدال ، كما فى أجم وأحم ، وجاس وحاس ، وألمعى ويلمعى ، ويرقان وأرقان ، مع أن الصوتين المتبادلين متباعدا المخرج والصفة . وإن كان فى ملاحظته عموما نصيب كبير من الصواب .

والواقع أننا لو استبعدنا الأصوات غير القابلة للإدغام فى ذاتها كالهمزة ، أو مع غيرها كالهاء فى العين ، يمكن أن نعتبر رأى الفراء قريبا من الصواب ، مع بعض تعديلات ينبغى أن تدعم بها ملاحظته .

---

(١) المرجع السابق .

فالصوتان المبدل أحدهما من الآخر لايمكن إلا أن يكونا على علاقة مخرجية ووصفية ، وفى ضوء هذه العلاقة نستطيع أن نضع تعليلا لما لدينا من أمثلة حدث فيها إبدال ، فإذا انتفت لم يكن ثمة مجال للقول بالإبدال ، بل يكون كل منهما أصلا لغويا بذاته ، فمثال ماكانت بين الصوتين فيه علاقة مخرجية ماروته المعاجم من أن : (كل جرىء سبندى وسبنتى [(١)]) فبين الدال والتاء وحدة فى المخرج ، واتفاق فى صفة الشدة ، واختلاف بالجهر والهمس ، وهذه علاقة تسمح بانتقال أحد الصوتين إلى الآخر على ألسنة الناطقين باللغة .

ومثال ماانعدمت فيه العلاقة بين الصوتين قولهم : (انداح بطنه واندال إذا خرج وبدت سرته [(٢)]) ، فليس بين الحاء واللام علاقة مخرجية ، بل بينهما تباعد مخرجى ، إلى جانب التباعد الوصفى ، فالحاء مهموسة واللام مجهورة ، والحاء رخوة واللام متوسطة ، وهذا التباعد يمنع من الحكم على الكلمتين بالإبدال ، فكلاهما أصل مستقل .

كما ينبغى الإشارة إلى ضرورة اتحاد المعنى بين اللفظين المبدلين اتحادا كاملا ، لأن اختلافه يدل على انعدام الصلة بينهما غالبا ، وعلى استقلال كل منهما بوضعه ، إلا إذا وجدنا أن الأصل واحد ولكن التطور الصوتى الذى طرأ عليهما ساعد على اختلاف معنى أحدهما عن الآخر بالزيادة أو النقص ، ومن هذا القبيل تلك المجموعات من الكلمات التى تشبه عند اجتماعها السلالة اللغوية مثل : « غم وغمد وغمر وغمس وغمص وغمض وغمط وغمق وغمن وغمى ، فإنها كلها تدل على الستر والتغطية مع اختلاف المعانى [(٣)] .وهو من الاشتقاق الأكبر .

وقد نمت ملاحظة الفراء هذه لدى العلماء فيما بعد ، فجاء ابن جنى واشترطها حين تحدث عن الحرفين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه ، ولكنه

---

(١) اللسان جـ ٣ ص ٢٠٣ .

(٢) كتاب الإبدال ص ٣١٠ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠ المقدمة ، وفقه اللغة للاستاذ محمد المبارك ص ٥٠ .

قرن هذا الشرط بأن يئول أحد اللفظين إلى الآخر عند التصرف ، كما فى نحو : فلان خامل الذكر وخامنه ، فالفعل منهما خمل يخمل خمولا ، أما إذا استقل كل منهما بتصريف خاص ، لم يسغ أن يقال بالبدل بينهما مثل : (هتنت السماء وهتلت) لأنهما متساويان فى التصرف (١) .

وحتى هؤلاء الذين قالوا بالإبدال بين الأصوات المتباعدة لم تفتهم ملاحظة حدوثه فى مجموعة من الأصوات المتقاربة ، وهو عندهم فيها قياس مطرد ، فقد لاحظ الفراء — وهو من القائلين بضرورة تقارب الصوتين — « أن نفرا من بلعنبر يصيرون السين إذا كانت مقدمة ، وجاء بعدها (ط — ق — غ — خ) صادا (٢) . فجاء البطليوسى (المتوفى سنة ٥٢٠ هـ) وهو من القائلين بإبدال المتباعد كأبى الطيب — وقال بصحة رأى الفراء ، وزاد على هذه الأحرف الأربعة حرفا خامسا هو (ع) ، وصاغ هذا الرأى فى القاعدة التالية : (الحرف الأضعف يقلب إلى الأقوى ، ولا يقلب الأقوى إلى الأضعف) مثل : سقر وصقر ، وسخر منه وصخر الخ (٣) .

وهذا الانقسام بين العلماء القدامى بصدد الإبدال حدث أيضا بين المحدثين ، فمن القائلين بالإبدال فى المتباعد صاحب كتاب (الاشتقاق) فقد وجدناه — وهو يسوق أمثلة على العلاقات بين الأصوات مأخوذة عن ابن السكيت — يجعل من الإبدال ماتقاربا صفة وتباعدا مخرجا (٤) ، كما جعل منه ماتباعدا مخرجا وصفة (٥)

ومن القائلين بوجوب التقارب بين الصوتين المتبادلين أستاذنا فى كتابه (من أسرار اللغة) ، فقد قال : حين نستعرض تلك الكلمات التى فسرت على أنها من الإبدال حينا ، أو من تباين اللهجات حينا آخر — لانشك لحظة فى أنها جميعا نتيجة

---

(١) الخصائص جـ ٢ ص ٨٢ .
(٢) روى مثل هذا عن قطرب مفصلا (اللسان حـ ٨ ص ٤٤٠) وسيأتى .
(٣) كتاب الإبدال ص ١٧ المقدمة .
(٤) الاشتقاق للأستاذ عبد الله أمين ص ٣٦١ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٦٧ .

التطور الصوتى ، أى إن الكلمة ذات المعنى الواحد حين تروى لها المعاجم صورتين أو نطقين ، ويكون الاختلاف بين الصورتين لايجاوز حرفا من حروفها نستطيع أن نفسرها على أن إحدى الصورتين هى الأصل ، والأخرى فرع لها ، أو تطور عنها ، غير أنه فى كل حالة يشترط أن نلحظ العلاقة الصوتية بين الحرفين المبدل والمبدل منه ، ودراسة الأصوات كفيلة بأن توقفنا على الصلات بين الحروف ، وصفات كل منها ، أى إن القرب فى الصفة أو المخرج شرط أساسى فى كل تطور صوتى (١) .

وهذا هو فى رأينا الأساس الذى ينبغى أن تفسر به عملية الإبدال كما سبق أن فسرت به عملية الإدغام ، فمدلول لفظة « إبدال » أن التطور واقع على لفظ الكلمة ، أى : فى أصواتها ، لا فى معناها ، ومعلوم أن تطور الأصوات إنما يتجه بها إلى أن تماثل نظائرها أو أن تخالفها ، ولكل من المماثلة والمخالفة حدود ، فالمماثلة يشترط فيها وجود علاقة بين الصوتين من تجانس أو تقارب ، والمخالفة إنما تحدث دائما فى اتجاه أصوات اللين أو ماأشبهها وبخاصة النون واللام (٢) . فما خرج عن ذلك لم يكن بوسعنا تفسيره إلا على أساس استقلاله فى أصل وضعه اللغوى . والغالب فيما جاء على قاعدة المماثلة أو المخالفة أن ينتسب إلى لهجتين مختلفتين ، أما غيرهما فمن الممكن أن يجتمع الأصلان فى لهجة واحدة ، ومن هذا الباب ماجاء على صورة السلالة اللغوية ، كما أن منه ماكان الصوتان فيه متباعدين على مامثلنا .

فإذا قلنا بوجوب وجود علاقة مخرجية وصفية بين الصوتين المبدلين كان لابد لنا أن نرسم حدود هذه العلاقة ، وبخاصة إذا وجدنا أن بعض ـــ الدراسات التى تصدت لهذا الموضوع قد أصدرت بعض الأحكام المحتملة للنقد ، كأن يعتبر بعض الدارسين أن انقلاب اللام إلى الراء من باب المتباعد مخرجا المتقارب صفة ، كما فى المجلف والمجرف (الذى ذهب ماله) ، وسهم أملط وأمرط (أى ليس له ريش) ، وأن الزاى والذال متباعدان ، وكذلك الطاء والظاء ، والميم والفاء ، ويشبه هذه الأزواج فى

---

(١) من أسرار اللغة ص ٥٨ الطبعة الثانية .

(٢) الأصوات اللغوية ص ١٥٢ .

تباعدها بحال الهاء مع الفاء فى مثل : هودج وفودج (مركب النساء مقببا وغير مقبب) . وكأن يجعل من باب المتباعد فى المخرج والصفة : الصاد والباء ، والطاء والصاد ، والباء والفاء [1] . فى حين نعد نحن كل هذا من باب المتقارب . ولنا على ذلك دليل مقنع .

ولكى نرسم حدود هذا التقارب بين الأصوات المبدلة ينبغى أن نقوم بعملين أساسيين :

أولهما : أن نقوم بحصر الصور التى ورد فيها إبدال صوت من صوت بقدر الإمكان ، سواء فى ذلك ماكان متقاربا أم متباعدا ، والقيام بحصر جميع الصور يقتضى مراجعة جميع المصادر اللغوية والفنية ، ومعاناة دراستها للتفتيش عن هذه الصور ، وذلك أمر جائز فى رسالة خاصة بالإبدال ، دون سواه ، أما نحن فقد قمنا بحصر الصور التى وردت فى معجم (لسان العرب) والتى ذكر صاحب اللسان بإزاء كل صورتين منها أن إحداهما لغة فى الأخرى ، أو بدل منها ، كما اعتمدنا فى حصر بعض الأصوات على ماحقق من « كتاب الإبدال » لعبد الواحد اللغوى (عام ١٩٦١) ، وهو الجزء الأول ، وقد وصل فى إحصاء صور الإبدال إلى حرف (الذال) ، كما أن بين أيدينا نماذج من إبدال ابن السكيت فى كتاب « الاشتقاق » ، وأظن أن حصر هذه الصور كاف لإعطاء فكرة واضحة عن الأصوات التى وقع بينها تبادل فى لغتنا العربية .

ثانيهما : أن نأخذ هنا بالمقياس الذى درسنا به فكرة التقارب فى الإدغام بتقسيم الفم إلى مناطق ، وتقسيم الأصوات إلى متجانس ومتقارب ، ثم نحصى فى ضوء هذا التقسيم ما يندرج تحته من صور ، مسترشدين بما سبق فى الإدغام من اعتبار بعض المجموعات متقاربة بالمخرج رغم مايبدو من تباعدها .

وقد سبق لنا أن قسمنا مخارج الأصوات أربعة أقسام :

١ـــ منطقة خارج الفم وتشمل الشفتين حين تعملان معا ، أو حين تعمل إحداهما مع الأسنان . ويخرج من هذه المنطقة ثلاثة أصوات هى (ب ـــ م ـــ ف) .

---

(١) الاشتقاق ص ٣٦١ ومابعدها .

٢ – منطقة وسط الفم ، وتشمل الأسنان واللثة والغار ، وأصواتها هى (ت ـــ د ـــ ط ـــ ن ـــ ض ـــ ج ـــ ش ـــ ل ـــ ر ـــ ث ـــ ذ ـــ ظ ـــ س ـــ ز ـــ ص ـــ ى) .

٣ – منطقة مابعد الوسط ، وتشمل الطبق واللهاة ، وأصواتها هى (و ـــ ك ـــ ق ـــ غ ـــ خ) .

٤ – منطقة نهاية المجرى ، وتشمل الحلق والحنجرة ، وأصواتها هى (ع ـــ ح ـــ هـ ـــ ء) .

وقلنا أيضا : إن أصوات كل من هذه المناطق الأربعة مستقل عن الأصوات الأخرى من حيث التأثير والتأثر الإدغامى ، فقد وجدنا أن المماثلة لم تحدث إلا بين أصوات كل منطقة على حدة ، كما وجدنا هنالك أن بعض الأصوات قد امتاز على غيره بصفات خاصة أكسبته مناعة ضد التأثر بالأصوات الأخرى المقاربة له والمجانسة ، وذلك كالياء التى امتازت باللين فامتنعت على الإدغام فى الجيم والشين ، والشين التى امتازت بالتفشى فلم تدغم فى مقاربها غير السين عند القراء ، لا النحاة ـــ ولم تدغم فى مجانسيها أيضا ، وهما الجيم والياء ، إلى غير ذلك مما سبق فى دراسة صفات المجموعات وأثرها فى التطور الصوتى للغة الفصحى .

فهل يمكن أن نطبق على الإبدال ما سبق أن قررناه بشأن الإدغام بجميع تفاصيله ، أم أن هناك خلافا بين الظاهرتين ، وإن وجد هذا الخلاف فما منشؤه . ؟ .

أما أن هناك خلافا بين الظاهرتين فيتضح ذلك ، فى الجانب الصوتى ، من الجدول التالى الذى أحصينا فيه حالات الإبدال فى الأصوات المتقاربة ، طبقا للمقياس السابق : ـــ

٢ – جدول مقارنة أصوات الإبدال بأصوات الإدغام فى حالة التقارب

الصوت	الأصوات التى يتبادل معها	الأصوات التى يدغم فيها
١) الهمزة	العين ـــ الغين ـــ الهاء	
٢) الهاء	الهمزة ـــ الحاء ـــ الخاء	الحاء
٣) العين	الهمزة ـــ الحاء ـــ الغين	الحاء
٤) الحاء	الخاء ـــ العين ـــ الغين ـــ الهاء	العين
٥) الغين	الهمزة ـــ العين ـــ الحاء ـــ الخاء	الخاء
٦) الخاء	الحاء ـــ العين ـــ الغين ـــ القاف ـــ الهاء ـــ الكاف ـــ	الغين
٧) القاف	الخاء ـــ الكاف	الكاف
٨) الكاف	الشين ـــ القاف	القاف
٩) الجيم	السين ـــ الدال ـــ الذال ـــ الزاى ـــ الطاء ـــ الظاء ـــ الصاد ـــ الشين ـــ النون ـــ الياء	الشين ـــ التاء
١٠) الشين	الجيم ـــ السين ـــ الصاد ـــ الكاف	السين
١١) الياء	الجيم ـــ النون ـــ الواو	ـــ
١٢) الواو	الياء	ـــ
١٣) الضاد	الذال ـــ الظاء ـــ الزاى ـــ الصاد	الشين

الصوت	الأصوات التى يتبادل معها	الأصوات التى يدغم فيها
١٤) اللام	الراء ـــ النون	الصاد ـــ الزاى ـــ السين ـــ الطاء ـــ الدال ـــ الفاء ـــ الظاء ـــ الذال ـــ الثاء ـــ الشين ـــ الراء ـــ النون
١٥) الراء	اللام	اللام
١٦) النون	الجيم ـــ الياء ـــ اللام ـــ الميم	الراء ـــ اللام ـــ الميم ـــ الياء ـــ الواو
١٧) الطاء	التاء ـــ الدال ـــ الصاد ـــ الظاء	الدال ـــ التاء ـــ الظاء ـــ الذال ـــ الثاء ـــ الصاد ـالزاى ـــ السين ـــ الضاد ـــ الشين ـــ الجيم .
١٨) الدال	التاء ـــ الجيم ـــ الذال ـــ الزاى ـــ السين ـــ الضاد ـــ الطاء	الطاء ـــ التاء ـــ الظاء ـــ الذال ـــ الثاء ـــ الصاد ـــ الزاى ـــ السين ـــ الضاد ـــ الشين ـــ الجيم .
١٩) التاء	الثاء ـــ الدال ـــ الذال ـــ الزاى ـــ السين ـــ الصاد ـــ الزاى ـــ الطاء ـــ	الطاء ـــ الدال ـــ الظاء ـــ الذال ـــ الثاء ـــ الصاد ـــ السين ـــ الشين ـــ الجيم ـــ الضاد

الصوت	الأصوات التى يتبادل معها	الأصوات التى يدغم فيها
٢٠) الظاء	الذال ـــ الطاء ـــ الصاد ـــ الضاد	الطاء ـــ الدال ـــ التاء ـــ الذال ـــ الثاء ـــ الصاد ـــ الزاى ـــ السين ـــ الشين ـــ الضاد ـــ الجيم .
٢١) الذال	الثاء ـــ الجيم ـــ الدال ـــ الظاء ـــ الضاد .	الطاء ـــ الدال ـــ التاء ـــ الظاء ـــ الثاء ـــ الصاد ـــ الزاى ـــ السين ـــ الضاد ـــ الشين ـــ الجيم .
٢٢) الثاء	الجيم ـــ الدال ـــ الذال ـــ السين ـــ الشين ـــ الصاد ـــ الضاد ـــ الفاء	الطاء ـــ الدال ـــ التاء ـــ الذال ـــ الظاء ـــ الصاد ـــ الزاى ـــ السين ـــ الضاد ـــ الشين ـــ الجيم
٢٣) الصاد	التاء ـــ الثاء ـــ الزاى ـــ السين ـــ الشين ـــ الطاء ـــ الظاء ـــ الضاد	الزاى ـــ السين
٢٤) السين	التاء ـــ الثاء ـــ الزاى ـــ الشين ـــ الصاد ـــ الجيم	الشين ـــ الزاى ـــ الصاد
٢٥) الزاى	الجيم ـــ السين ـــ الصاد ـــ الضاد ـــ	السين ـــ الصاد
٢٦) الفاء	الباء ـــ الثاء ـــ الميم	ـــ
٢٧) الباء	الفاء ـــ الميم	الفاء ـــ الميم
٢٨) الميم	الباء ـــ الفاء ـــ النون	الباء

ومن الواضح أن فكرة تقسيم الفم إلى المناطق الأربع تبدو هنا ذات علاقة بأصوات الإبدال فى حالة التقارب ، ذلك أن أصوات كل منطقة تكاد تتبادل فيما بينها التأثير والتأثر ، مستقلة عن أصوات المناطق الأخرى ،أو ـــ هذا هو التقسيم الذى يجمع فى مجموعه بين الإدغام والإبدال من الناحية الصوتية ، بحيث نعد مايجيء من صور الإبدال على غير قاعدته خارجا عن الإبدال ، فيكون حينئذ من باب الترادف أو غيره من الأبواب على ماسيجيء ، أو من باب الإبدال فى حالات خاصة ومعدودة .

فأصوات الحنجرة والحلق تتبادل فيما بينها ، ومن الممكن التماس مسوغ لهذا التبادل إذا ماأريد التعليل له ، دون أن يكون فى ذلك خروج على القوانين الصوتية ، فالصوت فى هذه المنطقة المحدودة الحركة يتقدم بمخرجه قليلا إلى أمام ، أويتأخر به إلى خلف ، وهو يتنازل تارة عن همسه ، وتارة عن جهره ، وهذا متفق مع القوانين الصوتية ، ومثل هذا يحدث فى منطقة وسط الفم ، التى تبدأ بمجموعة الجيم والشين والياء ، وتنتهى بمجموعة الثاء والذال والظاء ، فهى كما هو ظاهر مجموعة مستقلة تتبادل فيما بينها ، دون اتصال بالمجموعات الأخرى خارج المنطقة ، وليس من المهم أن ننبه إلى ملاحظة كثرة أصوات هذه المنطقة الناتجة عن مرونة اللسان ، وأهمية دوره فى أدائها .

وتكاد أصوات المنطقتين : منطقة أول الفم ، ومنطقة مابعد الوسط تسيران على القاعدة ذاتها ، باستثناء حالة تبادل الفاء مع الثاء وتبادل صوت الخاء مع أصوات الحلق ، وأصوات الطبق واللهاة (القاف والكاف والغين) وهو تبادل منطقى لوحدة المخرج أو تقاربه ، وإن حالت بين ظهور هذا التأثير فى الإدغام اعتبارات صوتية سبقت الإشارة إليها .

ويدلنا على شدة تقارب أصوات هذه المنطقة ماورد من تناظر العين والغين فى قافية الشعر قال فى اللسان : « وقوله :

قُبِّحتِ من سالفة ومن صُدُغ .. كأنها كُشْيَةُ ضَبٌّ فى صُقُع

إنما معناه ،فى ناحية ، وجمع بين العين والغين لتقارب مخرجيهما ، وبعضهم يروية : وفى

صقغ ، بالغين ، قال ابن سيده : إن أبا عمرو بن العلاء رواه كذلك ، وقال (أعنى أبا عمرو) لولا ذلك لم أروها [١] .

ونعيد هنا ماقلناه من قبل :إن انحصار الإبدال عند تقارب الأصوات فى هذه الحالات ناتج عن تطبيقنا لقاعدة التقارب التى بحثناها فى الإدغام ، وإننا خضوعا لهذا الاعتبار نرى أن ماجاء من الإبدال على غير هذه الصور لا يعد إبدالا فى رأينا ، لعدم تحقق الشرط الأساسى فيه ، وهو التقارب بين الصوتين المتبادلين .

ولقد سبق أن أحصينا الحالات الإدغامية التى وقعت فى اللسان العربى بين الأصوات المتجانسة والمتقاربة فكانت ست حالات ومائة حالة ، فإذا أحصينا حالات الإبدال فى الأصوات المتقاربة وجدناها عند عدم التكرار تسعا وستين حالة (على ماسيجىء فى جداول الأمثلة) فهل معنى ذلك أن حالات الإبدال أقل من حالات الإدغام ؟ .. الواقع لا ، لأن إحصاءنا هذا قائم على أساس ثبات موقع الصوت كمستبدل أو مستبدل به ، ولاشك أنه لايمكن فى الغالب القطع بما إذا كان الصوت مستبدلا أو مستبدلا به ، وإنما يجوز أن نعتبر كليهما فى مقام الآخر ، لأن كل مثالين يفرق بينهما اختلاف البيئة يمكن تصور أحدهما صورة متطورة للآخر ، وبذلك يكون عدد حالات التبادل ضعف ماذكر ، أى : ثمانيا وثلاثين ومائة حالة .

وهكذا يكشف لنا الجدول عن أن مجال الإبدال بين الأصوات المتقاربة فى المخرج والصفة أوسع من مجال الإدغام بصفة عامة ، وإن كانت التفاصيل تلقى مزيدا من الضوء على هذا التعميم ، فالأصوات من (١ ــ ٧) ، ومن (٩ ــ ١١ ، ١٤) يشمل الإبدال فيها أصوات الإدغام مضافا إليها بقية الأصوات المتقاربة التى لم تدغم ، وعلى قياس ذلك الصوت (٨) ، إلا أنه امتاز بإدغامه فى صوت التاء الذى لم يحدث معه إبدال . أما الصوت (١٢) فقد اختلفت بصدده الظاهرتان اختلافا تاما .

---

(١) اللسان جـ ٨ ص ٢٠٣ .

يأتى بعد ذلك دور الأصوات (١٣) ومن (١٥ — ٢١) ، وهى المجموعة التى كان الإدغام فيها قياسا مطردا على ماتقدم ، وفيها نجد أن الإبدال لم يشمل كل الأصوات المقاربة لها ، على حين قد زادت الأصوات المتبادلة فى مجموع الأصوات من (٢٢ — ٢٤) فشملت الأصوات المدغمة وغيرها من المقاربة . وتبادلت المجموعة من (٢٥ — ٢٧) وهى مجموعة أصوات خارج الفم التأثير فيما بينها ، فالفاء تتبادل مع الباء والميم ، بالإضافة إلى الثاء ، وحال الباء فى الإبدال كحالها فى الإدغام ، والميم تتبادل مع الباء والفاء والنون ، وتدغم فى الباء وحدها ، فهذه خلاصة العلاقة الصوتية بين الإبدال والإدغام ، أو بعبارة أصح ، بين مانعده من باب الإبدال ، وماهو من الإدغام .

وليس بوسعنا أن ندعى أن هذا الإحصاء نهائى ، وإنما هو تقريبى ، مرجعنا فيه ماأمكننا جمعه من روايات اللسان ، ومانقلناه عن « كتاب الإبدال » الجزء الأول المطبوع ، وماجاء فى كتاب « الاشتقاق » من أمثلة إبدال ابن السكيت ، وقد تكشف البحوث المستقبلة عن تعديل هذا الإحصاء .

على أننا نرى أن هذا الإحصاء ، قد استنفد أكثر صور التقارب بين الأصوات ، فإذا جاز أن يزاد عليها فسيكون ذلك فى عدد قليل من الأصوات المتقاربة ، وفى عدد من الأصوات المتباعدة التى عدها صاحب الإبدال ذات صلة بالباب ، ونعدها نحن غريبة عنه ، لأنها غالبا من باب آخر هو « باب الترادف » فى حالة اتفاقها فى المعنى ، أو هى أصول مستقلة على ماسبق . ولاشك أن هذا الجدول يقفنا على أن هناك علاقة صوتية قوية بين ظاهرتى الإبدال والإدغام ، على الوجه الذى بيناه ، وهى علاقة لا يغض من شأنها مالمسناه من فروق بينهما ، كما لا يغض من قيمتها أيضا اختلاف العوامل التى ينتج عنها كلاهما .

ومن الضرورى أن نشير إلى أن القول بإبدال صوت مع مجموعة من الأصوات لا يعنى أن للكلمة الواحدة صورا كثيرة بعدد هذه الأصوات ، وإنما يمكن أن يكون للكلمة صورتان اثنتان كما فى (المسخ والمصخ) [1] ، وأن تكون لها ثلاث صور كما فى :

---

(١) اللسان جـ ٣ ص ٥٦ .

(مرث فلان الخبز فى الماء ومرذه (أنقعه)، ومرثه بيده ، يمرثه مرثا لغة فى مرسه) (١) ، وكما فى (سقْر وصقْر وزقْر) . هذا فى المتقارب . ولم نعثر على كلمة لها أربع صور من المتقارب على هذا القياس ، اللهم إلا فى السلالات اللغوية التى مثلنا لها من قبل .

وأما فيما يتعلق بمنشأ الخلاف بين الظاهرتين فهو راجع إلى ماسبق أن قررنا من أن الإدغام يعتبر أتم أشكال المماثلة ، لأنه ناشىء عن تأثير الأصوات الصامتة بعضها فى بعض تأثيرا مباشرا ، دون تدخل عامل آخر ، أما الإبدال فانه ينشأ غالبا عن أسباب لا علاقة لها بالمماثلة بين الأصوات ، أسباب تتصل بالبيئات أو الأفراد ، ومن العسير حصرها ، كما أن من الصعب غالبا أن نقول بأن صيغة معينة مبدلة من أخرى أو أحدث منها، اللهم إلا ظنا لا يرقى إلى درجة اليقين ، لأن اليقين يقتضى من الباحث أن يفتش فى المراجع والنصوص القديمة تفتيشا تاريخيا وفنيا يسمح بالحكم على صيغة بأنها أقدم أو أحدث من أخرى ، ودون ذلك فيما نرى مصاعب لا حصر لها .

ولكنا قد نجد من بين القواعد الصوتية مايعين على تفسير بعض حالات الإبدال ، حين يتنازل الصوت عن همسه إلى الجهر فى مثل : « مِسْتَع ومِسْدَع (وهو المنكمش الماضى فى أمره) (٢) ، وفى مثل « السبندى والسبنتى » ، فيقال : إن المهموس قد جاور حركة مجهورة أو صوتا مجهورا فاستفاد من جهره ، وفكرة تأثير الحركة السابقة ، واللاحقة على المهموس فكرة صحيحة من الناحية الصوتية ، فقد اكتشف العالم الدنمركى فرنر (Vetner) أن بعض المهموس قد يصبح مجهورا إذا وقع بين حركتين (٣) . لكن يحول دون تعميم هذا التفسير أننا لا نستطيع أن نجزم بأن أحد الصوتين مبدل من الآخر إلا إذا عرفنا تاريخ المفردة ، وإن كنا نستطيع القول بذلك تخمينا ، فى ضوء ما كشفناه من قبل ، من أن الأصوات العربية تتجه فى تطورها غالبا من الجهر إلى الهمس ، وإن كان العكس يحدث أحيانا على ما سبق .

---

(١) اللسان جـ ٢ ص ١٩٠ .

(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ٣٥ .

(٣) اللغة ـــ جـ ـــ فندريس ص ٦٧ .

وكذلك الحال حين يتنازل الصوت عن رخاوته أو شدته ، فقد أثبت الإدغام اتجاه اللغة إلى التخلص غالبا من شدة أصواتها ، وإن حدث العكس أيضا بتأثير المماثلة ، أما فى حالات الإبدال ، فيمكن تفسير بعضها على أساس المماثلة فى مثل : (افتحثت ماعند فلان . وابتحثت بمعنى [1] » ، فيقال :إن مجاورة الباء ، وهى شديدة ، للتاء وهى مثلها فى الشدة قد حملت اللسان على أن يتخلص من نطق شديدين بإرخاء أحدهما وهو الباء إلى مقارب له رخو هو الفاء ، وذلك بعد أن همست الباء لمجاورة التاء . ولكن فى مثل : « استذف أمرهم واستدف » [2] لايمكن تفسير الانتقال من شدة الدال إلى رخاوة الذال أو العكس بناء على قانون المماثلة ، لوجود الحركة الفاصلة المانعة من التأثير ، ومعلوم أن تأثير الحركة لايكون إلا فى الجهر والهمس فقط ، دون غيرهما من الصفات .

ومن أجل هذا نرى أن تطبيق ماسبق أن استنبطناه فى دراسة تقارب الأصوات فى الإدغام لاينطبق بحذافيره فى حالات الإبدال ، لأنها جميعا لا تأتى على صورة المماثلة ، وإنما يحدث تغيير أساسى فى الصوت بناء على عوامل كثيرة ، قد نصل إلى تقرير بعضها فى هذا البحث .

ونشرع الآن فى عرض نتيجة تتبعنا لما ورد فى مراجعنا من حالات الإبدال مع التزامنا بعرض كل من المتجانس والمتقارب على حدة : ـــ

---

(١) اللسان جـ ٣ ص ١٣٨ .

٣ ـــ جدول إبدال الأصوات المتجانسة

الصوت	الأصوات المتبادلة معه	الأمثلة
الهمزة	الهاء	أراح الغنم يريحها وهراحها يهريحها (اللسان جـ ٢ ص ٤٦٤)
الباء	الميم	أغمطت عليه الحمى وأغبطت عليه . (اللسان جـ ٣ ص ٩٩ ، ٤١٣)
التاء	الدال	الجليت لغة فى الجليد. (اللسان جـ ٢ ص ٢١)
	الطاء	غتّة فى الماء يغُتُّه وغطه يغطه . (الإبدال ص ١٢٦)
الدال	الطّاء	والوخط لغة فى الوخد ، وهو سرعة المشى. (اللسان جـ ٧ ص ٤٢٥)
الثاء	الذال	امرأة ثرئع وقرذع (البلهاء) ، وفى اللسان قردع بالدال المهملة (جـ ٢ ص ٢٧٠) (الإبدال ص ١٦٠) .
الذال	الظاء	خظرف البعير فى مشيه : أسرع ووسع الخطو لغة فى خذرف (اللسان جـ ٩ ص ٧٩) .
الجيم	الشين	جمخ بأنفه وشمخ (إذا تاه وتكبر) (الإبدال ص ٢٢٦) .
	الياء	شجرة وشيرة (الإبدال ص ٢٦١) .
الحاء	العين	متح النهار لغة فى متع : إذا ارتفع (اللسان جـ ٢ ص ٥٨٨)
الخاء	الغين	الردخ مثل الردغ ـــ عمانية (اللسان جـ ٣ ص ١٨)

الصوت	الأصوات المتبادلة معه	الأمثلة
الزاى	السين	مَرّ يَغْطِرُ بذنبه لغة فى يَخْطِر (اللسان جـ ٥ ص ٢٥) الهجز لغة فى الهجس،وهى النبأة الخفية (اللسان جـ ٥ ص ٤٢٣)
	الصاد	الحزد لغة فى الحصد (اللسان جـ ٣ ص ١٤٨) القنْز لغة فى القنص (اللسان جـ ٥ ص ٣٩٧)
السين	الصاد	ومصح فى الأرض مصحا : ذهب ، قال ابن سيده والسين لغة . (اللسان جـ ٢ ص ٥٩٨)

ويلاحظ فيما جاء بهذا الجدول من أمثلة أن بعض الأصوات التى كان لها فى باب الإدغام امتياز على مجانسها من الأصوات فلم تدغم فيه – فقد هذه الميزة فأبدل منه ، ومن ذلك أن الشين تبادلت مع الجيم ، وليس بوسعنا أن نقول أى الكليمتين أصل وأيهما فرع عنها ، حتى نقول بما قال به البطليوسى : إن الأضعف يقلب إلى الأقوى ، ولا يقلب الأقوى الأضعف ، وإنما ظاهر الرواية يدل على أن بين الجيم والشين تبادلا فى بعض ألفاظ اللغة ، فالشين تقلب جيما ، والعكس ، دون اعتبار لامتياز الشين بالتفشى ، وخلو الجيم منه . وكذلك الطاء مع كل من التاء والدال ، والصاد مع كل من السين والزاى .

كما يلاحظ أن الظاء لم تتبادل مع الثاء فى كلمة مما عثرنا عليه من الروايات ، وربما كان ذلك لنقص وسيلتنا لاستقصاء ما روى فى معاجم اللغة من صور الإبدال ، وربما كان لنقص هذه الروايات ذاتها ، وربما كان أيضا لعدم حدوث تبادل بين هذين الصوتين فى اللسان العربى .

ونرجىء بقية ملاحظاتنا عن الموضوع إلى مابعد عرض أمثلة الإبدال فى الأصوات المتقاربة .

٤ ـــ جدول إبدال الأصوات المتقاربة

الصوت	الأصوات المتبادلة معه	الأمثلة
الهمزة	العين	المعص والمَأْص بيض الإبل وكرامها
	الغين	ويقال : هى المغص بالغين للبيض من الإبل – وهما لغتان (اللسان جـ٧ ص ٩٣)
الباء	الفاء	الأزهرى : سمعت أعرابيا من بنى حنظلة يسمى المصطبة : المصطفة بالفاء (اللسان جـ٩ ص ١٩٣)
التاء	الثاء	الخبيت لغة خيبر فى الخبيث (اللسان جـ ٢ ص ٢٨)
	الذال	لتب بالمكان يلتب لتوبا ولذب ، يلذب لذوبا ـــ إذا أقام به (الإبدال ص ١١٢)
	الزاى	إنه لحلو النحائت والنحائز ، أى الأخلاق والواحدة نحيتة ونحيزة . (الإبدال ص ١١٣)
	السين	الأكيات لغة فى الأكياس لبعض العرب . (اللسان جـ ٢ ص ١٠١)

الصوت	الأصوات المتبادلة معه	الأمثلة
	الصاد	رجل لص وقوم لصوص ، ورجل لصت وقوم لصوت (الإبدال ص ١٢٣) .
الثاء	الفاء	ثلغ رأسه يثلغه ثلغا ، وفلغه يفلغه فلغا : إذا شدخه (الإبدال ص ١٨٢)
	الجيم	أرّث على القوم تأريثا ، وأرّج عليهم تأريجا إذا وشى بهم (الإبدال ص ١٥٤)
الثاء	الدال	مرث الخبز ومرده إذا لينه بالماء (الإبدال ص ١٥٩)
	السين	يقال : ثاخت رجله فى الأرض تثوخ ثوخا ، وساخت تسوخ سوخا : إذا دخلت (الإبدال ص ١٧٠)
	الصاد	الفحث عن الخبز: الفحص فى بعض اللغات (اللسان جـ ٢ ص ١٧٦)
	الشين	نجثت التراب عن الشيء ونجشته إذا نبشته وكشفته . (الإبدال ص ١٧٥)

الصوت	الأصوات المتبادلة معه	الأمثلة
	الضاد	تغثغ كلامه وضغضغه : إذا خلط فيه . (الإبدال ص ١٧٨)
الجيم	الدال	الدش: اتخاذ الدشيشة ، وهى لغة فى الجشيشة ، قال الأزهرى : ليست بلغة ولكنها لكنة . (اللسان جـ ٦ ص ٣٠٢) .
	الطاء	بَجَّ الجرح يَبُجُّه ، وبَطَّه يَبُطُّه إذا شقه (الإبدال ص ٢٣٣) .
	الذال	لمذ لغة فى لمج . (اللسان جـ ٣ ص ٥٠٧)
	الزاى	هجيع من الليل وهزيع منه : قطعة منه (الإبدال ص ٢٢٣) .
	الظاء	التلمُّج والتلمظ واحد . (الإبدال ص ٢٣٥) .
	السين	ماء آجن وماء آسن ، أى متغير (هامش الإبدال ص ٢٥٥)
	الصاد	رجل مجلجل ومصلصل ـــ إذا كان خالص النسب . (الإبدال ص ٣٢٠) .

الصوت	الأصوات المتبادلة معه	الأمثلة
	النون	الاجّار: السطح بلغة الشام والحجاز ، وجمعه الأجاجير ، والإنجار بالنون لغة فيه ، والجمع الأناجير. (اللسان جـ ٤ ص ١١)
الحاء	الهاء	اللهس لغة فى اللحس أو هَهَّة . (اللسان جـ ٦ ص ٢١٠)
	الخاء	انحمص الجرح انحماصا ، وانخمص انخماصا : إذا ذهب ورمه : (الإبدال ص ٢٦٥). وابن جنى لايعده إبدالا للتصرف
	الغين	الوَحَر والوغر الحقد فى القلب . (الإبدال ص ٣٠٢)
الخاء	العين	رجل أصلخ وأصلع ، وهما واحد. (الإبدال ص ٣٣٤)
	الهاء	صهدته الشمس لغة فى صخدته. (اللسان جـ ٣ ص ٢٦٠)
	القاف	الخرش والقرش طلب الرزق والكسب . (الإبدال ص ٣٤١)

الصوت	الأصوات المتبادلة معه	الأمثلة
	الكاف	تخوفت الشيء وتكوفته ، أى تنقصته . (الإبدال ص ٣٤٦)
الخاء	الهاء	المُطْرَخِمّ والمُطْرَهِمّ ، المشرف الطويل (الإبدال ص ٣٤٨)
	الحاء	الأفعى له فخيخ .. وقد يقال بالحاء غير معجمة وهى أعلى (اللسان جـ ٣ ص ٤٢)
الدال	الذال	دحجه يدحجه دحجا : عركه عركا كعرك الاديم ، يمانية ، والذال المعجمة لغة ، وهى أعلى (اللسان جـ ٢ ص ٢٦٥)
	الزاى	لكده بيده يلكده ، لكدا ، ولكزه يلكزه لكزا (الإبدال ص ٢٦٨)
	السين	جمد الماء يجمد جمودا ، وجمس الماء يجمس جموسا . (الإبدال ص ٣٧٠)
	الضاد	تناهد القوم فى القتال، وتناهضوا ، وكل ناهض وناهد (الإبدال ص ٣٧٢)

الصوت	الأصوات المتبادلة معه	الأمثلة
	الجيم	رجل أبلج وأبلد : إذا لم يكن مقرون الحاجبين . (الإبدال ص ٢١٧)
الذال	الضاد	نبذ العرق ينبذ نبذا : ضرب ، لغة فى نبض (اللسان جـ ٣ ص ٥١٣)
الراء	اللام	سدرت المرأة شعرها فانسدر ، لغة فى سدلته فانسدل . (اللسان جـ ٤ ص ٣٥٥)
الزاى	الضاد	تقوض البيت وتقوز : إذا تهدم (اللسان جـ ٧ ص ٢٢٤)
السين	الشين	شمت العاطس وسمت عليه : دعاله والسين لغة عن يعقوب ، والشين أعلى وأفشى فى كلامهم . (اللسان جـ ٢ ص ٥٢)
الشين	الصاد	الشيش والشيشاء لغة فى الشيص والشيصاء (اللسان جـ ٦ ص ٣١١)
	الكاف	« لش » لغة لبعض العرب فى « لك » (اللسان جـ ٣ ص ٣٠)

الصوت	الأصوات المتبادلة معه	الأمثلة
الصاد	الضاد	حفص الشيء : ألقاه ، قال ابن سيده : والضاد أعلى (اللسان جـ ٧ ص ١٦)
	الطاء	أوطد الغار وأوصده : سده بالهدم. (اللسان جـ ٣ ص ٤٦١)
	الظاء	أخذ بظوف رقبته : لغة فى صوف رقبته . (اللسان جـ ٩ ص ٢٣٢) .
الضاد	الظاء	قال أبو تراب : سمعت أعرابيا من أشجع يقول : بهضنى الأمر وبهظنى، قال ولم يتابعه أحد على ذلك . (اللسان جـ ٧ ص ٤٣٦) . والبضر بالضاد نوف الجارية قبل أن تخفض ، ومن العرب من يبدل الظاء ضادا فيقول : البضر ، وقد اشتكى ضهرى ، ومنهم من يبدل الضاد ظاء فيقول : قد عظت الحرب بنى تميم . (اللسان جـ ٤ ص ٧١)
الطاء	الظاء	مَشِطت يده تَمشَط مشطا: خشنت من عمل .. وفى بعض نسخ المصنف : مَشِظت يده

الصوت	الأصوات المتبادلة معه	الأمثلة
		بالظاء المعجمة لغة أيضا (اللسان جـ ٧ ص ٤٠٣)
العين	الغين	الغَمَشُ : إظلام البصر من جوع أو عطش والعين لغة ، وزعم يعقوب أنها بدل . (اللسان جـ ٦ ص ٣٢٥)
الفاء	الميم	الأقصف لغة فى الأقصم ، وهو الذى انكسرت ثنيته من النصف . (اللسان جـ ٩ ص ٢٨٣)
القاف	الكاف	تميم وأسد يقولون : قشطت بالقاف ، وقيس تقول : كشطت ، وليست القاف فى هذا بدلا من الكاف لأنهما لغتان لأقوام مختلفين . (اللسان جـ ٧ ص ٣٧٩)
اللام	النون	والقِلَّف لغة فى القنف ، وهو الغرين إذا يبس . (اللسان جـ ٩ ص ٢٩١)
الميم	النون	النسط : لغة فى المسط : وهو إدخال اليدين فى الرحم لاستخراج الولد . (اللسان جـ ٧ ص ٤١٣)
النون	الياء	وقد حكى أن الإيسان لغة فى الإنسان طائية . (اللسان جـ ٦ ص ١٣)
الواو	الياء	إِنْوٌ من الليل لغة فى إِنْىٌ . (اللسان جـ ١٤ ص ٥٠)

ملاحظات وتفسير

هذه الحالات التى عرضناها هى أكثر صور الإبدال ورودا فى اللغة ، أما سواها مما ليس بين صوتى الإبدال فيه علاقة مخرجية أو وصفية فهو قليل الأمثلة ، كما أنه ليس من باب الإبدال . وهذه الحالات المتقاربة تختلف أيضا فى نسبة ورودها فى اللغة ، وإذا أخذنا معجم « لسان العرب » مقياسا فإن ماورد به من روايات الإبدال بين الأصوات المتقاربة التى جعلها لغات مستقلة يعطينا عند الاستقراء نتائج مهمة فى هذا الباب .

فالتبادل يكون أكثر مايكون حين يشتد التقارب بين الصوتين ، وقد وجدنا أن أكبر نسبة بلغتها أمثلة الإبدال فى « اللسان » كانت بين السين والصاد ، إذ بلغت (٤٨) رواية ، يليها مباشرة روايات تبادل السين مع الشين (٢٥) ، والكاف والقاف (٢٣) ، ولعل كثرة أمثلة هذه الأزواج الثلاثة هى التى دعت بعض القدماء من علماء اللغة إلى أن يعتبروا الإبدال بين كل زوجين منها قياسا ، وأن يفسروا ماورد فيها من الروايات على أنه من الإبدال الجائز قياسا ، لا من اللغات المنتسبة إلى بيئات مختلفة ، فابن جنى يفسر (الجعشوش ـــ وهو الطويل الدقيق ـــ بأن الشين فيه بدل السين ، لأن السين أعم تصرفا ، وذلك لدخولها فى الواحد والجمع ، فضيق الشين مع سعة السين يؤذن بأن الشين بدل من السين [١] ويعقوب يقول بأن القاف فى (القسط بدل من الكاف فى الكسط ، وهو عود يتبخر به [٢]) وكذلك زعم أن الكاف فى (كحط المطر بدل من القاف فى قحط) [٣] ،وقد تقدم ذكر قاعدة إبدال السين صادا فيما روى عن الفراء .

والميم والباء (١٨) والحاء والخاء (١٧) ، والعين والغين ، والراء واللام (١٦) لكل منهما ، ويقل عدد الروايات كلما مضينا فى تتبع حالات التقارب . فالصاد والضاد ،

---

(١) اللسان جـ ٦ ص ٢٧٥ . وارجع اليه جـ ٦ ص ٢٨٥ أيضا .

(٢) اللسان جـ ٧ ص ٣٧٩ .

(٣) اللسان جـ ٧ ص ٣٧٦ .

والثاء والسين (٩) لكل منهما ، والتاء والطاء ، والدال والطاء (٨) ، وكذلك الزاى والسين ، والهمزة والواو ، وهكذا ... إلى أن تبلغ حالات التبادل رواية واحدة فى قليل من المتقارب كالميم مع الفاء ، والحاء مع الهاء ، وكثير من المتباعد كالباء مع الدال ، والقاف مع الفاء [١] .

وليس معنى هذا أننا استقصينا كل روايات اللغة ، وانما هى نماذج من الروايات التى عثرنا عليها أثناء استقرائنا للأمثلة فى معجم اللسان ، وربما لايكون من اليسير أن تخطىء الدلالة النسبية لهذه الروايات ، متى استطعنا استقراء أمثلة الإبدال فى بقية معاجم اللغة ومظانها استقراء كاملا .

ويلاحظ أن روايات اللسان التى عثرنا عليها تكاد تجمع على أن إحدى الصورتين لغة فى الأخرى ، ولم يختلف ذلك إلا فى روايات التبادل بين (الزاى والسين والصاد) ، على حين جاءت روايات أبى الطيب اللغوى مجرد سرد للصور دون نسبة أو تعليق .

ويعتبر موقف اللسان من روايات (الزاى والسين والصاد) مثالا لما فسرت به صور الإبدال عند القدماء ، فقد وجدناه حين يروى إبدالا بين السين والصاد ينسب أحيانا الظاهرة إلى مصدرها اللهجى فيقول : « قال محمد بن المستنير قطرب [٢] : إن قوما من بنى تميم يقال لهم بلعنبر يقلبون السين صادا عند أربعة أحرف ، عند الطاء والقاف والغين والخاء إذا كن بعد السين ، ولا يبالون أثانية كن أم ثالثة أم رابعة بعد أن يكن بعدها ، يقولون : سراط وصراط وبسطة وبصطة ، وسيقل وصيقل ، وسرقت وصرقت ، ومسبغة ومصبغة ، ومسدغة ومصدغة ، وسخر لكم وصخرلكم ، والسخب والصخب [٣] ، وقد أطلق على هذا التبادل بين السين والصاد أيضا

---

(١) ذهب الأستاذ التنوخى إلى ترتيب النظائر المتعاقبة كثرة وقلة على صورة أخرى ، ولا أدرى على أى أساس اعتمد ، وربما كان معتمدا على (كتاب الإبدال انظر ص ٣٨ ــ المقدمة)

(٢) توفى سنة ٢٠٦ هـ فهو من معاصرى الفراء (الإبدال ــ المقدمة ص ٦).

(٣) اللسان جـ ٨ ص ٤٤٠ .

مصطلح «مضارعة» ، كما أطلقت هذه المضارعة على التبادل بين الصاد والزاى [١] ، وسمى ذلك أيضا بالتعاقب [٢] ، ولا فرق فى الواقع بين المراد من هذه الألفاظ الثلاثة (الإبدال والمضارعة والتعاقب) ، فهى بمعنى [٣]. ولكن الذى نفيده من هذا النص المروى عن قطرب هو أن الإبدال بصورته هذه بين (السين والصاد) ، قد وقع فى حدود القبيلة الواحدة ، فالذين وقعت بينهم هذه الظاهرة اللغوية هم قوم من تميم يقال لهم بلعنبر ، أى : إن تميما من دون هؤلاء القوم كانت تنطق السين سينا ، فهذا انقسام إبدالى فى داخل قبيلة واحدة متعددة البطون ، تغير فيها الصوت من بطن إلى أخرى .

ولكن جاءت رواية أخرى فى اللسان مناقضة فى ظاهرها لهذه الرواية ، وهى : (والسماخ : لغة فى الصماخ ، وهو والج الأذن عند الدماغ .. ويقال : سمخنى بحدة صوته وكثرة كلامه ، ولغة تميم : الصمخ [٤]) ، فقد نسبت الصاد هنا لتميم بعامة ، رغم أنها تدخل فى حدود القاعدة السابقة ، إذ قد جاء بعد السين خاء ، ولعل ذلك من توسع المعاجم فى التعبير اكتفاء بتخصيص النسبة فى مواضع أخرى .

وتأتى رواية ثالثة تخالف مضمون هاتين الروايتين ، فتقول :(الرصغ : لغة فى الرسغ معروفة ، قال ابن السكيت : هو الرسغ بالسين . والرساغ والرصاغ حبل يشد فى رسغ الدابة شديدا إلى وتد أو غيره . ويمنع البعير من الانبعاث فى المشى ، وهو بالصاد لغة العامة) والمراد « بالعامة » فى رأينا وطبقا لمضمون النص : عامة العرب ، غير المدققين فى نطق الأصوات ، وهم سكان البادية ، وقد ذكر اللسان هذه النسبة رغم أن (الرساغ والرصاغ) ينضويان تحت القاعدة السابقة التى اختص بها بطن بلعنبر ، فلعل هذا الشيوع فى عامة العرب كان مقتصرا على هذين اللفظين دون غيرهما من كلمات القاعدة .

---

(١) اللسان جـ ٣ ص ٥٦ ، ٦٦ ، ١٤٨ ، جـ ٤ ص ٣٧٢ ، جـ ٧ ص ٣١٣ .
(٢) اللسان جـ ٧ ص ٨٤ .
(٣) اللسان جـ ٣ ص ٢٦ ، ٣٤ .
(٤) اللسان جـ ٣ ص ٣٣ ، جـ ٧ ص ٣١٣ .

ومقتضى قاعدة المعاقبة بين السين والصاد على هذه الصورة أن تكون السين هى الأفصح ، أى : لغة قريش على الأقل ، وأن تكون الصاد أقل فصاحة ، إذ هى على أكثر الاحتمالات لغة بطن أو عدة بطون قليلة من تميم ، ولكن روايات اللسان تعود لتلقى ظلالا من الشك حول هذه النتيجة ، إذ تقرر فى مواضع كثيرة « أن السين أعلى » [١] ، وفى مواضع أخرى « أن الصادأ على [٢] » ، وربما كان التفسير الصحيح لهذا الاختلاف فى الأحكام ماسبق أن قررناه من أن « الفصيح » لايقصد به ما كان من لسان قريش ، وإنما يقصد به ما كان اختيارا من لسان القبائل على اختلافها وشاع فى اللغة الفصحى ليصبح قدرا مشتركا بين لهجات العرب جميعا ، فهو أحيانا يكون على سنن قريش فى نطقها ، كروايات السين ، وأخرى يكون على سنن غيرها كروايات الصاد ، هذا إلى أنه ليس معنى أن قوما من تميم يقلبون السين صادا فى بعض الكلمات أن غيرهم من العرب بما فى ذلك قريش تجنب النطق بالصاد دائما فى هذه الكلمات ، وهذا هو السر فى اختلاف اللسان فى مثل هذه المواضع .

أما عن الإبدال بين الصاد والزاى فقد جاء تفسيره فى اللسان بوجهين ، إحدهما : أنه لغة ، وقال : « قال الجوهرى : العلّوز لغة فى العلوص ، وهو الوجع الذى يقال له اللوى من أوجاع البطن [٣] » ومعنى ذلك أن كلا من اللفظتين شائع فى بيئة معينة ، ولكن رواية أخرى تعد مثل هذا الانقلاب من قبيل الإبدال ، قال : « القنز : لغة فى القنص ، وحكى يعقوب أنه بدل [٤] » ، فكأن البدل فى هذه الرواية غير « اللغة » ، فإذا ذكرنا رواية أخرى هى : « ابن سيده : الحزد : لغة فى الحصد مضارعة [٥] ومثلها : « : الزقر : الصقر ، مضارعة [٦] ، زاد الموقف غموضا ، وليس

---

(١) اللسان جـ ٣ ص ٣٣ ، جـ ٧ ص ٣١٣ .
(٢) اللسان جـ ٣ ص ٢٤ ، ص ١٦٤ .
(٣) اللسان جـ ٥ ص ٣٨١ .
(٤) اللسان جـ ٥ ص ٣٩٧ .
(٥) اللسان جـ ٣ ص ١٤٨ .
(٦) اللسان جـ ٤ ص ٣٧٢ .

يخرجنا من هذا الغموض إلا القول بأن صاحب اللسان لايقصد هنا بكلمة « لغة » اختلاف القبيلتين ، لما أنه أضاف فى بقية الروايات تحفظات أخرى مثل « البدل » ، و« المضارعة » ، والتأمل فى هذه الأمثلة التى قلبت فيها الصاد زايا يجد أنها جميعا تخضع لقانون المماثلة ، الأمر الذى يجوز أن يجرى مثله على لسان فرد واحد ، كما يمكن أن يجرى على لسان أفراد ينتمون إلى بطون مختلفة فى قبيلة واحدة ، أو فى قبائل مختلفة أيضا .

ومما يدل على اضطراب تفسير القدماء لظاهرة « الإبدال » تلك الرواية التى جاءت بصدد الاستشهاد على قوله تعالى : « وإذا القبور بعثرت » قال : « وبعثرت وبحثرت لغتان .. قال ابن سيده : وزعم يعقوب أن عينها بدل من غين بغثر ، أو غين بغثر بدل منها (١) » فالإبدال بين العين والحاء مع اتحاد المخرج لغتان ، فى حين أن المماثلة تجيز انقلاب أحدهما إلى الآخر على ألسنة أفراد القبيلة الواحدة ، واختلاف الروايتين بالعين والغين مع اختلاف المخرج بدل ، ويتحير يعقوب فى الحكم بأيهما كان الأصل .

وقد شملت هذه الحيرة القدماء جميعا نتيجة النقص فى التأريخ اللغوى ، واضطراب روايات الرواة ، الأمر الذى يدعونا إلى التماس تفسير شامل منظم لحل هذه المشكلة ، وقد أدانا ماأحصيناه من روايات اللسان إلى تقسيم الصور المبدلة على الوجه التالى : ــ

أولا : روايات منسوبة إلى بيئاتها نسبة صريحة . وهذه طائفتان :

١) طائفة تنضوى تحت ظواهر لهجية عامة .

٢) طائفة من الروايات تفسر تفسيرا صوتيا خاصا .

ثانياً : روايات غير منسوبة إلى بيئاتها ، وهذه يمكن تفسيرها على أساسين :

---

(١) اللسان جـ ٤ ص ٧٢ .

١) إما على أساس القوانين الصوتية .

٢) وإما على أساس العيوب الكلامية .

وتفصيل القول فى هذه التقسيمات كما يلى :

أولا : ١ ــ ورد فى مصادر اللغة أن بعض قبائل العرب قد امتاز بنطق بعض الأصوات نطقا خاصا فى مواقع معينة ، بصورة مطردة ، وذلك : كأن ينطق بنو تميم الهمزة المبدوء فى بعض الكلمات بها عينا مثل : (أشهد عنك رسول الله) يريدون (أنك) ، وأطلق الرواة على هذه الظاهرة لفظة « العنعنة [١] » .

وكأن تنطق هذيل الحاء عينا فيقولون : (اللعم الأعمر أعسن من اللعم الأبيض) وهى الفحفحة [٢] ، وكأن تنطق ربيعة كاف المؤنثة شينا أو سينا على اختلاف الروايات ، وهى الكشكشة أو الكسكسة [٣] ، وكأن تنطق قضاعة الياء جيما إذا وليت عينا فى مثل قولهم (الراعج خرج معج) يريدون (الراعى خرج معى) وهى العجعجة [٤] وكأن ينطق بعض الأنصار وهذيل وسعد بن بكر والأزد العين نونا فى مثل :

(إنا أنطيناك الكوثر) يريدون : (أعطيناك) ، وهى الاستنطاء [٥] .

مثل هذا الإبدال قياس فى اللهجات التى عرفت به ، وهو خاضع كما نرى لقواعد خاصة بهذه اللهجات ، ولاشأن لنا به ، لأنه لم يخلق مشكلة داخل اللغة الفصحى ، ولم يعمل على إثراء اللغة بألفاظ جديدة .

٢ ــ وردت روايات تنسب بعض الألفاظ إلى بيئة خاصة ، فتكون الصورة الأخرى منها منسوبة إلى بيئة أخرى ، ومن ذلك :

---

(١) فى اللهجات العربية ص ٩٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٧ . ويبدو أن هذه الجملة مصنوعة .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٤) المرجع السابق ص ١١٤ .

(٥) المرجع السابق .

« والشيشاء هو الشيص ، وإنما يشيِّص إذا لم يلقح ، قال الأموى : هى فى لغة بلحرث ابن كعب : الصيص (١) .

« والذُّكر أيضا لربيعة فى الذِّكر (٢) .

« وإذا قال الرجل لعدوه : لابأس عليك فقد أمنه لأنه نفى البأس عنه ، وهو فى لغة حمير « لبات » أى : لابأس عليك (٣) .

« تميم واسد يقولون : قشطت بالقاف ، وقيس تقول : كشطت (٤) .

« قال الفراء : بنو سليم وهوزان وأهل العالية وهذيل يقولون : هو أخوه صوغه ، بالصاد ، قال : وأكثر الكلام بالسين : سوغه (٥) .

«والقَصّة والقِصّة والقَصّ : الجص ، لغة حجازية (٦) .

والأصلج : الأصلع بلغة بعض قيس (٧) .

اللصت بفتح اللام : اللص فى لغة طيىء ، وجمعه لصوت ، وهم الذين يقولون للطس طست (٨) .

مثل هذه الروايات تروى ألفاظا خاصة وتنسبها إلى قبائل مختلفة ، وقد قام أستاذنا ببحث هذه الطائفة بعد تصنيفها ، وخرج من بحثه بأن السبب فى حدوث مثل هذه الألفاظ على ألسنة العرب إنما هو انقسام المجتمع آنذاك إلى حضرى أو متأثر بحضارة مجاورة ، وإلى بدوى أو متاثر ببداوة مجاورة ، وقد لاحظ أيضا أن الحضر يمتازون بهمس المجهورات ، وإرخاء الشديد من الأصوات ، وترقيق المفخم منها غالبا ، فى حين

---

(١) اللسان جـ ٧ ص ٥١ .
(٢) اللسان جـ ٤ ص ٢٩٠ .
(٣)اللسان جـ ٦ ص ٢٠
(٤) اللسان جـ ٨ ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ .
(٥) اللسان جـ ٧ ص ٣٧٩ .
(٦) اللسان جـ ٧ ص ٧٦ .
(٧) اللسان جـ ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١ .
(٨) اللسان جـ ٢ ص ٨٤ .

يغلب على البدوى أن يجهر بالمهموس ، وأن ينطق الرخو شديدا ، وأن يفخم الأصوات المرققة . وكانت هذه النتيجة قاعدة مكنت أستاذنا من تفسير أغلب الروايات التى جاءت غير منسوبة ، فحدد ماكان منها أصلا وماكان فرعا على ماسيأتى .

ويلاحظ أن أكثر ما ذكرنا من الروايات يقع فى دائرة الإبدال بين الأصوات المتقاربة .

ثانيا : وأكثر روايات المعاجم لألفاظ الإبدال على أنها لغات غير منسوبة ، وقد جمعنا مئات منها ، سواء فى ذلك ماكان الإبدال فيه بين صوتين متقاربين أو متباعدين — كما ذكر — فأما ما كان بين متباعدين فلا شأن لنا له ، إذ هو — كما قلنا — إما أن يكون من باب الترادف الذى صحبه جناس ، وهو ماتقارب لفظه واختلف معناه ، أو يكون من باب ماأبدل للمخالفة بين صوتين متماثلين كما سيأتى . وأما ماكان بين متقاربين فهو على قسمين : —

١ — القسم الأول ومرجعه اختلاف اللهجات ، وهذا الاختلاف — على أية حال — أى سواء كان منسوبا أم غير منسوب — يثير مشكلة هامة هى : مشكلة الأصل والفرع ، فصاحب اللسان يذكر مثلا : (إن القِلّف لغة فى القنف [(1)]) وهو يقصد ولاشك بكلمة (لغة) معنى (لهجة) ، فهل هذه اللهجة أو اللغة هى الأصل ، ثم تطورت إلى أن اتخذت صورتها الجديدة فى اللغة المشتركة أو الفصحى؟ . أم أن الأصل بالنون وهو اللغة الفصحى ، ثم طرأ على النون تغيير فى بعض الألسن حتى انقلبت إلى لام ؟ ..

وللإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نقرر أن تعبير صاحب اللسان عن إحدى الصورتين بأنها لغة فى الأخرى يوحى بأنها أقل استعمالا ، ومتى كانت أقل استعمالا كانت بعيدة عن مستوى الفصحى ، إما لأنها أصل تطور فقل استعماله

---

(١) اللسان جـ ٩ ص ٢٩١ .

إلى جانب صورته الجديدة ، وإما لأنها مما طرأ على ألسن الأعراب حين اختلطوا بغيرهم من الشعوب بعد الفتح الإسلامى ، فالصورة الأخرى هى الأصل .

وقد حدد أستاذنا بعض القواعد التى يمكن الاعتماد عليها فى نسبة هذه الأمثلة إلى بيئاتها ، فقاس على ماكان منسوبا ، من مثل مامر ذكره ، ماروى غير منسوب ، بعد أن استخرج عدة قواعد سبقت الإشارة إليها ، وهى القواعد التى أسفر بحثنا فى الدراسة الصوتية لأمثلة الإدغام عن تأييدها ، حيث ثبت اتجاه اللغة فى تطورها الصوتى إلى الهمس وإلى الرخاوة ، مجتمعين ومنفردين .

ولكن تظهر أمامنا صعوبة هى : أن الصيغة المتطورة الجديدة قد تكون شديدة أو مجهورة ، على حين تكون الصيغة المنقرضة رخوة أو مهموسة ، وحينئذ لابأس أن نحكم بأن الصيغة الجديدة بدوية أيضا ، ولكنها فصحى ، وأن الصيغة الأخرى رغم أنها حضرية ، قد انقرضت أو تقهقرت أمام أختها ، وقد وجدنا ذلك ثابتا فى تاريخ التطور اللغوى عند دراستنا لظاهرتى الهمز والإدغام ، كما ثبت أيضا من دراستنا لاختيار أبى عمرو فى فرش الحروف .

٢ ـــ والقسم الثانى وهو ماكان ناشئا عن بعض أمراض الكلام ، فمثل هذه العيوب اللسانية قد أدت دورا ذا قيمة فى نشأة كثير من المفردات وشيوعها على ألسنة الناطقين باللغة ممن ليسوا مصابين بهذه العيوب ، ومن هذه الكلمات : ـــ

ـــ الثرط مثل الثلط لغة أو لثغة (١) .

ـــ الدش اتخاذ الدشيشة ، وهى لغة فى الجشيشة ، قال الأزهرى : ليست بلغة ، ولكنها لكنة (٢) .

ـــ اللهس : لغة فى اللحس أو ههة (٣) .

ـــ يقال : فلان من جنثك وجنسك ، أى : من أصلك ، لغة أو لثغة (٤) .

---

١ ـــ اللسان جـ ٧ ص ٢٦٧

٢ ـــ اللسان جـ ٦ ص ٣٠٢ .

٣ ـــ اللسان جـ ٦ ص ٢١٠ .

٤ ـــ اللسان جـ ٢ ص ١٢٨ .

ـــ الوطث : الضرب الشديد بالرجل على الأرض : لغة فى الوطس أو لثغة (١) .

ـــ ومرس الصبى إصبعه يمرسه : لغة فى مرثه أو لثغة (٢) .

ومثل هذه الألفاظ إنما يتولد أولا على لسان طفل منعزل ، أو شخصية ذات مهابة ، يقتدى الناس بها فى نطقهم ، فيكون الأمر أولا تقليدا ، ثم ينقلب إلى أن يصبح خطأ شائعا ، ثم لفظا مألوفا مقبولا لدى جمهور المتكلمين ، وهكذا .

وقد أشار أستاذنا إلى سبب آخر من أسباب نشأة بعض صور الإبدال ، وهو التصحيف ، كما أشار الأستاذ عز الدين التوخى إلى أسباب أخرى كالتوهم السمعى وأنواع من اللثغات شائعة فى العربية وغيرها من اللغات .

هذا الذى عالجناه حتى الآن من إبدال المتقارب ترجع العلة الصوتية فيه الى ظاهرة المماثلة ، وبقيت مجموعة من الألفاظ يرجع السبب فى نشأتها إلى ميل اللسان إلى التخفف من بعض الأصوات الثقيلة فسيتبدل بها أصواتا مخالفة لها ، ولكنها أسهل منها ، وقد أطلق المحدثون على هذه الظاهرة اسم (المخالفة Dissimilation) . « فالكلمة قد تشتمل على صوتين متماثلين ,كل المماثلة ، فيقلب أحدهما إلى صوت آخر لتتم المخالفة بين الصوتين المتماثلين (٣) » .

وقد نشأ عن هذه الظاهرة مجموعة من الألفاظ المعدودة من باب الإبدال ، وهى كذلك على الرغم من تباعد مخرجى الصوتين غالبا ، نظرا لوجود العلاقة الصوتية التى تبرر الانتقال من صوت إلى غيره . ومن هذا الباب روايات اللسان : ـــ

ـــ نقتّ المخ أنقته نقتا : لغة فى نقوته : إذا استخرجته ، كأنهم أبدلوا الواو تاء (٤) .

---

(١) اللسان جـ ٢ ص ٢٠١ .

(٢) اللسان جـ ٦ ص ٢١٦ .

(٣) الأصوات اللغوية ص ١٥٢ .

(٤) .اللسان جـ ٢ ص ١٠٠ .

ـــ ويقال الجِرِّىُّ لغة فى الجِرِّيت من السمك (١) .

ـــ والإجَّار السطح بلغة الشام والحجاز .. ، والإنْجار لغة فيه (٢) .

ـــ الإجّاص والإنْجَاص من الفاكهة معروف (٣) .

ـــ من العرب من يقول فى المشدد حنظ فى حظ ، ورنز فى رز ، وأُترنجة فى أُترجّه (٤) .

والضير والضور واحد ، وفى التنزيل العزيز (لاضير إنا إلى ربنا منقلبون) ، معناه : لاضر (٥) .

فهذه مجموعة من الروايات تجعل المتماثل أحيانا ناشئا عن المخالف ، وأخرى تقول العكس . والواقع أنها جميعا خاضعة لقاعدة المخالفة التى سبقت ، أى : إن الصيغة المشتملة على متماثلين هى التى تطورت ، بأن خالف المتكلم بين صوتيها فقلب أحدهما إلى أحد أصوات اللين أو مايشبهها من الأصوات المتوسطة كالنون غالبا ، وكالميم أحيانا (٦) .

والآن وبعد أن أجملنا أكثر القواعد التى يفسر على أساسها الإبدال بين الأصوات ، نعود إلى حديث العلاقة بينه وبين الإدغام لنذكر فرقا ، من أهم الفروق بين الظاهرتين ، ذلك أننا إذا حللنا أمثلة الإدغام تحليلا صوتيا أدركنا أن الصوت المدغم رغم فقدانه لمخرجه وصفاته لايمكن أن نسلم بأنه قد فقد وجوده ، من أجل هذا نحتال لكتابته بما يدل على أصله قبل الإدغام بالرموز الإضافية تارة ، وبإثبات أصل الصوت تحت رمزه الجديد تارة أخرى ، ووجدنا أيضا أن الإدغام قد أدى إلى نشأة بعض الأشكال الجديدة التى وسعت نطاق فونيمات اللغة الفصحى .

---

(١) اللسان جـ ٤ ص ١٣٣ .
(٢) اللسان جـ ٤ ص ١١ .
(٣) اللسان جـ ٧ ص ٣ .
(٤) اللسان جـ ٧ ص ٤٤٠ .
(٥) اللسان جـ ٤ ص ٤٩٥ .
(٦) الأصوات اللغوية ص ١٥٤ .

أما هنا فى الإبدال فإن الصورة المبدلة تأخذ وضعها الجديد نهائيا ، فكتبت كما تنطق ، دون محاولة ربطها بأصلها ، أو الإشارة إلى ذلك الأصل ، ويدهى أن نقرر أن الإبدال على هذه الصورة لم يؤد — وليس من شأنه أن يؤدى — إلى نشأة أشكال جديدة ، لأنه — كما قلنا — فى أغلب الأمثلة ليس خاضعا لقانون المماثلة ، وليس قياسا فى الأصوات التى حدث فيها ، كما هى الحال فى الإدغام ، وهو بذلك إحدى المراحل التطورية التى نتجت عنها مجموعة من الألفاظ الثابتة ، ولكنها مرحلة غير ديناميكية فى تطور اللغة ، بخلاف الإدغام على ماأسلفنا ، فالإبدال يؤدى إلى نشأة ألفاظ جديدة لا أصوات ، والإدغام يؤدى إلى نشأة أصوات جديدة لا ألفاظ ، وهذه هى العلاقة بين الظاهرتين فى أوضح صورها .

★ ★ ★

الباب الرابع

الدراسة اللهجية والنحوية

الفصل الأول

فرش الحروف

قواعد الاختيار

وجدنا أن لقراءة أبى عمرو أصولا عامة عرضناها من قبل فى إيجاز غير مخل ، وهى أصول تحدد بقدرما اتجاه الرجل فى اختيار قراءته . بيد أن هذه الأصول العامة لاتكشف كشفا كاملا عن حقيقة القراءة ، ولا عما تثيره من مشكلات لغوية ونحوية وصوتية ، وقد كان الباب السابق دراسة لمشكلة الإدغام من الناحية الصوتية واللغوية ، ولكن الإدغام مرتبط فى الواقع بمشكلة نحوية ، هى — على مانعتقد — أساس فشوه فى اللغة ، ونجد لدى أبى عمرو فى مفردات اختياره مايثير هذه المشكلة ، ودراسة هذه المفردات سوف تطلعنا على الاعتبارات المختلفة التى كان يرعاها ، لأن من المستبعد أن يجرى أبو عمرو فى اختياره على خطة اعتباط ، والكشف عن هذه الاعتبارات هو أهم مايدفعنا إلى أعماق قراءته ، وإلى أعماق شخصيته . فنرى منها علاقة الرجل بقبيلته تميم ، وبمرباه أرض الحجاز وأئمتها ، وبأساتذته الذين تأثر بهم أكثر من غيرهم ، وفى هذا ولاشك إجابة عن كثير من الأسئلة التى تراودنا عن أبى عمرو .

ونحن فى مستهل هذا الباب نستطيع أن نقرر أن ماعرفناه عن تاريخ أبى عمرو وقراءته حتى الآن يسمح لنا بالقول بأنه كان يتجه غالبا إلى الأفصح فى اللغة ، والأسهل على اللسان ، ونعنى بالأفصح ماشاع فى اللغة النموذجية التى كانت تمثلها لهجة قريش ، وإن وجدناه يميل إلى أن يختار من لهجة تميم ، لامن أجل أنه لتميم ، بل من أجل أنه الأفصح أيضا .

ونعنى بسهولة الأداء ماوجدناه فى بعض اختيارات أبى عمرو من تجنب للصيغ المزيدة كلما أمكنه ذلك ،واتجاه نحو البسيط منها . وقل أن نجد اختياراً لأبى عمرو لم تقرر كتب اللغة ومراجعها أنه الأعلى أو الأفصح . ومن أمثلة ذلك اختياره لتحقيق الهمز فى أمثلة كنا نتوقع منه فيها التسهيل . فهذا التحقيق — كما هو ثابت — كان لتميم ، ثم انتقل منها بفعل التطور إلى اختيار قريش التى كانت تميل إلى التسهيل ، حين وجدت أنه أعلى وأفصح .

ولسوف أحاول أن أتتبع من اختيار أبى عمرو فى فرش الحروف ، مانصت مراجع القراءة على اختياره له ، حيث اختار غيره صيغة أخرى ، وكان الفرق بين الاختيارين متصلا بالأصوات وبخاصة الحركات ، التى تعد العامل الأساسى فى التمييز بين قبيلة وأخرى .

واخترت أن أقارن اختياره غالبا باختيار حفص بن سليمان فى قراءته الشائعة الآن فى العالم الإسلامى ، سواء وافقه أم خالفه ، وإن ذكرت أحيانا قراءة غير حفص فى معرض المقارنة أو الاستشهاد .

وقد أدى بنا تصنيف اختياره فى الفرش إلى الكشف عن مجموعات من الاختيارات المتشابهة ، وسوف نفرد كل مجموعة بعلاج خاص بها فى البحوث التالية .

★ ★ ★

أمثلة مختارة فى فرش الحروف ودلالتها

قرأ أبو عمرو : « كمثل جنة برُبوة ــ وأويناهما إلى رُبوة » بضم الراء فيهما [١] وقرأهما حفص بفتح الراء .

قرأ أبو عمرو : « سخريا » بكسر السين حيث قرأ حفص بالضم [٢] .

قرأ أبو عمرو : « الصراط المستقيم ــ صراط الذين » بالصاد الخالصة [٣] ، وقرأها حفص كذلك .

قرأ أبو عمرو : « إن يمسسكم قَرح » بفتح القاف [٤]، وقرأها حفص كذلك .

قرأ أبو عمرو : « هنالك الوَلَاية لله » بفتح الواو [٥] وقرأها حفص كذلك .

قرأ أبو عمرو : « تَسَلْنى » بإسكان اللام وكسر النون وتخفيفها [٦] ، وقرأها حفص (فلا تسألْنِ) .

قرأ أبو عمرو : «والشفع والوَتْر » بفتح الواو [٧] ، وقرأها حفص كذلك .

---

(١) مفردة قراءة أبى عمرو بن العلاء ــ مخطوط لدى الدكتور عبد الفتاح شلبى ، وهو من تأليف عبد الله ابن محمد بن عبد الله المدنى الأنصارى المعروف بالنكزاوى وقد حققت ضبط هذه الحروف على كتاب النشر لابن الجزرى ، وهما المرجعان اللذان استقينا منهما أمثلة هذا الباب . وهذا المثال فى المخطوط ورقة ٣٩ ــ وفى النشر جـ ٢ ص ٢٣٢ .

(٢) النشر جـ ٢ ص ٣٢٩ .

(٣) المخطوطة ورقة ٣٦ .

(٤) المخطوطة ٤١ .

(٥) المخطوطة ٥٦ والنشر ٢٧٧

(٦) المخطوطة ٥٠ والنشر ٢٨٩ .

(٧) المخطوطة ٧٩ والنشر ٤٠٠ .

قرأ أبو عمرو : « لكم فى رسول الله اِسْوة » بكسر الهمزة [١] ،وقرأ حفص بضمها .

قرأ أبو عمرو : « يحسِبهم ويحسِبون » بالكسر [٢]وقرأ حفص بالفتح .

قرأ أبو عمرو : «نَبْطِش ـــ يَبطِش » بالكسر ،وقرأ أبو جعفر بالضم [٤] ووافق حفص أبا عمرو .

قرأ أبو عمرو : «سنفرُغ لكم » بضم الراء [٤] ، ووافقه حفص .

قرأ أبو عمرو : « سُكارى » بضم السين [٥] ، ووافقه حفص ، وبفتح السين قراءة الكسائى وحمزة وخلف .

قرأ أبو عمرو : «خلقكم من ضُعْف » بضم الضاد [٦] وقرأ حفص بفتحها .

فإذا بحثنا فى هذه الأمثلة على الصورة التى قرأ بها أبو عمرو فى اختياره وجدنا أنها حجازية فصحى ، نصت المراجع على نسبتها إلى لسان قريش . وجعلت النطق الآخر منسوبا إلى لسان تميم .

ولنذكر ماذكرته المراجع بشأنها ، كلمة كلمة :

فقراءة « رُبوة » ـــ بضم الراء ـــ قال فى اللسان : « الاختيار من اللغات رُبوة لأنها أكثر اللغات ، والفتح لغة تميم [٧] » .

وقراءة ـــ « سِخْريا » بكسر السين ـــ الكسر لغة قريش ، والضم تميم [٨] .

---

(١) المخطوطة ٦٦ .
(٢) المخطوطة ورقة ٣٩ .
(٣) النشر ٢٧٤ .
(٤) المخطوطة ٧٣ .
(٥) النشر ص ٣٢٥ .
(٦) المخطوطة (٦٥) .
(٧) اللسان جـ ١٤ ص ٣٠٦ .
(٨) اللغات فى القرآن ص ٤٣ .

وقراءة : «الصراط ــ صراط » بالصاد الخالصة منسوبة إلى لغة الحجازيين فقد نقل محقق كتاب (الإبدال) نصا عن الفراء من كتاب النوادر قال : « فمن ذلك قولهم : الصراط ــ والسراط قال : « وهى بالصاد لغة قريش الأولين التى جاء بها الكتاب . قال وعامة العرب تجعلها سينا (١) » .

وقراءة : « قَرْح » بفتح القاف لغة الحجاز ، والضم لتميم (٢) .

وقراءة : « الوَلَاية » بفتح الواو ، نص السيوطى على أنها حجازية ، وعلى أن الكسر لتميم (٣) .

وقراءة : « فلا تسلنى » بلا همز حجازية ، والهمز لتميم (٤) .

وقراءة : « الوَتْر » بفتح الواو حجازية والكسر لتميم ولأهل نجد (٥) .

وقراءة : « إِسوة » بكسر الهمزة حجازية والضم لتميم ونجد (٦) .

وقراة : «يحِسبهم » بكسر السين حيث وقع مضارعا ــ ذكر صاحب اللغات فى القرآن أنها بلغة قريش ، وقال صاحب اللسان « والكسر أجود اللغتين » ثم قال : وروى الأزهرى عن جابر بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ : « يحِسب أن ماله أخلده » بالكسر (٧) .

وقراءة :« نبطِش » بكسر الطاء حجازية والضم لتميم (٨) .

---

(١) كتاب الإبدال ــ لعبد الواحد اللغوى الحلبى المتوفى سنة ٣٥١ هـ ــ جـ ١ ص ١٦ تحقيق الأستاذ عز الدين التنوخى عضو المجمع اللغوى العربى .

(٢) اللغات فى القرآن ص ٢٣ .

(٣) المزهر جـ ٢ ص ٢٧٧ تحقيق البجارى وآخرين .

(٤) المزهر حـ ٢ ص ٢٧٥ .

(٥) المرجع السابق ٢٧٧ واللسان جـ ٥ ص ٢٧٣ .

(٦) المرجع السابق المزهر .

(٧) اللسان جـ ١ ص ٣١٥ واللغات فى القرآن ص ٢٩ .

(٨) المزهر جـ ٢ ص ٢٧٥ .

وقراءة : « سنفرُغ » بضم الراء ــ الضم فى هذا الفعل نهج الحجازيين ، والفتح تميم [١] .

وقراءة : « سُكارى » ومثلها أسارى ــ الضم من لسان الحجازيين ، والفتح تميم [٢] .

وقرءة : « ضُعف » بضم الضاد نرجح أيضا أنها من لسان الحجازيين لما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « قرأت على النبى ﷺ : (الله الذى خلقكم من ضَعف) فأقرأنى من ضُعف » [٣] .

ويلحق بهذا النوع من الاختيار فى رأينا قراءة أبى عمرو (إن المنافقين فى الدرَك الأسفل) بفتح الراء ، على حين قرأها حفص بإسكان الراء ــ قال اللسان : الدرْك لغة فى الدرَك [٤]. فهو هنا يعتبر أن الأصل هو المتحرك ، وأن الساكن لغة فيه ، وكذلك قال الطبرى : « أهل العلم بالعربية يذكرون أن فتح الراء منه فى العرب أشهر من تسكينها [٥] .

كما يلحق به قراءته « مكانا سِوى » بكسر السين ، وقرأ حفص بضمها ، واستنادنا فى هذا الترجيح إلى القانون الذى استنبطه أستاذنا من نسبة الكسر فى الغالب إلى الحجازيين والضم لتميم [٦] . على حين نرجح نسبة اختياره للقراءات الآتية إلى لهجة تميم بناء على قانون الانسجام الشائع فى لهجات البدو :

قراءته : « ماأخلفنا موعدك بمِلِكنا » بكسر الميم [٧] وقرأ وحفص بفتحها .

---

(١) فى اللهجات العربية ص ٨٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) اللسان جـ ٩ ص ٢٠٣ .

(٤) اللسان جـ ١٠ ص ٤٢٢ .

(٥) تفسير الطبرى جـ ٩ ص ٢٨٨ تحقيق الأستاذ محمود شاكر .

(٦) اللهجات العربية ص ٨٥ ومابعدها .

(٧) المخطوطه ورقة (٥٨) .

قراءته : « وُلْدُه » (١) بضم الواو وسكون اللام وقرأ حفص « وَلَده » بفتحهما .

قراءته : « إلا من اغترف غَرْفَةً » بفتح الغين ، وقرأ حفص بضمها (٢) .

فالواضح أن هذا الاختيار يظهر فيه انسجام الحركات ، المشهور عن تميم لأنهم أهل بداوة ينزعون دائما إلى إحداث هذا الانسجام فى أصوات اللين (٣) .

ويلحق بقاعدة الانسجام هذه مثال نتردد فى نسبته إلى لسان قريش هو قراءته : « فشاربون شَرْب الهيم » بفتح الشين من شرب ، فقد ذكرت المعاجم أن هذه الصيغة هى الأدنى فصاحة ، لأن اللفظ يروى بالفتح والضم ، والفتح أقل اللغتين وبها قرأ أبو عمرو (٤) ، فلا شك أن عدول أبى عمرو عن اختيار أعلى اللغتين كان قائما على أساس تفضيله للصيغة المنسجمة فى أصواتها على طريقة البدو ، الذين ينتسب إليهم .

بقى لدينا بعض أمثلة قرأ بها أبو عمرو ، وهى تمثل جانبا آخر من اختياره على أساس الضم تبعا لنطق البدو من تميم ، وذلك :

قراءته: « وفتحنا عليهم كل شىء قُبُلا » بالضم (٥) ووافقه حفص فى ذلك .

قراءته : «مُتْنَا ـــ مُتُّ» بضم الميم (٦) ، وقرأ حفص بكسرها .

قراءته : « وزنوا بالقُسْطاس » بضم القاف (٧) ، قرأ حفص بكسرها .

---

(١) المخطوطة (٧٦) .
(٢) النشر جـ ٢ ص ٢٣٠ .
(٣) اللهجات العربية ٨٦ .
(٤) اللسان جـ ١ ص ٤٨٧ .
(٥) النشر جـ ٢ ص ٢٦٢ .
(٦) النشر جـ ٢ ص ٢٤٢ .
(٧) المخطوطة (٦٢) .

فأبو عمرو فى هذه الأمثلة يتجه إلى الصيغة المأثورة عن تميم على خلاف الغالب عنده ، وقد صحت نسبة هذه الصيغ المختارة إلى تميم ، و« قبلا » بالضم لغة تميم ، والكسر على لغة كنانة ، [١] والضم فى «مُتّ ومُتْنا » لتميم ، والكسر لسان الحجازيين [٢] ، وأما « قُسْطاس » فلم نعثر على ماينسبه إلى قبيلة معينة ، ولكنا استنادا إلى قانون الضم والكسر نستطيع نسبته إلى تميم ، ويلحق به فى هذه النسبة قراءة « ادعوا ربكم تضرعا وخُفْية » على حين قرأها حفص بكسر الخاء ، فالضم ينسب لتميم فى مثل هذه المواضع قولا واحدا .

هذا العرض المفصل لجملة من اختيارات أبى عمرو قد كشف لنا عن نقطة بارزة فى أصول اختياره ، هى : أنه كان يختار الأفصح ، ويلتمسه فى لسان قريش ، أو فى لسان تميم ، وكثيرا مانجد أن تعليق المعاجم على اختياره : أنه الأفصح ، أو الأعلى ، أو الغالب ، أو هو لغة النبى ﷺ . ومن الأمثلة على ذلك فى غير الحركات :

قراءته : « يبسط وبسطة » بالسين [٣] ، وقرأ حفص « يبصط ـــ بصطة » بالصاد .

فإذا مضينا إلى اللسان وجدناه يقول « بسطة هى الفصيحة ، وقرىء بصطة بالصاد لغة [٤] » . والمعاجم لاتصف لغة بأنها الفصيحة إلا إذا كانت تعنى غالبا لغة قريش .

فإذا كان أبو عمرو فى الفرش يغلب عليه اختيار الصورة الفصحى للفظ ، فمقتضى ذلك أنه لم يكن متعصبا للسان قومه ، وإنما كان يتحاكم إلى مقياس لغوى محدد ، سواء كان من لدن قريش ، أم كان من لدن تميم .

نأتى بعد ذلك إلى مجموعة أمثلة من اختيارات أبى عمرو ، هى أنه قرأ :

---

(١) اللغات فى القرآن / ٢٦ .
(٢) اللغات فى القرآن / ٤٢ .
(٣) المخطوطة (٣٨) .
(٤) اللسان جـ ٧ ص ٢٦٠ .

« ترجىء ـــ و ـــ مرجؤون [١] ـــ و ـــ هزؤا ـــ و ـــ كفؤا [٢] ـــ و ـــ التناؤش [٣] ـــ و ـــ مؤصدة [٤] ـــ و ـــ لايألتكم [٥] » بالهمز فيهن .

وعلاج هذه المجموعة متصل اتصالا مباشرا بموقف أبى عمرو من الهمزة ، ولكن قبل أن نذكر شيئا عن موقفه نكرر القول : بأن تحقيق الهمز فى العربية منسوب إلى تميم ، فهم الذين كانوا يلتزمون تحقيقها ، على حين كانت قريش تسهلها فى الكلام . يقول سيبويه : فأما الذين لايحققون الهمزة من أهل الحجاز فقولهم : هذا الخبا فى كل حال.[٦] » ويقول ابن الجزرى بصدد اختلاف القراء فى قراءة « منسأته » : « قرأ المدنيان وأبو عمرو بألف بعد السين من غير همز ، وهذه الألف بدل من الهمزة ، وهو مسموع على غير قياس ، قال أبو عمرو بن العلاء : هو لغة قريش » . [٧]

وتذكر المعاجم أن «التناوش » بلا همز لغة قريش [٨] .

ويذكر اللسان فى (أرجأ) : « أرجأ الأمر أخره ، وترك الهمز لغة ، قال تعالى : « ترجىء من تشاء » وقرىء : ترجى بغير همز ، والهمز أجود [٩] »

وذكر صاحب اللسان « قال أبو زيد / أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لاينبرون (لايهمزون) ، وقف عليها عيسى بن عمر فقال : « ماآخذ من قول تميم إلا بالنبر ، وهم أصحاب النبر ،وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا [١٠]»

---

(١) المخطوطة (٤٩) .

(٢) النشر جـ ٢ ص ٢١٥ .

(٣) المخطوطة (٦٧) .

(٤) المخطوطة (٨٠) .

(٥) المخطوطة (٧٢) .

(٦) الكتاب جـ ٢ ص ٢٨٦

(٧) النشر جـ ٢ ص ٣٤٩ ـــ ٣٥٠ .

(٨) اللغات فى القرآن ص ٤١ .

(٩) اللسان جـ ١ ص ٤٨٧ .

(١٠) فى اللهجات العربية ص ٦٩ .

فمن هذه النصوص يتضح لنا أن خاصة الهمز كانت لتميم دون قريش ، وقد حدث أن أدركت قريش فضيلة هذه الخاصة التميمية فانتقتها ، وجعلتها من خصائص الفصحى ، حين وجدت أن ذلك يرتفع بمستوى لغتها النموذجية ، تماما كما حدث للإدغام .

بيد أن شيوع تحقيق الهمز فى البيئة الحجازية لايقطع الظاهرة اللغوية عن مصدرها التميمى ، وأبو عمرو ، ذلك الحجة فى اللغة والقراءة والنحو ، لم يغفل حين اختار مفردات قراءته ، وحين وضع أصولها عن درجة تحقيق الهمز من الفصاحة ، ولذا لم يكن يسهلها إلا إذا أدرج القراءة أو كان فى الصلاة أو قرأ بالإدغام ، كما مر ذلك فى عرض أحكام الهمز فى قراءته ، وفيما عدا ذلك ، أى : عندما كان يقرأ القراءة المتأنية ، كان يحقق الهمزة ، ويدلنا على شدة تمسكه بها قراءته للأمثلة السابقة مهموزة ، على حين تختار قراءة حفص الشائعة تسهيل الهمزة فى أكثرها .

ولم نجد أبا عمرو يسهل الهمزة اختيارا إلا فى المثال السابق « منساته » وفى مثال آخر هو « جبريل » [1] ، ثم نجد أن الكلمتين على هذه الصورة من لسان قريش ، فأما الأولى فقد سبق نصها على لسان أبى عمرو ، وأما الثانية فقد ذكرت المراجع أن (جبرئيل) بالهمز لغة تميم وقيس وكثير من أهل نجد » [2] ومعنى ذلك أن تكون الصيغة المسهلة من لسان قريش طبقا للقاعدة .

فهذا جانب من اختيارات أبى عمرو يقف فى مقابل الجانب السابق من حيث النسبة ، ويسير معه فى سمت واحد من حيث إنه الأفصح والأعلى لغة . فقد كان هذا شأن أبى عمرو فى أحواله جميعا .

وهو اتجاه يعكس ولاشك صورته على سائر الاختيارات التى سنعرض لها من بعد ، وسنجد أنها لم تنحرف عن هذا الاتجاه .

---

(١) المخطوطة ورقة (٣٧) .

(٢) القراءات واللهجات ص ٣٧ .

الفصل الثاني

إسكان عين الكلمة

إسكان عين الكلمة

ننتقل بعد ذلك إلى جانب آخر نلحظ فيه قاعدة أخرى من قواعد اختيار أبى عمرو ، ولنعرض الأمثلة التى اختارها أولا ، ثم نرى بعدُ وجه دلالتها :

قرأ أبو عمرو[1] : « أكْلها دائم » بإسكان الكاف إذا أضيف إلى المؤنث ، وقرأ حفص « أكُلها » .

» » » «سبع سنين دأْبا » بإسكان الهمزة ، وقرأ حفص » دأَبا » بفتحها .

» » » «بخيلك ورجْلك » بإسكان الجيم ، وقرأ حفص « رجلك » بكسرها .

» » » «ووُلْده » بضم الواو وإسكان اللام ، وقرأ حفص » ولَده » بفتحها .

» » » «سبْلنا ــ رسْلكم ــ رسْلهم رسْلنا » بإسكان الباء والسين ، وقرأ حفص بضمهما فى جميعهن .

» » » «خطْوات الشيطان » بإسكان الطاء ، وقرأ حفص « خطُوات » بضمها .

---

(١) سوف تأتى إشارة إلى مغزى الاختيار فى كل طائفة من هذه الأمثلة ، أما هنا فنذكر كل ماجاء ساكن العين مفردا أو جمعا ، مما يترتب على عدم تسكينه توالى ثلاث حركات .

قرأ أبو عمرو	«الذى أحسن كل شيء خلْقه» بإسكان اللام ، وقرأ حفص بفتحها .
» » »	« على الموسع قدْره » بإسكان الدال فى الموضعين ، وقرأ حفص « قدره » بفتحها فيهما .
» » »	«الرعْب »ساكنة العين حيث جاءت ، وقرأ حفص كذلك .
» » »	«وهْو ، وهْى » إذا كان قبل الهاء واو أو فاء أو لام متصلة بها ـــ بإسكان الهاء حيث وقع ذلك . فإذا كانت اللام منفصلة من الهاء ، وذلك فى موضع واحد هو قوله تعالى :(أن يُمِلّ هو) ، أو كان قبل الهاء (ثم) ، وهو موضع واحد أيضا ، قوله (ثم هو يوم القيامة) ، فإنه ضم الهاء فيها(١)، وقرأ حفص بالضم فى جميعهن .
» » »	« أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسْفا » بإسكان السين وقرأ حفص « كسَفا » بفتحها .
» » »	«فابعثوا أحدكم بورْقكم » بإسكان الراء ، وقرأ حفص بكسرها « بورِقكم » .
» » »	«وأحيط بثُمْره » بإسكان الميم حيث وقع ، وقرأ حفص بضمها « بثُمُرِه » إلا فى « يس » فإنه قرأها (ثَمَره) بفتحتين .
» » »	«شنْئان قوم » بإسكان النون ،وهى قراءة ابن عامر أيضا ، والباقون بفتحها (٢) .
» » »	«وأرْنا مناسكنا » بإسكان الراء ، وقرأ حفص بكسرها « وأرِنا »

(١) المخطوطة ٣٦ .

(٢) التيسير ٩٨ .

قرأ أبو عمرو : «عذْرا أو نذْرا » بإسكان الذال ، وكذلك قرأ حفص [١] .

ويلحق بهذه الاختيارات أمثلة ساكنة العين فى قراءته ، ومحركة العين لدى غيره . ولكنها جاءت منعوتة ، بحيث اختفت من أجل التنوين العلة التى تقتضى الإسكان ،وهى توالى الحركات ، ولو قد جاءت مضافة لتوفرت العلة . ومن ذلك :

قراءته : «خشْب مسندة » بإسكان الشين ،وقرأ حفص (خشُب) بضمها.

« «كأنهم إلى نَصْب » بفتح النون وإسكان الصاد ، وقرأ حفص « نُصُب » بضمتين .

« « لبيوتهم سَقْفا من فضة » بفتح السين وسكون القاف ، وقرأ حفص «سُقُفا » بضمتين .

« « إن أصحاب الجنة اليوم فى شُغْل » بضم الشين وسكون الغين ، وقرأ حفص « شُغُل » بضمتين .

والنظرة الأولى لهذه الاختيارات ترينا أن أبا عمرو كان يفضل فى اختياره فى بعض المواضع الساكن على المتحرك ، والمراد بالساكن هنا ساكن العين طبعا ، على ماهو مشاهد من الأمثلة المختارة . هل يمكن أن نسوق لتعليل هذه الظاهرة دعوى التخفيف ؟ .... أعنى أنه لما كان السكون أخف من الحركة لجأ أبو عمرو إلى اختيار الصيغة ساكنة العين دون المتحركة ؟ .

إن دعوى الخفة لاتصلح علة مطردة فى كل اختيار أبى عمرو ، وإن كان الساكن فى ذاته أخف من المتحرك : ذلك لأن أبا عمرو اختار أحيانا المتحرك دون الساكن ، وذلك فى بعض ماسقناه من أمثلة ، فهو قد اختار « الدرَك » دون « الدرْك » ، لما كان فتح الراء أشهر من تسكينها ، وهو قد اختار أيضا قراءة ، «يريد الله بكم اليسُر ولايريد بكم العسُر » (البقرة / ١٨٥) .

---

(١) النشر جـ ٢ ص ٢١٧ .

وقراءة (وإن كان ذو عُسُرة) البقرة / ٢٨٠) وقراءة « فسنيسره لليُسرى — الليل ا ٧ « و » فسنيسره للعسُرى « الليل آ ١٠ » بضم السين فى جميعهن ، بدلا من تسكينها الذى جرت عليه قراءة حفص ..

وتذكر المعاجم أن المسكن هنا هو الأصل ، قال فى اللسان » ويجوز أن يكون العسُر لغة فى العسْر كما قالوا : القفُل فى القفْل ، والقُبُل فى القبْل [١].

ومن هذا الباب قراءته :« هو خير ثوابا وخير عقبُا » أى عاقبة ، وفيها عقْبا ، وقراءته : « واضم إليك جناحك من الرهَب » وفيها الرْهب ، والرهَب بالتحريك لدى أبى عمرو معناه الكم فى لغة بنى حنيفة ، [٢] وقراءته : « يوم ظعَنكم » بفتح العين ، وفيها قراءة بالإسكان للكوفيين وابن عامر [٣] . فلابد إذن من حل للإشكال على غير أساس الخفة ، فلئن كانت الخفة إطارا عاما يحوط اختيارات أبى عمرو ، فإن بعض مفردات هذه الاختيارات قد خرجت عن هذا الإطار كما رأينا .

ولقد استطعنا أن ننسب بعض الأمثلة السابقة إلى بيئتها اللغوية بناء على نصوص واردة ، كما أننا نسبنا بعضها بناء على قواعد عامة توصل إليها البحث الحديث ،فهل نستطيع أن ننسب هذا الاختيار المطرد لدى أبى عمرو إلى بيئة لغوية معينة ؟

إن الناظر فى أى ديوان من دواوين شعراء الجاهلية يستطيع بكل سهولة أن يجد عشرات الأمثلة على اطراد هذه الظاهرة لدى كثير من الشعراء الجاهليين على اختلاف بيئاتهم ،وبين أيدينا الآن ديوان « الأصمعيات » نفتح بعض صفحاته كيفما اتفق لنجد فى صفحة (٦١) بيتا لمالك بن حريم الهمدانى [٤] يقول / :

---

(١) اللسان جـ ٢ ص ٥٦٣ .
(٢) اللسان جـ ١ ص ٤٣٩ . واللغات فى القرآن ص ٤٠ .
(٣) النشر جـ ٢ ص ٣٠٤ .
(٤) جاهلى يمانى ـــ الأعلام جـ ٦ ص ١٣٢ ط ٢ .

وأوسعن عَقْبيه دماء فأصبحت أصابع رجليه رواعف دُمّعا

والمشهور : (عَقِبَيه) . ولأبى دؤاد الإيادى صفحة [١] ٢١٦ :

إبِلى الإبْـل لا يُحوِّزهـا الـرا عون مج الندى عليها المدام

فحرك وأسكن فى بيت واحد . ولمالك بن نويرة التميمى صفحة ٢٢٥ :

فأقررت عينى حين ظلوا كأنهم ببطن الإياد خشْب أثل مُسَنَّدِ

وفيها (خشُب) . ولمعاوية بن مالك [٢] ص ٢٤٦ :

وإذا تُحمِّلُنـا الـعشيرة ثِقْلهـا قمنـا به وإذا تعـود نعـود

والمشهور (ثِقَل) . ولو شئنا أن نأتى بمئات من الأبيات الجاهلية للتدليل على فشو هذه الظاهرة على ألسنة شعراء الجاهلية لما كلفنا ذلك سوى تصفح بضعة دواوين نعثر خلالها على شواهد جمة ، ولكن حسبنا هذه الأبيات التى سكنت فيها عين الكلمة مهما كانت حركتها ، ضمة كما فى خُشُب ، وكسرة كما فى إبِل ، وفتحة كما فى ثِقَل ، وهو أمر إن كان لضرورة وزن الشعر فهو مما يستأنس به فى هذا المقام من حيث كان ضرورة مطردة .

فإلى أى بيئة تنتسب هذه الظاهرة ؟

لقد تتبعنا ماسقناه هنا من أمثلة قرآنية ، إلى جانب أمثلة لغوية كثيرة رواها صاحب اللسان بروايتين ، إحداهما ساكنة ، ولم يذكر شيئا عن نسبة الرواية الساكنة إلى بيئة لغوية خاصة . فوجدنا سيبويه قد نسبها من قبل إلى بكر بن وائل وأناس كثير من تميم [٣] . وقد حاول سيبويه أن يضع لهذه الظاهرة بعد أن نسبها قاعدة محددة ، فقرر أن دافع هؤلاء إلى التسكين كراهيتهم أن يرفعوا ألسنتهم عن حركات متخالفة ،

---

(١) من إياد — قال عنه عبد الملك بن مروان : إنه أشعر الناس ، وكانت منازل إياد جهة الحرم ومابين تهامة ونجران ، وخرجوا إلى العراق فنزلوا فى شرقيه ونزل بعضهم فى أنطاكية وحمص وحلب فى الشام — فهو كما نرى حضرى — الأعلام جـ ١ ص ٣٧٦ .

(٢) أزدى من قحطان — الأعلام جـ ٢ ص ١٧٥ .

(٣) الكتاب جـ ٢ ص ٢٥٧ .

فكان الإسكان وسيلة إلى التخفيف ، ولكنه قرر أيضا أن هذا الإسكان جار عندهم فى المضموم والمكسور دون المفتوح ، قال : (وأما ماتوالت فيه الفتحتان فإنهم لايسكنون منه ، لأن الفتح أخف عليهم من الضم والكسر [١] .

وهذه القاعدة التى وضعها إمام النحاة أصبحت فيما بعد حكما لازما على ظاهرة الإسكان لدى جمهور النحويين ، ويلاحظ أن سيبويه قد سجل فى كتابه فى هذا الموضع « عدم اقتصار الإسكان على الثلاثى ، بل لقد وقع فيما يشبه الثلاثى ، من مثل قولهم : (أراك منتفْخا) ، لأن مابعد النون بمنزلة كَبِد ، وكقولهم : (انطلْقَ) بفتح القاف لئلا يلتقى ساكنان ... الخ ....» .

وينبغى أن نلفت النظر هنا إلى أن الإسكان فى (انطلْقَ) ليس من باب إسكان المفتوح ، حيث يتوهم أن الفعل هنا ماض ، بل هو فعل أمر ، يقول السيرا فى تفسيرا للعبارة الأخيرة : « ومن ذلك قولهم : انطلْقَ ياهذا بتسكين اللام وفتح القاف ، وكان الأصل : انطلِقْ ياهذا ، مكسورة اللام والقاف ساكنة ، فسكنت اللام للكسرة ، فاجتمع ساكنان اللام والقاف فحركوا القاف وفتحوه ، حدثنا الخليل عن العرب بذلك ، وأنشدنا بيتا لرجل من أزد السراة وهو :

عجبت لمولود وليس له أَب وذى ولد لم يلْدَه أبوان

يريد : لم يلِدْه فأسكن اللام ، فاجتمع ساكنان اللام والدال ، ففتح الدال لالتقاء الساكنين [٢]» .

ونترك سيبويه عند هذا الحد لنلقى أبا الفتح عثمان بن جنى رحمه الله فى كتابه : «المحتسب فى الكشف عن وجوه القراءات وعللها [٣] » ، فنجد لديه قراءات مروية بالإسكان على اختلاف وجوهه ، أعنى إسكان مضموم العين ومكسورها ومفتوحها ، وينسب هذه الظاهرة لتميم كما ينسب المحرك للحجازيين ، ولكنه يتبع قاعدة سيبويه فى عدم جواز إسكان المنصوب إلا شذوذا .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٨ .

(٢) شرح السيرافى ـــ مخطوط رقم ١٣٦ ـــ نحو دار الكتب ج ٣ ص ١١٢ .

(٣) مخطوط رقم ٢٥٢ ـــ قراءات ـــ دار الكتب .

ومن الأمثلة اللغوية التى سيقت فى هذا المساق :

★ وبنو تميم يقولون : « كِلْمة وكِلَم ككِسْرة وكِسَر .. ومما يؤنسك بأن الكلام إنما هو للجمل التوام دون الآحاد أن العرب لما أرادت الواحد بعد ذلك خصته باسم له لايقع إلا على الواحد ، وهو قولهم ، « كَلِمة » وهى حجازية و « كِلْمة » وهى تميمية [١] .

★ أهل الحجاز يكسرون الثانى فى نحو : « نبِقة وفخِذ »وبنو تميم يسكنونه فتقول : (نبْقة وفخْذ) .وفى العدد يقول الحجازيون ، « عشِرة » ويقول التميميون : « عَشْرة » . فإذا ركبت استحال الوضع فقال بنو تميم « إحدى عشِرة » وقال أهل الحجاز « عشْرة » بسكونها [٢] .

★ قال ابن دريد عن أبى حاتم عن الأصمعى عن أبى عمرو : « فى قلوبهم مرْض » ساكنة ، قال أبو الفتح : لايجوز أن يكون (مرضْ) مخففا من « مرَض » لأن المفتوح لايخفف ، وإنما ذلك فى المكسوز والمضموم ، كابِل ، وفخِذ ، وطنُب وعضُد ، وماجاء عنهم فى المفتوح فشاذ لايقاس عليه [٣] .

★ وقرأ أبو السمال : (حتى يلج الجَمْل) مفتوحة الجيم ساكنة الميم ..... قال أبو الفتح ، وأما الجَمْل فبعيد أن يكون مخففا من المفتوح ، لخفة الفتحة ، وإن كان قد جاء عنهم قوله :

وماكل مبْتاع ولو سَلْف صَفْقه براجع ماقد فاته برداد [٤]

---

(١) الخصائص لابن جنى ج ١ ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) المحتسب — سورة البقرة .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق ص —٢٩٢ . وأبو السمال هو قعْنب بن أبى قعنب أبو السمال العدوى البصرى ، له اختيار فى القراءة شاذ عن العامة .ولم يصحح ابن الجزرى سند قراءته . (طبقات القراء جـ ٢ ص ٢٧) .

★ (ومن ذلك قراءة يحيى [١] والأعمش [٢] وطلحة بن سليمان [٣] : عشِرة ، وقرأ عشَرة بفتح الشين بخلاف ، قال أبو الفتح : أما عشِرة بكسر الشين فتميمية ، وأما إسكانها فحجازية . واعلم أن هذا موضع طريف ، وذلك أن المشهور عن الحجازيين تحريك الثانى من الثلاثى إذا كان مضموما أو مكسورا نحو ، الرسُل والطنُب ، والكبِد والفخِذ ، ونحو : ظرُف وشرُف وعلِم وقدِم . وأما بنو تميم فيسكنون الثانى من هذا ونحوه فيقولون ، رسْل وكتْب وكبْد وفخْذ ، وقد ظرْف وقد علْم .

لكن القبيلتين جميعا فارقتا فى هذا الموضع من العدد معتاد لغتها ، وأخذت كل واحدة منهما لغة صاحبتها ، وتركت مألوف اللغة السائرة عنها ، فقال أهل الحجاز ، اثنتا عشْرة ، بالإسكان ، والتميميون ، عشِرة بالكسر ، وسبب ذلك ماأذكره ، وذلك أن العدد موضع يحدث معه ترك الأصول ، وتضم فيه الكلم بعضه إلى بعض ، وذلك من أحد عشر إلى تسعة عشر ، فلما فارقوا أصول الكلام من الإفراد إلى الضم فارقوا أيضا أصول أوضاعهم ومألوف لغاتهم ، فأسكن من كان يحرك ، وحرك من كان يسكن [٤] » .

★ « ويقال أيضا : « قَطْران » بفتح القاف وإسكان الطاء ، و « قِطْران » بكسر القاف وإسكان الطاء ، والأصل فيها : قَطِران ، فأسكنا على مايقال فى « كَلِمة » : كَلْمة و كِلْمة لغة تميمية ، قال أبو النجم :

---

(١) لعله يحيى بن يعمر الذى مضى ذكره فى شيوخ أبى عمرو ، أو لعله يحيى بن وثاب .

(٢) هو سليمان بن مهران الأعمش أبو محمد الأسدى الكاهلى ، مولاهم ، الكوفى الإمام الجليل ، ولد سنة ٦٠ هـ وقرأ على جماعة من التابعين أغلبهم من شيوخ أبى عمرو ، وروى عنه حمزة الزيات وغيره ، كان من اقرأ الناس للقرآن ، وكان ذا نوادر وملح ، توفى سنة ١٤٨ هـ (طبقات القراء حـ ١ ص ٣١٥) .

(٣) طلحة بن سليمان السمان مقرىء مصدر ، أخذ القراءة عن فياض بن غزوان عن طلحه بن مصرف ، وله شواذ تروى عنه . (طبقات القراء جـ ١ ص ٣٤١) .

(٤) المحتسب ـــ سورة الاعراف ص ٣١١ .

جَوْنٌ كأن العــرق المنتوحـــا لَبَّسه القَطْــران والمسوحــا[١]

★ ومن ذلك قراءة يحيى : « والنُّجمْ » ساكنة الجيم ، كأنه مخفف من النُّجُم كلغة تميم فى قولهم ، رُسْل [٢] وكُتْب ، وعلى ذلك : « سُقْفا » من قوله تعالى « سُقُفا من فضة [٣] » .

★ ومن ذلك قراءة ابن محيصن : أَمْنة نعاسا ، بسكون الميم ، قال أبو الفتح : لايجوز أن يكون « أَمْنة » مخففا من أَمَنة ، كقراءة الجماعة ، من قِبَل أن المفتوح فى نحو هذا لايسكن ، كما يسكن المضموم والمكسور لخفة الفتحة [٤] .

★ ومن ذلك قراءة سعيد بن جبير : « صُحْفا مُنْشرة » بسكون الحاء والنون قال أبو الفتح : « أما سكون الحاء فلغة تميمية [٥]»

★ ومن ذلك قراءة الحسن بخلاف وأبى رجاء [٦] » ومجاهد فيما روى عنه : فنَظْرة إلى ميسرة » قال أبو الفتح : « أما فنَظْرة بسكون الظاء فمسكنة للتخفيف من نَظِرة ، كقولهم فى كَلِمة كَلْمة ، وفى كَبِد : كبْدْ ، لغة تميمية ، وهم الذين يقولون فى كَرُم كَرْم ، وفى كُتُب كُتْب [٧] » .

---

(١) المحتسب ص ٤٤٦ .

(٢) ذكر صاحب كتاب (القراءات واللهجات) ص ٣٧ نقلا عن المزهر أن تسكين العين فيها لغة أهل الحجاز وأن التحريك لغة بنى تميم ولايخفى مافى ذلك من خروج على أصل مطرد لدى تميم ولدى الحجازيين ، وماذكره سيبويه وابن جنى هو الذى نطمئن اليه .

(٣) المحتسب ص ٤٥٤ .

(٤) المحتسب ص ٣٢٦ ـــ ٣٢٧ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) سبق ذكر الحسن البصرى ، ومجاهد بن جبر المكى ضمن شيوخ أبى عمرو فى الباب الأول ، أما أبو رجاء فهو : عمرانُ بن تميم ، ويقال ابن ملحان أبو رجاء العطاردى البصرى التابعى الكبير ، ولد قبل الهجرة بإحدى عشرة سنة ، وكان مخضر ما ، أسلم فى حياة النبى ﷺ ولم يره ، ولقى أبا بكر الصديق ، وحدث عن عمر وغيره من الصحابة ، قال ابن معين ، مات سنة ١٠٥ هـ ، وله مائة وسبع وعشرون سنة ، وقيل مائة وثلاثون (طبقات القراء جـ ٢ ص ٢٥) .

(٧) المحتسب ص ١٤٦ .

★ ومن ذلك قراءة الحسن وإبراهيم [١] ويحيى بن وثاب [٢] : « وأنتم حُرْم » بإسكان الراء ، قال أبو الفتح : هذه لغة تميمية [٣] .

★ ويضاف إلى هذه الروايات المنقولة عن ابن جنى رواية تذكر أن : « ثُمْره تميمية ، وثَمَره حجازية [٤] » .

★ كما يضاف إليها ماسبق أن ذكرناه من أن : « من يوم الجُمْعة » بالسكون لغة تميم ، قرأ بها أبو عمرو ، والأعمش وزيد بن على [٥] وقرأ الجمهور بالضم [٦].

ولنا على ماتقدم ملاحظات : **الملاحظة الأولى** : أن عين الثلاثى فعلا أو اسما ، مفردا أو جمعا ، إذا نطق بها مضمومة أو مكسورة أو مفتوحة كان هذا النطق على نسق أهل الحجاز ، وإذا نطق بها ساكنة كان صورة لنطق بنى تميم ، وكلا الأمرين واقع لغوى . ولاريب لدينا فى حدوث الإسكان فى الحركات الثلاثة ، بناء على ماروى من القراءات المختلفة لأبى عمرو ولغيره ، مما نقله ابن جنى فى رواياته التى أكدت حدوث الإسكان فى المفتوح ، رغم تفسيره لها بالشذوذ .

ولابد هنا أن نشير إلى البحث الذى كتبه أستاذنا بمجلة المجمع ، الجزء العاشر ، عن « صيغ الاسم الثلاثى المجرد » وقد قام فيه بدراسة تاريخية لهذه الأوزان سواء فى العربية أم فى أخواتها السامية ، كما قام بدراسة إحصائية للكلمات الثلاثية فى القرآن الكريم ، وفى اللهجات الحديثة ، وخلص من بحثه إلى أن الأصل فى هذه

---

(١) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود أبو عمران النخعى الكوفى قرأ على الأسود بن يزيد ، وعلقمة ابن قيس وقرأ عليه سليمان الأعمش توفى سنة ٩٦ هـ (طبقات القراء جـ ١ ص ٢٩) .

(٢) هو يحيى بن وثاب الأسدى الكوفى ، تابعى ثقة كبير روى عن ابن عمر وابن عباس مات سنة ١٠٣ هـ (طبقات القراء حـ ٢ ص ٣٨٠) .

(٣) المحتسب ص ٢٢٨ .

(٤) اللغات فى القرآن ص ١٢٦ .

(٥) هو زيد بن على بن أحمد أبو القاسم العجلى الكوفى ، شيخ العراق إمام حاذق ثقة ، قرأ على جماعة منهم ابن مجاهد ، وقرأ عليه بكر بن شاذان ومنصور الوراق وغيرهما . توفى سنة٣٥٨ هـ (طبقات القراء جـ ١ ص ٢٩٨) .

(٦) القراءات واللهجات ص ١١٩ و ١٢٠ .

الكلمات السكون، وأن الصيغة المتحركة هى الصيغة الفرعية الحديثة ، فكل ماكان مثل « عنُق وابِل وفخِذ وعضُد » فرعى الصيغة ، وعلى الرغم من أنه فرعى فقد اقتحم حصون اللغة المشتركة ، والأصل فيه السكون . أما ماكان بزنة « فَعَل » بفتحتين فقد اختلطت فيه الصورة الأصلية بالصورة الفرعية ، ومن اليسير هنا التعرف على الأصالة والفرعية حين نستعين بشهرة النطق وكثرة الاستعمال ، متذكرين أن وزن « فَعْل » بفتح فسكون يمكن أن يصير فى بعض الأحيان « فَعَل » بفتحتين ، وليس العكس ، أى : لايصح أن نتصور كلمة مثل « جَمَل » يمكن أن تتطور إلى « جَمْل » لأن الأسماء التى من هذا النوع ، أى : بفتحتين قد كونت طائفة مميزة منذ القدم ، فى معظم اللغات السامية ، ولاتزال متميزة فى لهجاتنا الحديثة [1]» .

وهذا البحث مؤيد فى ظاهره لوجهة نظر النحاة بشأن المفتوح ، والواقع أن من الممكن اعتبار ماجاء من هذا الباب ساكنا هو الأصل ، ويكون المفتوح متفرعا عنه ، وبذلك تسلم لنا وجهة نظرنا القائلة بوجود مفتوح مسكن أو مسكن مفتوح . ومن المسلم به أننا حين نصادف كلمة مفتوحة مثل : الدَّرَك التى قيل فيها : «إن فتح الراء أشهر من تسكينها » لانستطيع أن نتجاهل أن الإسكان قد روى أيضا فى هذا المفتوح رغم شهرة الفتح ، فسواء اعتبرنا أن الإسكان هو الأصل فيها أو أن الفتح هو الأصل ، فإن الصورتين ثابتتان من حيث هما حدثان لغويان . وكذلك الحال فى مَرَض ومَرْض ، وجمَل وجمْل وشنَئان وشنْئان ، وأَمَنة وأَمْنة ، وإن كنا لاننكر أن هناك كلمات لم ترد إلا بالفتح ، وأن مجموعة هذه الكلمات متميزة منذ القدم فى العربية وأخواتها الساميات ، كما لاننكر أن هناك أيضا مجموعة من الكلمات لم ترد إلا بالإسكان ، ولكن غالب مابين أيدينا من أمثلة قد روى بالوجهين كما رأينا .

وليس مما يهمنا فى هذا الباب أن نبحث عن الأصل من الصيغتين والفرع منهما ، وإنما المهم أن يثبت لدينا وجود الصورتين معا ، واستعمالهما فى قراءة القرآن ، أوثق النصوص اللغوية على الإطلاق .

---

(١) مجلة المجمع جـ ١٠ ص ٨٣ ومابعدها .

وليس يعيب هذه القراءات التى نقلناها عن المحتسب أنها شاذة ، فهى منقولة عن ابن جنى وحسب ، وقد قرر أن ماسمى شاذا ليس فى الواقع كذلك ، وإنما هى صفة خلعها رواة السبعة لابن مجاهد على ماعداها من الروايات ، وحسبنا أن ننقل هنا دفاعه المجيد فى هذه القضية ، قال : « القراءات ضربان : ضرب اجتمع عليه أكثر قراء الأمصار ، وهو ماأودعه أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد رحمه الله كتابه الموسوم « بقراءات السبعة » وهو بشهرته غان عن تحديده ، وضرب تعدى ذلك فسماه أهل زماننا شاذا ، أى : خارجا عن قراءة السبعة المقدم ذكرها ، إلا أنه مع خروجه عنها نازع بالثقة إلى قرائه ، محفوف بالرواية من أمامه وورائه ، ولعله أو كثيرا منه مساوٍ فى الفصاحة للمجتمع عليه ، نعم ، وربما كان فيه ماتلطُف صنعته ، وتعنف بغيره فصاحته ، وتمطوه قوى أسبابه ، وترسو به قدم إعرابه ، ولذلك قرأ بكثير منه من جاذب ابن مجاهد عنان القول فيه ، وماكنه عليه ورادّه إليه ، كأبى الحسن أحمد بن محمد بن شنبوذ ، وأبى بكر محمد بن الحسن بن مِقْسم وغيرهما ، ممن أدى إلى رواية استقواها ، وأنحى على صناعة من الإعراب رضيها واستعلاها . ولسنا نقول هذا فسحا بخلاف القراء المجتمع فى أهل الأمصار على قراءتهم ، أو تسويغا للعدول عما أثرته الثقات عنهم ، لكن غرضنا منه أن نرى وجه قوة مايسمى الآن شاذا ، وأنه ضارب فى صحة الرواية بجرانه ، وآخذ من سمت العربية مهلة ميدانه ، لئلا يرى مُرًى أن العدول عنه إنما هو غض منه ، أو تهمة له ، ومعاذ الله ، وكيف يكون هذا — والرواية تنميه إلى رسول الله ﷺ ، والله تعالى يقول « وماآتاكم الرسول فخذوه » ؟ . وهذا حكم عام فى المعانى والألفاظ ، وأخذه هو الأخذ به ، فكيف يسوغ مع ذلك أن نرفضه ونجتنبه . فإن قصر شىء منه عن بلوغه إلى رسول الله ﷺ فلن يقصر عن وجه من الإعراب داع إلى الفسحة والإسهاب ، إلا أننا وإن لم نقرأ فى التلاوة به مخافة الانتشار فيه ، ونتابع من يتبع فى القراءة كل جائز رواية ودراية ، فإنا نعتقد قوة هذا المسمى شاذا ، وأنه مما أمر الله تعالى بتقبله ، وأراد منا العمل بموجبه ، وأنه حبيب إليه ، ومرضى من القول لديه . نعم وأكثر مافيه أن يكون غيره من المجتمع عندهم عليه أقوى منه إعرابا ، وأنهض قياسا ، إذ هما جميعا مرويان مسندان إلى السلف رضى الله عنه ، فإن كان هذا قادحا فيه ، ومانعا من الأخذ به فليكونن ماضعف إعرابه مما قرأ بعض

السبعة به هذه حاله ، ونحن نعلم مع ذلك ضعف قراءة ابن كثير : ضئاء [١] . بهمزتين مكتنفتى الألف ، وقراءة ابن عامر : وكذلك زُين لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائِهم ..الخ .. [٢] »

وليس من المعقول بعد هذا أن يقال بشذوذ ماسقنا من شواهد قرآنية ، على أننا لا نعالج هنا الإسكان فى الثلاثى المجرد وحده ، وإنما نتخذه مقدمة لدراسة الإسكان فى مواضع أخرى ، فى غير الثلاثى ، وفى لام الكلمة ، وفى الإدغام : على ماسيأتى . وليس ينقض نسبة الظاهرة إلى تميم ماذكرته بعض الروايات من أن (نُصْب) بالإسكان ـــ بدلا من (نُصُب) ـــ ومن « أن توالى ، الثقيلين ، أى : الضمتين أو الكسرتين ، سبب فى تخفيف مثل عنْق وإبْل ، بتسكين الحرف الثانى فيهما . والتخفيف فى مثل الكلمة الأولى أكثر وهو حجازى [٣] .

إذ إن نسبة إحدى جزئيات الظاهرة إلى الحجازيين معناه أنها قد دخلت إلى مجال اللغة المشتركة .

الملاحظة الثانية :

أن نظام اللغة قد اتسع ومرن حتى صار هذا الاتجاه نحو تسكين متحرك العين بالفتح أو بالضم أو بالكسر ـــ من الأسماء ـــ سنة من سنن الفصحى ، ويجوز أن يقرأ به القرآن الكريم ، فى قراءة تعد من أهم القراءات السبع المتواترة ، فأما تسكين عين الفعل فيبدو أنه قد ظل حبيسا فى إطاره اللهجى دون أن يشيع فى اللغة الفصحى ، ربما لأن تقاليدها كانت تأباه ، ولذا لم نجد من يقرأ بتسكين عين الفعل حتى فى القراءات الشاذة ، وقد ساق النحويون عليه شواهد من الشعر العربى ، كقول الشاعر السابق ذكره :

---

(١) هى قراءته (هو الذى جعل الشمس ضئاء) بإبدال الياء همزة .

(٢) المحتسب ـــ المقدمة ص ٣ .

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية جـ ١٠ ص ٨٩ .

ألا رُبَّ مولود وليس له أب وذى ولد لم يَلْدَه أبوان

وقول أبى النجم العجلى :

لو عُصِّر منه البان والمسك انعصر

وقول الأخطل :

إذا غاب عنا غاب عنا فراتنا وإن شِهْد أجدى فضله وجداوله [1]

وقد يكون التسكين فى هذه الأفعال ناشئا عن ضرورة وزن الشعر ، وهو مانرجحه ، فلا تصلح شاهدا . ويلحق بتسكين عين الاسم تسكين الهاء من (هو وهى) على شرطه السابق .

الملاحظة الثالثة :

أن ثلاثة من الأئمة القراء الذى تلقى عنهم أبو عمرو القراءة عرضا وسماعا قد ورد ذكرهم فى هذه الروايات ، وهؤلاء الثلاثة هم : مجاهد بن جبر المكى ، ومحمد بن عبد الرحمن بن محيصن ، وسعيد بن جبير ، وثلاثتهم تلقى عنهم أبو عمرو بمكة قبل أن يرحل إلى البصرة ليجد هنالك شيخين ورد ذكرهما أيضا فى هذه الروايات ، هما :

يحيى بن يعمر ، والحسن البصرى ، وقد عرض أبو عمرو على يحيى وسمع من الحسن البصرى .

ولئن صدقت هذه الملاحظة فإن لها فى رأينا مدلولا خطيرا فيما يتعلق بتقاليد القراءة المكية ، فقد كان المظنون أن يتمسك أئمتها بتقاليد أهل الحجاز اللغوية ، فإذا بهم يقرأون بطريقة غيرهم فى بعض الكلام . ولقد يقال : إن هذا التسكين قد صار بمضى الزمن سنة من سنن اللغة النموذجية ، وخاصة من خصائصها ، تماما كما حدث لظاهرتى الإدغام وتحقيق الهمز التميميتين ، ولكن هذا القول يعد أيضا حجة لنا ، لأنه يسلم مسبقا بأصل الظاهرة ومنشئها اللهجى ، ذلك الأصل الذى مازال موضع اعتبار الثقات من أئمة النحو والقراءة واللغة ، حتى إنهم لينسبون فى كتبهم الساكن

---

(١) شرح المفصل جـ ٩ ص ١٢٦ .

إلى تميم ، والمتحرك إلى غيرها ، رغم أن الصيغتين قد استوتا فى اعتبار الفصاحة اللغوية ، سواء من حيث المنشأ ، أم من حيث الاستعمال .

وعود إلى أثر هؤلاء الأئمة فى توجيه أبى عمرو إلى اختياره هذا النموذج من تميم ، لنقول : إن أبا عمرو قد التقى بالثلاثة الأولين فى مكة ، فى صدر شبابه فأخذ عنهم طريقتهم واقتنع بمنهجهم ، فلما نصب للإقراء لم تكن مندوحة عن اختيار نماذجه من روح الطريقة التى أُشربها وهو صغير ، لأنها قد صارت طبعا عنده وسليقة ، وليس أثبت فى العقل من علم تلقاه المرء فى سن مبكرة ، فكأنما نقش فى وعيه ، لاينفك عنه أبدا ، وإن كان من المسلم به أن أبا عمرو كان — وهو يعمد إلى اختيار نماذجه — على وعى كامل بما يفعل من كل وجه ، نحوى أو لغوى .

وبحسبنا أن نلقى نظرة على ماتقدم من نماذج اختارها أبو عمرو ، ثم نقارنها بما وجدناه من أمثلة لدى هؤلاء الأئمة جميعا لنرى إلى أى مدى كان تأثره بهؤلاء الأعلام .؟ لنأخذ مثلا قراءة الحسن : وأنتم حُرْم ، وقراءة يحيى : والنُّجْم ، وقراءة سعيد ابن جبير : صُحْفا ، وسنجد أن وزان هذه الكلمات فُعْل الذى أصله : فُعُل ، وأن الأولى جمع حرام ، والثانية جمع نجم ، والثالثة جمع صحيفة ، وقد سكن هؤلاء الأئمة صيغة الجمع هذه جريا على عادة تميم فى تسكين عين الثلاثى المتحركة ، فإذا جئنا إلى اختيار أبى عمرو وجدنا عنده أمثلة من نحو : رُسْل ، وسُبْل ، ونُحشْب ، وثُمْره ، وهذه كلها جموع بزنة فُعْل الذى أصله فُعُل ، والأولى جمع رسول ، والثانية جمع سبيل ، والثالثة : جمع خَشَبَة ، والرابعة جمع ثمرة ، وقد مضى أبو عمرو فى هذا الباب إلى أبعد من ذلك حيث وجدنا أنه يختار (فُعُل) مفردا فيسكن وسطه أيضا كالجمع ، فيقرأ (الرعْب) ساكن العين ، وفيه (رعُب) ، ويقرأ (أُكْلها) ساكن الكاف وفيه (أُكُلها) ، ويقرأ : (شغْل) وفيه (شغُل) ويقرأ (عذْرا) وفيه: (عذُرا) .

بل لقد وجدناه يختار على فُعْل ماليس من باب فُعُل ، فقرأ جُبْلا ، وفيه الجِبْلة والجُبْلة والجِبلّ والجِبِلّة والجَبِيل والجَبْل والجُبْل ، والجُبُلّ والجِبْل ، وكل

ذلك الأمة من الخلق والجماعة من الناس [١]، وقرأ (وُلْد) وفيه وَلَد ، كما قرأ صيغة الجمع (خُطْوات) وفيها : خُطُوات .

وإذا أخذنا قراءة الحسن ومجاهد : فنَظْرة ، وزان فَعْلة ــ فيما أصله فَعِلة وجدنا أبا عمرو يقرأ (ورَجْلك) وزان فَعْل فيما أصله فَعِل ، إذ يقرؤها حفص بكسر الجيم :(رَجِلك) ، وكذلك قراءة أبى عمرو (وَرِقْكم) ، وفيها (وَرِقكم) .

فهذه دائما حال أبى عمرو ، لايجد طريقا إلى التسكين إلا سلكه على سنة قومه تميم ، أية كانت الحركة التى يسكنها ، فقد قرأ (على الموسع قَدْره) بالإسكان وفيه الفتح (قَدَره) ، وقرأ (دَأْبا) وفيه (دَأَبا) ، وقرأ (كِسْفا) وفيه كِسَفا ، وقرأ (أَرْنَا وأَرْنِى) وفيه الكسر ــ وقرأ (نَصْب) وفيه (نُصُب) وكلاهما مفرد [٢] ، بل لقد يعدل أحيانا إلى اختيار صيغة المفرد دون الجمع لأنها تحقق هدفه فقد قرأ (سَقْفا) على التوحيد ، والقراءة المشهورة (سُقُفا) على الجمع .

بل لقد يختار رواية الصيغة الاسمية دون الفعلية ، لأن هذه تحقق هدفه الذى اختطه لنفسه فى الاختيار ، قرأ (الذى أحسن كل شىء خَلْقه) بإسكان اللام ، وقرأها حفص (خَلَقه) على أنها فعل ، كما وجدناه يختار الرواية الساكنة وإن تغير المعنى المراد ، متى استقام من وجه صحيح ، ومن ذلك أنه قرأ : « إنْ هذا إلا خَلْق الأولين » بفتح الخاء وإسكان اللام ، بمعنى افتراء الأولين ، وقرأ حفص : « إن هذا إلا خُلُق الأولين » بمعنى : عادتهم .

بقى أن نشير إلى مثال تأثر فيه أبو عمرو بنهج شيخه ابن محيصن ؛ ذلك أن الشيخ قد قرأ : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أَمْنة) بسكون الميم على مامضى ، وقد وجدت أمثلة فى اختيار أبى عمرو مطابقة تمام المطابقة لهذا المثال عند ابن محيصن ،

(١) اللسان جـ ٣ ص ٢٠٧ .

(٢) اللسان جـ ١ ص ٧٠٩ .

فمن ذلك ماسبق أن ذكرنا من قراءته : « ولا يَجْرِ مَنَّكُمْ شَنْئان قوم » ـــ المائدة / ٢ وفيها [١] « شَنَئان » ، وهي القراءة المشهورة لدى حفص . ومنه أيضا ماروى ابن جنى من قراءة أبي عمرو (فى قلوبهم مَرْض) ساكنة ، والأصل « مَرَض » بالتحريك ، ومنه أنه قرأ « كِسْفا » فى موضع « كِسَفا » وهو فى رأينا أيضا من باب إسكان المفتوح ، قال الفراء بمناسبة قوله تعالى : « أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسَفًا » الكِسْف والكِسَف وجهان [٢]» ، والملاحظ أنه قد وردت فى هذه الكلمة أقوال عدة : منها رأى الفراء هذا ، حيث لم يفرق بينهما ، ومنها : أن الكِسْف جمع للكِسْفة مثل : عُشْبة وعُشْب [٣] ، ومنها ماقاله الزجاج : « قرئ كِسْفا و كِسَفَا ، فمن قرأ كِسَفا جعلها جمع كِسْفة وهى القطعة ، ومن قرأ كِسْفا جعله واحدا » [٤] ، وعلى الرغم من هذا الاضطراب حول الكلمة ، أمفردة هى أم جمع ؟ فإن الاحتمال لايزال صحيحا ، وهو أن قراءتها بالإسكان من باب إسكان المنصوب ، ويرجح هذا الاحتمال رأى الفراء المذكور . إلى غير ذلك مما سبق من الأمثلة التى تقرأ بوجهى الإسكان والفتح .

ولاشك أن فى هذه الاختيارات دلالة على تأثر أبى عمرو بشيخه ابن محيصن ، وهى أيضا دليل على أنه لم يلتزم القاعدة التى تقول بجواز إسكان عين الفعل مضمومة أو مكسورة دون المفتوحة ، وهى القاعدة التى حاول ابن جنى تقريرها متابعا فى ذلك مذهب سيبويه ، ولم يرد عن أبى عمرو وهو الإمام اللغوى الحجة ، مايفيد التزامه بما قرره بعد ذلك سيبويه ، لا قراءة ولا نصا . ولاريب أن موقف أبى عمرو هذا يزرع الشك حول صحة القاعدة التى حاول النحويون فرضها ليدخلوا فى نطاقها مجموعة من الأمثلة ، ويحكموا بشذوذ مجموعة أخرى ، فلئن سلمنا بشذوذها ، فهى فى رأينا شاذة عن قاعدتهم ، لا عن الواقع اللغوى الوثيق المطرد ، وإن جاز أن تكون أمثلة المفتوح المسكن أقل نسبيا من المضموم والمكسور من هذا الباب ، على مامضى .

---

(١) التيسير ص ٩٨ واللسان جـ ١ ص ١٠١ .
(٢) اللسان جـ ٩ ص ٢٩٩ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق .

ولسوف نجد فى الفصل التالى أن الفتحة ، وهى حركة إعراب ، لم تسلم من جواز الحذف فى أمثلة كثيرة فى الإدغام ، وأنها قد عوملت فى لسان العرب معاملة أختيها الضمة والكسرة تماما .

والواقع أن نظرة القدماء إلى الفتحة تجد من الدراسة الصوتية ما يساعدها ، إذ إن الفتحة أكثر قوة ووضوحا من الكسرة والضمة ، وهو ماتصوره القدماء « خفة » تمتاز بها على أختيها ، فكان من المنطقى عدم إجازة حذفها لقوة وجودها فى موقعها ، ولكن المنطق شىء ، والواقع الذى سجلنا بعض شواهده شىء آخر ، وهو كما رأينا واقع لم يفرق بين حركة وأخرى ، لأن المقصود به هو حذف الحركة من موضعها الذى تنبو عنه عند من حذفوها [١] .

لقد سبق أن ذكرنا أن أبا عمرو قد اختار أحيانا المتحرك دون الساكن حين قرأ : « إن المنافقين فى الدَّرَك الأسفل » ـــ النساء ـــ وفيها » الدَّرْك [٢] » لما كان فتح الراء أشهر من تسكينها ، وحين قرأ : « اليسُرُ والعُسُر وعُسُرة والعسُرى واليسُرى » بضم السين فى جميعهن بدلا من تسكينها الذى جرت عليه قراءة حفص ، وقلنا : إن صاحب اللسان يعتبر أن المسكن من هذه الكلمات هو الأصل ، وأن المتحرك لغة فيه ، كما قالوا : القُفُل فى القُفْل ، والقُبُل فى القُبْل ، ولاشك أننا بعد أن ذكرنا ماسبق بصدد إسكان عين الكلمة لانستطيع أن نسلم لرواية اللسان فى هذا الموضع بالذات ، لأن عهدنا بأبى عمرو ألا يخرج عن أصل عام إلا إذا اضطره إلى ذلك اعتبار قوى غلاب ، كأن يختار الأفصح والأشهر ، فلو طبق هنا أصله وهو « اختيار الأفصح » لاختار الساكن دون المتحرك ،، ولكنه فعل العكس .

وهنا نسوق رواية أخرى تعالج الموضوع فى صميمه ، وهى ماذكره ابن جنى

---

(١) سيأتى لنا حديث عن « الحركات والسكون » فى الفصل التالى .

(٢) قراءة حفص بالإسكان تعد من شواهدنا على جواز إسكان المنصوب لوقوعه فى قراءة لم يقل أحد فيها بالشذوذ .

بصدد (قراءة الحسن بخلاف وقتادة (١) وأبى رجاء والجحدرى (٢)وسهل بن شعيب (٣) (نُشْرا) بضم النون وجزم الشين .. قال أبو الفتح : أما نُشْرا فتخفيف نُشُرا فى قراءة العامة ، والنُّشُر جمع نَشُور ، لأنها تنشر السحاب وتسوده ، والتثقيل أفصح لأنه لغة الحجازيين ، والتخفيف فى نحو ذلك تميم (٤)) .

وبذلك يتضح الموقف بمالا ريبة معه ، فأبو عمرو قد اختار هذه الأمثلة بناء على أصله الذى سبق أن عرضناه كاملا ، وبذلك تكتمل أمامنا قاعدته التى جرى عليها بالنسبة لمفرداتها جميعا .

وخلاصة القول : أن ظاهرة إسكان عين الكلمة تميمية ، وأن اختيار أبى عمرو لرواية الإسكان فى غالب هذا الباب قد يكون ناشئا عن اعتزازه بلهجة قومه التى تعد من أفصح لهجات العرب ، وقد يكون لما وجد من شيوع هذا الإسكان فى اللغة المشتركة ، وإن كان قد اختار فى بضع كلمات أخرى النهج الغالب لدى الحجازيين ، الذين أثر عنهم أيضا الإسكان فى بعض المواضع على ماسبق ، كما وضح أن هذا الإسكان جار فى عين الكلمة مضمومة أو مفتوحة أو مكسورة ، بعكس ماقرر النحاة من اقتصاره على المضموم والمكسور دون المفتوح إلا شذوذا .

أما كون هذا الإسكان متصلا بالنظام المقطعى للكلمة العربية فذلك ماسنتحدث عنه فى البحث التالى . ولسوف يفيدنا أيضا مااستخلصناه من نتيجة فى هذا البحث ، الذى نعتبره كالمقدمة لما بعده ، وبخاصة فى دراسة ظاهرة الإسكان فى آخر الكلمة ، فى الإدغام وغيره ، إن شاء الله .

---

(١) هو قتادة بن دعامة أبو الخطاب السدوسى البصرى ، الأعمى ، المفسر أحد الأئمة فى حروف القرآن ، روى القراءة عن أبى العالية ، وأنس بن مالك فكان يضرب بحفظه المثل ، توفى سنة ١١٧ هـ (طبقات القراء جـ ٢ ص ٢٥) .

(٢) هو عاصم بن أبى الصباح العجاج الجحدرى البصرى أخذ القراءة عن سليمان بن قتة عن ابن عباس وقرأ على نصر بن عاصم والحسن ويحيى بن يعمر توفى سنة ١٢٨ هـ طبقات القراء جـ ١ ص ٣٤٩ .

(٣) هو سهل بن شعيب الكوفى ، عرض على عاصم بن أبى النجود ، وعلى أبى بكر بن عياش ، روى القراءة عنه عبد الله بن حرملة بن عمرو (طبقات القراء جـ ١ ص ٣١٩) .

(٤) مخطوطه المحتسب ص ٣٦٢ ـــ قراءة آية ٥٧ من الاعراف .

الفصل الثالث

إسكان آخر الكلمة

١ – إسكان آخر الكلمة

كان حديثنا فى الفصل السابق مفرغا لظاهرة الإسكان فى وسط الكلمة أو عينها . وخرجنا من حديثنا بأن هذه الظاهرة تميمية ، وبأنها كانت لدى النحويين مشروطة بكون عين الكلمة مضمومة أو مكسورة ، وأن أبا عمرو — يؤيده الواقع اللغوى — لم يلتزم هذه القاعدة ، فأسكن المضموم والمكسور ، والمفتوح أيضا .

ونريد الآن أن نناقش مجموعة من اختيارات أبى عمرو ، تثير أمامنا مشكلة ضخمة ذات تأثير كبير على خاصية الإعراب بالحركات . وقد ثارت هذه المشكلة من قبل بين القراء من جانب ، والنحويين من جانب آخر ، أو بعبارة أدق : بين جمهور القراء ومن سلم بنظرهم من النحويين ، وبين النحويين ومن شايعهم من القراء ، ولكن الخلاف بين الفريقين ظل فى حدود الأمثلة المفردة ، لم يتعدها إلى المساس بالقواعد العامة ، أى : إنه لم يحدث أدنى تأثير على المقاييس التى اصطلح عليها النحويون وسلم بها القراء ، وسنحاول أن نعرض هنا الأمثلة ، ومادار حولها من جدل ، ثم نبدأ فى مناقشة الموضوع من وجهة نظرنا :

وردت فى قراءة أبى عمرو أمثلة اختلفت حولها روايات القراء ، والأمثلة هى :

★ قرأ أبو عمرو : «يأمرْكم» حيث وقع (فى سبعة مواضع) قيل بإسكان الراء ، وقيل باختلاس حركتها [١] .

وقرأ : «تأمرْهم» حيث وقع (فى موضع واحد) قيل : بإسكان الراء ، وقيل : باختلاس حركتها .

---

(١) نقصد هنا حين كان أبو عمرو لا يقرأ التحقيق ، أى حين كان يسرع بالقراءة ويدرجها .

وقرأ : «يأمرهم» حيث وقع : فى (موضع واحد) قيل : بإسكان الراء ، وقيل : باختلاس حركتها .

وقرأ : «ينصرْكم» حيث وقع (فى خمسة مواضع) قيل : بإسكان الراء وقيل : باختلاس حركتها

وقرأ : «يُشعرْكم » حيث وقع (فى موضع واحد) كذلك

وقرأ : «إلى بارْئكم» ،،،، (فى موضعين اثنين) »

وقرأ : «مكر السّىءْ إلا » بالإسكان من رواية المنقرى عن عبد الوارث عن أبى عمرو .

هذه الأمثلة تكاد تكون من المجمع على روايته فى هذا الباب ، وقد روى اكثر أهل الأداء الاختلاس من رواية « الدورى » ، والإسكان من رواية « السوسى [(١)] » ، وهما أخذاه عن شيخهما أبى محمد يحيى اليزيدى [(٢)] ، فقد نقل اليزيدى إذن — روايتين عن إمامه أبى عمرو ، اشتهرت إحداهما من طريق السوسى ، والأخرى من طريق الدورى . والإسكان اختيار الحافظ أبى عمرو الدانى قال : « والإسكان يعنى فى هذا الكلم [(٣)] — أصح فى النقل وأكثر فى الأداء ، وهو الذى أختاره وآخذ به [(٤)] والاختلاس اختيار ابن مجاهد [(٥)] » . ونحن نرجح أيضا الإسكان ، إذ كان من طريق السوسى ، وهو كما علمنا أصح فى هذا الباب رواية ، وأدق نقلا ، لتوفره على قراءة أبى عمرو وتخصصه فيها ، على حين اشتغل الدورى بكثير من القراءات كما اشتغل بالنحو على مامر فى ترجمته ، فيحتمل أنه قال بالاختلاس من باب الولاء لمذاهب النحويين .

---

(١) النشر جـ ٢ ص ٢١٢ .

(٢) النشر جـ ١ ص ١٣٣ .

(٣) مابين العلامتين من كلام ابن الجزرى .

(٤) النشر جـ ٢ ص ٢١٣ .

(٥) النشر جـ ٢ ص ٢١٢ .

هذا عرض موجز للخلاف حول هذه الأمثلة ، نجده مبسوطا فى النشر ، كما نجد أمثلة أخرى منسوبة لأبى عمرو من روايات مخالفة لما ذكرنا ، فبعضهم لم يذكر (ينصركم) و (يحذركم) ، وبعضهم أطلق القياس فى كل راء نحو : (يحشرهم ، وأنذركم ، ويسيركم ، ويطهركم) . وجمهور العراقيين لم يذكروا (تأمرهم ويأمرهم) ، وبعضهم لم يذكر (يشعركم) وبعضهم لم يذكر (ينصركم) ، ولكن عدم تعرض بعض القراء لذكر بعض الأفعال لايمنع الأخذ فى هذه الأفعال بقياس واحد هو جواز إسكانها (١) .

ومما يلحق بقراءة أبى عمرو بالإسكان فى آخر الكلمة قراءته : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدهْ إليك ــ آل عمران آ ٧٥ » ، و « ومن يرد ثواب الدنيا نؤتهْ منها ــ آل عمران آ ١٤٥ » ، و « ويتبع غير سبيل المؤمنين نولهْ ماتولى ، ونصلهْ جهنم وساءت مصيرا » ــ النساء آ ١١٥ و « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقهْ » ، النور آ ٥٢ ، « وإن تشكروا يرضهْ لكم ــ الزمر آ ٧ » بإسكان الهاء فى ذلك جميعا (٢) .

هذا الذى سقناه من أمثلة أثار مشكلة كبرى بين القراء ، ابتداء من « اليزيدى » ، وبين النحويين ، ابتداء من « سيبويه » (المتوفى سنة ١٨٠) وسبب هذا الخلاف أن رواية الإسكان تهدم أصلا من الأصول الإعرابية ــ حيث تحذف الحركة التى هى علم على الإعراب ، ولم يستطع النحاة أن يتصوروا كيف حدث هذا فى الكلمات المعربة ، ومن ثَمّ لم يسلموا بصحة هذه الرواية ، وقالوا ــ : وإمامهم فى ذلك سيبويه ــ بأن أبا عمرو كان يختلس اختلاسا .

بيد أننا قبل أن نعرض تفاصيل هذا الخلاف بين الفريقين نقدم بين يدى هذا العرض أمثلة أخرى من القراءات المختلفة ، على مثال ماروى من اختيار أبى عمرو للإسكان فى هذه الكلمات ، وهى منقولة عن ابن جنى من كتابه « المحتسب» ، الذى يضم ماسمى من القراءات شاذا ، ومضى دفاعه عنه ، فمن ذلك :

---

(١) النشر جـ ٢ ص ٢١٣ .

(٢) النشر جـ ٢ ص ٢١٣ .

★ قراءة الحسن وأبى رجاء وقتادة وسلام [١] ويعقوب [٢] والهمذانى [٣] : —

« ويذرْهم » بالياء وجزم الراء . قال أبو الفتح : قد تقدم ذكر إسكان المرفوع تخفيفا ، وعليه قراءة من قرأ : « ومايُشعرْكم » ، وكان (يُشعركْم) أعذر من (يَذرْهم) ، لأن فيه خروجا من كسر إلى ضم ، وهو فى (يذرهم) خروج من فتح إلى ضم [٤] .

★ وقراءة مسلمة : «فسيحشرْهم » و « فيعذبْهم » بسكون الراء والباء ، قال أبو الفتح : قد سبق نحو هذا ، وأنه إنما سكن استثقالا للضمة ، نعم ، وربما كان العمل خلسا فَظُنَّ سكونا ، وقد سبقت شواهد السكون بما فيه [٥]

★ وقراءة على عليه السلام ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وأنس ابن مالك ، وعلقمة [٦] ، والجحدرى ، والتيمى [٧] ، وأبى رجاء : « ويذرَك وإلٰهتك » الأعراف آ ١٢٧ — وقرأ « ويذرْك » بإسكان الراء الأشهب [٨] .

---

(١) هو سلام بن سليمان الطويل أبو المنذر المزنى البصرى ، ثم الكوفى ، مولى قرأ على أبى عمرو ، وعلى عاصم بن أبى النجود ذكره ابن حيان فى الثقات ، توفى سنة ١٧١ هـ . (طبقات القراء جـ ١ ص ٣٠٩) .

(٢) هو يعقوب الحضرمى — أحد القراء العشرة ، سبق الحديث عنه فى الباب الأول .

(٣) سبقت ترجمته الهمذانى (أبو العلاء) فى الباب الأول .

(٤) المحتسب ص ٢٥٨ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٢٧ .

(٦) هو علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك بن شبل النخعى ، الفقيه الكبير ولد فى حياة النبى ﷺ ، وأخذ القراءة عن ابن مسعود حتى قال : « ماأقرأ شيئا وماأعلم شيئا إلا وعلقمة يعلمه » ، وقرأ عليه جماعة منهم : إبراهيم بن يزيد النخعى ، وأبو إسحاق السبيعى ، ويحيى بن وثاب ، وغيرهم — توفى سنة ٦٢ هـ . (طبقات القراء جـ ١ ص ٥١٦)

(٧) هو إبراهيم بن يزيد بن شريك أبو أسماء التيمى الكوفى ، الإمام العابد الكبير ، قيل إنه قرأ على علقمة عن ابن مسعود ، وقيل على الأعمش ، توفى سنة ٩٢ هـ فى حبس الحجاج (طبقات القراء جـ ١ ص ٢٩) .

(٨) المحتسب ص ٣٠٥ ، والأشهب هو جعفر بن حيان أبو الأشهب العطارى البصرى ، =

★ ومن ذلك قراءة مسلمة بن محارب [١] : « وبعولتْهن » ساكنة التاء ، قال أبو الفتح : قد سبق نحو هذا فى قراءة أبى عمرو : « يأمرْكم » وعلته ثقل الضمة مع كثرة الحركات [٢] .

★ وقراءة الحسن: «أو يحدثْ لهم ذكرا ـــ طه آ ١١٨ » ساكنة الثاء ، وقال أبو الفتح : ينبغى أن يكون هذا مما يسكن استثقالا للضمة كقول جرير (وأنشدناه أبو على ، يعنى الفارسى) :

سيروا بنى العم فالأهواز موعدكم

ونهر تيرى ولا تعرفْكم العرب

أى : ولا تعرفُكم ، وقد مضى ذكر نحوه [٣] .

★ « وأما (يذرْك) بالإسكان فمن (يذرَك) ، كقراءة أبى عمرو « إن الله يأمرْكم ـــ البقرة آ ٦٧ » ، وحكى أبو زيد [٤] (رسلْنا) بإسكان [٥] اللام استثقالا للضمة مع توالى المتحركات ، ولم يسكن أبو عمرو

= قرأ على رجاء العطاردى ، وقرأ عليه يعقوب الحضرمى ، ولد سنة ٧٠ هـ ، وتوفى سنة ١٦٥ هـ (طبقات القراء جـ ١ ص ١٩٢) .

(١) مسلمة بن محارب أبو عبد الله الفهرى البصرى النحوى ، قال محمد بن سلام كان مع ابن أبى اسحاق وأبى عمرو بن العلاء ، وقال ابن مجاهد : كان من العلماء بالعربية ، وكان يقرأ بالإدغام الكبير كأبى عمرو ، وروى حروفا لم يدغمها أبو عمرو . (طبقات القراء جـ ٢ ص ٢٩٨) .

(٢) المحتسب ـــ سورة النساء .

(٣) المحتسب ص ٥١٢ .

(٤) هو سعيد بن أوس بن ثابت الأنصارى النحوى ، ولد سنة ١٢٠ هـ ، وروى القراءة عن المفضل عن عاصم ، وعن أبى عمرو بن العلاء وعن أبى السمال قعنب العدوى ، وروى عنه القراءة خلف بن هشام البزار ، وأبو حاتم السجستانى وغيرهما ، وكان أبو زيد من جملة أصحاب أبى عمرو وكبرائهم ومن أعيان أهل النحو واللغة والشعر ، وتوفى سنة ٢١٥ هـ عن أربع وتسعين سنة . (طبقات القراء جـ ١ ص ٣٠٥) .

(٥) حيث وقعت فى القرآن .

(يأمرُهم) (١) كما أسكن (يأمرْكم) . وذلك لخفاء الهاء وخفتها ، فجاء الرفع على واجبه ، وليست الكاف فى (يأمركم) بخفية ولاخفيفة خفة الهاء ، فثقل النطق بها فحذفت ضمتها (٢) » .

وبوسعنا أن نفيد من تعليقات ابن جنى على هذه الأمثلة خلاصة ماثار بين النحاة والقراء من خلاف حول دلالتها ، فهو يقرر أن ذلك مما يسكن استثقالا للضمة أو لكثرة الحركات ، أى : إن علة الإسكان هى القصد إلى التخفيف من قيود الحركات المتوالية ، حتى ولو كان هذا الإسكان واقعا على موقع الحركة الإعرابية . وقال أيضا : « ربما كان العمل خلسا فظُن سكونا » ، ولعله كان يميل الى التسليم بظاهرة الإسكان واقعا لغويا ، واعتبار الخلس احتمالا فى المسألة لاينبغى إغفاله . كما نفيد أيضا من بعض الأمثلة أنه ربما كان يسلم بجواز إسكان المنصوب كما فى (يذرك) فى قوله تعالى (ويذرَك وآلهتك) الأعراف ١٢٧ ، وإن كان رأيه فى المسألة برمتها سيكون محل نقاش فيما بعد .

وقبل أن نشرع فى النقاش ينبغى أولا أن نعرف معنى هذا (الخلس) أو (الاختلاس) كما ورد فى كتب النحويين ابتداء من سيبويه :

معنى الاختلاس

يراد بالاختلاس عند القائلين به الإسراع بالحركة ، أى : إن الناطق يسرع فى نطقها ويختطفها ، فلا يحقق هذا النطق كاملا ، يقول سيبويه تحت عنوان : « هذا باب الإشباع فى الجر والرفع وغير الإشباع والحركة كما هى » مانصه : (فأما الذين يشبعون فيمططون ، وعلامتها واو وياء ، وهذا تحكمه لك المشافهة ، وذلك قولك يضربُها ومن مَأْمنِك ، وأما الذين لايشبعون فيختلسون اختلاسا) (٣) .

---

(١) تقدم أن أصح الروايات عنه بإسكانها .

(٢) المحتسب ص ٣٠٥ ، ٣٦١ .

(٣) الكتاب جـ ٢ ص ٢٩٧ . وسيأتى فى هذا الفصل دراسة كاملة لهذا الموضوع .

كانت نظرة سيبويه هذه بداية النقاش بين الفريقين ، فقد مضى سيبويه فى تطبيق كلامه عن الاختلاس على قراءة أبى عمرو قال : « ومن ثم قال أبو عمرو (إلى بارِئكم) ، ويدلك على أنها متحركة قولهم (من مأمنك) فيبينون النون ، فلو كانت ساكنة لم تحقق النون ، ولايكون هذا فى النصب ، لأن الفتح أخف عليهم ، كما لم يحذفوا الألف حيث حذفوا الياءات ، وزنة الحركة ثابتة كما تثبت فى الهمزة حيث صارت بين بين [1] » .

وهو فى قوله : « فلو كانت ساكنة لم تحقق النون » يشير إلى أن إسكان النون يخفيها طبقا لأحكام التجويد ، فإذا أظهرت كان ذلك دليلا على وجود الحركة ، وغاية مافى الأمر أنها اختلست ، أى : تنازلت عن جزء قصير من مدتها ، ولعله قد صار من المعلوم أن مثل هذا الاختلاس لايحدث فى رأى سيبويه فى غير المرفوع والمجرور . « لأن الفتح أخف عندهم » ، وفكرة «الخفة » هى علة الباب كله كما رأينا .

ونقل أبو على الفارسى (المتوفى سنة٣٧٧ هـ) نصا شبيها بهذا المعنى قال : « وقال سيبويه : كان أبو عمرو يختلس الحركة فى بارئكم ويأمركم ومأأشبه ذلك مما تتوالى فيه الحركات ، فيرى من سمعه أنه قد أسكن ولم يسكن » [2] .

وكان دافع سيبويه إلى القول بالاختلاس أنه لايرى جواز إسكان المرفوع والمجرور فى غير الشعر ، لأن الشعر ، كما هو معلوم ــ محكوم بالوزن والقافية ، وهذان قد يضطران الشاعر إلى الخروج عن القاعدة إقامة للوزن ، فجاز له أن يسكن المرفوع والمجرورـــ يقول سيبويه : « وقد يجوز أن يسكنوا الحرف المرفوع والمجرور فى الشعر ، شبهوا ذلك بكسرة فخِذ حيث حذفوا فقالوا فخْذ ، وبضمة عضُد ، حيث حذفوا فقالوا : عضْد ، لأن الرفعة ضمة والجرة كسرة قال الشاعر [3] :

رُحْتِ وفى رجليكِ ما فيهما وقد بداهَـنْكِ من المئـزَرِ

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٢٩٧ .

(٢) (الحجة) لأبى على الفارسى مخطوط رقم ١٢ ، ٢٤ جـ ٢ قسم أول ورقة (١٨٣) ـــ مكتبة جامعة القاهرة .

(٣) هو الأقيشر الأسدى ـــ هامش الخصائص جـ ١ ص ٧٣ تحقيق الأستاذ محمد على النجار .

ومما يسكن فى الشعر وهو بمنزلة الجرة ، إلا أن من قال فخِذ لم يسكن ذلك — قال الراجز :

إذا اعوَجَجْن قلت صاحبْ قوّمْ   بالدوّ أمثال السفين العُوَّم

فسألت من ينشد هذا البيت من العرب فزعم أنه يريد صاحبى [١] . وقد يسكن بعضهم فى الشعر ويُشِمّ ، وذلك قول الشاعر (امرىء القيس) :

فاليوم أشربْ غير مستحقب   إثما من الله ولا واغــــل

وجعلت النقطة علامة الإشمام ، ولم يجىء هذا فى النصب ، لأن الذين يقولون كَبْد وفَخْذ لايقولون فى جَبَل جَبْل »[٢] .

وقد سبق أن كشفنا عن انتقاض قاعدة عدم إسكان المفتوح بما سقناه من روايات وشواهد ، وهى القاعدة التى يصر سيبويه على ترديدها دائما بحجة أن الفتح أخف من الضم والكسر ، فإسكانه تخلص من خفيف بخفيف . ولسوف يظهر فيما بعد أن هذا الإسكان لم يقع بناء على نوع الحركة ، وإنما كان دائما على أساس مقطعى ، وذلك حين نعرض رأى أبى على الفارسى فى الموضوع ، وهو الرأى الذى اتبع فيه إمامه سيبويه حتى فى هذا الأصل المنقوض ، كما سيظهر أيضا عند مناقشة آراء ابن جنى .

ومقتضى كلام سيبويه أيضا أنه لايجوز الإسكان فى النثر ، حيث لاضرورة تحمل عليه ،وبذلك يكون قد منع أن يحدث فى قراءة القرآن ، ومن هنا كان تفسيره لقراءة أبى عمرو بالاختلاس طردا للقاعدة . كما يلاحظ أن سيبويه قد سلم بجواز إسكان المرفوع والمجرور فى الشعر للضرورة ، وهو وإن كان لم يصرح بأن وقوعه فى الشعر للضرورة ، إلا أن ذلك مفهوم كلامه ، وتابعه فى ذلك الفارسى وابن جنى .

وقد كان بوسع سيبويه أن يذهب إلى جواز الإسكان فى النثر ، ومن ثم فى

---

(١) ذهب ابو على الفارسى إلى أن المحذوف هنا ضمة البناء للمنادى وتقديره (ياصاحبُ) ـــ الحجة ورقة (١٨٥) .

(٢) الكتاب جـ ٢ ص ٢٩٧ ـــ ٢٩٨ .

فى القرآن لو أنه تأمل ظاهرة إسكان عين الكلمة ، والتى ساق بعض امثلتها شاهداً على جواز الإسكان فى لام الكلمة قياسا على إسكان العين : (كما فى فَخْذ وعَضْد) ، فهو قد قرر فيما سبق أن شيوع الإسكان فى العين وفى اللام مقتصر على بيئة معينة هى بيئة تميم ، ولاشك أن الناطق فى هذه القبيلة لم يكن يفرق بين كون اللفظ واردا فى شعر أو نثر ، فقد كان يسكن فى الكلام بعامة . ولكن سيبويه وقد استولت عليه مهابة المقاييس التى استقرت لضبط أواخر الكلم ، عز عليه أن تنهار هذه المقاييس بسبب تقليد لاينتسب إلى من اعتمد عليهم فى تقعيد قواعده ، وهم قبائل الحجاز ، فكان أن فسر إسكان اللام بالاختلاس ، إلا فى الشعر ، على حين قد سلم بإسكان العين فى الشعر وفى النثر .

وقد كان سيبويه برأيه هذا يتحدى أئمة القراءة ، وبخاصة الذين رووا عن أبى عمرو رواية مباشرة ، وأخذوا عنه القراءة عرضا وسماعا ، وفى مقدمتهم أبو محمد يحيى ابن المبارك اليزيدى ، الذى روى الإسكان الصحيح فى الكلمات السابق ذكرها ، كما روى أن أبا عمرو كان يشم الهاء من (يَهَدّى) والخاء من (يَخَصمّون) شيئا من الفتح [1] .

وقد سبق أن روينا عن كتاب الحجة رأى سيبويه فى قول من روى الإسكان ، وأنه كان منخدعا ، لم يضبط فى نقل ماسمعه شفاها من أبى عمرو ، وكان بحسب سيبويه أن يكون اليزيدى سمع من أبى عمرو ، وهو إمام فى القراءة ، قال عنه ابن الجزرى : « كان ثقة علامة فصيحا مفوها ، إماما فى اللغات والآداب ، حتى قيل : أملى عشرة آلاف ورقة من صدره عن أبى عمرو خاصة ، غير ماأخذه عن الخليل وغيره [2] »

---

(١) النشر جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٢) نص كلام ابن الجزرى : وقال الحافظ الدانى رحمه الله : وقالت الجماعة عن اليزيدى أن أبا عمرو كان يشم الهاء من « يهدى » والخاء من يخصمون شيئا من الفتح « النشر جـ ٢ ص ٢١٤ . اما رواية الإسكان فهى عن السوسى وجماعة كبيرة عن اليزيدى عن أبى عمرو (نفس المرجع) .

فهل كان فى الطاقة وسيلة للنقل أدق من السماع مشافهة ؟.. ثم ما سند سيبويه فيما قرر من عدم ضبط النقلة ؟ لاشك أنه رواية أخرى تلقاها حين قرأ على تلميذ من تلامذة أبى عمرو ، لأن سماعه هو من أبى عمرو بعيد [١] ، والراجح أنه لم يدركه ، فقد مات أبو عمرو ، وهو حديث السن جدا ، وحتى لو صحت رواية أنه قرأ على أبى عمرو فما نظن أن غلاما حدثا فى العاشرة من عمره ، أو زهاءها ، لم تثر فى ذهنه أية مشكلة ، يمكنه أن يضبط طريقة أبى عمرو فى نطق دقيق هكذا ، ثم لا يؤخذ برواية من كان أسن منه وأقدر على الضبط ، وهو بعدُ ثقة صدوق . قال فيه ابن مجاهد : « وإنما عولنا على اليزيدى ، وإن كان سائر أصحاب أبى عمرو أجل منه ، لأجل أنه انتصب للرواية عنه وتجرد لها ، ولم يشتغل بغيرها وهو أضبطهم [٢] » « ثم إن أبا يحيى إمام بصرى فى النحو من طبقة سيبويه (السادسة) ، ومثله لايتهم بعدم الولاء لمدرسته البصرية ، فإذا كان قد نقل عن أبى عمرو الإسكان لم يكن بد من قبول روايته ، لأنه تحرى أن يصف قراءة أبى عمرو للإسكان ، كما تحرى أن يصف قراءته للاختلاس ، ودقق فى تحديد مواضعهما ، وقد سبق أن وجدنا أن ناقل رواية الإسكان عن اليزيدى هو السوسى ، الذى كان على شاكلة اليزيدى تفرغا للقراءة ، وعكوفا على ضبط روايتها عن اليزيدى مصدرها .

فإذا تركنا سيبويه إلى من أتى بعده وجدنا أبا العباس محمد بن يزيد المبرد (المتوفى سنة ٢٨٠ هـ) وقد مضى فى الشوط إلى أبعد غاياته ، فقد زعم أن قراءة أبى عمرو ذلك لحن [٣] ، وأنكر الإسكان إنكارا تاما ، حتى الذى قال سيبويه بجوازه فى الشعر ، وروى فى الشواهد التى ساقها سيبويه روايات أخرى لايكون فيها إسكان ، فروى بيت الأقيشر الأسدى هكذا :

رحت وفى رجليك مافيهما   وقد بدا ذاكِ من المئزر

---

(١) طبقات القراء جـ ١ ص ٦٠٢ .

(٢) طبقات القراء جـ ٢ ص ٣٢٧ .

(٣) النشر جـ ٢ ص ٢١٣ .

وتصرف فى الشاهد الثانى من شواهد سيبويه هكذا :

إذا اعوججن قلت صاح قوم　　بالدو أمثال السفين العوم

أى إنه أنشده بالترخيم ، وأما الشاهد الثالث فقد أنشده على الوجه التالى :

فاليوم فاشرب غير مستحقب　　إثما من الله ولا واغـــل

أو قرأ مكان (فاشرب) الأمر (أُسقى) (١) مضارعا مبنيا للمفعول . وكانت هذه محاولة من المبرد لنقض كلام سيبويه ، بحجة أن الحركة علم للإعراب ، ومن ثَم لايجوز إسكانها (٢) . وبذلك يكون المبرد قد أنكر الإسكان والاختلاس اللذين جوزهما سيبويه ، وسمعهما شفاها من العرب ، وروى لهما من الشواهد ماروى ، ويؤثر عن المبرد فى هذا الصدد نص يفصل فيه فى الاعتبار بين حركة العين التى يجوز إسكانها فى رأيه ، وحركة اللام التى تعد حركتها عنده مقدسة لايجوز المساس بها ، قال (كل مكسور أو مضموم إذا لم يكن من حركات الإعراب يجوز فيه التسكين ، ولا يجوز ذلك فى المفتوح لخفة الفتحة (٣)) ومن الشواهد التى ساقها المبرد دليلا على صحة قاعدته قول الشاعر :

ألا رب مولود وليس له أب　　وذى ولد يلْـدَه أبـوان

والأصل كما هو ظاهر (يَلِدْه) سكنت اللامِ تخفيفا ،فالتقى ساكنان سكون التخفيف وسكون الجزم ، فحرك الثانى تخلصا (٤) ، ولسوف نرى أن النحويين الذين أجازوا الإسكان فى اللام قياسا على جواز الإسكان فى العين ، كان تصورهم للقضية تصورا مقطعيا ، لايفرق بين اللام والعين فى الموقع ، ماذامت إحداهما واقعة بين مقطعين مفتوحين .

---

(١) هامش الكتاب المقتبس عن شرح السيرافى له ص ٢٩٧ ــ ٢٩٨ .

(٢) الحجة ورقة (١٨٤)

(٣) المفصل جـ ٩ ص ١٢٦ هامش .

(٤) المرجع السابق .

وجاء بعد المبرد أبو سعيد السيرافى فلم يزد على أن قلد سيبويه ، فقد ردد آراءه بأن رجح جانب الاختلاس فى الروايات الواردة عن أبى عمرو ، وقاس تسكين اللام على تسكين العين فى مثل رسُل وعجُز ورجُل حيث يمكن أن يقال فيها : رسْل وعجْز ورجْل ، وكذلك فى المكسور ، فيقال فى فخِذ : فخْذ ، وفى عَلِمَ : علْم [١] .

وجاء بعد ذلك أبو على الفارسى فاتبع مذهب سيبويه سواء بالنسبة إلى قراءة أبى عمرو ، أم بالنسبة لتجويز الإسكان ، وإن كان قد توسع فى إجازته ، وقد نهج أبو على نهجا فريدا فى عرض قضية الإسكان ، ودافع دفاعا مجيدا عن رأى سيبويه القائل بجواز حذف الحركة الإعرابية فى الشعر ، ولعل من المفيد لموضوعنا أن نعرض رأيه فى شىء من التفصيل .

أولا : فيما يخص قراءة أبى عمرو لما ذكرنا من أمثلة :

ذكر الفارسى روايات مختلفة فى الموضوع ، تحكى أن أبا عمرو كان يخفف مثال (بارئكم) ، وأنه كان لايجرها ، ثم ذكر رأى سيبويه فى المسألة وهو : أن أبا عمرو كان يختلس الحركة فيرى من سمعه أنه كان يسكن ، ولم يكن يسكن ، ثم قال : « وهذا القول أشبه بمذهب أبى عمرو ، لأنه كان يستعمل التخفيف فى قراءته كثيرا ، من ذلك ماحدثنى به عبد الله بن على الهاشمى عن نصر بن على عن أبيه أنه كان يقرأ : (ويعلمهم الكتاب) ، و(يلعنهم) يشم الميم والنون التى قبل الهاء الضم من غير إشباع ، وكذلك (عن أسلحتكم وأمتعتكم) يشم التاء فيهما شيئا من الخفض — قال : أخبرنى بذلك أبو طالب عبد الله أحمد بن سوادة قال : حدثنا ابن سعد الزهرانى قال : حدثنا عبيد بن عقيل عن أبى عمرو بذلك ، قال : وكذلك (ويزكيكم ويعلمكم يشمها(الميم من يعلمكم) شيئا من الضم ، وكذلك (يوم يجمعكم) يشم العين شيئا من الضم ، وكذلك قوله : (وأرنا مناسكنا) لايسكن الراء ، ولا يكسرها ، روى ذلك عنه على بن نصر وعبد الوارث واليزيدى وعباس بن الفضل وغيرهم ، أعنى و(أرنا)

---

(١) شرح كتاب سيبويه لأبى سعيد السيرافى مخطوط رقم ١٣٦ دار الكتب .

وكذلك قراءته فى (يأمركم ويأمرهم وينصركم) وما أشبه ذلك من الحركات المتواليات . وروى عبد الوهاب بن عطاء وهارون الأعور عن أبى عمرو (أرْنا) ساكنة الراء ، وقال اليزيدى فى ذلك كله : إنه كان يسكن اللام من الفعل فى جميعه . والقول ماخبرتك من إيثاره التخفيف فى قراءته كلها » (١)

فمذهب أبى على إذن هو ماقال به سيبويه ، وهو وإن ذكر روايات تحكى الإسكان فإنه لا يأخذ بها ، تماما كما فعل سيبويه . ومما يلاحظ أنه قد استخدم لفظة (الإشمام) فى مثل قوله : (وكذلك « يجمعكم » يشم العين شيئا من الضم) وقوله : (« وأرنا منا سكنا » لايسكن الراء ولا يكسرها) ، فكأنه يريد أن يقول فى الأول : « ينطقها بنصف ضمة أو ربع ضمة » وأن يقول فى الثانى : (لايسكن الراء ولايكسرها ، وإنما تكون بين السكون والكسر ، فمن سمعها من بعيد سمعها مسكنة ومن تأملها من قريب وجد فيها رائحة كسرة) ، وهذا هو نفس ماذهب إليه سيبويه حين ذكر إشمام الباء فى (اشربْ) وجعل النقطة علامة الإشمام ، فقد كان يقصد : أن من العرب مَنْ ينطق بهذه الكلمة لا ساكنة ولا مضمومة ضمة خالصة . وإنما يعطيها رائحة ضمة ، وبذلك يكون أبو على قد حذا حذو سيبويه فى كل ماقال به .

ثانيا : فيما يخص ظاهرة الإسكان عموما :

وأبو على هنا ، رغم اتباعه مذهب سيبويه ودفاعه عنه فى وجه من أنكره — يقصد المبرد — ينهج نهجا فريدا فى تفصيل القضية والبرهنة عليها ، ماأظن أن أحدا سبقه إلى القول على نسقه . فهو يقسم جوانب موضوعه على التخطيط التالى :

حروف المعجم

ساكن — متحرك

ساكن: مأأصله فى الاستعمال السكون

متحرك: ماأصله فى الاستعمال الحركة

حركته بناء فى كلمة مفردة — حركة إعراب فى كلمتين

---

(١) المرجع السابق .

وبتأمل نص أبى على فى هذا الصدد وجدنا أنه يقصد بالمتحرك مالا يكون فيه إلا الحركة ، وهو غالبا (فاء الكلمة) ، وأما الساكن فهو العين واللام ، فأما هذا المتحرك فلا كلام له فيه ، وأما الساكن فهو على ضربين :

(ما أصله فى الاستعمال السكون مثل راء برْد وكاف بكْر ، والآخر ماأصله الحركة فى الاستعمال فيسكن عنها) ، ولا كلام له أيضا فيما أصله فى الاستعمال السكون ، وأما (ماأصله الحركة فى الاستعمال فيسكن فعلى ضربين : أحدهما أن تكون حركة بناء ، والآخر أن تكون حركة إعراب) ، وهو يقصد بحركة البناء حركة عين الكلمة وبحركة الإعراب حركة اللام ـــ كما سيتضح من أمثلته . وحركة البناء على ضربين : أحدهما أن يكون الحرف المسكن من كلمة مفردة نحو فخِذ ـــ وسبُع وإبِل وضُرِب وعلِم ، يقول من يخفف سبْع وفخْذ وإبْل وعلْم وضرْب ، والآخر أن يكون هذا المثال من كلمتين فيسكن على تشبيه المنفصل بالمتصل ، كما جاء ذلك فى مواضع من كلامهم نحو الإمالة والإدّغام ، وذلك نحو قولهم : أراك منتفْخا ويخش الله ويتقْه ، ومن ذلك قول العجاج :

فبات منتصْبا وما تكردسا)

وهنا يبدو للنظرة الأولى أن أبا على قد تناقض فى تقسيمه ، فهو قد ساق مثالا على الكلمة المفردة كلمات (سبع وفخذ .. الخ) ، وضرب مثلا لما هو من كلمتين (منتفخا ومنتصبا ويتقه) ، وهذه فيما نعرف كلمات مفردة أيضا ، فكيف ساقها أمثلة على ماهو كلمتين واعتبرها من المنفصل الجارى مجرى المتصل ؟

ومع ذلك فأبو على على غاية من الصواب فى تصوره اللغوى ، ذلك أنه يريد بالمثال من كلمتين أن يمكن أخذ مقطعين منه على وزان الكلمة المفردة ، وسوى فى ذلك بين المزيد من الكلمات ، وهو مازاد على ثلاثة ، والمنفصل وهو ماكان من كلمتين ، فالكلمة المفردة عنده هى التى تتكون فى حالة الوقف من مقطع مفتوح [١] قصير (ص ح) + مقطع مقفل [٢] (ص ح ص) [٣] ، وذلك مثل

---

(١) هذا هو المقطع رقم (١) فى تقسيم الدكتور أنيس .

(٢) هذا هو المقطع الثالث .

(٣) الأصوات اللغوية الطبعة الثانية ص ٩٧ واستخدام رمز (ص) للصامت ، و(ح) للحركة .

الكلمات سَبُعْ وإبِلْ وفَخِذْ ، فكل منها فى تقسيمها المقطعى تتكون من مقطع مفتوح قصير (ص ح) ومقطع مقفل (ص ح ص) ، والنطق بها على النظام المقطعى هو على التوالى : (سَ+ بُعْ ، إ+ بِلْ ، فَ+ خِذْ) . وكذلك عَلِمَ وضُرِبَ ، وهذا هو وزان القطاع الذى اتخذ معيارا للقياس ، ومثل هذه الكلمات ذات المقطعين يمكن أن تتحول طبقا لما قرره أبو على إلى كلمات ذات مقطع واحد مقفل هكذا : (ص ح ص ص) (١) ، فيصير النطق بها على الوجه التالى : « سَبْعْ = ص ح ص ص) وهكذا بقية الكلمات التى تتكون من مقطعين ، فإذا أسكنت عينها صارت مقطعا واحدا ، أى : صارت مفردة .

وكلمات مثل ـــ منْتِفخ ومُنْتَصِب ويَتَّقِه ، تصبح عند تقسيمها المقطعى هكذا: (من + ت + فخ ، من + ت + صب ، يت + ت + قه) وقد لاحظ أبو على أن المقطعين الأخيرين من كل كلمة هما على مثال القطاع السابق الذى يتكون من مقطعين فى كل كلمة من الكلمات السابقة :ـــ قبل الإسكان ـــ ، ولنتركه الآن يتحدث حديثا مفهوما قال (ألا ترى أن تَفِخاً من منتفخ مثل كتف ، وكذلك : تَقِهْ من يتقه ، وكذلك ماانشده ، أبو زيد من قوله ..

قالت سليمى اشترْ لنا سويقا

ف (تَرِل) ، أى : من اشترْ لنا ـــ مثل : كَتِف (٢)

ومن ذلك يتبين أن أباً على يذهب إلى أن تتابع ثلاثة أصوات متحركة سواء كانت كلمة مستقلة ، أم كانت جزءا من كلمة مستقلة ، أم كانت من كلمتين ، يجيز إسكان أوسط هذه المتحركات ، بشرط أن تكون على مِثال مايجوز إسكانه من الكلمات المفردة فى اصطلاحه ، أى تحلى زنة ، فَعُل وفَعِل وفِعِل وفُعِل ، وهى زنة الكلمات سبع ، وفخذ أو كتف وإبل وضرب ، وإنما شرط ذلك ليخرج ماكان مفتوح الوسط ، فقد صح عنده أيضا أن العرب لاتسكنه . وهكذا قرر أبو على فى نهاية هذا

---

(١) هذا هو المقطع رقم (٥) لدى الدكتور أنيس .

(٢) الحجة ورقة ١٨٤ .

الكلام قوله (فأما حركة البناء فلا خلاف فى تجويز اسكانها فى نحو ماذكرنا من قول العرب والنحويين) (١) ، **وينتقل بعد ذلك الى حركة الاعراب :**

(وأما حركة الإعراب فمختلف فى تجويز إسكانها فمن الناس من ينكره فيقول : إن إسكانها لايجوز من حيث كان علما للإعراب ، وسيبويه يجوِّز ذلك ولايفصل بين القبيلين فى الشعر ، وقد روى ذلك عن العرب) ، وأضاف أن (مما جاء فى هذا النحو قول جرير :

سيروا بين العم فالأهواز موعدكم ونهر تيرى فلا تعرفْكم العرب

ومن ذلك قول وضاح اليمن :

إنما شعرى شهد قد خُلِطْ بالجلجلان (٢)

وهو يريد بحركة الإعراب كما قلنا حركة لام الكلمة سواء كانت فى كلمة معربة كالمضارع (تعرفْكم) ، أو مبنية كالماضى (خُلِطْ) ولاشك أنه يقصد بقوله : « من الناس من ينكره » أبا العباس المبرد ، لأنه هو الذى نصب لمعارضة سيبويه ، وكذلك فعل أبو الفتح عثمان بن جنى تلميذ أبى على (توفى سنة ٢١٣ هـ) إلا أنه كان شديد اللهجة فى نقده تهجم المبرد على سيبويه ، كما سيجىء .

ومن المفيد كثيرا أن أورد نص مناقشة أبى على فى رده على المبرد قال : (وأما من زعم أن حذف هذه الحركة لايجوز من حيث كانت علما على الإعراب فليس قوله بمستقيم ، وذلك أن حركات الإعراب قد تحذف لأشياء ، ألا ترى أنها تحذف فى الوقف ، وتحذف من الأسماء والأفعال المعتلة ، فلو كانت حركة الإعراب لايجوز حذفها من حيث كانت دلالة الإعراب لم يجز حذفها فى هذه المواضع ، فإذا جاز حذفها فى هذه المواضع لعوارض تعرض جاز حذفها أيضا فيما ذهب إليه سيبويه ، وهو التشبيه بحركة البناء — أى حركة عين الكلمة ، وهو وارد فيما سبق من كلام

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ، وهذا البيت مذكور فى اللسان ج ١١ ص ١٢٣ والجلجلان : السمسم .

سيبويه ـــ والجامع بينهما أنهما جميعا زائدان ، وأنها قد تسقط فى الوقف والاعتلال كما تسقط التى للبناء للتخفيف) (١)

وهنا أسجل على أبى على ، أو أسجل عنه بعض حقائق سوف تفيدنا كثيرا فيما بعد ، فقد كان المبرد يوشك أن يعتقد فى قداسة الحركة الإعرابية ، ومن أجل هذا رفض رأى سيبويه القائل بجواز حذفها ، مع مايدعمه من الرواية الوثيقة ، ومع أن سيبويه كان متحفظا غاية التحفظ فلم يطلق هذا الجواز على مداه ، بل قصره على الشعر ، فجاء أبو على ليقول :

١) إن حركة لام الكلمة (حركة الإعراب) تشبه تماما حركة عينها (حركة البناء) .

٢) وإن كلتا الحركتين زائدة ، وإن إحداهما قد تسقط فى الوقف والاعتلال ، كما تسقط الأخرى للتخفيف .

٣) مقتضى قوله : « إنهما زائداتان » أن يكون الأصل هو الإسكان ، وأن التحريك لايكون إلا فى حالة الوصل وعدم الاعتلال فى لام الكلمة ، وحالة عدم القصد إلى التخفيف فى عينها .

ويفسر هذه النقطة الأخيرة عبارة وردت لدى أبى على فى معرض مناقشة المبرد قال :(فإن قلت : إن سقوطها فى الوقف إنما جاز لأنه إذا وصلت الكلمة ظهرت الحركة ويستدل عليه بالموضع قيل : وكذلك إذا أُسْكِنَ نحو هَنْك استدل عليه بالموضع ، وإذا فارقت هذه الصيغة التى شبهت لها بسَبُع ظهرت كما تظهر التى للإعراب فى الوصل (٢)) ، وكأن أبا على لم يكن يريد أن يدع لخصمه حجة إلا ردها ، أو شبهة فى عقل متعلم إلا جلاها ومحص وجوهها ، فناقش أيضا مع المبرد قضية ارتباط المعنى بالحركة الإعرابية ، أو بعبارة أصح : (دلالة الحركة الإعرابية على المعنى ، فإذا حذفت اختلت الدلالة عليه) وهو بسبيل الرد على هذه الشبهة يستخدم القياس

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق وراجع رأى الخليل وسيبويه أيضا فى مقدمة الكتاب .

على حركة البناء أيضا فيقول : (وحركات البناء أيضا قد تدل على المعنى وقد حذفت ، ألا ترى تحريك العين بالكسر فى نحو ضَرِب يدل على معنى ، وقد جاز إسكانها ، فكذلك يجوز إسكان حركة الإعراب ، وكذلك الكسر فى نحو حَذِرَ والضم فى نحو حذُر،[1]) .

ومعنى ذلك أن المقايسة بين حركة العين وحركة اللام تعتبر تامة ، وأن مايجرى على إحداهما يجرى على الأخرى ، من حذف وإثبات ، ومن حيث ارتباطها بدلا لتها حالة إثباتها أو حذفها . هذا هو رأى أبى على ، وهو رأى نسجله مقياسا نقديا ، سواء لما يذهب إليه أبو على وغيره من ذوى الآراء فى الموضوع . ذلك أن أبا على الذى يقرر هذا كله هو نفسه الذى سبق أن قرر أن أبا عمرو كان يميل إلى التخفيف فى حدود الاختلاس ، وأن هذا القول أشبه بمذهبه ، وهو نفسه الذى يقرر بعد ماسقنا من مناقشته الدقيقة الخطيرة أن هذا الاختلاس « وإن كان الصوت فيه أضعف وأخفى فإن الحرف المختلس حركته بزنة المتحرك » وهذا حق ، ولكنه يقول بعد ذلك : فمن روى عن أبى عمرو الإسكان فى هذا النحو فلعله سمعه يختلس فحسبه لضعف الصوت به والخفاء إسكانا .

وعلى هذا يكون قولهم : ويعلمهم الكتاب ، ويلعنهم الله ، وكذلك عن أسلحتكم وأمتعتكم ، وكذلك ويعلمهم ، ويوم يجمعكم ولايأمركم ، هذا كله على الاختلاس مستقيم ، ومن روى عنه الإسكان فيها ـــ وقد جاء ذلك فى الشعر ـــ فلعله ظن الاختلاس إسكانا » [2] .

رأى ابن جنى

ويمضى الفارسى ، ويأتى ابن جنى فيتعرض لمناقشة الموضوع أيضا فى كتابه « المحتسب » حيث أورد روايات سبق أن ذكرناها ، وهى روايات نفيد منها شيئا ذا

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ورقة ١٨٦ .

أهمية كبيرة ، هو : أن الإسكان عند القراء لم يكن مقتصرا على قراءة أبى عمرو ، بل هناك طائفة ممن قرءوا به ، ومنهم : الحسن ، وأبو رجاء ، وقتادة وسلام ، ويعقوب والهمذانى ومسلمة بن محارب والأشهب [١] ، كما أن من القارئين به محمد بن عبد الرحمن بن محيصن أحد أئمة القراءة بمكة [٢] .

ثم تعرض ابن جنى لمناقشة الإسكان فى كتابه (الخصائص) ، وقد وجدناه ينهج نفس المنهج الذى سلكه أبو على فى القياس ، فهو حين روى قول الشاعر :

ومن يتقْ فإن الله معْه ورزق الله مؤتاب وغاد

قال : إن الشاعر أجرى (تَقِ فَ) مجرى عَلِمَ حتى صار تَقْفَ كعَلْمَ [٣] ـــ وبذلك فسر قراءة من قرأ « إنه من يتقْ ويصبر » ، كما استخدم هذه الطريقة فى مواضع كثيرة من كتابه ، حتى ليمكن أن يقال : إنه قد حذا حذو أبى على فى كل كلمة قالها،[٤] ومن ثم حذو سيبويه ، وإنما يعنينا من مناقشة أبى الفتح نصان ننقلهما هنا ، لأن لهما أهمية تضاف إلى ماأنشأه أبو على فى مناقشته ، والنص من المحتسب [٥] قال : ومن ذلك قال ابن مجاهد قال عباس : سألت أبا عمرو عن يعلمهم الكتاب فقال : أهل الحجاز يقولون : يعلمُهم ويلعنُهم ، ولغة تميم : يعلمْهم ويلعنْهم ، قال أبو الفتح : أما التثقيل فلا

---

(١) قد سبقت ترجمة هؤلاء جميعا فى هذا البحث .

(٢) النشر جـ ٢ ص ٢١٤ ، ومحمد بن عبد الرحمن بن محيصن سبق أن ذكرناه ضمن شيوخ أبى عمرو ، ولكن ترجمته تكشف عن جانب هام من جوانب شخصيته فقد قرأ كما سبق على مجاهدين جبر ودرباس مولى ابن عباس وسعيد بن جبير وقرأ عليه جماعة منهم أبو عمرو بن العلاء وعسى بن عمر وغيرهما ، وابن محيصن هذا قرشى ، قال فيه أبو عبيد وكان قراء مكة عبد الله بن كثير وحميد بن قيس ومحمد بن محيصن وكان ابن محيصن أعلمهم بالعربية وأقواهم عليها . وقال ابن مجاهد كان لابن محيصن اختيار فى القراءة على مذهب العربية فخرج به عن إجماع أهل بلده فرغب الناس عن قراءته وأجمعوا على قراءة ابن كثير لاتباعه ، وقال عنه ابن الجزرى ، : قلت : وقراءته فى كتاب المبهج والروضة وقرأت بها القرآن ولولا مابها من مخالفة المصحف لألحقت بالروايات المشهورة » وماذكره ابن الجزرى من مخالفة المصحف لا يتوجه إلى قراءة الإسكان إذ ليس فيها من مخالفة الرسم شيء وقد توفى ابن محيصن سنة ١٢٣ هـ . (طبقات القراء جـ ٢ ص ١٦٧) .

(٣) الخصائص جـ ١ ص ٣٦٦ .

(٤) الخصائص جـ ٢ ص ٣٩٩ ، ص ٢٣٠ ومابعدها .

(٥) المحتسب ص ١٠١ .

سؤال عنه ولا فيه ، لأنه استيفاء واجب الإعراب ، لكن من حذف فعنه السؤال ، وعلته توالى الحركات مع الضمات ، فيثقل ذلك عليهم فيخففون بإسكان حركة الإعراب ، وعليه قراءة أبى عمرو : فتوبوا إلى بارئْكم ، بسكون الهمزة ، وحكى أبو زيد « بلى ورسلْنا لديهم يكتبون » بسكون اللام ، وأنشدنا أبو على لجرير :

سيروا بنى العم فالأهواز موعدكم ونهر تيرى فلا تعرفْكم العرب

يريد تعرفكم . ومن أبيات الكتاب :

فاليوم أشربْ غير مستحقب إثما من الله ولا واغـــل

أى : أشربُ ، وأما اعتراض أبى العباس هنا على الكتاب فإنما هو على العرب ، لا على صاحب الكتاب ، لأنه حكاه كما سمعه ، ولايمكن فى الوزن أيضا غيره ، وقول أبى العباس : إنما الرواية « فاليوم فأشربـه » ، فكأنه قال لسيبويه : كذبت على العرب ولم تسمع ماحكيته عنهم ، وإذا بلغ الأمر هذا الحد من السرف فقد سقطت كلفة القول معه ، وكذلك إنكاره عليه قول الشاعر :

« وقد بداهنْك من المئزر » ، فقال : إنما الرواية ، « وقد بدا ذاك من المئزر » ، فأما قول لبيد :

تَرَّاك أمكنة إذا لم أرضهـا أو يرتبطْ بعض النفوس حمامها

فحملوه على هذا ، أى : أو يرتبطْ بعض النفوس حمامها ـــ معناه إلا أن يرتبطَ ، فأسكن المفتوح لإقامة الوزن واتصال الحركات) . وحديث أبى الفتح هنا ـــ أى : ماسوى رواية عباس ـــ وارد فى كتاب الخصائص (١) ، وهو كما رأينا لايخرج عن أفكار أبى على إلا فى تعليقه على موقف أبى العباس المبرد ، ونقده لموقفه من سيبويه نقدا لاذعا ، لكن النص يفيدنا فائدة كبيرة حين يصرح بأن أبا عمرو هو الذى يقرر هنا فى ضوء الأمثلة القرآنية أن تميما تسكن هذا النوع من الأفعال ، فى حين يحركه الحجازيون . فقد انتسبت الظاهرة إلى بيئتها ، وإن كانت فى مناقشات النحويين قد

---

(١) الخصائص جـ ١ ص ٧٢ .

تحولت إلى رخصة تمنح لمن أراد أن يسكن ، ربما لأنهم وجدوها قد شاعت فلم تعد مقتصرة على بيئة معينة .

كما أن فى النص شاهدا من شعر لبيد ، علق عليه أبو الفتح بما جرى عليه سيبويه والفارسى من عدم جواز الإسكان فى المنصوب إلا ضرورة وشذوذا .

بيد أنه روى بعض أبيات ورد فيها الإسكان فى المنصوب فى الخصائص قال (وقد سمع شيء من هذا الإسكان فى المفتوح قال الشاعر :

وماكل مبتاع ولو سَلْفَ صفقُه   براجع ماقد فاته برداد

فإذا ماتعرض لرواية قول الراعى :

تأبى قضاعة أن تعرفْ لكم نسبا   وابنا نزار فأنتم بيضة البلد

قال : « فإنه أسكن المفتوح ، وقد روى (لاتعرف لكم) فإن كان كذلك فهو أسهل لاستثقال الضمة » [1]. ويلاحظ أن ابن جنى لم يتعرض فى نصه السابق أو فى الروايات السالفة لذكر مسألة الاختلاس ، اللهم إلا فى خبره عن قراءة مسلمة (فسيحشرهم ، فيعذبهم) . فأما فى بقية الروايات فإنه يقرر أنها ساكنة .

وقد بسط ابن جنى رأيه كاملا واضحا فى الخصائص ، وهو لا يخرج عما قاله أستاذه أبو على ، إلا أنه يحتوى فنا آخر من القول يميز التلميذ عن أستاذه أحيانا قال : (ألا ترى إلى قراءة أبى عمرو : « مالك لا تأمننا على يوسف » مختلسا لامحققا ، وكذلك قوله عز وجل : « أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » مخفى لامستوفى ، وكذلك قوله عز وجل : « فتوبوا إلى بارئكم » مختلسا غير ممكَّن كسر الهمزة ، حتى دعا ذلك من لطف عليه تحصيل اللفظ إلى أن ادعى أن أبا عمرو كان يسكن الهمزة ، والذى رواه صاحب الكتاب اختلاس هذه الحركة لا حذفها البتّة ، وهو أضبط لهذا الأمر من غيره من القراء الذين رووه ساكنا ، ولم يؤت القوم فى ذلك من ضعف أمانة ، لكن أُتوا من ضعف دراية) .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤٠.

ونجده يتعرض لمثل هذا فى موضع آخر فينوه بذكاء سيبويه فى كلام وجيز ، فيقول :

وأما (إن الله يأمركم) ، (فتوبوا إلى بارئكم) فرواها القراء عن أبى عمرو بالإسكان ، ورواها سيبويه بالاختلاس ، وإن لم يكن كان أزكى فقد كان أذكى ، ولا كان بحمد الله مزنًّا بريبة ، ولا مغموزا فى رواية) (١) ، وابن جنى فى هذا النص ماهر صناع ، فقد وصف القراء بالغفلة من حيث نعتهم بالدين ، وفضل عليهم سيبويه بالذكاء إلى جانب توثيق روايته .

وهو من حيث موضوعنا قد اعتمد ترجيح الاختلاس فى قراءة أبى عمرو ، واتبع فى ذلك مذهب سيبويه ، وأسس ذلك على تمكن سيبويه من الضبط أكثر من غيره من القراء الذين رووه ساكنا ، ربما لأنه كان يظن أن سيبويه قد قرأ على أبى عمرو ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل بما فيه كفاء ، ولعل ألذع تعبير نقد فيه القراء قوله :

« ولم يؤت القوم فى ذلك من ضعف أمانة ، لكن أتوا من ضعف دارية » ، وما أظن أن دافع ابن جنى إلى هذا إلا استمساكه بما أرسى سابقوه من قواعد كان يرى لزاما عليه أن يدافع عنها .

ونحن وقد نقلنا أمثلة مما أورده أبو الفتح فى كتاب المحتسب فى قراءته الإسكان يعن لناسؤال هو : لماذا ركز النحويون نقاشهم وهجومهم على القراء فى قراءة أبى عمرو وحدها ، دون أن يشيروا إلى أن الاختلاس قد حدث أيضا فى قراءة غيره ؟ بل على العكس من ذلك وجدنا أبا الفتح يقر المسكن على مذهبه ، ويعترف له بصحته ، ويعلل له ، على حين رفض أن يكون أبو عمرو قد أسكن ؟!!
ألا يعد هذا تناقضا فى موقف ابن جنى تجاه مسألة واحدة ؟!!

والجواب عن ذلك هين ، فإن من روى لهم أبو الفتح تلك الأمثلة السابقة يعد أغلبهم فى نظر النحويين من قراء الشواذ الذين يكفى أن توصف قراءتهم بالشذوذ

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤٠ .

حتى تنتهى المشكلة ، فهم على أساس الشذوذ يباح لهم مالا يباح لغيرهم . والأمر غير ذلك بالنسبة لأبى عمرو ، لأنه مصدر عظيم من مصادر النحو واللغة والقراءة ، وهو إمام المدرسة البصرية التى نبغ فيها هؤلاء النحاة جميعا ، فإذا قال أبو عمرو بشىء ، لم يكن مفر من قبوله والرضوخ له ، فكان ذلك الموقف الذكى منهم ، أن ينقدوا الرواة ويتهموهم بالغفلة وعدم الضبط دون أن يعرضوا لأبى عمرو بتجريح أو نقد ، هذا على الرغم من أن ابن جنى قد دافع دفاعا مجيدا عما سمى من القراءات شاذا ، وهو ماسبق أن نقلناه عنه .

وعجيب أن يغفل ابن جنى ، وهو الذى روى قول أبى عمرو فى نسبة الإسكان لتميم ، عن وحدة الظاهرة لدى أبى عمرو وغيره من القراء ، وهو يعلم ولاشك أن أبا عمرو تميمى ، وأن إسكان الوسط المنسوب لتميم شائع فى قراءته !! لاشك أنه كان حلا غير موفق من جانب النحويين أن يأخذوا عن أبى عمرو الاختلاس ، وأن ينكروا رواية الإسكان ، وينسبوا لرواة الإسكان الغفلة وعدم الضبط . ولكن هل سكت رواة الإسكان من القراء عن هذا الاتهام ؟

★ ★ ★

٢ – موقف القراء

هنا نأتى لموقف القراء من المشكلة ، وأكثر آرائهم مستخدم فى مناقشتنا لمذهب النحاة ، بيد أن الحجة الكبرى لهم هى : أنهم متمسكون بالرواية ، واثقون من مصادرهم ، مؤمنون بقدرتهم على إدراك مايسمعون وضبطه ، وأنهم لايبالون فى تمسكهم بقراءة الإسكان أن تختلف مع قواعد النحاة ، وأن ينكر النحاة عليهم مذهبهم ، لأن شروط القراءة الصحيحة عندهم ثلاثة : —

(١) أن توافق العربية ولو بوجه .

(٢) أن توافق أحد المصاحف العثمانية ولواحتمالا .

(٣) أن يصح سندها [١] .

والشرط الأول هو الذى يهمنا هنا ، فقد اشترط القراء فى القراءة الصحيحة أن توافق قواعد النحو ولو بوجه ، ومعنى ذلك أنهم لم يتجهموا لقواعد النحاة بل احترموها ، واشترطوا توفرها فى القراءة المروية ، وإلا كانت قراءة شاذة ، غير أن ماأثار المعركة بين الفريقين هو ماتضمنه من قولهم (ولو بوجه) ، إذ معناه : أن القراءة تقبل إذا توفر لها صحة حملها على أى وجه من الوجوه ، سواء كان أفصح أم كان فصيحا ، مجمعا عليه أم مختلفا فيه ، هذا هو المراد عند القراء ، بشرط ألا يكون الخلاف مما يفسد المعنى ، متى توفر لهذا المختلف فيه صحة السند وموافقة المصحف العثمانى ولو احتمالا .

ولنأخذ مثلا إسكان أبى عمرو (بارئكم ويأمركم) ونحوهما فقد توفر لهذه القراءة فى رأى القراء صحة السند ، وموافقة المصحف العثمانى ، كما توفر لها موافقتها لقواعد النحو ، من الوجه الذى يجيز تخفيف المتحرك بالضمة أو الكسرة ، وهو جائز فى العربية ، متفق وماعترف النحاة بجوازه فى لسان العرب ، ومثل هذه القراءة مقبولة لدى القراء ، وإن أثارت النحاة ابتداء من سيبويه ، فاستنكروا أن يكون أبو عمرو قرأ بها . ولكن القراء لايعبئون بهذا الاستنكار ، ويعتبرون أن القراءة متى جاءت على ماشرطوه تصبح حجة على النحو ، لا خاضعة لقواعده ، يقول ابن الجزرى « كم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم ، ولم يعتبر إنكارهم ، بل أجمع الأئمة المقتدى بهم من السلف على قبولها [٢] » ومن هذا النوع : « إسكان (بارئكم ويأمركم) ونحوه ، وإسكان (لسبأْ [٣] ويابنى ، ومكر السَّيِّءْ ، وننجى المؤمنين) ، والجمع بين الساكنين فى تاءات البزى ، وإدغام أبى عمرو ، و(اسطاعوا) لحمزة ، وإسكان (نعْما

---

(١) النشر جـ ١ ص ٩ .

(٢) النشر جـ ١ ص ١٠ .

(٣) الإسكان هنا لقنبل حيث كانت (النشر جـ ٢ ص ٣٣٧) .

ويهدّى) وإشباع الياء فى (نرتعى ويتقى وأفئيدة من الناس) وضم (الملائكةُ اسْجدوا) ونصب (كن فيكونَ) وخفض (والأرحام) ونصب (ليجزى قوماً) ، والفصل بين المضافين فى الأنعام ، وهمز (سأقيها) ، ووصل (وإن الياس) وألف (إن هذان) وتخفيف (ولا تتْبعانِ) وقراءة (لَيْكَة) فى الشعراء وص ، وغير ذلك (١) .

وقد ذكر ابن الجزرى وجه إنكار النحاة لما روى من قراءات فى هذه الآيات الكريمة فى فرش الحروف ، وذلك على الصورة التالية :أنكر النحاة جواز الإسكان فى قوله تعالى « فتوبوا إلى بارئْكم » فى البقرة وهى مجرورة ، وفى « إن الله يأمرْكم » فيها أيضا وهى مرفوعة ، وكذلك الإسكان فى « وجئتك من سبأْ » فى النمل ، و« لقد كان لسبأْ فى مسكنهم آية » فى سبأ وهما مجرورتان (٢) ، وفى « ولا يحيق المكر السيءْ إلا بأهله » فاطر (٣) ، وقالوا فى ذلك كله بالاختلاس ، لعدم جواز حذف الحركة الإعرابية فى نظرهم .

وأما قوله تعالى « وكذلك ننجى المؤمنين » (الأنبياء) فقد قرأها ابن عامر : « نُجىّ المؤمنين » بنون واحدة وتشديد الجيم ، وقيل فى تعليلها : إنها إما أن تكون النون محذوفة منها تخفيفا على قياس حذف التاء من « تلظى » أى تتلظى ، وإما على إدغام النون فى الجيم ، وكلاهما غريب ، وإن كانت القراءة صحيحة الرواية (٤) .

وأما قوله تعالى « فما استطاعوا أن يظهروه » (الكهف) فقد قرأها حمزة (فما اسْطّاعوا « بإسكان السين وإدغام التاء فى الطاء ـــ وفى ذلك جمع بين ساكنين على غير شرط النحاة (٥) .

وأما قوله تعالى : « نِعْما ويهْدّى » ففيهما ايضا جمع بين ساكنين وسيأتى ، وأما قوله تعالى : « أرسله معنا غدا نرتعْ ونلعب » (يوسف) فقد قرأها قنبل بإثبات

---

(١) المرجع السابق .
(٢) النشر جـ ٢ ص ٣٣٧ .
(٣) النشر جـ ٢ ص ٣٥٢ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٢٤ .
(٥) السابق ص ٣١٦ .

الياء (نرتعى) ، ويبدو أن النحاة لا يرون ذلك لوقوعه مجزوما فى جواب الأمر ، فلا موضع للياء فى رأيهم [١] ، وكذلك أثبت قنبل الياء فى قوله تعالى « إنه من يتق ويصبر » (يوسف) [٢] وهو محذوف الياء للجزم بأداة الشرط « من » .

وأما قوله تعالى « ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم » (ابراهيم) فقد قرأها ابن عامر فيما روى عنه بإشباع الكسرة من « أفئدة » حتى تنطق « أفئيدة » ، والإشباع لغة معروفة ، وقال بعضهم : بل هو ضرورة [٣] .

وأما قوله تعالى « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا » ـــ فى خمسة مواضع فى البقرة وغيرها ، فقد قرأها أبو جعفر بضم التاء حال الوصل إتباعا ـــ وهى لغة أزد شنوءة » [٤] .

وأما قوله تعالى « كن فيكون » (البقرة) فقد قرأها ابن عامر بنصب النون فى مواضع ستة ذكرها ابن الجزرى ـــ وأساس الخلاف تفسير السياق بالإخبار تارة وبالسببية تارة أخرى [٥] .

وأما قوله تعالى « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » فقد قرأها حمزة بخفض « الأرحام » [٦] وقد جاء هذا نقضا للقاعدة التى تقضى بعدم جواز العطف على الضمير ، المخفوض دون إعادة الخافض .

وأما قوله تعالى : « لِيُجْزَى قوما بما كانوا يكسبون » (الجاثية) فقد قرأها أبو جعفر بضم الياء وفتح الزاى ـــ مبنيا للمجهول ونائب الفاعل هو الجار والمجرور مع وجود المفعول به الصريح . وهو أمر لايقره كثير من النحاة [٧] .

---

(١) السابق ص ٢٩٣ .
(٢) السابق ص ٢٩٧
(٣) السابق ص ٣١١ .
(٤) السابق ص ٢١٠ .
(٥) النشر ص ٢٩٧ .
(٦) السابق ص ٢٤٧ .
(٧) السابق ص ٢٧٢ .

وأما قول ابن الجزرى : « الفصل بين المضافين فى الأنعام » فيعنى به قراءة ابن عامر قوله تعالى « وكذلك زُيِّنَ لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائِهم » على أن « قتل » نائب الفاعل مضاف إلى شركائهم ، وقد فصل بين المضافين بمفعول المصدر ، وجمهور النحاة فى البصرة على أن هذا لايجوز إلا فى ضرورة الشعر (١) .

وأما همز « وكشفت عن سأقيها » فهو قراءة قنبل ، وهى لغة أبى حية النميرى (٢) . وذكر ابن الجزرى خلافا طويلا حول وصل الهمزة فى (الياس) فى قوله تعالى : « وإن الياس لمن المرسلين ، (الصافات) ــ وثق فيه هذه الرواية ، ورد حجة بعض النحاة القائمة على التشكيك فى صحتها (٣) .

وكذلك قراءة الجمهور : « إن هذان لساحران » (طه) هاجمها النحاة لوجوب نصب اسم الإشارة بالياء على ماجاءت به قراءة أبى عمرو ، ورد بصحة الرواية ، وبأنه على لغة من يلزم المثنى الألف (٤) ، وأما قراءة ابن عامر « ولاتَتْبَعَانِ سبيل الذين لا يعلمون » (يونس) فقد كان المفروض حذف النون للجزم بلا الناهية ، ورد بأن « لا » نافية (٥) ، وأما قراءة ابن عامر الدمشقى وابن كثير المكى « كذب أصحاب لَيكةَ المرسلين ــ الشعراء » بلام مفتوحة من غير ألف وصل قبلها ولا همزة بعدها ، وبفتح تاء التأنيث فقد كانت موضع خلاف لمخالفتها للقراءة المشهورة « الأيكة » .

ونعود إلى قراءة الإسكان فى الآيات الأولى من هذا العرض لنجد أن ابن الجزرى قد نقل عن الحافظ أبى عمرو الدانى نصا ذكره فى كتاب (جامع البيان) بعد ذكره الإسكان فى (بارئكم ويأمركم) لأبى عمرو ، وحكاية إنكار سيبويه له ، قال الدانى » والإسكان أصح فى النقل ، وأكثر فى الأداء ، وهو الذى أختاره وآخذ به ، وبعد أن ذكر الدانى نصوص رواته قال « وأئمة القراء لا تعمل فى شيء من حروف

---

(١) السابق ص ٢٦٣ .
(٢) السابق ص ٣٣٨ .
(٣) السابق ص ٣٥٧ وما بعدها .
(٤) السابق ص ٣٢١ .
(٥) السابق ص ٢٨٦ .

القرآن على الأفشى فى اللغة والأقيس فى العربية ، بل على الأثبت فى الأثر ، والأصح فى النقل ، والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها [(١)] » ، ومن هنا يتبين لنا اعتزاز القراء بأسانيدهم واعتمادهم لها ، وإعراضهم عن نقد النحاة لرواياتهم ، رغم تمحيصهم لها .

والحق أن المشكلة فى عمومها تدعو إلى الدهشة لموقف النحاة ، ذلك أنهم يتلقون دائما علمهم باللغة ، ويستقون جزئياتها من طريق الشواهد ، كما أخذوها من طريق مشافهة الأعراب ، ونحن نقرر من باب النصفة أن الرواة الذين نقلوا اللغة ليسوا بأوثق دينا ، ولا أزكى نفسا من رواة القراءات ، فهؤلاء كانوا على درجة من الدين ينتفى معها احتمال التدليس فى الرواية ، فى حين وجدنا كثيرا من شواهد النحو منتحلا ، أو مصنوعا ، ومع ذلك وضعت على أساسه قواعد النحو . فكيف جاز للنحاة أن يرفضوا الروايات الوثيقة ويعتمدوا على ماهو أضعف منها قطعا مما رواه رواة الشعر ؟ ، وكيف يعقل أن تقعد قاعدة نحوية على أساس رواية شعرية ، دون أن تعتمد لها رواية قرآن ؟ هذا من الوجهة العامة . فأما فيما يتصل بموضوعنا فقد أثبت القراء بأسانيد مختلفة صحة قراءة أبى عمرو للكلمات المسوقة مسكنة ، وهذه القراءة فى الوقت نفسه لاتتنافى مع ماعترف به النحاة من ظروف جائزة الحدوث فى اللغة ، ومع ذلك أنكر النحاة قراءة أبى عمرو ، حتى كأنه فيها مبتدع لا متبع !! ... فكان موقف القراء من هجوم النحاة أن قالوا : « إن القراءة على صورة الإسكان مستوفية لجميع الشروط . فهى عندنا صحيحة السند ، موافقة للرسم ، موافقة للعربية !! ، وقد نقل صاحب القراءات واللهجات نصا عن البحر المحيط قال فيه : (ومنع المبرد التسكين فى حركة الإعراب ، وزعم أن قراءة أبى عمرو لحن ، وماذهب إليه ليس بشيء ، لأن أبا عمرو لم يقرأ إلا بأثر عن رسول الله ﷺ ، ولغة العرب توافقه على ذلك ، فإنكار المبرد لذلك منكر) [(٢)] .

ويقول ابن الجزرى : « وقد طعن المبرد فى الإسكان ومنعه ، وزعم أن قراءة أبى

---

(١) النشر جـ ١ ص ١٢٣ .

(٢) القراءات واللهجات ص ١٧٧ .

عمرو ذلك لحن ، ونقل عن سيبويه أنه قال : إن الراوى لم يضبط عن أبى عمرو لأنه اختلس الحركة فظن أنه سكن ـــ انتهى ـــ وذلك ونحوه مردود على قائله ، ووجهها فى العربية ظاهر غير منكر ، وهو التخفيف ، وإجراء المنفصل من كلمتين مجرى المتصل من كلمة نحو : إبل وعضد وعنق ، على أنهم نقلوا أن لغة تميم تسكين المرفوع من يعلمهم ونحوه ، وعزاه الفراء إلى تميم وأسد ، مع أن سيبويه لم ينكر الإسكان ، أصلا بل أجازه ، وأنشد عليه (فاليوم أشرب غير مستحقب) ، ولكنه قال : القياس غير ذلك ، وإجماع الأئمة على جواز تسكين حركة الإعراب فى الإدغام دليل على جوازه هنا [١]» .

ودافع القراء عن اليزيدى وقدرته على ضبط ماسمعه عن أبى عمرو ، فساقوا حجة لاتقبل الرد ، وذلك أن اليزيدى روى أن أبا عمرو كان يشم الهاء من (يهدى) والخاء من (يخصمون) شيئا من الفتح ، فلو كان قد أساء السمع ، ولو كان ضعيف الدراية لما فصل سمعه فى قراءة أبى عمرو بين حالتين متقاربتين ، ولزعم أنهما جاءتا على وجه واحد ، فإذا فصل بين الإشمام فى قراءة ، والإسكان فى أخرى – دل ذلك على تحريه وجه الضبط فيما يأخذ عن شيخه [٢] . ويعقب ابن الجزرى قائلا : « إن من يزعم أن أئمة القراءة ينقلون حروف القرآن من غير تحقيق ولا بصيرة ولا توقيف فقد ظن بهم ماهم منه مبرؤن ، وعنه منزهون » [٣] .

والملاحظ أن القراء فى هذا الموقف بالذات ساعدوا على طرد الباب على قاعدة واحدة ، فقد حاول ابن الجزرى الربط بين جميع روايات الإسكان ، واتخذ جواز بعضها دليلا على جواز بعضها الآخر ، فهو يستدل على جواز إسكان أبى عمرو بأن ابن محيصن ـــ القرشى على ماسبق فى ترجمته ، وأحد أئمة القراء بمكة – قرأ (يعلمْهم ويحشرْهم) بإسكان اللام أيضا .

---

(١) النشر جـ ٢ ص ٢١٣ .
(٢) يرجع الى النشر جـ ٢ ص ٢١٤ .
(٣) المرجع السابق .

كما قرأ مسلمة بن محارب (وبعو لتْهن أحق) بإسكان التاء ، وقرأ غيرهما (ورسلْنا) بإسكان اللام (١) .

ثم نجده يستدل على جواز قراءة بعض أهل مكة (إياك نعبدْ) بإسكان الدال بقراءة أبى عمرو (يأمركم) بالإسكان (٢) .

فقراء أبى عمرو تكون مرة محتجا لها ، وأخرى محتجا بها ، وهذا دليل على اطراد الظاهرة فى نظر القراء ، وانظر إلى قول ابن الجزرى السابق « ولغة تميم تسكين المرفوع » . فهو يدل على أنهم كانوا يشعرون فى قرارة أنفسهم بصحة هذا الاتجاه الذى وردت به الروايات ، وبأن من الجائز أن ترد فى قراءة ظاهرة مأثورة عن لهجة كبرى كلهجة تميم ، فلولا أنه ليس لهم أن يقرءوا القرآن بغير ماروى لهم لقرأوا كل مرفوع مسكنا ، ولكانوا على حق فيما ذهبوا إليه ، وهو — على مانظن — بعض المقصود بمقالة أبى عمرو التى سقناها من قبل « لولا أنه ليس لى أن أقرأ إلا بما قرأت لقرأت حرف كذا كذا وحرف كذا كذا » .

والقراء لايرسمون قواعد للنحو ، ولكنهم يعملون بروايات توثقت لديهم أسنادها ، دون أن يبالوا — كما رأينا — بمعارضة كائن من كان .

ومن المناقشات التى أدارها أهل القراءة ردا على أصحاب النحو مارواه كتاب (القراءات واللهجات) فيما يتصل بإسكان هاء الكناية قال : (قال تعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدهْ إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينارٍ لا يؤدهْ إليك » — آل عمران / ٧٥

قرأ الجمهور (يؤدهِ) بكسر الهاء ، ووصلها بياء ، وقرأ قالون باختلاس الحركة ، وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة والأعمش بالسكون ، قال أبو إسحاق الزجاج : وهذا الإسكان الذى روى عن هؤلاء غلط ، لأن الهاء لاينبغى أن تجزم ، وإذا لم تجزم فلا يجوز أن تسكن فى الوصل .

---

(١) النشر جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٨ .

قال أبو حيان : وما ذهب إليه أبو إسحاق من أن الإسكان غلط ليس بشيء ، إذ هو قراءة فى السبعة وهى متواترة ، وكفى أنها منقولة عن إمام البصريين أبى عمرو بن العلاء ، فإنه عربى صريح ، وسامع لغة ، إمام فى النحو ، ولم يكن ليذهب عنه جواز مثل هذا ، وقد أجاز ذلك الفراء ، وهو إمام فى النحو واللغة ، وحكى ذلك لغة لبعض العرب تجزم فى الوصل والقطع ، وقد روى الكسائى أن لغة عقيل وكلاب أنهم يختلسون الحركة فى هذه الهاء ، إذا كانت بعد متحرك ، وأنهم يسكنون أيضا . وأبو إسحاق الزجاج يقال عنه : إنه لم يكن إماما فى اللغة ، ولذا أنكر على ثعلب فى كتابه « الفصيح » مواضع زعم أن العرب لا تقولها ، ورد الناس على أبى إسحاق فى إنكاره ، ونقلوها من لغة العرب ، وممن رد عليه أبو منصور الجواليقى ، وكان ثعلب إماما فى اللغة ، وإماما فى النحو على مذهب الكوفيين) [١] .

هذا هو الموقف بتفاصيله بين القراء والنحاة ، فما رأينا فى المشكلة برمتها ، أعنى مشكلة الإعراب التى تثيرها قراءة أبى عمرو ؟. وقبل أن نفصل رأينا فى المشكلة نحاول دراسة ما ذهب إليه سيبويه من تفصيل وصف به الحركة الإعرابية فى المواضع التى يظن فيها الإسكان ، لاسيما فى حالة الوقف .

٣ ـــ أحوال الحركة الاعرابية لدى النحاة فى الوقف

حدد سيبويه للحركة الإعرابية عند الوقف على آخر الكلمة أربعة أضرب ، وكان ذلك بمناسبة حديثه عن (الوقف فى أواخر الكلم المتحركة فى الوصل التى لا تلحقها زيادة فى الوقف) . فذكر أن للوقف فى هذه الحالة أربعة أضرب ، هى :

(١) الوقف بالإشمام .
(٢) الوقف بغير الإشمام . (ويعنى به الإسكان التام) .
(٣) الوقف مع روم الحركة .
(٤) الوقف بالتضعيف .

---

(١) القراءات واللهجات ص ١٤٠ .

ومقتضى سرد هذه الأوجه الأربعة أن ينتفى احتمال الوقوف على متحرك ، وهو أمر بدهى فى العربية .

ويبدأ سيبويه فى تفسير مايريد بكل من هذه المصطلحات الأربعة ، فيروى أن من العرب من يلتزم الإشمام ، يريد بذلك أن يفرق بين مايلزمه التحريك فى الوصل ، وما يلزمه الإسكان على كل حال ، ومنهم من لايفعل ذلك لأنه جعل مايسكن فى الوقف بمنزلة مايسكن على كل حال . وأما الذين راموا الحركة فقد دعاهم إلى ذلك الحرص على أن يخرجوها من حال مالزمه إسكان على كل حال ، وأن يعلموا أن حالها عندهم ليس كحال ماسكن على كل حال . ذلك هو هدف الذين أُشَمّوا ، إلا أن الذين راموا الحركة أشد توكيدا لهدفهم من هؤلاء . وأما الذين ضاعفوا فهم أشد توكيدا من الجميع (١).

وقد قصر سيبويه جواز هذه الأوجه الأربعة على حالة المضموم ، ونستطيع إيضاحا لما مضى أن نقول : إن العناصر النطقية فى حركة كالضمة هى:

(١) استدارة الشفتين .

(٢) وضع اللسان بإزاء الطبق .

(٣) ذبذبة الأوتار الصوتية .

(٤) بقاء هذا الوضع مدة معينة (زمن الحركة) .

هذه هى الصفات المثالية للضمة ، ويمكن أن تتحقق بها جميعا ، كما يمكن أن تتحقق ببعضها دون بعض ، غير أن العنصر الرئيسى فى تكوينها إنما هو وضع اللسان ، فإذا تحقق مع الجهر كان عندنا صوت ضمة ، وإذا فقدت هاتان الصفتان كان عندنا شكل ضمة ناتج عن استدارة الشفتين ، وهذه الضمة الأخيرة هى المقصودة بالإشمام ، فتعريف الإشمام فى الحقيقة هو : (تصوير الضمة باستدارة الشفتين) ، ومن ثم قال سيبويه (وإشمامك فى الرفع للرؤية وليس بصوت الأذن ، ألا ترى أنك لو قلت : هذا مَعْنْ فأشممت كانت عند الأعمى بمنزلتها إذا لم تشمم)

---

(١) كتاب سيبويه جـ ٢ ص ٢٨١ ومابعدها .

فالوقف بالإشمام هو وقف بالإسكان مع استدارة الشفتين ، وهو والإسكان دون إشمام سواء عند الأعمى . ولما كان الإشمام عبارة عن تصوير الحركة بالشفتين ، فقد منع سيبويه أن يكون ذلك فى الوقف على المنصوب والمجرور، لعجز الشفتين عن تمثيل الفتحة والكسرة ، كما تمثل الضمة . أما الوقف بالروم فهو جائز فى الأحوال الثلاثة كالإسكان [١] ، ولم يصرح سيبويه بمعناه على وجه التحديد وإن ذكرت كتب النحو أنه : (أن تأتى بالحركة مع إضعاف صوتها) ، أى : إخفائه ، لأنك تروم الحركة مختلسا لها ولا تتمها ، قال فى الهمع : « فيكون حالة متوسطة بين الحركة والسكون » [٢] ، وبصرف النظر عن الخطأ الحاصل فى عبارة الهمع من أنه حالة متوسطة بين الحركة والسكون ، لأن هذا التوسط صورة ذهنية لاتحدث فى الواقع ، فإن الروم قد تحدد بمعنى اختلاس الحركة عند النحاة ، ولكنهم وصفوه بضعف الصوت أو خفائه ، ومعنى ذلك أن الحركة فى الروم أو الاختلاس تكون أقصر زمنا ، كما تفقد عنصر الجهر بسبب إضعاف الصوت بها ، مثلما يحدث فى حالة « الإسرار أو الوشوشة » Whispered speech ، [٣] ويبقى لها وضع اللسان وشكل الشفتين ، واندفاع الهواء فى مجرى الصوت ، مع قصر نسبى فى المدة التى يستغرقها النطق بها .

وقد دل التسجيل الذى لدينا لقراءة الاختلاس فى الأمثلة التى يسبق فيها الصوتان المدغمان بساكن صحيح على أن الحركة القصيرة المختلسة تكاد تفقد الجهر ، كما يخفى القارىء الصوت السابق على الحركة ، ويمكن مراجعته عند النطق بمثالى : « لبعض شأنهم ـــ من بعد ذلك » .

وقد لوحظ أيضا أن القارى يحاول أن يظهر نبر المقطع السابق ، وهو « بَعْ » فى المثالين ، ثم يخفى الصوت التالى وحركته ، ثم يعاود النبر على المقطع التالى ، وهو (شا / ذا) فى المثالين .

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٢٨٣ .

(٢) حاشية الصبان على شرح الأشمونى ، جـ ٤ ص ١٣٧ طبعة الميمنية .

(٣) An Outline of English Phonetics ص ٢٣ .

ولم نجد فرقا يذكر فى موقع النبر فى كلتا الحالين (قراءة الإسكان وقراءة الاختلاس) إلا مالوحظ من أن النبر فى قراءة الإسكان ينتقل فى المقطع الأول من العين فى كليهما إلى الصامت الأول والمدغم باعتباره نهاية المقطع ، وهو فى المثال الأول (الشين المنقلبة عن الضاد) ، وفى المثال الثانى (الذال المنقلبة عن الدال) .

والوقف بالتضعيف يعنى شدة الضغط على الصامت الأخير فى الكلمة حتى يصبح مشددا ، فيقال : هذا خالدّ ورأيت خالدّ ومررت بخالدّ ، وقد تلحق العرب هذا النوع من الوقف حرف مد من جنس الحركة الأخيرة ــ وقد وقع ذلك فى الشعر فقالوا : سبسباً ، وعيهلّ .

وهذا النوع من الوقف لايكون إلا فى الكلمات التى يتحرك ماقبل آخرها ، فأما ماكان على مثال : زيْدْ وعمْرْو فلا يوقف عليه بالتضعيف ، وإنما يكون فيه الإشمام فى حالة الرفع ، والروم فى الأحوال الثلاثة .

بيد أن لنا على ماقرره سيبويه ملاحظات :

الأولى : أنه يقرر فى بداية حديثه أن الحركة من خصائص الكلام فى الوصل ، ومعنى ذلك أنها إنما تكون طارئة لغرض وصل الكلمات بعضها ببعض ، فإذا لم يقتض المقام الحركة لم يؤت بها ، وذلك كما فى حالة الوقف ، ومقتضى ذلك أن الحركة ليست جزءا من بنية الكلمة ، وإنما هى عارض يعرض لهذه البنية .

الثانية : أنه حين تحدث عن نسبة أضرب الوقف إلى قبائلها لم يحدد قبيلة بعينها ، إلا ماكان منه حين نسب التضعيف إلى بنى أسد [1] ، ولكن يفهم من حديث سيبويه أن كلا من هذه الأوجه شائع فى قبيلة بعينها .

الثالثة : أن سيبويه قد قرر أن الإسكان فى نحو (خالدْ) أكثر من الروم ، قال (وإجراؤه كإجراء المجزوم أكثر) [2] ، وكذلك قرر فيما يتعلق بالإشمام . كما قرر بصدد

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٢٨٢ .

(٢) الكتاب جـ ٢ ص ٢٨٣ .

الوقف على (زيد وعمرو) أن الذين أشموا أو راموا الحركة (قد يدعون الإشمام وروم الحركة أيضا كما فعلوا بخالد ونحوه) ، فليس الإشمام أو الروم بتقليد ملتزم لدى من نسب إليهم ، ولكنه موقف اختيارى ـــ كما قرر سيبويه .

وأيا ماكان الأمر فإن هذه الأوجه فى النطق بالإشمام أو بالروم أو بالتضعيف لم ترد عن قريش ولا تميم ، فالمأثور عن قريش هو الإسكان الخالص فى المرفوع والمجرور والوقوف على المنصوب بالفتحة ، إن كان منونا ، وبالسكون فى حالة عدم التنوين ، كما أن المأثور عن تميم فى وقفها على مثل عمرو وزيد هو النقل ، ويصحح هذه النسبة إليهم ماذكره سيبويه من أنهم يقولون فى المهموز مثل : الخبء: الخبُوْ والخَبَأْ ، الخبِءْ [(١)] وروى أيضا أن بعض العرب يقول : هذا بَكُرْ ومن بَكِرْ [(٢)] ، ولاشك أن بعض العرب هنا هم على الأقل قوم من تميم ، لتشابه مابين الموقفين فى نقل الحركة ، كما يصحح هذه النسبة إليهم أيضا ماروى أبو حيان حين قال : (ولم ينقل عن أحد من القراء إلا ماروى عن أبى عمرو أنه قرأ : « وتواصوا بالصبِرْ » بكسر الباء ، وعن سلام أنه قرأ : والعصِرْ بكسر الصاد) [(٣)] .

فإذا كانت هذه هى حقيقة الموقف فمن أين يتأتى لسيبويه أن ينسب لأبى عمرو روم الحركة أو اختلاسها فى مواضع الإسكان المروية .. ؟ .. ومن أى معين يمكن أن يستقى أبو عمرو هذه الخاصة النطقية .. ؟ .. إن فى كلام سيبويه انتقالا مؤسسا على فكرة لانسلم بها ، ذلك أنه قد طبق ماقرره من تقاليد العرب فى حالة الوقف ، من أنهم كانوا يرومون الحركة ، أى : يختلسونها ، على حالات الإسكان فى الوصل ، فى مثل « بارئْكم » و« يأمرْكم » إجراء للوصل مجرى الوقف ، ومن ثم طبق اختلاس الحركة أيضا على بعض حالات الإدغام ، وهذا قياس مع الفارق ، **أولا** / لأن

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٢٨٥ .

(٢) الكتاب جـ ٢ ص ٢٨٣ .

(٣) الصبان جـ ٤ ص ١٣٧ .

الترتيب المقطعى فى حالة الوصل مختلف غالبا عنه فى حالة الوقف . **وثانيا** / لأن كل مايجوز من حالات الوقف لايجوز مثله فى الوصل . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى نجد أننا إذا مضينا مع سيبويه فى تقرير أن الاختلاس هو مذهب أبى عمرو ، كان معنى ذلك أن رواية أبى عمرو لم تتفق فى هذا الموضع مع قريش أو تميم ، وإنما مع قوم مجهولين ، لم يسمهم ، ولم نعرف صلة أبى عمرو بتقاليد لهجتهم ، ولم يصح لدينا ، بل لم يقل أحد بذلك ، فيما بلغنا من أخبار .

٤ – موقف القراء

هذا هو رأى النحاة فى المشكلة .. فكيف عالجها القراء ، وماذا عندهم بشأنها ؟ .

موقف القراء من هذه المشكلة تصوره لنا مقالة ابن الجرزى : (اعلم أنه ورد النص عن أبى عمرو من رواية أصحاب اليزيدى عنه وعن شجاع : أنه كان إذا أدغم الحرف الأول فى مثله أو مقاربه ، وسواء أسكن ماقبل الأول أو تحرك ، إذا كان مرفوعا أو مجرورا ، أشار إلى حركته) [1] ، ثم حكى خلاف الأئمة فى تفسير هذه الإشارة ، ففريق يذهب إلى أنها « روم » ، وآخر إلى أنها « إشمام » ، ولكنه ينهى مناقشته بتقرير أن الأصل فى الإدغام هو الإسكان مع ترك الروم والإشمام ، (وهذا هو الأصل المقروء به والمأخوذ عن عامة أهل الأداء من كل مانعلمه من الأمصار وأهل التحقيق من أئمة الأداء) [2]، ويستطرد ابن الجزرى بعد ذلك فى ذكر جمهور الأئمة والطرق التى جاءت برواية الإسكان الخالص ، إلى أن يقول : (فهو الذى وصل إلينا أداء ، لانعلم بين أحد ممن أخذنا عنه من أهل الأداء خلافا فى جواز ذلك) [3] .

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٧ .

(٣) المرجع السابق .

وقد أضاف القراء المتأخرون تفصيلا فى المسألة حيث فرقوا بين الروم والاختلاس ، وهما أمر واحد عند النحاة على مامر ، فقالوا : « إن الروم لايكون فى فتح ولا نصب ويكون فى الوقف فقط ، والثابت فيه من الحركة أقل من الذاهب ،وأما الاختلاس فيكون فى كل الحركات ، كما فى أرنا ، وأَمّن لا يَهَدّى ، ويأمُركم ، ولا يختص بالوقف ، والثابت من الحركة فيه أكثر من الذاهب ، وقدره الأهوازى بثلثى الحركة ، ولايضبطه إلا المشافهة [١] »

وعلى ذلك لايصح تفسير الروم بالاختلاس ، إذ هما مختلفان من كل وجه ، ويصبح ترتيب الظواهر الثلاثة فى هذا الباب على أساس أن الإشمام فى المرفوع فقط ، وأن الروم فى المرفوع والمجرور ، وأن الاختلاس فى المرفوع والمجرور والمنصوب .

ويلاحظ أن ابن الجزرى لم يذكر فى حديثه شيئا عن الاختلاس ، بل ذكر الإشمام والروم بمفهومهما المقيد المشار إليه .

ثم أخذ يكشف لنا بعد ذلك عن سر المشكلة فقرر أن الهدف الذى قصد إليه من رووا هذه الطريقة المشكلة ، ليس لأنها طريقة أبى عمرو ، ولكن لهم هدفا آخر هو تنبيه المتعلم إلى نوع الحركة المسكنة ، حتى لا يغفل عنها فى حالة الوصل أو حالة عدم الإدغام ، قال : (ولم يعول منهم على الروم والإشمام إلا حاذق قصد البيان والتعليم . وعلى ترك الروم والإشمام سائر رواة الإدغام عن أبى عمرو ، وهو الذى لايوجد عنهم نص بخلافه) [٢].

وقد أخذ بهذا الرأى أستاذنا الدكتور أنيس ، فقد شك فى أن « الوقف المعروف عند القراء بما يسمى بالإشمام أو الروم مما يمت لوقف العرب على الكلمة بصلة ما ، وقال : (ولاأظن أن أحدا من الصحابة الأولين كان يقف بهاتين الطريقتين فى

---

(١) اتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ص ١٠١ ، للبناء الدمياطى .

(٢) النشر جـ ١ ص ٢٩٧ .

قراءته ، وإنما هما من الوسائل التى اخترعها القراء فيما بعد لهدى الناشئين إلى حركات الإعراب فى أواخر الآيات [١]).

فقد اتضح اذن الموقف ، لأننا حتى مع التسليم بصحة الرواية (رواية الإشارة) نلمس خلافا جوهريا بين إشارة أبى عمرو للمرفوع والمجرور دون المنصوب فى الوقف وفى الإدغام — سواء فسرناها بالإشمام أو بالروم — وبين إشمام النحاة وروموهم الذى رووه عن العرب ، لأن الروم الذى تحدث عنه سيبويه ، وهو بمعنى الاختلاس ، ، قد ورد فى الحركات الثلاث ، والإشمام الذى رواه قد ورد فى المرفوع لاغير ، وفى الوقف لاغير فى كلتا الحالين ، ولاعبرة هنا بالخلاف الذى نشب بين البصريين والكوفيين فى هذا الصدد ، مما رواه ابن الجزرى ، فحسبنا ماذكرنا من رواية الجمهور عن أبى عمرو ، وحسبنا تفسير ابن الجزرى للغرض من القراءة به ، وأنه لم يكن سنة تتبع ، وإنما كان وسيلة إلى التعليم ، وحسبنا أخيرا هذا الفرق بين ماقرره النحاة ، ومارواه القراء .

أما الاختلاس الذى ربما نسلم به — بناء على ماروى عن تميم — فهو ذلك الذى يحتمل أن يكون قد وقع فى إدغام الأمثلة التى سبق فيها الصوت المدغم الأول بصوت ساكن صحيح مثل : « من بعد ذلك ، شهر رمضان » ، فقد أثر عن تميم أنها تتخلص من التقاء الساكنين فى مثل هذين المثالين بتحريك ما قبل الساكن المدغم ، كما قالوا فى : « عبد شمس » عَبَشَّمسْ ، بتحريك الباء [٢] . وكما هو شأنهم فى الوقف بالنقل . وسيأتى تفصيل ذلك فى مبحث « قضية الساكنين بين القراء والنحاة » .

---

(١) من أسرار اللغة ص ٢٠٧ الطبعة الثانية .

(٢) المزهر جـ ٢ ص ٢٨٠ .

٥ ـــ رأينا فى المشكلة

(أ) الحركات والسكون

رأينا أن القدماء قد خصوا كل حركة من الحركات بصفة معينة ، كانت لديهم أساسا لمعاملتها حين تقع فى وسط الكلمة أو فى آخرها . فالضمة أو الكسرة حركة ثقيلة (قوية) ، ولذا يتخلص منها حين تقع موقعا تظهر فيه قوتها ، والفتحة (خفيفة) ، ولذا لايتخلص منها ، أى لايجوز حذفها إلا شذوذا ، لأن خفة النطق بها تعدل خفة حذفها ، أى : خفة السكون ، ولايستعاض عن خفيف بخفيف ، لأن ذلك من باب تحصيل الحاصل .

ونحن نزعم أن هذا التقسيم للحركات بصرف النظر عما فيه من بعض الصواب ـــ تغلب عليه النزعة المنطقية ، والمنطق لايصلح أساسا للدراسة اللغوية بعامة ، والصوتية بوجه خاص ، ذلك أن وجهة النظر هذه فى معاملة الحركات والسكون نسبية يمكن التغلب عليها بمنطق آخر ، وقياس آخر ، فيقال مثلا : إن الحركة موازية لعدم الحركة ، أى : للسكون ، فكل موضع توجد فيه الحركة يصح أن يخلو منها بحكم تعادل الاعتبارين ، ولكن هذا المنطق لايغنى عن الواقع شيئا .

والحق أن نظرة القدماء فى الجمع بين الضمة والكسرة ، والمماثلة بينهما نظرة صحيحة من الوجهة العلمية ، صدقتها تجارب المحدثين وآراؤهم ، يقول العالم اللغوى فيلتشر : « إن الصوت (i) ـــ أى : الكسرة ـــ يشبه شبها كبيرا الصوت (u) أى : الضمة ، إذا ماتخلصنا من الموجات التى تزيد عن (ألف) ذبذبة فى الثانية ، ولكن بما أن نسبة الشبه بينهما تزيد فى هذه النقطة على تسعين فى المائة ، فإن من الواضح أن بعض الصفات لايزال موجوداً فى منطقة الذبذبات المنخفضة فى الصوت (i) ، وهى التى تميز بينه وبين الصوت (u) [1] » .

---

(١) ص ٤٢٣ Speech and hearing in communication .

فدرجة الشبه بين الضمة والكسرة تزيد على تسعين فى المائة ، والفرق بينهما يكمن فى منطقة تحتوى أقل من عشرة فى المائة من الاختلاف ، وقد نتج هذا التقارب من ناحية عضوية هى أن وضع اللسان يكون أضيق مايكون فيهما .. فهو فى الكسرة مطبق تقريبا بجزئه الأمامى على منطقتى اللثة والغار (١) ، وهو فى الضمة مطبق بجزئه الخلفى على منطقة الطبق (٢)، فكمية الهواء التى يسمح لها بالانطلاق فى هاتين الحالتين تكاد تكون متساوية ، ولكن شكل غرفة الرنين فى الفم هو الذى يحدث الفرق بينهما فى الطابع .

أما فى الفتحة فإن اللسان يكون أكثر ابتعادا عن الحنك الأعلى (٣) ، ومن ثم تكون كمية الهواء المنطلقة من الرئتين إلى خارج الفم أكبر ، كما أن غرفة الرنين تكون أوسع ، فيتوفر للصوت من القوة فى هذه الحالة مالا يتوفر له فى الحالتين السابقتين . ولذا عد المحدثون صوت الفتحة أقوى الحركات جميعا .

ومن أجل هذا لانرى من الصواب عقد شبه بين الفتحة والسكون ، كما هى الحال بين الكسرة والضمة . إذ الواقع أن العلاقة بينهما علاقة الإيجاب بالسلب ، فالفتحة هى أقوى صور المبالغة فى الحركة ، والسكون أمر عدمى لاقياس له ولا مخرج .

والصواب أن بين الحركات الثلاث شبها كبيرا من حيث إنها جميعا توصف بالانطلاق ، حيث لا يعترض طريق الهواء عارض مخرجى ، ومن حيث إنها جميعا مجهورة ، ومن ثم كان العبء الذى يتحمله جهاز النطق فى إنتاجها متقاربا ، وعليه يصبح من المعقول أن يتجه الناطق إلى التخلص منها فى مواقع معينة ، دون تفرقة

---

(١) ص ٣١ ، ٣٢ An outline of English phonetics - by D - Jones

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

بينها فى المعاملة ، إذ إن القضية فى الواقع قضية الحركة أو عدمها ، وليست قضية حركة بعينها .

ولسوف نقدم فيما يلى من البحث الدليل القاطع على صحة هذه النظرة ، من واقع الحدث اللغوى الذى سجلته أمثلة الإسكان والإدغام .

★ ★ ★

(ب) الإسكان والإدغام

لاشك أننا لانستطيع أن نفصل بين مشكلة الإدغام ومشكلة الإسكان فى هذه الكلمات المروية فى القراءات المختلفة ، لأن الإدغام ليس إلا إسكانا للصوت الأول ، وهو موضع ظهور الحركة الإعرابية ، ثم يخضع الصوت بعد ذلك للتغيير طبقا لقانون المماثلة

ونحن لم نجد من النحويين أو القراء على السواء من حاول الربط بين الظاهرتين ، بل حاول كل منهما أن يضع لتغير الأصوات فى حالة الإدغام شروطا وأسبابا وموانع ، وجعل إسكان الصوت الأول شرطا لحدوث الإدغام كما سبق أن عرضنا ذلك ، وكان الإدغام فى رأيهم ناشئا عن تقارب الصوتين المدغمين أو تجانسهما أو تماثلهما ، وبذلك يصبح الإسكان خطوة حادثة بعد ثبوت تقارب الصوتين ، كأن العملية فى ذهنهم مصطنعة متكلفة من أجل الإدغام ، ولا علاقة لها بلهجة أو بتاريخ .

أما نحن فلا نكاد نربط مطلقا بين الإسكان والإدغام فى مشكلة واحدة ، ذلك لأن الإسكان مشكلة نحوية ، أما الإدغام فمشكلة صوتية ، وإذا شئنا الربط بينهما قلنا : إن الإسكان مشكلة نحوية نتج عنها مشكلة صوتية ، فعلاقة إحداهما بالأخرى علاقة السبب بالأثر .

وبذلك يكون الإسكان ــ فى رأينا ــ سابقا على الإدغام من الناحية

التاريخية ، أى إنه كان اتجاها عاما على ألسنة جميع الناطقين بلهجة تميم (على فرض صحة النسبة على مانرجح ونختار) ، ثم حدث أن تعرض بعض الأصوات لتغير معين نتيجة هذا الاتصال المباشر بينها ، وعندما جاء الباحثون ليدرسوا هذه الظاهرة وجدوا أن بين الأصوات التى تعرضت لهذا التغير صفات مشتركة ، حددوا بعضها بالتقارب أو بالتجانس أو بالتماثل .

وقد كان الإسكان فى رأينا واقعا على نهايات جميع الكلمات ، مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة ، إلا ماتقضى ضرورة الوصل بتحريكه منها .

ونستطيع من باب الاستطراد المفيد أن نقارن حال هذا الناطق التميمى بحال الناطق المصرى فى لهجتنا العامة ، فهذا المتكلم يسكن أواخر الكلمات دون نظر إلى أى اعتبار صوتى ، فإذا قال مثلا : (أنا خت الكتاب بتاعى) لم يكن إسكانه للباء من (الكتاب) من أجل الباء التالية لها ، لإرادته الإدغام ، ولكنه أداء لغوى لاشعورى يدخل فى حكم السليقة اللغوية التى لاتنفك عن تقاليدها ، وكلمة (الكتاب) فى هذه الجملة التى تلقى فيها لامها مماثلا لها فى فاء الكلمة التالية ، تشبه تماما كلمة (الكتاب) فى الجملة (أنا حطيت الكتاب ع الدرج) ، حيث لا تلقى الباء هنا مماثلا ولا مقاربا ولا مجانسا ، ومع ذلك فالإسكان هو الإسكان . فإذا انتقلنا بالمناقشة إلى اللغة الفصحى لم نجد فرقا صوتيا بين هذه اللفظة فى عبارة (يكتبون الكتاب بأيديهم) — بقطع النظر عن مصدرها المقدس — وبين ماسبق أن عرض من أمثلة عاميتنا ، ولو قد وردت الروايات باطراد الإسكان فى قراءة القرآن فنطقنا مثلا هذه الكلمة ساكنة أيضا فى جملة (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى) لما كان هناك فرق بين مالقى مثلَه وغيرِه ، وهو مانعتقد أنه كان فاشيا على ألسنة الفصحاء من العرب ، ثم تدخل النحاة فوحدوا القواعد وحملوا عليها الواقع اللغوى ، وأنكروا الإسكان ، ، وإن لم يقدروا على ذلك بالنسبة لأمثلة الإدغام ، التى احتجوا بأنه فيها وسيلة إلى الإدغام واعتدوه هدفا للناطق القديم ، على حين أن هذا الناطق كان قطعا غافلا عن

هذا الهدف النحوى ، ولم يكن يفرق بين مرفوع أو منصوب أو مجرور ، فقد كان يسكن أواخر الكلمات ، إلا مايقتضى النظام المقطعى تحريكه فى الوصل ، والدليل على ذلك هذه الأمثلة من القراءات المختلفة ، التى جمعناها من مختلف المصادر ، والإسكان فيها لا يفرق بين مرفوع و منصوب و مجرور ، كما أنه لايقع فى كلمات تنتهى بأصوات معينة دون غيرها ، فقد وقع فى المرفوع فى الكلمات : (يجمعهم ـــ يلعنهم ـــ يأمركم ـــ تأمركم ـــ فيعذبهم ـــ وبعولتهن ـــ أو يحدث ـــ رسلنا) ، كما وقع فى المنصوب فى : (ويذرك) ،ووقع فى المجرور فى : (بارئكم ـــ أسلحتكم ـــ أمتعتكم) ونهايات هذه الكلمات تمثل أصواتا مختلفة يصعب إيجاد رابطة بينها ، وهى (العين ـــ النون ـــ الراء ـــ الباء ـــ التاء ـــ الثاء ـــ اللام) ، بحيث لايمكن أن يقال : إن هذه المجموعة تشترك فى صفة صوتية بعينها ، ليقال : إن حدوث الإسكان فى كلماتها ناشىء عن صفة معينة تجمع بينها .

فإذا استعرضنا أمثلة الإدغام وجدنا أنها تمثل جميع الأصوات تقريبا ، ولافرق هنا بين ماكان مدغما من المثلين أو المتقاربين أو المتجانسين ، إذ إن الإسكان موجود فى جميع الحالات .

ولافرق فى الواقع بين الإسكان فى قوله : (إن الله يأمرْكم) وقوله : (والله أعلمْ بالشاكرين) وقوله (فلله العزة جّميعا) ، فالإسكان فى كل ذلك ظاهرة واحدة ، رغم أن المثال الأخير مدغم لتقارب مابين التاء والجيم ، والمثال الأوسط لا إدغام فيه ، وإنما هو إخفاء كما أطلق عليه القراء ، وهو ذو دلالة على أن الإسكان مع توفر الظروف الصوتية كالإسكان عند عدمها ، لأننا لا نعقل أن يكون التقاء الميم بالباء موجبا لإسكانها من أجل ماسمى بالإخفاء ، فالإسكان فى هذا المثال وفى قوله تعالى (على مريم بهتانا) ـــ النساء ـــ إسقاط للحركة الإعرابية وتخلص منها فحسب . ولعل ابن الجزرى يعنى هذا بقوله : « والميم تسكن عند الباء إذا تحرك ماقبلها تخفيفا لتوالى الحركات ، فتخفى إذ ذاك بغنة [1] » ، تماما كالمثال الأول الذى لاعلاقة فيه بين

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٩٤ .

الصوت الساكن ومابعده ، ولعلنا لو أردنا أن نبرز وحدة الظاهرة لم نجد خيرا من أن نسوق أمثلة الإسكان التى سبقت روايتها ، ثم نذكر من المدغمات مايماثلها فى نوع الصوت المسكن ، ليظهر أن لافرق بين إسكان الصوت فى الحالين .

وأول مثال نلقاه فى قراءة أبى عمرو : (إن الله يأمرْكم) . وقد ورد إسكان الراء مضمومة أومكسورة أو مفتوحة فى الأمثلة : (ويقولون سيغفرْ لنا ـــ الأعراف) ، و (وسخرْ لكم ـــ النحل) و (دون العذاب الأكبرْ لعلهم يرجعون ـــ السجدة) .

ولا فرق فى رأينا بين إسكان الراء فى (يأمركم) وإسكانها فى الأمثلة الأخرى إذا ماصرفنا النظر عن الأثر الحادث بعد ذلك ، وهو إدغام الراء فى اللام ، فإن هذا الإدغام لم يحدث إلا حين اتصلت الراء اتصالا مباشرا باللام ، أى : بعد عملية الإسكان .

ومثل هذا الإدغام تحتمه القوانين الصوتية ، أما الإسكان فظاهرة نحوية .

ومن الأمثلة التى رواها أبو على الفارسى وأجاز فيها الإسكان من طريق اليزيدى قوله تعالى : (يوم يجمعْكم ليوم الجمع) ـــ التغابن ، ويماثل هذا فى إسكان العين قوله تعالى : (ينزعْ عنهما لباسهما ـــ الأعراف) ، وقوله : (قد وقعْ عليكم ـــ الأعراف)وقوله : (ولتصنعْ على عينى ـــ طه) .

ومن الأمثلة أيضا عند الفارسى (ويعلمهْم الكتاب ـــ آل عمران) ، ويماثله فى إسكان الميم قوله تعالى : (الله أعلمْ بإيمانكم) ـــ النساء ـــ وقوله : (وقولهم على مريْم بهتانا) ـــ النساء ـــ وقوله : (فلا أقسْم بمواقع النحوم ـــ الواقعة) .

ومن قراءاته المروية أيضا : (فأولئك يلعنْهم الله ـــ النساء) ، ونظيره قوله تعالى : (وإذ تأذْن ربكم ـــ الأعراف) ، وقوله : (تملكون خزائنْ رحمة ربى ـــ الإسراء) وقوله : (زينْ للناس ـــ آل عمران) وقوله : (أنؤمنْ لبشرين ـــ المؤمنون ـــ) .

ومن قراءاته : (عن أسلحتْكم وأمتعتْكم ـــ النساء) ، ونظيره قوله تعالى : (ومن كل الثمراتْ جعل فيها ـــ الرعد) وقوله : (ألا فى الفتنةْ سقطوا – التوبة) .

ومن قراءات الإسكان ماذكرناه من قبل (أو يحدثْ لهم ذكرا ــ طه) ، ونظيره الإسكان فى قوله تعالى :(حيثْ تؤمرون ــ الحجر) وقوله (أفبهذا الحديثْ تعجبون ــ النجم) ، ومن قراءات الإسكان أيضا قوله تعالى : (توفته رسلنْا) ، ونظيره قوله تعالى : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيلْ ربنا تقبل ــ البقرة) ، وقوله (إنا رسلْ ربك ــ هود ــ).

ومثل هذه المقارنة تسمح لنا بأن نقول : إن الإسكان لم يكن مرتبطا بأصوات معينة لدى أبى عمرو دون غيرها ، كما حاول بعضهم إطلاق القياس فى كل راء دون غيرها فأسكن (يحشرهم ــ أنذركم ــ يصوركم ــ يحذركم ...الخ) ، وإنما نقول : لعل الروايات كانت ناقصة فلم تستوعب كل أمثلة الإسكان عن أبى عمرو ، أو ربما لم يصل أبا عمرو من الروايات الموثقة لديه غير هذه الروايات المفردة ، وما كان له أن يطلق القياس فى كل حركة إعراب ، ولكن حسبه أنه قرأ بأوسع أبواب الإسكان ، ألا وهو باب الإدغام الكبير ، وقد مضى عرض واف لأمثلته فى الباب الثانى .

ونحن بعد أن عالجنا ماعالجناه من مشكلة إسكان العين واللام ، وبعد أن عرضنا موقف كل من النحويين والقراء مفصلا ، لايسعنا إلا أن نأخذ بهذا الربط بين مجالى الظاهرة ــ فى الإدغام وغيره ــ لأسباب منها :

(١) أن كلا جانبيها منسوب إلى قبيلة واحدة ، هى قبيلة تميم ، فهى التى اعتادت الإسكان فى أواخر الكلمات ، وهى التى صدرت عنها هذه الظاهرة إلى سائر القبائل المجاورة ، حتى اقتحمت على أهل الحجاز ديارهم فى صورة الإدغام كما سبق أن قررنا .

(٢) أن كلا الجانبين مروى فى قراءة قارىء واحد هو أبو عمرو بن العلاء ، (وهو قد تعمد اختيار روايات الإسكان ، انتصارا للهجة قومه بنى تميم ــ كما هو واضح وثابت) يشركه فى بعض ظواهر هاعدة من القراء ، وبخاصة ابن محيصن القارىء المكى القرشى النحوى .

(٣) أن المشكلة واحدة من الوجهة الإعرابية ، فهى فى نظر النحويين والقراء

على السواء حذف للحركة من باب التخفيف ، إذ يجدون فى تتابع الحركات ثقلا فيقرون هذه النزعة إلى الإسكان ، والكلمة فى نظرهم معربة بحركة محذوفة للتخفيف ، سواء فى ذلك ماأسكن من نحو (يأمركم) ، أو ماهو من باب الإدغام .

ولسوف يتجلى فى مناقشتنا التالية للمشكلة رجاحة هذا الرأى القائل بوحدة ظاهرة الإسكان بشقيها ، فى النطاق الذى نعالجها فيه .

٦ - الإسكان ونوع الحركة

وعودة إلى ما سبق أن عرضناه من أمثلة الإسكان بنوعيه ترينا أن القراءات المروية لم تكن تفرق بين ماهو فى أصل وضعه الإعرابى مرفوع أو منصوب أو مجرور ، وقد كان أبو عمرو — فى باب الإدغام — يسكن جميع الأمثلة ، التى عرضنا بعضا منها ، ويستطيع المرء أن يستخرج بمراجعة بسيطة لأمثلة القرآن مئات [1] أخرى ، هى فى غير الإسكان مفتوحة .

وقد سبق أن قلنا — فى أول هذا الفصل — إننا نشك أن يكون الذين منعوا إسكان عين الكلمة المفتوحة قد استقرءوا أفراد هذه الظاهرة استقراء كاملا ، وأن أبا عمرو يؤيده الواقع اللغوى — لم يلتزم هذه القاعدة ، بل أسكن المضموم والمكسور والمفتوح أيضا ، ومثل هذا الكلام ينطبق فى رأينا على لام الكلمة .

ولعل سر احترام النحاة لوجود الفتحة ، وحرصهم على إظهارها ناشىء عن أنهم وجدوا أن تقاليد اللغة القرشية تفردها بميزة خاصة فى الوقف ، حيث تبقى عليها دون أختيها — الضمة والكسرة — إذ يقولون : جاء محمدْ ، ونظرت إلى محمدْ ، ورأيت محمدا ، فوضع النحاة قاعدة جواز إسكان المرفوع والمجرور دون المنصوب ، على غرار ذلك ، وفاتهم أنهم حين يتحدثون عن جواز الإسكان

---

(١) سوف يأتى فى نهاية الرسالة ملحق خاص يشتمل جميع الأمثلة المفتوحة المدغمة فى القرآن تقريبا .

لا يتحدثون عن تقليد قرشى فى أصله ، وإنما عن أمر يتصل بلهجة أخرى ، هى لهجة تميم التى أثر عنها الإسكان ، وإن جرى على ألسنة العرب بعد ذلك ، بما فيهم قريش وفصحاؤها وقراؤها ، فإن كان النحو المأثور تقعيدا لما أثر عن لسان قريش فحسب ، فما ينبغى أن ينطبق مأثورها على لهجات غيرها ، وهم عدل قريش فى فصاحة الألسن واستقامة اللغة ، ومما يلقى ضوءا على جواز إسكان المنصوب فى الوقف ماروى لنا من أن ربيعة تقف بالسكون على الاسم المنون أيا كانت حركته [١] ، فإذا علمنا أن ربيعة من قبائل وسط الجزيرة وشرقيها كتميم [٢] ، أدركنا مدى التشابه بين إسكانها لأواخر الكلمات فى الوقف ، وإسكان تميم لأواخرها أيضا على الصورة التى ذكرناها .

وهنا يبقى علينا أن نسوق برهانا آخر على عموم الظاهرة ووحدتها بشقيها ، مستخدمين منطق النحويين ذاته ، وبخاصة طريقة أبى على الفارسى ، فهى فى رأينا طريقة موضوعية على أساس مقطعى ، وهو مانعده الدافع الأول إلى الإسكان .

فقد جعل أبو على الضابط الذى ينقاس به جواز الإسكان (أن يكون مثال : فَخِذ وسَبُع وإبل وضُرِب وعلم من كلمتين ، على تشبيه المنفصل بالمتصل) ، وذكر أن : (ذلك جاء فى كلامهم نحو الإمالة والادّغام) .

ويلاحظ أن أبا على لم يفسر مايريده من كلمة « الادغام » فى هذا المعرض ، بل تركها مبهمة ، ولكنا تفهم من كلامه أنه لم يكن يفرق بين الإسكان فى (منتفْخا ويتقْه واشترْلنا) ، على أنه لم يحاول تطبيق نظرته أو ملاحظته المقطعية على أمثلة الإدغام تفصيلا ، ربما إشفاقا منه أن يتورط فى مناقشة القاعدة التى تقرر : جواز إسكان ماكان على زنة ماساق من الكلمات دون ماكان بزنة (فَعَل أو فِعَل ، أوفُعَل) ، لأن إسكان المفتوح غير جائز عنده إلا شذوذا ، ومن أجل هذا اقتصر على ذكر هذا المثال

---

(١) من أسرار اللغة ص ٢١٠ .

(٢) فى اللهجات العربية ص ٥١ ، ٦٣ .

الوحيد (اشترْ لنا) ، وهو من المدغم ، رغم أنه لم يشر إلى ذلك ، ولعله كان ينطقه دون إدغام ، فإذا جاز هذا الاحتمال كان ذلك أيضا دليلا على انفصال عملية الإسكان عن عملية الإدغام ، ومن أجل هذا نرى ضرورة تطبيق هذه النظرة على أمثلة الإدغام تفصيلا ، للبرهنة على مانذهب إليه فى هذا الصدد ، وهو أن الإسكان حدث فى حالة انفتاح عين الكلمة . كما حدث فى حالتى الضم والكسر .

فلنعرض أمثلة الإدغام التى اخترناها ، ولننظر بعد ماذا يكون :

ولقد بحثنا الأمثلة الواردة فى القرآن ، وهى التى تتفق والمثال الذى نختاره ، أى : ماكان ماقبل الصوت المدغم متحركا بحركة قصيرة ، فوجدنا فيها الأوزان التالية : ـــ

(١) زنة فَعُل : : فى مثل (سيغفر لنا) و (فَرْل) بزنة فَعُلْ الذى جاء إسكانه .

(٢) زنة فُعُل : فى مثل (رسُلُ ربك) و (سُلُ رْ) بزنة فُعُل الذى جاء إسكانه .

(٣) زنة فَعِل : فى مثل (الأكبر لعلهم) و (بَرِلْ) بزنة فَعِلْ الذى جاء إسكانه .

(٤) زنة فِعِل : فى مثل (بالباطِلِ ليدحضوا) و(طِلِ لْ) بزنة فِعِلْ الذى جاء إسكانه.

(٥) زنة فِعُل : فى مثل (ينزِعُ عنهما)و (زِعُ عْ) بزنة فِعُلْ ولم ينص على جواز إسكانه .

(٦) زنة فِعَل : فى مثل (وورِثَ سليمان) و (رِثَ سْ) بزنة فعَلْ ولم ينص على جواز إسكانه .

(٧) زنة فُعَل : فى مثل (أن ياكُلَ لحم) و(كُلَ لْ) بزنة فُعَلْ ولم ينص على جواز إسكانه .

(٨) زنة فَعَل : فى مثل (ولتصنَعَ على عينى) و (نَعَ عْ) بزنة فعَلْ ولم ينص على جواز إسكانه .

والعين فى هذه الأمثلة هى لام الكلمة الأولى أو الصوت المدغم ، وقد ظهر أنها تارة تكون مرفوعة ، وتارة مجرورة ، وثالثة منصوبة ، بل لقد أسكن من المنصوب الأوزان الثلاثة (فَعَل ، وفُعَل ، وفِعَل) ، وأسكن من المرفوع ثلاثة

أيضا هى (فُعُل ، وفِعُل ، وفَعُل) ، على حين أسكن من المجرور وزنان هما : (فِعِل ، وفَعِل) .

فها هى ذى أمثلة الإدغام وقد أسكن فيها المنصوب كما أسكن المرفوع والمجرور ، والعنصر المشترك فى كل هذه الأوزان أنها جميعا قد سبقت العين فيها (وهى لام الكلمة الأولى) بمقطع مفتوح ، وإنا لمضطرون لأن نعبر بكلمة (مقطع مفتوح) ليدخل فى حدوده كل من المقطع القصير مثل (فَ) = (ص ح)، والمتوسط مثل (فا) = (ص ح ح) ، ولسنا هنا نفرض على تقاليد اللغة أشياء جديدة ، ولكنه الواقع اللغوى الذى نريد تنظيمه ، فالدراسات الصوتية الحديثة لاتفرق بين الفتحة والألف ، ولا بين الكسرة والياء ، ولا بين الضمة والواو ـــ إلا فى طول الثانى عن الأول ، وكذلك كان القدماء يرون فى بعض المواضع ، [1] .

فالفرق بينهما فرق فى الكمية لاأكثر ، ولا مانع من قياس المقطع المتوسط على المقطع القصير ، مادام كل منهما مفتوحا ، ويتطلب وجود الساكن المقطعى بعده ، وبذلك يكون إسكان قوله تعالى : (وإسماعيلُ رَبنا) على أساس أن المقطعين (عيل رَ) مقيسان على (فِعُل) فى مثل (ينزِعُ عَنهما) ، مع فارق هو طول الحركة فى المقيس . ولايقال : إن لام هذا القطاع جزء من مقطع مقفل هو فى الأول (رَبْ) ، وفى الثانى (عَنْ) ، لأننا نريد أن نحتفظ للقطاع بثلاثيته ، مجاراة لمقياس النحويين ، وهو أيضا ماراعوه فى قياسهم .

ويلاحظ أن هذا المقياس المقطعى منطبق على الأمثلة التى رويت ساكنة عن أبى عمرو وغيره من القراء ، وليس بعسيرتطبيقه على مثل «بارئكم» حيث تكون زنة القطاع « فِعِلْ » و «يأمركم» بزنة «فُعُلْ» ، و «يجمعكم» ، بزنة « فَعُلْ » ، و«يعلمهم » ، « بزنة فِعُلْ » ، إلى آخر تطبيقات هذا القياس .

---

(١) راجع (سر صناعة الإعراب) لابن جنى جـ ١ ص ١٩ ، ٢٦ ، ومابعدها وكتاب سيبويه جـ ٢ ص ٤٠٧

وخلاصة القول أن الداعى إلى إسكان لام الكلمة فى طائفة كبيرة مما يدغم هو (تتابع ثلاثة مقاطع مفتوحة من كلمتين ، فيجوز أن يسكن المقطع الثانى ، وهو دائما لام الكلمة الأولى) ، وهذا القول ينطبق فى رأينا على القطاعات بين كل كلمتين ، حين يكون القطاع مكونا من ثلاثة مقاطع مفتوحة ، على ماثبت من نصوص الشعر العربى — وهو ديوان العرب — ونرى أنه كان شائعا فى النثر العربى ، لولا قصور الروايات ، وعدم خضوع النثر لأوزان تحفظ معالمه ، كما نطق بها صاحبها ، فتكفلتْ الدراسات التى أجراها القدماء على الإدغام بحفظ جانب منها يدل على بقية جوانبها .

بيد أن هذه القاعدة لاتشمل طائفتين أخريين ورد النص بإسكانهما :
الأولى : مايكون الصوت المدغم فيها مسبوقا بصوت لين مثل : (حيثْ تؤمرون) و (إنه لقوْل رسول كريم) و (فلما جن عليه الليلْ رأى كوكبا) .
والثانية : مايكون الصوت المدغم فيها مسبوقا بصوت ساكن صحيح مثل (من بعْدْ ذلك) وَ (هذا من فضْلْ ربى) و (ذى العرْشْ سبيلا) . ولسوف نفرد لهاتين الطائفتين علاجا خاصا ، كجزء من المشكلة ، ولأنها فى رأينا ذات وضع خاص فى اختيار أبى عمرو .

أما الآن فنتساءل : ماالذى يترتب على القول بجواز حذف الحركة الإعرابية فى الفصيح ؟.. وهل يترتب عليه إخلال بالمعنى .. ؟ .. إن معنى ذلك أننا نقول بأن للحركة الإعرابية مدلولا فى الكلام ينتفى بانتفائها . ولقد تولى أبو على الفارسى بنفسه الرد على هذه الدعوى فنقضها ، وأبان عن فساد القول بها ، وضرب أمثلة لحركات حذفت وبقى معناها ، ثم قال : (ألا ترى تحريك العين بالكسر فى نحو ضُرِبَ يدل على معنى ، وقد جاز إسكانها ، فكذلك يجوز إسكان حركة الإعراب) [1]

وتولى أيضا أستاذنا الدكتور أنيس الرد على هذه الدعوى فقال : (لم تكن تلك الحركات الإعرابية تحدد المعانى فى أذهان العرب القدماء — كما يزعم النحاة ، بل

---

(١) سبق ذكر هذا النص فى هذا الفصل ...

لاتعدو أن تكون حركات يحتاج إليها فى الكثير من الأحيان لوصل الكلمات بعضها ببعض ، ويكفى أن نذكر أن اسم «إن» وأخواتها لايختلف فى معناه عن أى مسند إليه كالفاعل والمبتدأ وغيرهما ، وأن المسند إليه الحقيقى فى عبارتى التعجب :

ماأحسنَ محمدا ــ أحسِنْ بمحمد

قد انتهى بما لم نكن نتوقع من الحركات ، وأن بعض حالات النصب لاتكاد تختلف فى معناها عن بعض حالات الجر مثل : « قمت بهذا ابتغاء وجه الله ، قمت بهذا لابتغاء وجه الله » ، فلم كانت كلمة « ابتغاء » فى الأولى منصوبة وفى الثانية مجرورة ..؟؟.. ومثل « جاءنى من باع السمك ، جاءنى بائع السمك » لم كانت كلمة « السمكِ » فى الأولى منصوبة ، وفى الثانية مجرورة ..؟.. ومثل : « سهرت الليلةَ الماضية ، سهرت فى الليلةِ الماضية » ..) ثم يقول :

(بل يكفى أن نذكر أن سقوط هذه الحركات من أواخر الكلمات فى حالة الوقف لايغير من معنى العبارات ، ولا يشوه من الصيغ) .. ثم يقول فى خاتمة بحثه : (فليست حركات الإعراب فى رأيى عنصرا من عناصر البنية فى الكلمات ، وليست دلائل على المعانى كما يظن النحاة ، بل إن الأصل فى كل كلمة هو سكون آخرها ، سواء فى هذا مايسمى بالمبنى أو المعرب ، إذ يوقف على كليهما بالسكون ، وتبقى مع هذا ، أو رغم هذا واضحة الصيغة ، لم تفقد من معالمها شيئا)

ويستطرد الأستاذ فيقول : (أما الذى يحدد معانى الفاعلية والمفعولية ونحو ذلك مما عرض له أصحاب الإعراب فمرجعه أمران :

أولهما : نظام الجملة العربية والموضع الخاص لكل من هذه المعانى اللغوية فى الجملة .

ثانيهما : مايحيط بالكلام من ظروف وملابسات كالتى بحثناها قبل ، فالباحث فى نحو لغة من اللغات يعنى كل العناية بتراكيب الجمل ، وربط أجزائها بعضها ببعض ، ويحاول التعرف على مواضع الفعل منها ، ومواضع الفاعل والمفعول منها ، ثم

مواضع فضلات الكلام وغيرها من عناصر أساسية ، فإذا اهتدى لكل هذا فقد اهتدى إلى الكثير من أسرار اللغة) (١)

لقد وضحت إذن قيمة هذه الحركة الإعرابية ، ولم يعد لها الخطر الذى سيطر على الأذهان قرونا طويلة ، حتى انصرف الناس عن مراعاة التناسب فى أوضاع الجملة ، وعن محاولة إدارك المعنى المراد من هذا التناسب ، ومايحيط به من قرائن وملابسات ، إلى التشبث بملاحظة القواعد الشكلية التى لايحرص عليها جوهر اللغة ــ فى الحقيقة ــ هذا الحرص الشديد ، وظهر لنا أن ماسنه النحاة من قواعد شكلية إنما يخضع فى جوهره للنظام المقطعى الذى يجرى عليه الكلام العربى ، وأظن أننا لم ننس بعد ماكنا نحفظه صغارا ، فى اعراب الفعل (ضربْت) ،وأنه « مبنى على فتح مقدر على آخره منع من ظهوره اشتغال المحل بدفع كراهة توالى أربع متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة » ، فإذا كان توالى أربعة متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة مكروها ،حتى وجب إسكان ثالث هذه المتحركات ، وهو لام الفعل ، فإن توالى ثلاثة متحركات على الأقل فى وصل الكلام يجيز هذا الإسكان لأوسط الثلاثة ، وهو لام الكلمة أيضا ، ومما يؤيد مذهبنا هذا قول سيبويه فى الإدغام : (فأحسن مايكون الإدغام فى الحرفين المتحركينَ اللذين هما سواء إذا كانا منفصلين أن تتوالى خمسة أحرف متحركة بهما فصاعدا ، ألا ترى أن بنات الخمسة وماكانت عدته خمسة لاتتوالى حروفها استثقالا للمتحركات مع هذه العدة ، ولابد من ساكن ، وقد تتوالى الأربعة متحركة فى مثل عُلَبِطٍ ، ولايكون ذلك فى غيرالمحذوف (٢) ، ومما يدلك على أن الإدغام فيما ذكرت لك أحسن أنه لاتتوالى فى تأليف الشعر خمسة أحرف متحركة ، وذلك نحو قولك : جَعَلَ لَكَ ، وفَعَلَ لَبِيد ، والبيان فى كل هذا عربى جيد حجازى ،

---

(١) من أسرار اللغة ص ٢٢١ ، ٢٢٤ .

(٢) أصله علابط فلما حذفت الألف توالت أربع متحركات ــ القاموس المحيط جـ ٢ ص ٣٧٤ الطبعة الأولى .

ولم يكن هذا بمنزلة قدَّ واحمرَّ ونحو ذلك ، لان الحرف المنفصل لايلزمه أن يكون بعده الذى هو مثله سواء ،فإن كان قبل الحرف المتحرك الذى وقع بعده حرف مثله حرف متحرك ليس إلا ، وكان بعد الذى هو مثله حرف ساكن حَسُنَ الإدغام . وذلك نحو قولك : يد دَّاود ، لأنه قصد أن يقع المتحرك بين ساكنين ، واعتدال منه ، وكلما توالت الحركات أكثر كان الإدغام أحسن) (١)

وعلى الرغم من أن كل حرف فى هذا النص ثمين ، فإننا نقف أمام هذا النص الأخير ، ليحدثنا سيبويه : أن لام الكلمة إذا لقيت مثلها متحركا وسبقت بحرف متحرك ، يصبح عندنا ثلاث متحركات ، وفى مثل هذا يحسن الإدغام ، والإدغام هنا يعنى الإسكان لاغير ، وضرب لذلك مثلا «يد داود » فالدال الأولى لقيت دالا مثلها ،وسبقت بحرف متحرك فيكون لدينا مثال بزنة فَعُلَ = / يَدُدَ / الأمر الذى يحسن فيه إسكان الوسط وهو لام الكلمة الأولى . وإذا تصور سيبويه هذا الإسكان للإدغام ، فإنا نقول إنه كان على ألسنة غير الحجازيين إسكانا جاريا فى كل ماكان على مثال الثلاثى الذى أجاز سيبويه نفسه إسكان وسطه فى مثل فَخِذ وعضدُ وضُربِ وعلم ، وأثبتنا نحن جوازه فى كل ثلاثى . وحسبنا أن سيبويه قد قال : والبيان فى كل ذلك عربى جيد حجازى ، فمفهوم المخالفة ينسب الظاهرة إلى بيئتها ، تميم وماجاورها من قبائل وسط الجزيرة وشرقيها .

ومعنى هذا أننا نخالف سيبويه ومن تبعه فى جعله الإسكان فى الإدغام ناشئا عن تلاقى أصوات ذات صفات معينة ، ونذهب إلى أنه نظام مقطعى التزمته لهجات هذه القبائل ، وهو لايتنافى مع شروط الفصاحة ، فقد كان شائعا على ألسنة الفصحاء . كما جاز أن تقرأ به نصوص القرآن فى جملة قراءات مروية ، وفى مقدمتها قراءة أبى عمرو بن العلاء ، إمام اللغويين والنحاة والقراء .

---

(١) الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٧ .

الفصل الرابع

قضية الساكنين بين القراء والنحاة

١ ـــ قضية الساكنين بين القراء والنحاة

ذكرنا من قبل رأينا فى الأساس الذى قام عليه الإسكان فى أمثلة الإدغام حين يكون القطاع المنحوت مكونا من مقاطع ثلاثة مفتوحة ، وذكرنا أن هنالك طائفتين من أمثلة الإدغام لاينطبق عليهما هذا الأصل الذى استخرجناه من المناقشة وهما :

١ ـــ حين يسبق الصوت المدغم بساكن صحيح ، مثل : (من بعْدْ ذلك)

٢ ـــ حين يسبق الصوت المدغم بصوت لين، مثل : (إنه لقوْلْ رسول) .

وقد رويت اختيارات عن أبى عمرو فى قراءته تعتبر مفتاحا لمشكلة جديدة ، إلى جانب أن فيها تأييدا لموقفنا من المشكلة السابقة . والاختيارات هى :

« أنه قرأ : (إن الله نعمّا يعظكم به) فى رواية المغاربة قاطبة باختلاس كسرة العين فى «نِعِمّا» فرارا من الجمع بين الساكنين ، وروى عنه العراقيون والمشرقيون قاطبة الإسكان ، ولا يبالون من الجمع بين ساكنين [1] .

« وقرأ : (أمّن لايهَدِّى) باختلاس فتحة الهاء ، وتشديد الدال فى أغلب الروايات ، وفى رواية بإسكان حركة الهاء. كما روى هذا الإسكان عن قالون [2] .

« قرأ : (يخِصِّمون) باختلاس حركة الخاء وتشديد الصاد ، فى معظم الروايات ، وفى رواية بفتح الخاء مع التشديد ، وروى إسكان الخاء

---

(١) النشر جـ ٢ ص ٢٣٥ .

(٢) النشر جـ ٢ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ وقالون : هو عيسى بن مينا بن وردان ـــ مولى بنى زهرة ـــ ربيب نافع ابن أبى نعيم ـــ ولد سنة عشرين ومائة ، وقد أخذ عن نافع قراءته وقراءة أبى جعفر ، وتوفى سنة عشرين ومائتين (طبقات القراء جـ ١ ص ٦١٦) .

وتشديد الصاد فى قراءة أبى جعفر [١] . أى بالجمع بين ساكنين .

وقرأ : (شهر رمضان ــ الشمس سراجا ــ العفو وأمر ــ من بعد ذلك ــ من بعد ضعف ــ إلى ذى العرش سبيلا) بالإدغام الكامل دون اختلاس ، وهو الثابت عند قدماء الأئمة من أهل الأداء ، والنصوص مجتمعة عليه ، وروى أيضا بالاختلاس ، وقد ذكر ابن الجزرى ان الخلاف فى ذلك هو نفس الخلاف فى « نعما »

أى : إن الإسكان هو قراءة العراقيين والمشرقيين قاطبة ، والاختلاس قراءة المغاربة [٢] .

وحقيقة المشكلة التى تثيرها هذه الأمثلة هى أن المثال الأول قد قرىء على وجه يجتمع فيه ساكنان (العين الساكنة والميم الأولى الساكنة أيضا) ، أو بالتعبير الحديث : يتجاور فيه ثلاثة صوامت دون حركة بينها ، وأن المثال الثانى إذا قرىء بإسكان الهاء يجتمع فيه ساكنان ، لسكون الدال الأولى أيضا ، وأن المثال الثالث على قراءة الإسكان يجمع إلى سكون الخاء سكون الصاد الأولى . وأما أمثلة الإدغام فقد سبق فيها الصوت المدغم الساكن بساكن صحيح ، فالتقى ساكنان .

وهناك قراءة أخرى تشترك مع هذه الراويات فى إثارة المشكلة ، وهى قراءة البزى [٣] لما عرف فى الفن باسم (تاءات البزى) ، ومن أمثلتها : ــ

إذْ تَّلقونه بألسنتكم ــ هل أنبئكم على منْ تَّنزل الشياطين .

ناراً تَّلظى ــ خير من ألف شهرٍ تَّنزل

---

(١) النشر جـ ٢ ص ٣٥٤ . ويلاحظ كما أسلفنا فى ترجمة أبى جعفر بين القراء العشرة أن مصادر قراءته كانوا جميعا من قريش ، وهم عبد الله بن عياش ، وأبو هريرة ، وعبد الله بن عباس . (طبقات القراء جـ ٣ ص ٣٨٢) .

(٢) النشر جـ ١ ص ٢٩٩ ، و جـ ٢ ص ٢٣٥ .

(٣) البزى هو أحمد بن محمد الإمام أبو الحسن البزى المكى ، ــ أصله فارسى ــ وهو مقرىء مكة ، ومؤذن المسجد الحرام ، ولد سنة سبعين ومائة ــ أستاذ محقق ضابط متقن ــ وتوفى سنة خمسين ومائتين عن ثمانين سنة . (طبقات القرار حـ ١ ص ١١٩) .

والملحوظ فى هذه القراءة أنها جمعت بين ساكنين فى هذه الآيات ، حين جعلت الفعل مبدوءا بتاءين أولاهما ساكنة ، مسبوقة بساكن ، هو فى المثال الأول ــ (الذال) ، وفى الثانى (النون) ، وفى الأخيرين (النون الناشئة عن التنوين) ، وأصل الفعل (تتلقونه ــ تتنزل ــ تتلظى) وقد صحت هذه القراءة رواية وأداء ولغة على ماسنفصله فى موضعه ، إن شاء الله .

أثارت هذه القراءات جميعا مشكلة كبيرة بين القراء والنحاة ، على غرار المشكلة السابقة ، وكانت حجة كل فريق فيها قائمة على المنطق الذى تمسك به فيما سبق .

وتبدأ المعركة بينهما ابتداء من سيبويه ، فهو يقرر تبعا لأصول مدرسته البصرية أن التقاء الساكنين فى درج الكلام ماكان ليكون فى النطق العربى (١) ، والذى يعنينا هو أنه حين تعرض لهذه المسألة فى باب الإدغام قال : (وإذا كان قبل الحرف المتحرك الذى بعده حرف مثله سواء «حرف» ساكن لم يجز أن يسكن ، ولكنك إن شئت أخفيت وكان بزنته متحركا) (٢) ، ومعنى ذلك : أنه إذا سبق الصوت المدغم بساكن صحيح لم يجز أن يسكن المدغم ــ يعنى لم يكن محل للإدغام ــ وإنما يجوز أن يخفى المتكلم الحركة على الاختلاس .

وهذا الأصل الذى قرره سيبويه هو القياس الذى سار عليه النحويون فى مناقشتهم للقراءات السابقة التى يجتمع فيها ساكنان منطوقان على مذهب القراء .

ولم يفت سيبويه أن يتعرض لقراءتين من القراءات السابقة بالمناقشة ، ولكنه اختارهما وناقشهما على الوجه الذى يتفق وقاعدته ، فقال فى قراءة بعضهم :

(إن الله نِعِما يعظكم به) إنه حرك العين على لغة من قال (نِعِم)فحرك العين ، لا على لغة من قال (نعْم) فأسكنها ، ثم يقول : وحدثنا أبو الخطاب أنها لغة هذيل ، وكسروا كما قالوا :لِعِب ، وقال طرفة :

ماأقلت قدم ناعلها ... نِعِم الساعون فى الحى الشطُرْ (٣)

---

(١) الكتاب جـ ٢ صفحات ٢٥٨ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨٣ وغيرها على الترتيب .

(٢) الكتاب جـ ٢ ص ٤٠٧ .

(٣) المرجع السابق .

وهو هنا يناقش قراءة التحريك ، فأما قراءة الإسكان فلم يناقشها ، لأنه سبق أن قرر الأصل الذى ينطبق عليها وعلى غيرها ، وهو أنه لايجيز فى مثلها غير الاختلاس .

ويأتينا أيضا بمثال آخر من تاءات البزى فيقول : «وأما قوله عز وجل : (فلا تتناجوا) فإن شئت أسكنت الأول للمد ، وإن شئت أخفيت وكان بزنته متحركا ، وزعموا أن أهل مكة لايبينون التاءين » (١)

فهو هنا يمنحنا رخصة النطق بالتاء ساكنة من أجل المد ، أو أن ننطق بالتاءين مخفاتين ، على طريقة أهل مكة (كما زعموا) . وواضح أنه لم يناقش مثالا مما يلتقى فيه الساكنان على الصورة المحظورة عنده مثل : (فإن تولوا) ، لأن قاعدته السابقة تنطبق على هذه الطائفة من الأمثلة ، ويوضح هذا قول أبى سعيد السيرافى : « وأما ما كان قبله ساكن من غير حروف المد ، كقوله عز وجل (فإن تولوا فإنى أخاف عليكم – إذ تلقونه بألسنتكم) ، فسيبويه ومن اتبعه لايجيزون إسكان هذه التاء » (٢) .

ولم يجز سيبويه أن يجتمع ساكنان وينطق بهما كما هما إلا فى حالتين :

١ ــ حالة الوقف نحو : بكْرْ وعمْرْو . وهى فى أواخر الكلمات لامحالة .

٢ ــ وحين يكون الساكن الثانى مدغما مسبوقا بحرف مد مثل : دابة وشابة ، وظاهر أن هذه الحالة تقع فى حشو الكلام .

ثم وجدنا لدى النحاة بعد سيبويه إجازة لحالة أخرى يجتمع فيها ساكنان فى الحشو . وذلك حين يكون الساكن الأول حرف لين نحو : خويْصَّة (تصغير خاصة) (٣) ، واعتدوا ذلك شبيها بمثال دابة وشابة ، وليس الفرق بينهما سوى أن الساكن الأول فى أحدهما حركة طويلة ، وهو فى الثانى صوت لين مركب .

وكانت الحجة التى ساقها النحويون ذريعة لاجتماع الساكنين فى الوقف هى أن

---

(١) المرجع السابق .
(٢) شرح كتاب سيبويه ــ لأبى سعيد السيرافى .
(٣) المفصل جـ ٩ ص ١٢٠ ومابعدها .

(الوقف سد مسد الحركة ، لأن الوقف على الحرف يمكّن جرس ذلك الحرف ويوفر الصوت عليه ، فيصير توفير الصوت بمنزلة الحركة له ، ألا ترى أنك إذا قلت « عمرو » ووقفت عليه وجدت للراء من التكرر وتوفير الصوت ماليس لها إذا وصلتها بغيره ، وذلك أن تحريك الحرف يقلقله قبل التمام ، ويجتذبه إلى جرس الحرف الذى منه حركته ، ويؤيد عندك ذلك أن حروف القلقلة وهى القاف والجيم والطاء والباء والدال لاتستطيع [1] الوقوف عليها إلا بصوت ، وذلك لشدة الحفل والضغط ، وذلك نحو : الحق واذهب واخلط واخرج ،ونحو الزاى والذال والظاء والصاد ، فبعض العرب أشد تصويتا ، فجميع هذه لاتستطيع الوقوف عليها إلا بصوت ، فمتى أدرجتها وحركتها زال ذلك الصوت ، لأن أخذك فى صوت آخر ، وحرف سوى المذكور يشغلك عن إتباع الحرف الأول صوتا . فبان لك مما ذكرته أن الحرف الموقوف عليه أتم صوتا ، وأقوى جرسا من المتحرك ، فسد ذلك مسد الحركة ، فجاز اجتماعه مع ساكنين قبله) [2] .

وقد أردت أن أذكر هذا النص بكامله هنا ليبين لنا إلى أى حد تمسك النحاة بوجود الحركة بازاء الساكن ، حتى ليعللون لجواز اجتماع الساكنين فى الوقف بأن الوقف ساد مسد الحركة من أجل توفير الصوت ، وشدة الحفل والضغط ، حتى لكأن الواقف يريد أن ينطق بالحركة هربا من التقاء الساكنين ، أيضا فى حالة الوقف !!! ..

وكانت حجتهم لجواز اجتماع الساكنين فى مثل (دابّة وخويْصّة) هى (أن المد الذى فى حروف المد يقوم مقام الحركة ، والساكن إذا كان مدغما يجرى مجرى المتحرك ، لأن اللسان يرتفع بهما رفعة واحدة ، فلذلك لايجوز اجتماع ساكنين إلا على الشرط المذكور) [3] .

ولايخفى هنا أن اعتبارهم حرف المد ساكنا اعتبار خاطىء ، لأن حرف المد

---

(١) فى المطبوع (لايستطيع) .
(٢) المفصل جـ ٩ ص ١٢٠ ، ١٢١ .
(٣) المفصل جـ ٩ ص ١٢٢ .

ليس سوى حركة طويلة ، ففى مثل (دابة) لم يلتق ساكنان فى الحقيقة ،وإنما هما باءان متواليتان ، إحداهما ساكنة والأخرى متحركة ، وهما مسبوقتان بحركة طويلة هى الألف . بيد أن قولهم : إن المد الذى فى حرف المد قائم مقام الحركة يدل أيضا على شدة حرصهم على عدم التقاء ساكنين إلا مع هذه المسوغات النحوية .

فإذا التقى ساكنان فى غير هاتين الحالتين لم يمكن ذلك (من قبل أن الحرف الساكن كالموقوف عليه ، ومابعده كالمبدوء به ، ومحال الإبتداء بساكن ، فلذلك امتنع التقاؤهما فى الدرج)(١) .

ولاأدرى كيف يشبه الساكن الأول فى مثل (نعْما) بالموقوف عليه ، رغم أنه لايصح الوقف عليه ، لانه ليس بنهاية كلمة ، بل هو جزء من بنيتها ، وقد سبق أنهم قاسوا إسكان اللام على إسكان العين فى مثل (كبد) ، فكأنهم هنا قلبوا التشبيه ، حين زعموا أن إسكان العين شبيه بإسكان اللام فى الوقف . يضاف إلى ذلك أن المتكلم لايمكن أن تراوده رغبة الوقوف على العين من (نعما) حتى يتجشم بعد ذلك صعوبة البدء بالميم الساكنة ، وهو أمر شاق جدا على اللسان العربى ، بل غير جائز فى قوانين هذا اللسان .

من أجل هذه الأسباب رأى النحاة أن النطق بالساكنين فى مثل (نعما) محظور ، وأنه لايمكن أن يتأتى إلا على الإخفاء والاختلاس ، وقالوا فى قراءة أبى عمرو (لبعض شأنهم) : (الحق أن ذلك إخفاء واختلاس للحركة فظنها الراوى إدغاما) (٢).

وهذا يذكرنا بما سبق أن واجه به النحويون القراء فى قضية الإسكان ، حيث اتهموهم بعدم الدراية ، وقلة الضبط . وقد رأينا أن المعركة فى كلتا القضيتين واحدة ، بدأت من لدن سيبويه ، وسار بقية نحاة المدرسة البصرية على إثره . أما نحاة الكوفة فقد كانوا يجيزون اجتماع الساكنين فى مثل هذه المواضع (٣) ، متمسكين فى ذلك

---

(١) المفصل جـ ٩ ص ١٢٠ .

(٢) المفصل جـ ١٠ ص ١٤٠ .

(٣) القراءات واللهجات ص ١٧٦ .

برواية القراء ، وبالسماع من العرب ، يقول السيرافى : (وزعم اليزيدى أنه (أبوعمرو) كان يدغم « ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها » .. وقد جمع بين ساكنين وليس فيه إشمام ، لأنه نصب ، وسيبويه لايرى ذلك للجمع بين ساكنين ، والفراء يجيز ذلك) (١)

وقد رأى القراء أن النحاة فى موقفهم هذا متجنون ، وأنهم يقفون فى وجه الروايات الموثقة ، ويجرحون رجالا أثباتا ثقات ، عدولا ضابطين ، فكان منهم ومن نحاة الكوفة جماعة قوية تسندها قراءة أبى عمرو وغيره من القراء الآخذين عن قرأة قريش بالإسكان فيما روى من المواضع ، كما يقويها السماع عن العرب ، ويسندها أولا وآخرا أن النطق بالساكنين فى مثل هذه المواضع هو قراءة النبى ﷺ .

يقول ابن الجزرى : (واختلفوا فى «نعما» هنا والنساء .. عن أبى عمرو وقالون وأبى بكر ، فروى عنهم المغاربة قاطبة إخفاء كسرة العين ليس إلا ، يريدون الاختلاس فرارا من الجمع بين الساكنين ، وروى عنهم العراقيون والمشرقيون قاطبة الإسكان ،ولا يبالون من الجمع بين الساكنين ، لصحته رواية ،وروده لغة ، وقد اختاره الإمام أبو عبيدة أحد أئمة اللغة ، وناهيك به ، وقال : هو لغة النبى ﷺ فيما يروى : « نعْمّا المال الصالح للرجل الصالح » . وحكى النحويون الكوفيون سماعا من العرب شهر رمضان» مدغما) (٢) .

ولا حاجة بنا إلى الإشارة إلى أن القراء المغاربة معذورون فى اتباع نظر سيبويه فى هذه المسألة ، لأنهم كانوا بعيدين عن مشافهة الأعراب ، وأغلبهم كان من غيرالعرب ، فلم يجدوا إلا أن يأخذوا بالقياس فيما غامت عليهم حقيقته ، فأما العراقيون والمشارقة من القراء فقد شافهوا الأعراب ، وسمعوا منهم ماأكد لهم رواية الإسكان ، فكان أن تمسكوا بها وأعرضوا عن كلام نحاة البصرة ومقاييسهم .

وقد نقل كتاب «القراءات واللهجات » بعض النصوص التى هاجم فيها القراء

---

(١) شرح كتاب سيبويه للسيرافى « فصل فى إدغام القراء .. »

(٢) النشر جـ ٢ ص ٣٣٥ .

النحاة ، منها فيما يتعلق بتاءات البزى :(قال أبو حيان : وقراءة البزى ثابتة تلقتها الأمة بالقبول ، وليس العلم محصورا ولا مقصورا عل مانقله وقاله البصريون ، فلا تنظر لقولهم : إن هذا لايجوز) [١] . ومنها : (قرأ أبو عمرو بإدغام راء « شهر » فى راء «رمضان» ، وكذا يعقوب ، قال ابن عطية : وذلك لاتقتضيه الأصول لاجتماع الساكنين فيه ، يعني بالأصول : أصول ماقرره أكثر البصريين ، لأن ماقبل الراء فى « شهر » حرف صحيح ساكن ، فلو كان فى حرف علة لجاز بإجماع منهم . قال أبو حيان : ولم تقصر لغة العرب على مانقله أكثر البصريين ولاعلى مااختاروه ، بل إذا صح النقل وجب المصير إليه . وقال صاحب إتحاف فضلاء البشر : « ولا يلتفت إلى من استضعف الإدغام من حيث اجتماع الساكنين على غير حدهما) [٢] .

وهكذا يضح لنا أن القراء لم يكونوا وحدهم يواجهون النحاة فى معركة التقاء الساكنين ، وأن النحاة لم يكونوا جميعا على رأى واحد ، بل كان فريق منهم كبير فى جانب القراء ، هم نحاة الكوفة ، وإمامهم فى ذلك الفراء .

ولعل من المناسب أن نذكر هنا كلام أحد النحاة المتأخرين ، وقد حاول أن يكون منصفا فى الحكم بين الفريقين ، قال الصبان فى حاشيته على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك ، حين قال الأشمونى : (وشرط الإدغام ألا يكون الحرف الذى قبل المدغمين ساكنا غير لين نحو « شهر رمضان »)

قال : (لما يلزم عليه من اجتماع الساكنين على غير حده وصلا ، ومقابل جمهورهم أبو عمرو ، وهو رأس فى البصريين) ، وحين قال الأشمونى : (وتأولوه (إسكانه) على إخفاء الحركة) ، قال : (أى : فيكون تسميته إدغاما لقربه منه ، ومقتضاه أن أباعمرو لايقرأ بالإدغام المحض ، وليس كذلك ، بل يقرأ به كما نقله شيخنا وغيره ، وقد نقل ابن الحاجب هذا التأويل عن الشاطبى ، وأنه جمع به بين منع

---

(١) القراءات واللهجات ص ١٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤١ .

النحاة هذا الإدغام وتجويز القراء له » ، ثم رده بأن القراء لايمتنعون عن الإدغام المحض ، بل كان الشاطبى نفسه يقرأ به ، فلا يصح الجمع بذلك .
ثم قال : والأوْلى الأخذ بقول القراء ، إذ ليس قول النحاة حجة إلا عند إجماعهم ، ولم يجمعوا على المنع ، ولأنهم ناقلون عمن ثبتت عصمته عن الغلط فى مثله ، وهو رسول الله ﷺ ، ولثبوت القرآن تواترا ، ومانقلته النحاة آحاد ، ولو سلم أن مثل ذلك ليس بمتواتر فالقراء أعدل وأكثر) (١) .

وهذا هو رأينا نحن من حيث المبدأ ، فنحن نقول مع صاحب القراءات واللهجات :
« ليختلف الكوفيون والبصريون ماشاء لهم الاختلاف ، ولكن لايصح الحكم على قراءة بالشذوذ مع صحة سندها وموافقتها لرسم مصحف من المصاحف العثمانية لمجرد عدم موافقة البصريين للكوفيين فى هذا التقدير أو ذاك ، أو لمخالفة تخريج الكوفيين لمذهب البصريين ، بل الواجب أن يصحح الكوفيون والبصريون قواعدهم ، وأن يجعلوها مرنة بحيث تقبل القراءات ، وعليهم أن يتخذوا من القراءات الصحيحة شاهدا على تعديل قواعدهم وتصحيحها ، وهم يعلمون أن أبا عمرو بن العلاء يقول : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » ، وقال أبو الفتح ابن جنى فى الخصائص : « لانقطع على الفصيح يسمع منه مايخالف الجمهور بالخطأ ماوجد طريق إلى تقبل مايورده ») (٢) .

هذا عرض مفصل لعناصر المشكلة بين النحاة والقراء ، فماموقفنا منها ؟! ...

نحب أولا أن نقف مع القراء وقفة متأملة ، نناقش فيها نهجهم فى علاج الموضوع . فقد وضعوا قاعدة عامة تقرر جواز إدغام ماسبق بحرف ساكن صحيح ، وذكروا (أن ذلك هو الثابت عند قدماء الأئمة من أهل الأداء ، وأن النصوص مجتمعة

---

(١) الأشمونى جـ ٤ ص ٢٢٦ طبعة المطبعة الميمنية .
(٢) القراءات واللهجات ص ١٣٩ .

عليه) [١] ، وكان مقتضى هذا أن يجوز إدغام كل ماجاء على هذه الصورة . ولكنا وجدناهم يضعون بإزاء بعض الحروف شروطا خاصة بها جاءت على التصنيف التالى :

أ ـــ مجموعة من الأصوات اشترط فى إدغامها ألا يسبق الصوت المدغم بساكن : وهى : أ ـــ القاف [٢] حين تلقى الكاف ، فلا يدغم نحو « وفوق كل ذى علم عليم » بسكون الواو قبل القاف . فأما حين تدغم فى مثلها فلا شرط ، ولذا جاز إدغام (والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا)[٣] .ويلاحظ أن إدغام المثلين لايعنى سوى إسكان الصوت الأول على ماأسلفنا .

ب ـــ الكاف حين تلقى القاف ، فلا يدغم نحو« تركوك قائما ـــ إليك قال ـــ يحزنك قولهم » ، وأما حين تدغم فى مثلها فلا شرط نحو (إليك كما) .

جـ ـــ الميم عند الباء ، فلا يدغم نحو : « الشهر الحرام بالشهر الحرام ـــ اليوم بجالوت » ، ولاشرط حين تدغم فى مثلها نحو (الرحيم ملك ـــ إنى وهن العظم منى) .

د ـــ النون حين تلقى اللام ، أو الراء فلا يدغم نحو : « بإذن ربهم ـــ أرضعن لكم » [٤] إلا كلمة (نحن) مثل « نحن له مسلمون » ، ولا شرط حين تدغم فى مثلها نحو (الأنثيين نبئونى) .

٢ ـــ مجموعة من الأصوات اشترط فيها ألا يكون الصوت المدغم مفتوحا بعد ساكن . وقد جاءت على التصنيف التالى :

أ ـــ الدال حين تلقى مقاربها ماخلا التاء ، فلا يدغم نحو : « بعدَ ذلك ـــ وآتينا داودَ زبورا ـــ بعدَ ظلمه ـــ بعد ضراء » ويدغم نحو : « تكادُ تميز » [٥] .

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٩٩ .
(٢) النشر جـ ١ ص ٢٩٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٨٢ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٩٤ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٩١ .

ب ـــ الراء حين تلقى اللام ، فلا يدغم نحو : « وافعلوا الخيرَ لعلكم تفلحون » « الحميرَ لتركبوها » «البحر لتأكلوا » إلا فى رواية (١) .

جـ ـــ السين حين تلقى الشين ، فلا يدغم نحو : « إن الله لايظلم الناسَ شيئا » (٢) .

د ـــ الضاد حين تلقى الشين ، فلا يدغم نحو : « ثم شققنا الأرضَ شقا » إلا فى رواية (٣) .

هـ ـــ اللام حين تلقى الراء ، فلا يدغم نحو : «فعصوا رسولَ ربهم » إلا فى كلمة (قال) فإنها تدغم لكثرة ورودها (٤) ، على أنه يلحق بهذه المجموعة أمثلة مختلف فيها ، وردت فى إدغام التاء فى بعض مايقاربها ، وقيل فى عدم جواز إدغامها « لخفة الفتحة بعد السكون » مثل « وأقم الصلاة طرفى ـــ وآتوا الزكاة ثم » .

٣ ـــ مجموعة لم تقرن فى كتب القراءات بأى شرط ، فأدغم كل ماورد من صورها ، وهذه داخلة فى حدود الخلاف العام حول جواز إدغامها للرواية ، أو منعه لالتقاء الساكنين ، ومن ذلك : (شهر رمضان ـــ البقرة آ ١٨٥ ، كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ـــ مريم آ ٢٩ ، لهم فيها دار الخلد جزاء ، فصلت آ ٢٨ ، لقد جئت شيئا فريا ـــ مريم آ ٢٧ ، يكتبون الكتاب بأيديهم ـــ البقرة آ ٧٩ ، والعذاب بالمغفرة ـــ البقرة آ ١٧٥ ، سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما ـــ آل عمران آ ١٥١ ، إن الصلاة تنتهى ـــ العنكبوت آ ٤٥ ، فأنساه الشيطان ذكر ربه ـــ يوسف آ ٤٢ ، واترك البحر رهوا ـــ الدخان آ ٢٤ ، وترى الناس سكارى ـــ الحج آ ٢ ، وجعل الشمس سراجا ـــ نوح آ ١٦ ، كيف فعلنا بهم ـــ إبراهيم آ ٤٥ ، لاكيل لكم

(١) المرجع السابق ص ٢٩٢
(٢) المرجع السابق
(٣) المرجع السابق ص ٢٩٣
(٤) المرجع السابق ص ٢٩٤

عندى ــ يوسف آ ٦٠ ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ــ البقرة آ ١٢٥ ، يعرفون نعمة الله – النحل آ ٨٣) .

وقد سبق أن ناقشنا قضية إدغام المفتوح بعد ساكن فى مبحث (المقارنة بين النحاة والقراء) ، ولكن لابأس من أن نعرض له هنا بالتعليق حيث وردت منه أمثلة تدخل فى نطاق هذا البحث ، فمثل هذه المحافظة على الفتحة تذكرنا بمذهب النحاة فى حرصهم عليها ، وقاعدتهم التى تقول بعدم إسكان عين الكلمة المفتوحة ، ولعلنا لم ننس بعد كيف انتقضت قاعدتهم هناك بما قمنا به من دراسة صوتية ونصية ومقطعية .

ونحن هنا نتساءل : لماذا امتنع إدغام المفتوح بعد ساكن فى بعض مارود منه دون بعض ، وفى الأصوات المتقاربة وحدها دون أن يمنع ذلك فى المثلين ..؟ ومن المعلوم أن الصوتين المتقاربين لايتم إدغامهما إلا بعد أن يصبحا مثلين ، فالصورة فى كلا المتقارب والمتماثل بعد الإسكان واحدة !! .. لاشك أن هذا يجعلنا ننفى أن يكون القراء قد قالوا بهذه القاعدة بناء على رأى فى الأصوات ، ونرجح أن يكونوا متأثرين بمذهب النحاة ، ثم حاولوا أن يغلفوا تأثرهم هذا بعلل صوتية كخفة الفتحة ، على التفصيلات التى سبقت .

كما لايفوتنا أن نشير إلى نقطة قال بها القراء ، ربما لتأثرهم بنظرة النحاة ، وهى أنهم يعتبرون حروف المد سواكن ، فجعلوا المفتوح بعد ساكن مشتملا على ماكان الساكن فيه حرف مد أو غيره ، ولايخفى أن هذا النوع من الأمثلة لايدخل فى المجموعة التى نعالجها ، وهى : ماسبق فيها الصوتان المدغمان بساكن صحيح ،فهى أساس مشكلتنا فى هذا الباب .

وبهذا يتضح لنا أن محاولة القراء وضع قاعدة تنتظم بضعة أمثلة محاولة غير موفقة ، وقد كان بحسبهم أن يقولوا بصدد الأمثلة المدغمة أو غيرها : إن ذلك قد حدث بمقتضى الرواية ، التى هى سندهم الأكبر ، وأن ينصرفوا عن هذه التعليلات

النحوية التى لاتحل مشكلة ، ولاترد حيرة ، ولكنهم حاولوا التعليل فأوقعهم فى كثير من العلل .

ومثل هذا يقال فى المجموعة الأولى التى اشترط فيها ألا يسبق الصوت المدغم بساكن ، فقد كان من الممكن أن يقال : إن الرواية لم تأت بإدغام هذه الأمثلة المفردة ، وهى لاتتجاوز عدد أصابع اليدين ، وبخاصة إذا وجدنا أن الأمثلة من المثلين فى نفس الحروف مدغمة ، رغم أن الساكن الأول فى بعضها صحيح لامعتل مثل : (من الرزق قل ـــ وهن العظم منى) ، ولكنهم أَبَوْا إلا النص على هذا الشرط الذى لم يجنبنا زللا كبيرا .

ولنا أيضا ملاحظة على اختلافهم فى إدغام « جئت شيئا فريا » ، وحجة الذين اختاروا الإدغام (قوة الكسرة) [1] ، وهى علة تلحق فى نظرنا بأختها (خفة الفتحة) ، لأن المهم أن الرواية جاءت بإدغام هذا الذى تجاورت فيه ثلاثة صوامت ، ولاعبرة بحركة الصوت المدغم لأنها محذوفة لاتؤثر فى تشكيل النطق .

فإذا علمنا أن النحاة قد أجازوا ماجاء من الساكنين مسبوقا بحرف مد أولين مثل دابّة وخويْصّة ، ثم نظرنا إلى غالب هذه الأمثلة الممنوعة لوجدناها على صورة ماأجاز النحاة اجتماع الساكنين فيه ، فالساكن السابق على المدغمين حرف مد فى : (وتركوك قائما ـــ الشهر الحرام بالشهر الحرام) ، وهو حرف لين فى (وفوق كل ذى علم عليم ـــ إليك قال ـــ اليوم بجالوت) ـــ إذا علمنا ذلك أدركنا أن الأمر لدى القراء ليس محتاجا لقاعدة ، وإلا لأغنتهم قاعدة النحويين ، ولكنه قائم على الرواية التى تعد بالنسبة لقراءة القرآن الحجة الأولى والأخيرة .

وأهم مايلقى الضوء على اضطراب محاولة القراء إدخال التعليل على روايات الإدغام أن نجد مثالا كقوله تعالى (لبعض شأنهم) يجوز فيه الإدغام والإظهار من طريق الرواية ، فإذا ورد قوله تعالى (من السموات والأرض شيئا) أجمعوا على إظهاره ،

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٨٨ .

وقالوا : « إنه لافرق بينهما إلا الجمع بين اللغتين ، مع الإعلام بأن القراءة ليست بالقياس دون الأثر » ، ثم يلتمس ابن الجزرى سبيلا إلى التعليل فيقول « الفرق أن الإدغام لما كان القارىء يحتاج إلى التحفظ فى التلفظ به اجتنب بعد الراء المحتاج إلى التحفظ فى التلفظ بها من ظهور تكرارها » ، وإذا ورد عليهم قوله تعالى : (ثم شققنا الأرض شقا) جعلوا إظهاره لخفة الفتحة بعد السكون ، وهناك رواية بإدغامه من طريق السوسى [(١)] ، فإذا قارنا تعليلهم لعدم إدغام (والأرض شيئا) المجمع عليه بتعليلهم عدم إدغام (الأرض شقا) المختلف فيه ــ تملكنا العجب وخامرنا الشك فى نقصان الرواية أحيانا ، فمن الممكن أن يكون أصحاب الإدغام قد أدغموا المثالين ، ولكن الرواية لم تأت إلا بواحد فحسب ،ذلك لأننا لانجد أدنى فرق صوتى بين هذين المثالين ، وقد كان مما يتفق مع منطق القراء أن ترد الرواية بإدغام المكسور دون المفتوح ، (لقوة الكسرة) كما قالوا ، ولكن حدوث العكس يعطينا فكرة عن بعض الخلط الذى تورط فيه القراء .

★ ★ ★

وعود إلى المعركة بين النحاة والقراء لنقول : إنها تقتضى منا أن نعالج المشكلة فى احتماليها وهما :

١ ــ احتمال التقاء السواكن فى النطق العربى .

٢ ــ احتمال عدم جواز التقائها فيكون الأمر على الاختلاس .

وقبل أن نشرع فى مناقشة هذين الاحتمالين نرى لزاما علينا أن نبحث عن البيئة التى تمت إليها هذه الظاهرة ، أعنى ظاهرة الجمع بين ثلاثة صوامت متجاورة فى النطق ، أو مايشبه ذلك من الإخفاء حين تتوالى هذه الصوامت على نظام معين .

لقد كان من الممكن أن ننسب هذه الظاهرة لقبيلة تميم ، كما فعلنا فى سابقتها ، لاسيما أن بين الظاهرتين صفة مشتركة هى إسكان اللام فى كلتيهما .

---

(١) النشر جـ ١ ص ٣٩٣ .

ولكن روايات صادفناها عن تميم أوحت الينا ابتعاد هذه الظاهرة عن لهجتها ، فمن ذلك ماسبق أن ذكرناه نقلا عن السيوطى من أن (تميما تقول : عَبَشَّمس بفتح الباء فى عبد شمس) [١] ، ومنه ماذكره سيبويه من أنه « سمع من تميم وأسد مايدل على أنهم يلقون على الساكن الذى قبل الهمزة حركة الهمزة (أى فى الكلمة المختومة بهمزة) فيقولون فى الخبء : الخَبُؤ والخَبَأ والخَبِىء» [٢] وقال فى موضع آخر : (هذا باب الساكن الذى يكون قبل آخر الحروف فيحرك لكراهيتهم التقاء ساكنين) .. وذلك قول بعض العرب هذا بَكُرْ ومن بَكِرْ ،ولم يقولوا : رأيت البَكَرْ ، لأنه فى موضع التنوين ... ومن ذلك قول الراجز (بعض السعديين) :

أنا ابن ماوية إذ جد النقُرْ [٣]

وقد ذهب استاذنا الدكتور أنيس إلى نسبة هذا الوقف الأخير إلى تميم أيضا ، حيث ذكر أنه روى عن أبى عمرو — وهو من تميم — قراءته « وتواصوا بالصبِرْ — بكسر الباء [٤] .

ومما يزكى هذه النسبة تشابه الأمر فى كلتا الحالين ، من حيث الوقف بالنقل ، وإن كان النقل فى الأول فى جميع الحركات ، وهو فى الثانى فى حالتى الضم والكسر دون الفتح .

ونرى أنه لافرق بين نوعى الوقف المذكورين ، إلا فى حالة عدم النقل مع الفتحة فى غير المهموز ، فقد يكون حدوث النقل مع المهموز لثقل الهمزة فى كل حال ، أى : مفتوحة أو مكسورة أو مضمومة .

إلا أن مانفيده من هاتين الروايتين هو أن تميما فى وقفها تنفر من التقاء ساكنين ، هربامن صعوبة النطق بهما ، فكان أن تخلصت بتحريك ماقبل الآخر ،

---

(١) المزهر جـ ٢ ص ٢٨٠ .

(٢) الكتاب جـ ٢ ص ٢٨٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٨٤ .

(٤) فى اللهجات العربية ص ٢١٨ الطبعة الثانية .

حين يقتضى الأمر النطق بساكنين فى لهجات أخرى كلهجة قريش . ولدينا فى بلادنا حالة شبيهة بهذه ، فنحن فى عامية القاهرة نسمى القطار (الأطْرْ) ، ويسميه أهل الصعيد (الجَطِرْ) ، وهم يسمون (السطِلْ) وننطقها نحن (السطْلْ) ، ويقولون (الطبِلْ) ونقول نحن (الطبْلْ) . كما نجد لدى السودانيين مثل هذا الاتجاه حين ينطقون كلمة « بكْرْ » هكذا : (بكِرْ) .

ولاشك أن لهجة القاهرة تعد أكثر حضارة من لهجة الصعيد أو السودان ، حيث مازال الناس على بداوتهم . ولقد كان من بين ماأخذنا به من قبل أن قبيلة تميم تمثل البيئة البدوية فى المجتمع العربى ، بيئة السرعة فى النطق ، على حين تمثل قريش البيئة الحضرية ، بيئة التأنى وتحقيق الأصوات ، وليس بمستغرب من تميم أن تهرب من التقاء الساكنين فى أواخر الكلمات ، لأن النطق بها يتنافى وماعرف عن لهجتها من صفات الخفة والانسجام ، كما أنه ليس بمستغرب منها أن تحرك الباء فى(عَبَشمس) تخلصا من صعوبة النطق بساكنين حالة الإدغام ، على حين تجرى اللهجة القرشية على أدائها فى الوقف والإدغام أداء كاملا .

وليس بمعقول أن يؤثر عن تميم تخلصها من الساكنين فى الوقف ، ثم نتصور أنها تنطق بهما فى وصل الكلام ، على حين يصعب النطق بهما فى حالة الوصل دون الوقف .

فإذا صحت هذه الظاهرة وشئنا نسبتها فإن لهجة قريش هى فى رأينا البيئة التى شاعت فيها ظاهرة تجاور الصوامت فى النطق ، وأداؤها أداء متأنيا كاملا .

ومما يساعدنا على هذه النسبة نصوص سبق إيرادها هى : —

١ — ماسبق أن رواه ابن الجزرى عن أبى عبيدة من أنها لغة النبى ﷺ فى قوله (نِعْمَّا المال الصالح للرجل الصالح) ، ولغة النبى هى لغة قريش التى أنزل بها القرآن .

٢ — ماسبق أن ذكره سيبويه من أن الرواة زعموا أن أهل مكة لايبينون التاءين فى (فلا تتناجوا) . ولنا على عدم بيانها ملاحظة سوف نذكرها .

٣ ـــ ذكر سيبويه أن اللغة التى تنطق (نِعِم) بالتخفيف هى لغة هذيل ، ولغة هذيل ، ولغة قريش تتواردان على مواضع القراءة ، ومن ذلك أن عمر أرسل إلى ابن مسعود يأمره أن يقرىء الناس بلغة قريش لا بلغة هذيل ، فإذا كانت (نِعِم) بلغة هذيل ، كانت (نِعْم) وهى المشهورة لغة قريش .

٤ ـــ مايحتمه نظام الفواصل القرآنية من وجود ساكنين فى آيات كثيرة بالغة الكثرة مثل : «والفجْرْ ، وليال عشْرْ ، والشفع والوتْرْ ، والليل إذا يسْرْ ، هل فى ذلك قسم لذى حجْرْ » .

ومثل : « إنا أنزلناه فى ليلة القدْرْ ، وماأدراك ماليلة القدْرْ ، ليلة القدر خير من ألف شهْرْ ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمْرْ ، سلام هى حتى مطلع الفجْرْ » .

وقد سبق أن تميما كانت تهرب من هذين الساكنين فى الوقف ـــ بنقل الحركة ، وذلك النوع من التصرف الصوتى لم تعرفه لهجة قريش ،ولم يرو عنها [(١)]

٥ ـــ مالوحظ من أن مصادر القراء الذين روى عنهم النطق بساكنين هم جميعا ـــ على وجه التقريب ـــ من مكة ، ومكة إذ ذاك معدن القراءة القرشية ، ومركز القراء الحجازين .

فإذا صحت نسبة هذه الظاهرة إلى قريش ، كان لنا أن نعد هذا النطق بصوامت ثلاثة متجاورة دون الإخلال بواحد منها شيمة من شيم التأنق فى نطق الكلمات ، ومظهرا من مظاهر الفصاحة وتحقيق الأصوات ، ونهجا فى تكوين الكلمة يميز لغة قريش عن سائر اللغات .

---

(١) من أسرار اللغة ص ٢١٨

٢ ـ (تجاور السواكن وأثره على شكل المقطع العربي)

من الممكن أن نوجز الحديث عن المقطع العربي وتكوينه فى نقاط محددة توصل إليها علماء اللغة المحدثون (١) ، وحصروا فى داخلها إمكانية هذا المقطع وأثره فى تشكيل نسج اللغة العربية .

فمن المبادىء الأساسية أن اللغة العربية تبدأ كلماتها بمتحرك واحد ، وتختمها إما بحركة ، فهو المقطع المفتوح . وإما بصامت ، فهو المقطع المقفل .

ومن غير الممكن فى العربية أن تبدأ الكلمة بمجموعة من الصوامت ، أو أن يتخلل الكلمة أكثر من صامتين متجاورين ، أو أن تختم الكلمة بمجموعة من الأصوات الصامتة .

فإذا أريد فى الفصحى النطق بصامتين فى بداية الكلمة تُوُصِّلَ إليه بزيادة همزة وصل ، وهى حركة صوتية مساعدة ، لتصبح «كْتُبْ» أمرا من يكتب : «اكْتُبْ »

وهذا على نقيض مايحدث فى اللغات الأوربية حيث ينطقون بصامتين أو بثلاثة صوامت فى بداية الكلمة دون أدنى وسيلة صوتية ، ومن ذلك كلمة Platon التى قلبت فى العربية إلى «افلاطون» وكلمة street التى تتابعت فيها أصوات ثلاثة صامتة دون حركة بينها .

هذه الهمزة أو الحركة الصوتية المساعدة تسقط من الكلمة عندما تنتهى الكلمة السابقة عليها بحركة ، إذ تستخدم هذه الحركة فى وصل مجموعة الأصوات الصامتة مثل :

« قال اكتب » ، فإذا قطعناها مقاطع كانت : قا / لك / تب / . ويقال : « انطلق » ، فإذا قيل « ثم انطلق » : كانت المقاطع هكذا : ثُمْ / مَنْ / طَ / لَ / قَ

---

(١) قام أستاذنا الدكتور أنيس فى دراساته عن العربية بدراسة لشكل المقطع العربى ، وبخاصة فى كتابه (الأصوات اللغوية) ص ١٠٩ ومابعدها الطبعة الثانية ، وقفى على أثره أحد المستشرقين ، وهو الأب هنرى فليش فى كتابه L'Arabe classique ، وترجمناه إلى العربية بعنوان (العربية الفصحى) .

وفى وسط الكلمة يتجاور فى الكلمة العربية صامتان ، ولكن على أن يكون الأول نهاية مقطع ، والثانى بداية مقطع آخر ،هكذا : يستكتب ، وتقسيمها المقطعى هو : يَسْ / تَكْ / تِ / بُ .

وفى نهاية الكلمة يقتضى الوقف إلغاء الحركة ، وقد وجدنا أن تميما تهرب من تجاور الصوامت فى هذه الحالة ، فتأتى بحركة لتصبح «بكْرْ» : «بَكُرْ» ، مثلا فى حالة الرفع .

فهذه هى العناصر البسيطة للمقطع العربى ، وهى ثلاثة :

١ ـــ صوت صامت + حركة قصيرة : (ص + ح) .

٢ ـــ صوت صامت + حركة طويلة : (ص + ح ح).

٣ ـــ صوت صامت + حركة قصيرة + صوت صامت : (ص + ح + ص).

بيد أن هذا السلوك ينحرف أحيانا عن سمته ، وذلك حين تصبح حركة المقطع الثالث طويلة فيتخلق لدينا مقطع على الوجه التالى :

٤ ـــ صوت صامت + حركة طويلة + صوت صامت : (ص + ح ح + ص) .

وقد تكون هذه الحركة الطويلة صوت لين مركب ، فينتج شكل كالأتى :

٥ ـــ صوت صامت + صوت لين مركب + صوت صامت .

وهذان المقطعان الأخيران يردان فى كلمات قليلة مثل : احمارّ ـــ ولا الضالّين ـــ خويصّة ، حيث يكون تقطيعها على الوجه التالى :

اح / مارْ / رَ ـــ و / لَضْ / ضَالْ / لِينْ ـــ خُ / وَيْصْ / صَهْ .

وقد اعتد الباحثون هذا المقطع الأخير : / وَيْصْ / نادر الوقوع فى النسيج العربى .

وهناك احتمال آخر لشكل المقطع العربى ، وهو أن يحل محل صوت اللين المركب فى هذا الشكل الخامس صوت صامت ، علما بأن صوت اللين يعتبر فى

التحليل الصوتى ناتجا عن حركتين : إحداهما الحركة التالية للصامت الأول ، وبذلك يكون المقطع الجديد هكذا :

٦ ـــ صوت صامت + حركة قصيرة + صوتان صامتان : (ص + ح + ص ص).

ولم يجز أئمة العربية وقوع هذا المقطع إلا فى نهاية الكلمة ، وفى حالة الوقف دائما ، وقد يكون كلمة مستقلة مثل : « وقف ، وعضد » ، ولقد يكون جزءا من كلمة مثل : « المستقر » حيث يكون تقطيعها على الوجه التالى :
أَلْ / مُسْ / تَ ـــ قَ رْ رْ (١) .

ولسنا هنا بصدد مناقشة الإمكانات التى يمكن استخراجها من ترتيب هذه المقاطع ، بعضها إلى جوار بعض ، فمثل هذه المحاولة قد تؤدى بنا إلى مايزيد على مائة شكل من أشكال الكلمة ، جلها لم يرد فى النسج العربى ، وإنما ورد منها مالا يزيد على ربع هذا العدد .

وقد ثبت أن المقاطع الثلاثة الأولى هى أكثر المقاطع شيوعا فى النسج العربى ، يليها فى كثرة الشيوع المقطع الرابع . فأما الخامس والسادس فلا يردان إلا فى نادر الصيغ ، وبشروط خاصة ، كأن يكون النطق بالكلمة فى حالة الوقف ، أو أن يكون اشتقاق الكلمة من مضعف اللام ،وفى حالة الوقف أيضا ، كما مر .

ونعود بعد هذا العرض السريع لأنواع المقطع العربى إلى ماسبق أن كشفنا عنه فى لهجة قريش ، من أنهم قد نطقوا أحيانا بصوامت ثلاثة متجاورة فى مثل : نعما ، ويهدى ، ويخصمون ، وشهر رمضان ، ومن بعد ذلك ، وغيرها من امثلة الإدغام ، التى سبق فيها الصوتان المدغمان بصامت ساكن ، بحيث تجتمع فى النطق صوامت ثلاثة دون أن تفصل بينها حركة هكذا : (ص ح ص ص / ص ح) ، فهذه الظاهرة تمنحنا دليلا لايتطرق إليه الشك على أن الشكل الأخير من أشكال المقطع لايقتصر وقوعه فى النسج العربى على أواخر الكلمات بالشروط المذكورة ، وإنما يقع أيضا فى موضعين آخرين هما :

---

(١) هناك مقطع نادر أيضا مكون من (ص ح ح ص ص) وذلك فى حالة الوقف على (حانّ)

١ ـــ باب الإدغام وهو مقيس فيه ، وأمثلته كثيرة سواء فى المثلين ، أو فى المتقاربين ، أو فى المتجانسين .

٢ ـــ بعض الكلمات المسموعة مثل نعما ، ويهدى ، ويخصمون .

وبذلك تكون دراستنا للإدغام قد كشفت عن شيوع هذا المقطع فى بعض الكلام العربى ، وعملت على إثراء النسج العربى بإمكانة جديدة .

ولعل من الواضح أن المقطع الخامس جار على قياس هذا المقطع السادس فى الوزن وفى الحكم ، ومن أمثلته فى الإدغام : « حيث شئتم ، وإنه لحب الخير لشديد » وليس من الصعب إجراء التقسيم المقطعى لها فى ضوء ماسبق من أمثلة .

وربما خطر سؤال فى هذا المقام :كيف يمكن تحقيق نطق هذه الصوامت المتتالية فى هذا المقطع على اللسان العربى ؟

والجواب : يأتينا من التسجيل الذى قمنا به لهذا النوع من الأمثلة ، فقد أدى كلا القارئين ماطلب إليه أداؤه منها دون أدنى إخلال بوجود صوت من الأصوات المتجاورة ، غاية مافى الأمر أن القارىء كان إذا نطق بها فى هذه الحالة يحاول أن يضغط على مخارج الأصوات ضغطا غير عادى ، مبعثه خوفه ألا يؤدى الصوت كاملا على الصورة التى يكون عليها فى غير حالة التجاور ، وإن كان هذا لم يخل من محاولته الإسراع فى أداء الصامت الأول منها ، خشية أن يؤدى بطؤه فى أدائه إلى ظهور حركة تشبه حركة الاختلاس ، وهو مايتفاداه المدغمون إدغاما صحيحا ، ومعنى ذلك أن النطق بهذا المقطع يقترن بصعوبة فى الأداء نرى أن مصدرها هو المحافظة على الأصوات المكونة له . وقد اعترف الأقدمون من أصحاب الإدغام بصعوبة هذا الوجه فعلا ، قال ابن الجزرى فى كلامه عن روايات قوله تعالى : « فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ـــ النور /٣ ٦٢ : (بلغنى عن ابن مجاهد أنه كان لايُمَكِّنُ من إدغامها إلا حاذقا) (١) ، ولكنا لانظن أن صورة هذه الصعوبة كانت

---

(١) النشر جـ ١ ص ٢٩٢ .

متحققة فعلا فى نطق القرشيين ، ونرى أن نطقهم لمثل الكلمة (نعْمّا) كان يمر بالأصوات مرورا سهلا ، كما يمر الناطق بأصوات الكلمة الأجنبية (monstre) (١) حيث تتجاور فيها ثلاثة صوامت ساكنة ، ولاريب أن طريقة القراءة القرآنية تختلف عن طريقة الكلام العادى ، بل حتى عن إنشاد الشعر ، فى حرص القارىء على تحقيق أصواتها ، ونبر مقاطعها فى المواضع المناسبة .

وهذه الملاحظة عن كيفية نطق القرآن واختلافها عن كيفية النطق فى الكلام العادى هى فى رأينا منشأ المشكلة بين النحاة والقراء ، فالقراء يروون كيفية فى النطق متواترة ، يقلد فيها خلفهم سلفهم ، وهم جد حريصين على ألا يخل القارىء بأية جزئية من جزئيات هذا النطق . على حين يقعد النحاة قواعدهم فى ضوء بعض التصورات العقلية المنطقية التى يطبقونها على مايسمعون من الأعراب ، وهذا هو السر أن سيبويه ذهب فى هذه القضية وسابقتها إلى القول بالاختلاس ، وكان تعبيره عن ملاحظته لما روى له عن نطق أهل مكة فى (لاتتناجوا) : (أنهم كانوا لايبينون التاءين) ، كأنه قد قطع بأن شيئا مايعتور نطقهم ، ولم يقطع بأنه إسكان لعدم اقتناعه به ، فظن أنه إخفاء ،كذلك الإخفاء الذى رواه فى الوقف عن قوم من العرب . وهذا هو تفسيرنا لمنشأ القول بالاختلاس ، فى هذا الموضع . فلعل « سيبويه » كان يعتقد أن العربى حريص على إثبات وجود الحركات فى النطق ، حتى ذلك المسرع الذى لم يكن يحرص على إظهار هذه الحركات ، فاستخرج من هذه الفكرة القائمة على شدة التعلق بالحركة الإعرابية ، فكرة « الاختلاس » . ولو أننا سلمنا جدلا بتفسير الإسكان الذى أثر عن تميم فى الفصل السابق بالاختلاس ، بناء على النظرية القائلة بميل البدو إلى الإسراع فى النطق ، وعدم تحقيق الأصوات ، فكيف ننسبه هنا إلى قريش مع ماأثر عنها من التأنى فى تحقيق الأصوات ، ومع ماقررناه من أن النطق بالساكنين مظهر من مظاهر التأنق فى النطق لايتوفر إلا فى نهج قريش ؟..

---

(١) هى بالفرنسية بمعنى « يشير » .

من أجل ذلك نقرر هنا : أنه إذ اجاز جدلا القول بالاختلاس فى مواضع الإسكان التى عالجناها فى الفصل السابق ، مما نسب إلى تميم ، فليس من الجائز القول به هنا فى المواضع التى نسبت إلى قريش ، وإنما هو إسكان تام لكل صوت من الأصوات المتجاورة ، دعاهم إليه فى مثال (نعمّا) أنهم ينطقون بالفعل ساكن العين (نعْمَ) ، فلما واجهتهم ضرورة الإدغام — إدغام الميم فى الميم — أبقوا الساكن على حاله ، فكان أن اجتمع فى الكلمة ساكنان ، أو بعبارة أخرى : تجاور فيها ثلاثة صوامت .

ولقد سبق القول بأن الإدغام كان فى تميم ، ثم انتشر حتى عم قبائل العرب بما فيهم قريش ، التى أصبح عندها خاصة من خصائصها الفاشية .

فلم يكن من العسير عليهم أن ينطقوا أمثلته من نحو = (شهر رمضان — وهن العظم منى — بعد ذلك — بعض شأنهم) ، وبخاصة إذا لاحظنا فيما يتصل بالمثال الأخير أنه أسهل على لسان قرشى — منه على لسان تميمى ، لأن القرشى قد تعود إسقاط الهمزة ، وإبدالها فى مثل الموضع ألفا [1] ، بعكس التميمى الذى كان يحقق الهمزة . على ماشرحناه من قبل .

وأخيرا : فقد يعرض لنا سؤال هو : إذا كان النطق بهذه الصوامت المتجاورة من إمكانات اللهجة القرشية ، فكيف يمكن تفسير موقف لهجة تميم منها ...؟ والجواب عن هذا السؤال ليس بالعسير ، فقد يصح أن يقع مايشبه اختلاس الحركة فى نطقهم لهذه الأمثلة ، تخلصا من الجمع بين ساكنين ، وليس هو باختلاس حقيقى ، بل هو حركة كما فى « عَبَشَمّس » ،وكما هو شأنهم فى الوقف ، وهذا هو الأساس الذى يسوغ رواية الاختلاس التى قال بها القراء المغاربة . وبذلك يكون لرواة قراءة أبى عمرو موقفان : موقف الإسكان الخالص على نهج قريش وهو مذهب المشارقة ، وموقف التخلص من الساكنين بالإتيان بالحركة الإعرابية على نهج تميم ، مع

---

(١) كتابه سيبويه جـ ٢ ص ٢٨٦ .

مراعاة الإسراع بالنطق حتى يقارب ماسمى بالاختلاس ، وهو مذهب المغاربة .

بقى أن الرواية قد جاءت عن أبى عمرو بقراءة التحقيق ، ولاشك أن هذه الطريقة لايكون معها إدغام ، فتكون فى هذه المواضع أكثر توافقا مع لهجة تميم ، والله أعلم .

★ ★ ★

وبعد : فقد كان سعينا إلى فهم هذا الجانب من اختيار أبى عمرو ، وتحقيق روايته ونسبتها إلى مصدرها اللهجى محاولة منا لفهم موقف الرجل من قريش ومن تميم على سواء . وقد وضح الآن موقفه دون أدنى غموض بالنسبة لكلتيهما . إلا أن هذه الدراسة قد كشفت لنا عن أمور عدة :

أولها : أن الإسكان كظاهرة لغوية لم يكن مقتصرا على تميم ، بل كان يقع أحيانا فى لسان قريش . وهذا مايدعونا إلى أن نعتده اتجاها فصيحا .

ثانيها : أن خصائص اللهجات تتكامل فيما بينها ، فإذا كانت قريش قد أخذت الإدغام عن تميم ، فقد ساعد نطق قريش على أداء بعض أمثلته التى التقى فيها ساكنان أداء دقيقا ، روى عن حجة تميم ، أبى عمرو بن العلاء . وبذلك يكون الإدغام بجميع تفاصيله شركة لهجية بين قريش وتميم .

ثالثها : أن هذه الصورة المقطعية التى وثقناها فى هذه الدراسة لم تكن بمقتصرة على قراءة القرآن ، ولكنها كانت من خصائص النطق القرشى بعامة ، لما يصادف من أمثلتها ، ولم يكن لسان القرشى يجد صعوبة فى أداء هذا المقطع ، بل كان يعتده دليل فصاحته واقتداره على أداء مايعجز عنه سائر الناطقين باللهجات المغايرة . ولكن هذه الصورة المقطعية قد تلاشت من الألسنة ، وأصبحت خاصة بقراءة القرآن ، ربما لصعوبتها على ألسنة المتأخرين ، وربما لغلبة الاتجاه النحوى الذى شكك فى صحتها ، ودفع الناس إلى تحاشيها .

رابعها : أن هذه المسألة ليس مرجعها إلى أبى عمرو إلا فيما يتعلق بالإدغام ، والذين سمعوا منه وحاولوا تقليده كان بعضهم ممن تعودوا طريقة النطق لدى تميم ، وآخرون

اتجهوا نحو طريقة قريش ، وهذا هو السر فى اختلاف الروايات عن أبى عمرو فى هذا الشأن . ومن المحتمل أن أبا عمرو كانت له طريقة واحدة ، أداها كل من الفريقين بما استطاع وماتعود ، وهو الغالب فى رأينا ، وقد لاحظنا أن الذين رووا عنه الإسكان هم المشارقة والعراقيون الذين أتيح لهم الأخذ المباشر عنه أو عن تلاميذه ، وأن الذين رووا الاختلاس هم المغاربة الذين باعدت الشقة بينهم وبين مصادر القراءة ، فاكتفوا بما تعلموا من النحاة من قواعد ، وضعوها أساسا للغة الفصحى . ويحتمل أنه كان يعمد فى مثل هذه المواضع إلى الإسكان أحيانا ، وإلى الاختلاس أحيانا أخرى ، رغبة فى التنويع الأسلوبى ، فجاء الرواة من بعده ، وأحالوا القضية إلى اختيار بين أمرين ، وتعصب كل فريق لما اختاره بناء على ماتوافر لديه من مقومات لغوية وتعليمية .

خامسها : أن الخصومة التى كانت بين النحاة والقراء ، ونفرة بعضهم من بعض كانت غالبا على حساب الحقيقة ، ولم تؤد إلا إلى بعثرة الجهود ، وضياع كثير من تقاليد اللغة وأسانيدها ، أو اندثاره فى بطون الكتب ، دون أن يسهم فى تدعيم قواعد اللغة ، ونشر تقاليدها الصحيحة وتصفية الخلاف حولها .

سادسها : أن إعادة الأمر إلى اللغة المشتركة ــ بعد اختفاء هذه الصورة المقطعية منها ــ يضطرنا إذا أردنا وضع نظام موحد منسجم لها ــ إلى القول بأن العرب فى نطقهم لثلاثة مقاطع متحركة متوالية يسكنون الوسط منها ، لأن نسج اللغة يفر من هذا النوع ، وأنهم فى نطقهم لثلاثة سواكن يحركون الوسط منها فرارا من التقاء الساكنين ، ومعنى هذا استقرار النظام اللغوى على أساس المأثور من تقاليد اللهجات ، وعدم التزام التقاليد الحجازية فى ذلك النظام المشترك . هذا على الرغم من أن وجود هذا المقطع الجديد ذو دلالة على غنى النسيج العربى ، وعلى أنه لايقل فى إمكاناته المقطعية عن نسيج اللغات الحية المعاصرة .

الفصل الخامس

بعض صيغ الأفعال ومشتقاتها

بعض صيغ الأفعال ومشتقاتها

هذا الذى قلناه فيما يتصل بظاهرة الإسكان قد أفادنا من ناحية فى تقرير صلة اختيار أبى عمرو بتقاليد تميم اللغوية ، وهو يفيدنا من ناحية أخرى فى تقرير أمر خاص يتصل بشخص الرجل ، فهو يدل على نزوع أصيل لديه نحو التخفف من قيود النطق ، والتخلص ــ كلما استطاع ــ من العناصر التى يمكن الاستغناء عنها ، مع الحفاظ على تمام المعنى ، فهو يختار من الروايات ما يحذف الحركة من عين الكلمة أولامها ، لشعوره بثقل توالى الحركات . وسنعرض الآن لاتجاه آخر حققه فى اختياره باطراد ، وقد استطعت أن أجمع للتدليل على هذا الاتجاه عنده أمثلة كثيرة ، من ذلك أنه :

٥ ــ قرأ : « لايَضِرْكُم كيدهم ــ آل عمران آ ١٢٠ » بالتخفيف وقرأ حفص لايَضُرُّكُم » بالتشديد .

قال الطبرى : « هذه قراءة جماعة من أهل الحجاز وبعض البصريين ، فأما قراءة التشديد فهى قراءة جماعة من أهل المدينة وعامة قرأة أهل الكوفة » [١] ..

وقرأ : «أُبْلِغُكُم رسالات ربى ــ الأعراف آ ٦٨ » حيث قرأ حفص : « أُبَلِّغُكُمْ » .

وقرأ : « فتُذْكِرَ إحداهما الأخرى ــ البقرة آ ٢٨٢ » حيث قرأ حفص « فتُذَكِّرَ إحداهما الأخرى » .

وقرأ : « ونُنْزِل من القرآن ماهو شفاء ــ الإسراء آ ٨٢ » حيث قرأ حفص « ونُنَزِّل .... » .

وقرأ : «وَكَفَلَهَا زكريا ــ آل عمران آ ٣٧ » حيث قرأ حفص : (وَكَفَّلَهَا)

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٧ ص ١٢٠ . والمخطوطة ورقة ٤١ ، وبقية الأمثلة من المخطوطة والنشر .

وقرأ : «ومن نعمره نُنْكِسْه فى الخلق ـــ يس آ ٦٨ » حيث قرأ حفص « نُنَكِّسَه » ..

فهذه أمثلة يتضح لنا أن أبا عمرو قد عدل فيها عن استخدام الفعل المضعف بزنة « فَعَّل » ولجأ تارة إلى صيغة « فَعَل » الثلاثية كما فى « كَفَلَ » ، وتارة أخرى إلى صيغة « أَفْعَل » كما فى « أُبْلِغُكُم » حيث كان ماضيها « أَبْلَغَ »

فإذا حاولنا أن نفهم موقف أبى عمرو من هذه الصيغة المضعفة وقعنا ابتداء فى حيرة ، إذ لا نكاد نجمع الأمثلة التى عدل فيها عن المضعف إلى إحدى الصيغتين المذكورتين ، حتى نجد أنه عدل عن إحدى الصيغتين إلى المضعف ، وذلك أنه قرأ : « يُخَرِّبُون بيوتهم بأيديهم » حيث قرأ حفص « يُخْرِبُون » ، وقرأ من نفس الباب « وأن الله مُوَهِّنُ كيد الكافرين » حيث قرأ حفص (مُوهِنُ كيد الكافرين) ، وقرأ : « ولهم عذاب أليم بما كانوا يُكَذِّبُون » حيث قرأ حفص « بما كانوا يَكْذِبُون » .

فهل كان أبو عمرو مغرما بالمخالفة ، أعنى مخالفة قراءة غيره ممن شاعت قراءتهم ، أم أن فى الأمر سرا ينبغى الكشف عنه ؟ ...

أما أنه مغرم بالمخالفة فهذا من أبعد الاحتمالات التى نتوقعها من أبى عمرو ، وبخاصة أن القراءة سنة متبعة ، لامبتدعة ، ونحن نسجل هذه الوجوه المختلفة بين أبى عمرو وبين قراءتنا الشائعة من أجل الدراسة والكشف عن قوانين قراءته ، وإلا فإن بينهما وجوه اتفاق فى هذا الباب نفسه يعسر علينا إحصاؤها .

وأما أن فى الأمر سرا ، فهذا هو المفروض ، فقد كان أبو عمرو يختار الروايات ، وقد ثبت لنا ، بما لايدع مجالا للشك ، أن اختياره لم يكن اعتباطا ،بل كان ناشئا عن فكرة فى عقله ، وأسس أقام عليها مذهبه فى الاختيار ، وهو البصير بموارد اللغة ومصادرها ، الخبير بوجوه الكلام وتصاريفه .

ومن الاحتمالات التى نعرضها فى هذا الصدد ، ونظن أن أبا عمرو قد تأثر بها فى اختيار هذا الاتجاه ، ماذكره أبو جعفر بن جرير الطبرى فى حديثه عن تفسير قوله تعالى : « فَزَيَّلْناَ بينهم » (يونس ٢٨) قال : (وقد ذكر عن بعضهم أنه كان يقرؤه : « فزايلنا بينهم » ، كما قيل « ولا تصعرٌ خدك » « ولاتصاعر خدك » ، والعرب تفعل ذلك كثيرا فى « فعَّلت » يلحقون فيها أحيانا ألفا مكان التشديد ، فيقولون : « فاعلت » إذا كان الفعل لواحد ، وأما إذا كان لاثنين فلا تكاد تقول إلا «فاعلت» [١] ، والنص واضح الدلالة على أن العرب كانت تستثقل كثيرا النطق بالمضعف ، وأنهم كانوا كثيرا مايستبدلون به صيغة أخرى ، هى (فاعلت) فيما نص الطبرى .

فهل من الممكن أن نقول : إن أبا عمرو قد أخذ بهذا الاتجاه العربى نحو التخلص من المضعف كلما أمكنه ذلك ، إلا أنه خالف سنة العرب فى اختيار البديل ، فهم قد اختاروا « فاعل » ، وهو قد اختار « اَفْعَل أو فَعَل » ؟.. أم أن هذه هى سنة للعرب أيضا ؟ .

نكاد نميل إلى هذا الرأى ، وبخاصة إذا وجدناه قد اتبع طريقتهم حين قرأ « ولا تصاعر » فى مكان (ولاتصعر) ، فهذه استجابة نصية لذلك الاتجاه نحو التخلص من التضعيف . وإن كنا قد وجدناه فى ناحية أخرى يعدل حتى عن هذه الصيغة « فاعل » إلى الثلاثى منها ، فقد قرأ « وإن يأتوكم أسارى تَفْدوهم » فى مكان «تُفَادوهم » [٢] ، وقرأ « إن الله يَدْفع عن الذين آمنوا » مكان « يُدافع »[٣] ، فهو قد اختار التعبير بالثلاثى حين كان الفعل لواحد ، وإن كان قد التزم القاعدة المذكورة فى حالة ماإذا كان الفعل لاثنين على ماسنذكره .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ٧٨

(٢) المخطوطة ورقة ٣٧ .

(٣) المخطوطة ورقة ٦٠ .

على أنه من الأهمية بمكان أن نشير إلى جانب قد يكون له أثر فى اختيار أبى عمرو للصيغة البديلة ، فقد سبق أن ذكرنا فى حديثنا عن إسكان عين الكلمة رواية عن سعيد بن جبير (شيخ أبى عمرو) أنه قرأ : «صُحْفا مُنْشرة » وأفادتنا هذه الرواية فى معالجة نزعة أبى عمرو نحو الإسكان ، وهى هنا تفيدنا فى علاج نزعته نحو التخلص من المضعف باختيار صيغة « أفعل » فى صورة بعض مشتقاتها . فابن جبير هنا قد اختار « مُنْشَرة » فى مكان « مُنَشَّرة » ، وهو مافعله أبو عمرو حين قرأ « قال الله إنى مُنْزلها عليكم » فى مكان « مُنَزِّلها » ، ومما ينبغى الاحتراس منه أن يظن ظان أن أبا عمرو قد اختار هذا الاتجاه من عند نفسه ، دون أن يكون له سند من الرواية المتواترة ، فقد ذكر ابن الجزرى نقلا عن الإمام أبى محمد مكى « أن أولى القراءات بالقبول والقراءة معا مانقل عن الثقات عن النبى ﷺ ، ويكون وجهه فى العربية التى نزل بها القرآن سائغا ، ويكون موافقا لخط المصحف ، وذكر من أمثلة هذه القراءات (يَخْدَعون ويُخَادعون وأوْصى ووَصّى) [(١)] وقد اطرد تخفيف أبى عمرو لهذا الباب على ماذكره لسان العرب فى رواية عن سيبويه : (وتَنَزَّلَة وأَنْزله ونَزَّله بمعنى ، قال سيبويه وكان أبو عمرو يفرق بين نَزّلت وأَنْزلت ، و لم يذكر وجه الفرق . قال أبو الحسن : لافرق عندى بين نزلت وأنزلت إلا صيغة التكثير فى نزلت) [(٢)] ..

وهذا النص يؤكد لنا أيضا أن أبا عمرو كان ذا رأى فى التفرقة بين الصيغ المختلفة ، وبخاصة فَعّل وَافْعل ، وظهر رأيه واضحا حين اختار أن يقرأ « يُنْزل » فى مكان « يُنَزِّل » ، واطردت قراءته لهذا الفعل وبابه « إذا كان مضارعا مضموم الأول بالتخفيف إلا موضعا واحدا ، وهو قوله تعالى فى الأنعام : (على أن يُنَزّل آية) فإنه شدده ، ولاخلاف فى تشديد قوله (ومانُنَزّله إلا بقدر) فى سورة الحجر [(٣)] ، وقد زاد

---

(١) النشر جـ ١ ص ١٤

(٢) اللسان جـ ١١ ص ٦٥٦ .

(٣) المخطوطة ورقة ٣٧ .

صاحب النشر القاعدة بيانا حين قال : « واختلفوا فى (يُنَزّل) وبابه إذا كان فعلا مضارعا أوله تاء أو ياء أو نون مضمومة فقرأ ابن كثير والبصريان (١) بالتخفيف حيث وقع ، إلا قوله تعالى فى الحجر « ومانزله إلا بقدر معلوم » فلا خلاف فى تشديده ، لأنه اريد به المرة بعدالمرة .

ثم قال « وخالف البصريان أصلهما فى الأنعام فى قوله تعالى : « أن ينزل آية » فشدداه (٢) وهذه القاعدة التى اختارها أبو عمرو تنطبق فى القرآن على ستة وعشرين موضعا (٣) جاء الفعل فى كل منها بالصيغة الموصوفة ، وقرأ أبو عمرو بالصيغة المختارة .

فهل نستطيع أن نخرج من هذا الاختيار بقاعدة منْ قواعد أبى عمرو فى هذا الباب ؟ ... إننا نؤمن مقدما ، وبناء على ماتوافر لدينا من أدلة ، بما سبق أن ذكره اليزيدى تلميذه حين قال : « كان أبو عمرو قد عرف القراءات ، فقرأ من كل قراءة أحسنها ، وبما يختار العرب ، وبما بلغه من لغة النبى ﷺ وجاء تصديقه فى كتاب الله عز وجل » .

وكلام اليزيدى يربط أجزاء حديثنا ربطا وثيقا ، وبخاصة حين نذكر اختيار العرب التخلص من المضعف ، فلا شك أن أبا عمرو قد أخذ به ، ولكنا نظن أن الأمر لايخلو من قاعدة أو أصل عام التزمه الرجل ، فلنحاول الآن أن نستخلص هذا الأصل العام .

لقد اقتضانا بحثنا أن نراجع استخدام جميع الأفعال المضعفة فى القرآن ، والتى قرأها أبو عمرو كما هى مضعفة ، وأن نناقش الحكمة فى قراءته لها بالتضعيف ، على

---

(١) المراد أبو عمرو ويعقوب .

(٢) النشر جـ ٢ ص ٢١٨ .

(٣) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ـــ طبعة كتاب الشعب جـ ٧ ص ٦٩٤ ومابعدها .

حين قد اتجه إلى قراءة أفعال أخرى بغير التضعيف كما رأينا ، وقد أدتنا المناقشة إلى نتائج نعرضها هنا عرضا مفصلا ، وذلك أن أبا عمرو لايخلو موقفه من المضعف من أحد الاحتمالات التالية : —

الموقف الأول :

أن يقرأه كما هو مضعفا (فى قراءة حفص) ، وذلك فى الحالات :

١ — ألا يكون الثلاثى منه مستعملا فى معناه ، أو هو قليل الاستعمال ، ولم تؤخذ منه صيغة (أفعل) للدلالة على مايدل عليه المضعف ، ومن الأمثلة على ذلك : الفعل : (أدى) فى مثل قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا — النساء آ ٥٨ » وقوله : « ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك — آل عمران آ ٧٥ » .

فالثلاثى من هذا الفعل هو « ادا » فى نحو : أَدَا اللبنُ أُدُوًّا وأَدَى أُدِيًّا : خَثَر ليروب . وقد أَدَتَ الثمرةُ تَأْدو أُدُوًّا وهو الينوع والنضج .

وزنة (أفعل) منه يقال : آديت للسفر فأنا مؤد له :إذا كنت متهيئا له ، وآدى الرجل فهو مؤد : إذا كان شاك السلاح ، وهو من الأداة ، وأهل الحجاز يقولون : آديته على أفعلته ، أى : أعنته .

وزنة فَعَّل منه : أَدَّى الشيء : أوصله ، والاسم الأداء ، ولا يقال : أَدَى بالتخفيف بمعنى أَدَّى بالتشديد [١] .

فالثلاثى من هذا الفعل المضعف ليس مستعملا فى معنى المضعف ، كما أن زنة أفعل منه لاتعطى معناه أيضا ، فكان لابد لأداء المعنى من إبقاء الصيغة المضعفة على حالها .

ومن الأمثلة أيضا : الفعل (أَخّر) ، فى مثل قوله تعالى : « ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأَخّر — القيامة آ ١٣ » ، وقوله : « علمت نفس ماقدمت وأَخّرت — الانفطار

---

(١) اللسان جـ ١٤ ص ٢٤ .

آ ٥ » ، وقوله : «ولن يُؤَخِّر الله نفسا إذا جاء أجلها ـــ المنافقون آ ١١ » .

وثلاثى هذا الفعل مهمل غير مستعمل ، وإن دل على وجوده مااشتق منه بزنة فاعل مثل : « آخر » ، وكذلك لم يشتق منه فعل بزنة (أفعل) إلا قولهم (مُؤْخر العين) ، وإنما استخدمت منه صيغة (فعَّل) ، (واستفعل) (وتفَعّل) ، كما هو واضح من أمثلة اللسان (١) ، فكان لابد لأداء المعنى المراد من إبقاء الصيغة على حالها ، والنطق بالفعل مضعفا .

ومن أمثلة ذلك أيضا الفعل (أُسَّس) ، فالثلاثى منه (أَسّ) وهو قليل الاستعمال فى اللسان العربى ، ولم يؤخذ منه (أفعل) للدلالة على مايدل عليه المضعف (٢) ، فكان لابد من استخدام صيغة المضعف كما هى ، وهى تدل على المعنى المراد ، وهو وضع الأساس ، كما تدل على معنى آخر هو التسوية المستفادة من الفعل « آسى » (٣) .

٢ـــ أن يكون الثلاثى منه مستعملا ، ولكنه لايؤدى معنى المضعف من إرادة التكثير ، و لم تؤخذ كذلك منه صيغة (أفعل) ، للدلالة على مايدل عليه المضعف . ومن ذلك : الفعل : (فَرّق) فى مثل قوله تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم ـــ الأنعام آ ١٥٩ » ، وقوله : « إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ـــ طه آ ٩٤ » وقوله : « لانفرق بين أحد من رسله ـــ البقرة آ ٢٨٥ » .

فالثلاثى من هذا الفعل (فَرَق) مستعمل بمعنى المضعف (فَرّق) (٤) مع زيادة معنى فى المضعف ، هى إرادة التكثير ، وهو ظاهر فى قراءة من قرأ «وقرآنا فَرّقناه » فى مكان « فَرَقْناه » ، وليس من هذا الفعل مزيد بزنة (أفعل) ، فكان أن قرأه أبو عمرو بما هو عليه من التضعيف فى الآيات التى جاء فيها .

---

(١) اللسان جـ ٤ ص ١٢ .
(٢) اللسان جـ ٦ ص ٦ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) اللسان جـ ١٠ ص ٢٩٩ .

ومن ذلك الفعل (سَخّر) فى مثل قوله تعالى : (سخرها عليهم سبع ليال ـــ الحاقة آ ٧) ، وقوله : « وسخرنا مع داود الجبال ـــ الأنبياء آ ٧٩ » .

فالثلاثى من هذا الفعل (سَخَر) هو بمعنى المضعف ، وهو التكليف بما لايريد المكلف وقهره عليه ، ويبدو أن فى المضعف من معنى التكثير مالا يوجد فى الثلاثى ، ولم يصغ العرب منه فعلا بزنة (أفعل) للدلالة على مايدل عليه المضعف [١] ، فكان من المناسب الاحتفاظ به مضعفا ، وكذلك فعل أبو عمرو .

ومن ذلك : الفعل (تَبَّر) فى مثل قوله تعالى : « وكلا تبرنا تتبيرا ـــ الفرقان آ ٣٩ » .

فالثلاثى منه (تَبِر) بمعنى هلك ـــ وليس منه فعل بزنة (أفعل) ، وإنما هى صيغة التضعيف المستعملة فى معنى التكسير والإهلاك [٢] ، فقرأ بها أبو عمرو فى إختياره .

ومن ذلك الفعل (دَمَّر) فى مثل قوله تعالى : (فدمرناهم تدميرا) ـــ «الفرقان آ ٣٦ » وقوله : « دمر الله عليهم ـــ محمد آ ١٠ » ، فالثلاثى دَمَرهم ، أى : مقتهم ، وليس منه أفعل ، فجاءت صيغة التضعيف للدلالة على معنى الإفناء [٣] وبها قرأ أبو عمرو فى اختياره . ومن ذلك أيضا « عَطَّل » فى قوله تعالى : « وإذا العشار عطلت » ـــ التكوير آ ٤ » فثلاثيه (عَطِل) وليس منه أفعل ، ومنه المضعف الذى قرأ به أبو عمرو فى اختياره [٤] .

٣ ـــ أن تؤخذ من ثلاثيه صيغة أفعل ، ولكنها لاتؤدى معنى المضعف تماما ، ومن ذلك الفعل (فَضّل) فى مثل قوله تعالى : « ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض ـــ النساء ٣٢ » ، وقوله : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ـــ

---

(١) اللسان جـ ٤ ص ٣٥٢ .
(٢) اللسان جـ ٤ ص ٨٨
(٣) اللسان جـ ٤ ص ٢٩١
(٤) اللسان جـ ١٠ ص ٤٥٣

ـــ البقرة آ ٢٥٣ » وقوله : « ونفضل بعضها على بعض فى الأُكُل ـــ الرعد آ ٤

فالثلاثى من هذا الفعل (فَضَل) معناه العام التميز ، والمضعف منه (فضل) معناه التمييز . وقد أخذ من الثلاثى صيغة « أفعل » : أفضل ، وهى بمعنى (زاد) فى مثل قول الشاعر .

لاه ابن عمك لاأفضلت فى حسب عنى ولا أنت ديانى فتخزونى [1]

ولذا قرأ أبو عمرو الفعل مضعفا حيث وقع .

ومن ذلك الفعل « بَدَّل » فى مثل قوله تعالى : « ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ـــ الأعراف آ ٩٥ »وقوله « فمن بدله بعد ماسمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ـــ البقرة آ ١٨٢ » وقوله : « قل مايكون لى أن أبدّله من تلقاء نفسى : ـــ يونس ١٥ » ، قال أبو العباس ثعلب : «يقال : أبدلت الخاتم بالحلقة إذا نحيت هذا وجعلت هذا مكانه ، وبدلت الخاتم بالحلقة إذا أذبته وسويته حلقةً ، وبدلت الحلقة بالخاتم إذا أذبتها وجعلتها خاتما » ، قال أبو العباس : وحقيقته أن التبديل تغيير الصورة إلى صورة أخرى والجوهرة بعينها ، والإبدال تنحية الجوهرة واستئناف جوهرة أخرى ، .. قال أبو عمرو : فعرضت هذا على المبرد فاستحسنه وزاد فيه فقال : وقد جعلت العرب بدلت بمعنى أبدلت وهو قول الله عز وجل « أولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات .. [2]» وهذا القول واضح لايحتاج إلى تفسير ، ونتيجته أن « أفعل » لايؤدى معنى المضعف تماما ، فجاءت الأفعال فى قراءة أبى عمرو مضعفة ، وقد جاء النص على اختيار أبى عمرو للتشديد فى أفعال ثلاثة من هذا الباب هى « أن يبدلها » فى الكهف و « أن يبدله » فى التحريم و فى (ن) ، فى حين قرأ أكثر القراء بالتخفيف فيهن [3] ، وهى أفعال جاءت فيما يبدو مستخدمة فى موضع الصيغة الأخرى على ماقال المبرد ، لأن المفهوم من هذه الآيات ـــ إنما هو تنحية شيء وإحلال آخر محله ، سواء فى آية الكهف التى تعبر عن

---

(١) اللسان جـ ١١ ص ٥٢٤

(٢) اللسان جـ ١١ ص ٤٨ .

(٣) النشر جـ ٢ ص ٣١٤ .

الحكمة فى قتل الغلام وتعويض أبويه بخير منه زكاة وأقرب رحما ، أم فى آية التحريم التى تنذر زوجات النبى بأن ربه قادر على أن يرزقه أزواجا خيرا منهن — إذا هو طلقهن بسبب مخالفتهن له ، أم فى آية (ن) التى تحكى صورة ندم أصحاب الجنة المتلاومين ، وهم يرجون أن يؤتيهم الله بستانا آخر خيرا منه ، بعد أن طاف عليه طائف من قدر الله ، ويكاد يكون هذا الاستخدام مطردا فى جميع المواضع التى استخدم فيها الفعل « بَدَّل » فى القرآن [١] .

٤ — أن يكون الثلاثى لازما ولا يؤدى أفعل معنى المضعف المسوق له كالتهويل أو التكثير أو التأكيد ، ففى التضعيف قصد التعدية وزيادة ، ومن ذلك الفعل (ثَبَّت) فى مثل قوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت — ابراهيم آ ٢٧ » وقوله « لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا — الإسراء آ ٧٤ » .

فالثلاثى منه (ثبت) لازم ، و (أفعل) منه يؤدى معنى المضعف فيقال : أثبته وثبته بمعنى [٢] ، بيد أن فى المضعف زيادة معنى من التأكيد المقصود لاتؤديها صيغة أفعل ، يضاف الى ذلك أن (أثبت) تؤدى بصيغتها هذه أحيانا معنى غير معنى المضعف المعهود من الإقامة والتثبيت هو معنى الجرح الشديد ، ومن هذا المورد قوله تعالى : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك — الأنفال آ ٣٠ » أى ليجرحوك : جراحة لاتقوم معها [٣] ، ومن أجل هذا استخدم القرآن كلتا الصيغتين فيما يناسبها من معنى تؤديه كاملا .

ومن ذلك : الفعل (بَرّز) فى قوله تعالى : « وبُرِّزَتِ الجحيم للغاوين — الشعراء آ ٩١ » فالثلاثى (بَرَز) لازم بمعنى خرج إلى مكان منكشف ، وأبرز الشىء بمعنى نشره [٤] ، وواضح ولاشك أن معنى « وبُرّزت » المضعفة هو المبالغة فى نشر الجحيم

---

(١) ارجع لتفسير أبى السعود جـ ١ ص ١٥٢ ، جـ ٢ ص ١٨٤ ، ص ٣١٥ و جـ ٣ ص ٢٦٢ و جـ ٥ ص ١٧٤ و ص ١٨٥ .

(٢) اللسان جـ ١ ص ١٩ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) اللسان جـ ٥ ص ٣٠٩ .

أمام أعين الغاوين ، قصد التهويل ، وهو معنى لاتؤديه سوى صيغة فَعَّل . وقرأ أبو عمرو بها .

ومن ذلك أيضا الأفعال : (مَتَّع ، وسَمَّى ، وكَذَّب) .

٥ ــ أن تنفرد كل من الصيغ الثلاثة بمعنى ليس للأخرى ، فمعنى (صَلَى) الثلاثى غير معنى (أصلى) بزنة أفعل ، غير معنى (صَلَّى) ، وهو كثير الورود فى القرآن .

ومعنى : (عَجِل) فى قوله تعالى : « أَعَجِلتم أمر ربكم ــ الأعراف آ ١٥٠ » أسبقتم أمره ، وهذا غير معنى (أَعْجَل) فى قوله : « وما أَعْجَلك عن قومك ياموسى » أى ماالذى استحثك فجعلك تسبقهم [1] ، وهو غير معنى « فعَجَّل لهم العذاب » أى أعده لهم عاجلا . وإن كان الاختلاف فى معانى هذا الصيغ الثلاثة دائرا حول السرعة والسبق . ومن هذا الباب الأفعال : (عذَّب ــ فرَّط ــ صَبَّح)

٦ ــ أن يكون المضعف أشهر من المزيد بالهمزة بزنة « أفعل » ، ومن الثلاثى ، دلالة على التكثير أو التأكيد ، والمعنى فى الثلاثة واحد ، وذلك مثل :

(ثَبَّط) فى قوله تعالى : « ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ــ التوبة آ ٤٦ » فثَبَطَه وأَثْبَطَه هما بمعنى ثبّطه ، [2] ، ولكن المشهور استخدام المضعف ، ومنه أيضا قوله تعالى : « والذين يُمَسِّكون بالكتاب ــ الأعراف آ ١٧٠ لأن (مَسَك بالشىء ، وأَمْسَك به وَمسَّك بمعنى ، ولكن التضعيف أكثر استعمالا فى الدلالة على تأكيد التمسك بالكتاب من غيره ، ولذا اختاره أبو عمرو هنا [3] كما قرأ : « ولاتُمَسِّكوا بعصم الكوافر ــ المتحنة آ ١٠ » [4] ، وقرأ غيره « ولاتُمسكِوا » لدلالة المضعف عنده على شدة تعلقهم بالكوافر التى أمر الله بالتخلى عنها . ومنها أيضا: الفعل « عَلَّم » فى مثل قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ــ البقرة آ ٣١ » حيث اختار

---

(١) معانى القرآن جـ ١ ص ٣٩٣ .

(٢) اللسان جـ ٧ ص ٢٦٧ .

(٣) قرأ أبو بكر بتخفيف السين (النشر جـ ٢ ص ٢٧٣) .

(٤) اللسان جـ ١٠ ص ٤٨٧ .

جانب التضعيف لما أنه يدل على التكثير المقصود من امتنان الله على عباده .

٧ ـــ أن يكون القصد من التضعيف اختصار حكاية الشيء مثل : (سَبَّح) فى مثل قوله تعالى : « سبح لله مافى السموات ومافى الأرض ـــ الحديد ١ » فلا يمكن العدول عن هذه الصيغة التى تعنى : (قال سبحان الله) [١] .

٨ ـــ التكثير فى الفعل ، وذلك مثل : الفعل (نَقَّب) فى قوله تعالى : « فنقبوا فى البلاد ـــ ق آ ٣١ » فإن معناه أكثروا التنقيب فيها .

الموقف الثانى :

أن يستبدل بالمضعف صيغة ثلاثية ، ونكتفى هنا بعرض الأمثلة التى حدث فيها هذا الاختيار :

فقد قرأ : (لاتُفْتَح لهم ابواب السماء) (الأعراف آ ٤٠) بدلا من (لاتُفَتَّح)

: «إذ يَغْشاكم النعاس » بدلا من «يُغَشّيكم» (الأنفال آ ١١)

: « فعَمِيَت عليكم » بدلا من « فَعُمِّيت » (هود آ ٢٨)

: « ولكنا حَمَلْنا أوزارا » بدلا من « حُمِّلنا » (طه آ ٨٧)

: «يَبْشُر الله عباده » فى مكان « يُبَشِّر الله » (الشورى آ ٢٣)

: « أو من يَنْشَأ فى الحلية » فى مكان « أو من يُنَشَّأ » (الزخرف آ ١٨)

«وكَفَلها زكريا » فى مكان «وكَفَّلها » (آل عمران آ ٣٧)

: « بما كنتم تَعْلَمون الكتاب » فى مكان «تُعَلِّمون» (آل عمران آ ٧٩)

: «ومن نعمره نَنْكُسه » فى مكان «نُنَكِّسه» (يس آ ٦٨)

---

(١) تهذيب التوضيح ـــ جـ ٢ ص ٣٦ الطبعة الثالثة ـــ تأليف الأستاذين أحمد المراغي ومحمد سالم على .

الموقف الثالث :

أن يستبدل بالمضعف صيغة رباعية بزنة (أفعل) . وذلك أنه :

قرأ : «يُنْجِيكم منها ومن كل كرب » فى مكان «يُنَجِّيكم » (الأنعام ٦٤)

:(أُبْلِغُكم رسالات ربى »فى مكان « أُبَلِّغكم» (الأعراف)فى ثلاثة مواضع

:(فتُذْكِر إحداهما الأخرى » فى مكان « فُتذَكِّر» (البقرة آ ٢٨٢)

: «فنُنْجِى من نشاء » فى مكان (فَنُجِّىَ من نشاء » (يوسف آ ١١٠)

: «نُنْزِل وبابه » فى مكان «نُنَزِّل» وقد سبق عرض قاعدته.

هذا الحصر التقريبى لأسباب استخدام المضعف فى أمثلة القرآن الكريم فى المجموعة الأولى يفيدنا كثيرا فى معرفة مايقصده أبو عمرو من استبداله بالمضعف صيغة أخرى ، ثلاثية أو رباعية بزنة أفعل ، كما أنه قد يفيدنا فى معرفة مايقصد إليه من العدول عن الثلاثى إلى غيره من الصيغ .

ولقد يقال : لم كل هذا العناء والقراءة سنة متبعة ، فهى رواية يمكن الخروج عنها ، كما أن التزامها ينفى إمكان التصرف فى مفرداتها أو القول بالرأى فى مضمونها ..؟

والجواب : أن أبا عمرو : كما قلنا ــ كان يختار من بين ماأخذه عن شيوخه ، وما علمه عن طبائع لغة العرب ــ مفردات قراءته ، لم يكن يختارها اعتباطا ، بل كان قد جعل لنفسه قاعدة ، أغلب الظن أنها فى هذا الباب بخاصة قائمة على رأى فى فهم القرآن ، فما وجده مناسبا لفهمه اختاره وقرأ به ، ونظرة إلى أمثلة المجموعة الثانية والثالثة ترينا إلى أى مدى كان موفقا فى اختياره .

والظاهر عموما ــ أن أبا عمرو كان يستشعر معنى الكثرة وتكرير الفعل فى صيغة التضعيف ، فما لم يكن الفعل فى موقعه من الجملة مقصودا به الكثرة لم يكن محل لتضعيفه ، وأكاد أجزم أن هذا هو المقياس الذى اتبعه أبو عمرو فى اختياره لما سبق عرضه من أمثلة عدل فيها عن المضعف الثلاثى أو الرباعى بزنة أفعل .

ولنأخذ مثلا الآية الأولى : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط » : سياق هذه الآية يلمح بأن الفرصة أمام المكذبين المستكبرين جد ضئيلة للنجاة من عذاب النار ، بل هى معدومة ، فليس لهم أن يتوقعوا حين تقوم قيامتهم أنهم سوف يستقبلون استقبال الطائع الخاشع ، فلن يفتح لهم باب من أبواب الرحمة ، ولن يدخلوا الجنة ، كما أن الحبل الغليظ [(١)] لايلج فى سم الخياط ، فمبنى الآية على التقليل لاعلى التكثير ، ومن هنا كان اختيار أبى عمرو للثلاثى ، وعدوله عن المضعف ، فى حين قرأ حفص (لاتُفَتَّح) بالتضعيف .

والآية الثانية ، قوله تعالى : «إذ يغشاكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به » : النعاس هو الوسن ، وحقيقته : السِّنة من غير نوم [(٢)] ، فالمقصود أنهم ناموا خفيفا لاثقل فيه ولا عمق ، فهو النوم الظاهر الذى يمر على المرء فلا يكاد يغشاه حتى ينجلى عنه . وليس أنسب فى التعبير عن هذه الإلمامة من الفعل الثلاثى ، ومن هنا كانت قراءة أبى عمرو متساوقة مع واقع الحال ، ومتسقة مع تخفيف الفعل التالى (ويُنْزِل عليكم) حسب القاعدة التى سبق عرضها ، فى حين جاءت قراءة حفص بالتشديد فيهما .

ولقد يقصد أبو عمرو من وراء عدوله عن اختيار المضعف إلى أن يدل بالصيغة الأخرى على معنى هو أنسب فى رأيه ، ومن ذلك أنه قرأ الفعل « بَشَّر ــ

---

(١) قر أبو عمرو والحسن وهى قراءة ابن مسعود : (حتى يلج الجُمَّل) ، وهو الحبل الغليظ (اللسان جـ ١١ ص ١٢٣)

(٢) اللسان جـ ٦ ص ٢٣٣ .

يُبَشِّر » دائما بالتشديد على لغة تميم [١] . إلا فى آية واحدة هى قوله تعالى « ذلك الذى يَبْشُر الله عباده الذين آمنوا » حيث قرأه مخففا من الثلاثى بزنة « ينصر » ، وقد رجح الفراء أن تكون صيغة « ابشر (حجازية) [٢] فى مقابل المضعفة التميمية ، وبالرجوع إلى التفسير اللغوى لكلمة « بَشَر يَبْشُر » نعلم أن معناها (نَضَّر) ، ومعنى المضعف هو (ساق البشارة) ،أو على حد تعبير الفراء « وكأن المشدد على بشارات البشراء ، وكأن التخفيف من وجهة الأفراح [٣] والسرور » ، وقد اختار أبو عمرو الصيغة المخففة لتفيد معنى (ذلك الذى ينضر الله به وجوه عباده الذين آمنوا) قال أبو عمرو : « إنما قرئت بالتخفيف لأنه ليس فيه بكذا ، إنما تقديره ذلك الذى ينضر الله به وجوههم [٤] ، وسياق الآية قبلها يملى على القارىء هذا الاختيار ، لأنه يستحضر صورة الذين آمنوا وعملوا لصالحات وهم فى روضات الجنات لهم مايشاؤن عند ربهم ، ومن تمام الصورة أن يتحدث عن النضارة التى تشرق فى وجوههم ، مصداقا للآية الكريمة «تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ــ المطففين آ ٢٤ » ..

ومما يوضح أن أبا عمرو كان يقصد إلى إفادة معنى الكثرة أو التأكيد من وراء التضعيف عدوله عنه فى الفعل (عَلَّم) ، حيث لم يكن المراد من السياق ذلك ، فقرأ « بما كنتم تَعْلمون الكتاب » بالتخفيف فى هذا الموضع وحده ، دون بقية الأفعال الواردة فى القرآن الكريم من هذه الصيغة ، وماذلك إلا لعدم القصد إلى إفادة معنى الكثرة ، مادام التكثير غير لازم لأداء المراد .

ومن ذلك القبيل أنه قرأ : (الحى من المَيْت ، والمَيْت من الحى ، أو من كان مَيْتا فأحييناه ، إلى بلد مَيْت ، لحم أخيه مَيْتا) ونظيره ، إذا كان المعبر عنه قد مات فعلا ــ بالتخفيف ، واتفق على تشديد من لم يمت نحو : « إنك مَيِّت » وعلى تخفيف ماكان منونا أو صفة المؤنث فيه علامة تأنيث نحو : (وإن يكن مَيْتَةً ، وبلدة

---

(١) اللغات فى القرآن ص ٢٩

(٢) معانى القرآن جـ ١ ص ٢١٢

(٣) المرجع السابق

(٤) اللسان جـ ٤ ص ٦٣

مَيْتاً) (١) ولسنا هنا بحاجة إلى تبيان حكمته فى هذه القراءة ، فالذى مات فعلا ليس بحاجة إلى تأكيد موته ، ومن ثَمّ ليس من المناسب التعبير عنه بصيغة المضعف ، على حين أن من لم يمت ــ حين يعبر عنه بالموت ــ يناسبه أن يؤكد له الوعد الذى سوف يلقاه آجلا أوعاجلا ، فناسب التعبير عنه بصيغة التضعيف ، فأية حكمة سكنت عقل هذا الرجل حتى جاء اختياره على هذا النحو الدقيق ، الأصيل ، الفصيح ؟ !! .

ولن يصعب على المرء أن يجد من رواء أختيار أبى عمرو للثلاثى دون المضعف فى هذه المواضع حكمة فى التفسير ترجح اختياره على ماعداه ، وليس اقتضابنا الكلام فى هذا الموضوع سوى تجنب للاستطراد فى معانى التفسير القرآنى ، وهو امر لايرتبط وموضوعنا برباط وثيق .

والأمر كذلك فى اختيار الفعل الرباعى بزنة (أفعل) ، مكان المضعف فى مثل قوله تعالى :
«قل الله يُنْجيكم منها » ، وقوله « أُبْلِغكم رسالات ربى » ،وقوله « فَتُذْكِرِ إحداهما الأخرى » ، فلا ريب أن التأمل يكشف لنا عن أن الأمر ليس قائما على الكثرة أو التأكيد الذى يستفاد من التضعيف ، بل معناه هو مجرد الحدوث دون زيادة .

ومما يلقى ضوءا على هذا الرأى أن نجد اختيار أبى عمرو فى قراءة الفعل (يُنَزِّل) أن يقرأه (يُنْزِل) بالتخفيف ، فإذا خالف قاعدته ، وخرج عن الأصل الذى اتبعه فى قراءة قوله تعالى : « وقالوا لولا أُنْزِل عليه آية من ربه ، قل إن الله قادر على أن يُنَزِّل آية ولكن أكثرهم لايعلمون ــ الأنعام ٣٧ » ــ كان خروجه هذا لمعنى يقصد إليه ، فإن سياق الآية ينحو فى ذوقه نحو التأكيد ، تأكيد قدرة الله على تنزيل الآية ، ولكنها الآية الكبرى التى فاقت جميع الآيات سواها ، فالسياق يقتضى هنا ــ عند أبى عمرو ــ استعمال المضعف ليقع موقعه من نفس السامع المتدبر ، كما أن

---

(١) المخطوطة ورقة ٤٠

مغزى الاتفاق بين القراء جميعا على تشديد « ومانُنَزِّله إلا بقدر معلوم » هو أنه أريد به المرة بعد المرة ، وهو أيضا ما اقتضاه أن يعدل عن الثلاثى إلى المضعف فى قوله تعالى : « وَلهم عذاب أليم بما كانوا يُكَذِّبون ــ البقرة آ ١٠ » .

وكذلك حين عدل عن صيغة (فَاعَل) إلى التضعيف فى معرض التهويل فى قوله تعالى : « يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يُضَعَّف لها العذاب ضعفين ــ الأحزاب آ ٣٠ آ » فلم يقرأها (يضاعف) ، والقصد من اختياره ظاهر فى ضوء ماأسلفنا . ومن هذا الباب قراءته : » ذلكم وأن الله مُوَهِّن كيد الكافرين » فى مكان « مُوهِن » ، وقراءته : « يُخَرِّبون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ــ الحشر آ ٢ » فى مكان (يُخْرِبون) حيث ناسب التضعيف فى قراءته حمق فعلة الكافرين ، وكثرة أيدى المخربين . ولاشك أن اختيار أبى عمرو للمضعف فى هذه الأمثلة ، وهو المشهور باتجاهه إلى الخفة ، يدل على أن من وراء اختياره هدفا لايمكن إغفاله أو تجاهله ، هدفا يتصل دائما بمعنى كلام الله الحكيم ، وتوجيهه عنده . « قال أبو عمرو بن العلاء : خَرَّب بمعنى هَدَّم وأفسد ، وأَخْرَبَ ترك الموضع خرابا وذهب عنه » (١) .

وقد وجدنا أبا عمرو يعدل أحيانا إلى أبسط الصيغ غير الفعلية متى أدت المعنى بكماله ، ومن ذلك قراءته : «فالله خير حِفْظا ــ يوسف آ ٦٤ » فى مكان « حافظا » ، وقراءته « وإذن لايلبثون خَلْفَك ــ الإسراء آ ٧٦ » بدلا من « خِلَافك » وقراءته : « هذا فليذق وقوه حميم وغَسَاق ــ ص آ ٥٧ » بدلا من قراءة « وغَسَّاق » ، وظاهر أن الصيغة المختارة دالة على المراد من الصيغة المعدول عنها إلى جانب خفتها ، وذلك أشد ظهورا فى اختيار « غَسَاق » بدلا من « غَسَّاق » ، إذ هما على ماروى بمعنى واحد (٢) .

وبعد ، فهل نستطيع أن نخرج من هذه المناقشة بأصل عام جرى عليه أبو

---

(١) البحر المحيط جـ ٨ ص ٢٤٣
(٢) اللسان جـ ١٠ ص ٢٨٩

عمرو ... ؟ نعم .. نستطيع أن نقول : « **إنه فيما عدا الأحوال التى يكون فيها التضعيف لازما ــ كما مر ــ يتجه أبو عمرو إلى التخفيف من ثقل التضعيف ، مالم يقتض المعنى العكس** » ولعل فيما مضى من العرض مايلقى ضوءا كاشفا على جوانب هذا الأصل العام .

ولكنا لم نعرف حتى الآن البيئة اللغوية التى كانت تستن فى نطقها عادة التخلص من المضعف ، وبعبارة أخرى : من هم هؤلاء العرب الذين عناهم أبو جعفر ابن جرير الطبرى بقوله : « والعرب تفعل ذلك كثيرا » ؟.. نقول ــ ونحن مطمئنون : إن أبا جعفر كان يعنى ولاشك قوما غير أهل الحجاز الذين نزل القرآن بلغتهم ، والذين كانوا ينطقون بالفعل كما هو ، باعتباره الأصل الذى ينبغى أن يقرءوا به ، ولا يحيدوا عنه ، لأنه من علائم فصاحتهم . فأما التصرف فى الصيغة فلم يكن من شأنهم ، بل كان من شأن قوم غيرهم من العرب ، لم يحدد أبو جعفر من هم ؟ ..

ونقول أيضا ونحن مطمئنون : إن هؤلاء القوم لم يكونوا سوى تميم ومن نهج نهجهم من قبائل وسط الجزيرة وشرقيها ،لعدة أسباب منها :

١ ــ أن أبا جعفر قد وصف ظاهرة العدول عن المضعف بأن العرب تفعلها كثيرا ، فوصفها بالكثرة يدل على أنها تقع فى نطاق واسع غير محدود ببطن من البطون ، وإنما هو فى حدود شعب عظيم كشعب تميم ، وهم كما سبق أن ذكرنا فى وصفهم : « قاعدة من أكبر قواعد العرب » .

٢ ــ أن النطق بالمضعف فيه من الثقل والمشقة على أعضاء النطق مالا يستطيع البدوى أن يلتزمه ، وهو الذى تعود سرعة النطق ، والتخلص من بعض الحركات تارة بالإسكان ، وأخرى بإحداث انسجام فى أصوات اللين [1] ، وقد ثبت لنا أن هذه التقاليد اللغوية تميمية النشأة ، ونضيف هنا أن التخلص من المضعف واستبدال صيغة أخرى به تصرف لغوى متسق مع تلك الظواهر ، لاتفرضه على

---

(١) فى اللهجات العربية ص ٥٠ ومابعدها . الطبعة الثانية .

الفصحى سوى لهجة كبرى كلهجة تميم ، وهى التى كانت نظير اللهجة القرشية ، وهو فى حقيقته نزوع إلى التخفيف يتفق وماعرف عن هذا الشعب العظيم ، هذا على الرغم مما سبقت روايته من أن « بَشّر يُبَشِّر » بالتشديد تميمية .

٣ ــ أن أخذ أبى عمرو بهذا التقليد على الصورة التى وصفناها ، وقراءته ــ كما علمنا ــ مكية المصادر غالبا ، يشعرنا بما كان لتقاليد تميم اللغوية من تأثير فى فصاحة الألسن ، تلك التقاليد التى فرضت نفسها على قراءة الحجاز فرضا ، وماكان له أن يأخذ بهذا التقليد لو كان لغيرهم من قبائل العرب الأخرى ، فقد كان الرجل يتمثل فى اختياره ميزة الفصاحة حيث وجدت ، فى تميم أو فى قريش ، ولم ننس بعد ماسبق أن روى عنه من أنه قال حين سئل : « كيف تفعل فيما خالفتك فيه العرب ..؟ » ، قال : « أعمل على الأكثر وأسمى ماخالفنى لغات » ، فأبو عمرو يأخذ دائما بالأكثر ، الأكثر حين يجده لدى قريش ، أو حين يجده لدى تميم ، أى : فى اللغة المشتركة التى تعد فى مكان وسط بين القبيلتين ، وماسوى ذلك فهو لغات يخالف عنها أبو عمرو دائما ، وقريش كانت تلتزم النطق بالمضعف كما هو ، باعتباره أصلا من أصول الفصحى عندهم ، فكان من اللازم أن يكون الخروج عن هذا الأصل نهجا لتميم ، التزمه أبو عمرو ، وتصرف فيه بتلك الطريقة المعجبة ، فكأنما كان الرجل يتصرف فى الموقف بسلطتين : سلطة قومه الفصحاء الذين فرضوا وجودهم اللغوى على دنيا العرب ، وسلطة علمه المتين الذى مكنه من أن يكون ذا رأى حاسم فيما يأخذ ويدع من وجوه القراءة ، دون أن يكون لغيره قدرة على أن يخالف عن هذا الاختيار .

بقى أن نتساءل : هل كان لرسم المصحف أثر فى هذا الاختيار ؟ ونقول : إننا نرجح أن رسم المصحف لم يؤثر فى هذه المسألة لأمرين : ــ

أولا ــ أن كل قراءة صحيحة لابد أن تتفق مع رسم المصحف ، فالرسم يسعها جميعا ، ومالم يسعه الرسم فهو شاذ لا يؤخذ به ، لا قراءة ، ولا احتجاجا .

وثانيا ـــ لأن هذا التخفيف ـــ كما أسلفنا ـــ هو إحدى العلامات المميزة للسان تميم ، فى مقابل ماأثر عن قريش من تفضيل الصيغة المشددة ، وقد كانت هذه التقاليد قبل أن تكون كتابة أو رسم ، وإنما هى طباع العربية على ألسنة أهلها ، وجاءت قراءات القرآن على مثالها .

★ ★ ★

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه الطاهرين .

★ ★ ★

مراجع الكتاب

١ – الأصوات اللغوية — للدكتور إبراهيم أنيس .

٢ – الأعلام — لخير الدين الزركلى .

٣ – الأغانى — لأبى الفرج الأصفهانى .

٤ – بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة — للحافظ جلال الدين السيوطى .

٥ – البيان والتبيين للجاحظ — تحقيق عبد السلام هارون .

٦ – تأويل مشكل القرآن — لابن قتيبة .

٧ – تهذيب التهذيب — لأبى الفضل على بن حجر العسقلانى .

٨ – حلية الأولياء — لأبى نعيم الأصفهانى .

٩ – الخصائص — لابن جنى .

١٠ – دائرة المعارف الإسلامية

١١ – دائرة معارف البستانى

١٢ – سر صناعة الأعراب — لابن جنى .

١٣ – سيبويه إمام النحاة — للأستاذ على النجدى .

١٤ – شرح ديوان الفرزدق — تحقيق : عبد الله الصاوى .

١٥ – شرح كتاب سيبويه — لأبى سعيد السيرافى (مخطوط بدار الكتب)

١٦ – طبقات النحويين واللغويين — لأبى بكر بن محمد بن الحسن الزُّبيدى . تحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم .

١٧ – الطبقات الكبرى — لابن سعد .

١٨ – العربية — ليوهان فك – ترجمة : عبد الحليم النجار .

١٩ – غاية النهاية فى طبقات القراء . — لابن الجزرى . تحقيق : ج . برجشتراسر .

٢٠ – فتوح البلدان — للبلاذرى

٢١ – فقه اللغة — للدكتور على عبد الواحد وافى .

٢٢ – الفهرست — لابن النديم

٢٣ – فى اللهجات العربية — للدكتور إبراهيم أنيس .

٢٤ – فى تاريخ المشكلة اللغوية — للدكتور إبراهيم السامرائى . المجلد السابع – من مجلة المجمع العلمى العراقى

٢٥ – القراءات واللهجات — للأستاذ عبد الوهاب حمودة .

٢٦ – الكامل فى التاريخ لابن الأثير .

٢٧ – كتاب الإبدال لعبد الواحد اللغوى – تحقيق عز الدين التنوخى .

٢٨ – الكتاب لسيبويه – الطبعة الأميرية .

٢٩ – كشف الظنون لحاجى خليفة .

٣٠ – كنز المعانى لإبراهيم بن عمرو الجعبرى (مخطوط) .

٣١ – لسان العرب لابن منظور .

٣٢ – اللغات فى القرآن .

٣٣ – مجلة المجمع حـ ١٠

٣٤ – المحتسب لابن جنى (مخطوط مغربى بدار الكتب) .

٣٥ – مراتب النحويين لعبد الواحد اللغوى الحلبى . تحقيق – محمد أبى الفضل ابراهيم .

٢٦ – معجم الأدباء لياقوت الحموى .

٣٧ – مفردات القراء السبعة لأبى عمرو الدانى (مخطوط) .

٣٨ – المفصّل للزمخشرى .

٣٩ – من أسرار اللغة للدكتور إبراهيم أنيس .

٤٠ – نزهة الألبا لابن الأنبارى .

٤١ – النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى .

* * *

فهرست موضوعات الكتاب

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة